

قصص العرب

تأليف

محمد أحمد جاد المولى على محمد البجاوي محمد أبو الفضل إبراهيم

الجزء الأول

الطبعة الرابعة

[فيها زيادة ضبط وشرح وتحقيق]

١٣٨١ هـ - ١٩٦٢ م

دار التحية للنشر العربية
عيسى البابي الحلبي وشركاه

القاهرة
(جميع الحقوق محفوظة)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

الطبعة الأولى

تُعَدُّ القِصَّة أَقْدَرُ الْآثَارِ الأدبية على تمثيل الأخلاق ، وتصوير العادات ، ورسم خَلِجَاتِ النفوس ؛ كما أنها - إذا شرف غرضُها ، ونُبِّل مقصدُها ، وكرمت غايتها - تُهَذِّبُ الطَّبَاعَ ، وتُرَقِّقُ القُلُوبَ ، وتدفع الناس إلى المثل العليا : من الإيمان والواجب والحق والتضحية والكرم والشرف والإيثار .

وقد كانت القصة - ولا تزال - ذاتَ الشأن الأسمى في آداب الأمم قديمها وحديثها ؛ فقد وردت في التوراة ، وجاءت في الإنجيل ، وزخرت بها آيُ الذكر الحكيم . ثم هي في شعر الإغريق ومخلفات الرومان ، وآثار المصريين القدماء .

والعرب من الأمم التي أخذت بنصيب من هذا الفن الجميل ، وأثّرَ عنها فيضٌ من ذلك الأدب الرفيع ؛ بيد أن بعضاً من الباحثين المحدثين قد جحدوا نصيبهم من هذا الفن ، وهضموا حقهم في ذلك الباب ، ووصّموا بالخيال العقيم ، وعابوا عليهم الفكر القريب ؛ ولكن المنصفين منهم قد هالهم هذا الجحود ، ولم يرقهم ذلك النكران ، فاعترفوا للعرب بالقصص التي ترجموها عن الفرس والهنود، وتزيدوا عليها في القاهرة وبغداد ، وتحدثوا للناس عن قصص عنقرة وذات الهمة ، وجلّوا عليهم ألف ليلة وليلة وأخبار ابن ذي يزن .

وهذه القصص - وإن كانت قد نجحت نجاحاً تاماً في تصوير العصور التي وُضِعَتْ فيها، وَرَسَمَتْ لنا البيئة التي نبتت منها - أكثر منها تافه الغرض، مُبْهِمُ القصد، ردى اللغة والأسلوب . وفي قصر قصص العرب عليها جَحْدٌ للآداب العربية فضلها، وإنكار عليها مفاخرها . . . وإلا فإن هناك قصصاً زخرت بها مجالس الخلفاء، وسوامر الأمراء، وملأت الكتب التي انحدرت إلينا عن المؤلفين القدماء؛ وما منع الناس أن يردوا شريعتها، أو يحنوا أطايبها إلا مأمُنت به هذه الكتب من اضطراب الترتيب، وردى الطبع، وتحريف الناسخين .

وكتابتنا هذا جمعنا فيه هذه القصص : ما انتبذ منها وما شرّد، وألقنا ما تنافر وافترق، وجعلناه أقساماً، وقسمناه أبواباً؛ جمعنا كل قصة إلى مثلها، وضممنا كل طرفة إلى شبهها؛ ليجتمع إلى غرض القصة - من تهذيب الطباع وترقيق النفوس - عَرَضٌ شامل لحياة العرب : مدنيّتهم وحضارتهم، وعلومهم ومعارفهم، وأديانهم وعقائدهم، وذكرٌ لعواندهم وشمالهم، وما طبعوا عليه من كريم الفرائز، ووحدة الذكاء، ثم ما كان للمرأة عندهم من سامي المكانة وعظيم المنزلة، وما أثر عنهم من أخبارٍ صوروا بها حبهم العفيف، وغزلم الرقيق، وعشقهم الشريف، ولم يخلُ كتابنا مما كان لهم من محاورات ومساجلات ومطايبات ومناقلات، وما نقله الرواة من أحوال العامة والملوك، وطُرِفَ القضاة والولاة، وأخبار الأيام والحروب، وغير هذا مما سيعرض مفصلاً في أبواب الكتاب .

ولم نقف في اختيار القصة على تعريف خاص، أو حدّ مرسوم، ففما اخترناه ما ذكره من طريف الأخبار وشائق الأحداث، وما وضعوه مصورين به المجالس والأشخاص، وما صنعوه على ألسنة الطير والحيوان، وما تخيّلوه من أخبار الشياطين والجان؛ إذ كان الغرض تثقيف الأذهان بذكر الطرائف؛ وانشرح الصدور بعرض

اللطائف ، مع كشف نواحي التاريخ ، وإظهار مفاخر العرب .
ولعل القارئ يروقه ما تدسى فيها من شريف الخصال فيحتذيه ، أو تعجبه
كرائم العادات فيطبع نفسه عليها ، إلى ما في هذا من نعت فصيح الألفاظ ، وإحياء
رائع الأساليب . ولعله يكون فيها مبادئ صالحة ، وأسس قويمه لمن يريد أن ينشئ
قصصاً طويلة على أساس ، أو يقيم روايات على بناء .

وكان من همتنا أن نحصر على اختيار القصص كما وضعوها ؛ إلا ما كان من
زيادة اقتضاها اختلاف الروايات ، أو تغيير لكلمات لا تألفها الآداب ، أو حذف
عبارات لا غناء فيها .

وقد بذلنا من الجهد في ضبط الألفاظ ، وكشف النقاب عن المعاني ، وتراجم
الأشخاص ، وذكر المراجع ما نرجو أن يكون به جنى الكتاب قريباً ومنهله عذبا ،
وورده سائغا ، وطريقه سهلا معبداً .

نسأل الله أن ينفع به على ما صدقنا في النية ، ورجونا من الخير ما

المؤلفون

{ ربيع الآخر سنة ١٣٥٩
(مايو سنة ١٩٣٩) }

مقدمة الطبعة الرابعة

هذا كتابنا « قصص العرب » تقدمه إلى أدباء العربية في طبعته الرابعة ، بعد أن نفذت طبعته الثالثة ، وازداد الأدباء إقبالا على اقتنائه وتقديره له . وكنا قد تلقينا رسائل من بعض أفاضل الأدباء يرغبون إلينا فيها أن نذل الطريق إلى قراءة الكتاب ؛ فنكثر من ضبط الكلمات ، ونزيد من شرح المفردات ، فعملنا على تحقيق رغبتهم ، وبذلنا غاية الجهد في تحريره وتحقيقه . وزدنا في شرح كلماته وضبط أعلامه .

ونرجو أن يكون ذلك كفاء لما تلقيناه من رسائل الأدباء ، ولما تفضلت به صحف الشرق العربي من إشادة .

ونسأل الله أن يزيد به النفع بقدر ما بذلنا من جهد ، ورجونا من خير .

المؤلفون

{ رجب سنة ١٣٨١
ديسمبر سنة ١٩٦١ }

القاهرة
(جميع الحقوق محفوظة)

البَابُ الْأَوَّلُ

في القصص التي تستبين بها مظاهر حياتهم، وأسباب
مدنيتهم، بذكر أسواقهم وأجلاّب تجارتهم، والمساكن
التي كانت تؤويهم، وسائر ما كان على عهدهم من دلائل
الحضارة ووسائل المعاش .

١ - قَوْسُ حَاجِبِ بْنِ زُرَّارَةَ *

توالت على مُضر الجدوبة والقحط سبع سنين ؛ حتى كادوا يهلكون ، فلما رأى حَاجِبُ^(١) بن زُرَّارَةَ الجُهدَ والجُدْبَ على قومه جمع بني زُرَّارَةَ فقال : إني قد أزمعتُ على أن آتِيَ الملكَ فَأُطْلَبَ إليه أن يأذنَ لقومنا فيكونوا تحتَ هذا البَحْرِ^(٢) حتى يُخَيَّرُوا ، فتلَكَا بَعْضُهُمْ عليه ، وقال بعضهم : رَشَدْتَ فافعل ؛ غيرَ أَنَّا نخافُ عليك بَكْرَ بن وائلٍ لِمَا كانَ بيننا وبينهم ، ولا بدَّ لك من وُرودِ مياهم . فقال : ما مِنْهُمْ وَجْهٌ من الناس ولا شريفٌ إلَّا ولى عنده يدٌ خَضِرَاءُ إلَّا ابنُ الطَّوِيلَةِ التيمي ، وأنا أرجو أن أداريَه ؛ ثم ارتحل .

فجعل لا يأتى على ماء لبكرٍ إلَّا أكرمه سيدهم ، ونحَرَ له وقرَّاهُ ، حتى نزل قُصْوَانُ^(٣) ، وعليه ابنُ الطَّوِيلَةِ التيمي ، فلَمَّا أَضَاءَ الصُّبْحُ ، ونادى بهم قريب من منزل حاجب الذى حلَّ فيه ، دعا حاجِبٌ يَنْطَعُ ، ثم أمرَ فُصْبَ عليه التمر ؛ ثم نادى حَيَّ عَلَى الْغَدَاءِ . فنظر ابنُ الطَّوِيلَةِ ، فإذا هو بحاجب ، فقال لأهل المجلس : أجيئوه ؛ فإنه سيدُ قومه ، فأتوه فأكلوا ، وأهدى إليه ابنُ الطَّوِيلَةِ جَزْوَراً^(٤) وشيأها ، فنحر وأكل وأطعم .

ولما أراد حاجب أن يرتحل قال له ابنُ الطَّوِيلَةِ : إني معك حتى تبلغَ مأْمَكَ ؛

(*) قائض جرير والفرزدق : ١ - ٤٦٢ ، طبع ليدن ، بلوغ الأرب : ١ - ١٢٣ ، العقد الفريد : ١ - ١٧٥ .

(١) هو سيد بني تميم ، وكان من النفر الذين أرسلهم النعمان بن المنذر إلى كسرى بعد أن سمع منه تنقص العرب وتهجين أمرهم . أدرك الإسلام وأسلم ، وتوفي سنة ٣ هـ . (٢) البحر : الريف . (٣) قصوان : موضع في ديار تيم الله بن ثعلبة . (٤) الجزور : البعير .

فإني لا أدري ما يعرض لك أمّاك . فقال حاجب : ليس أمامي أحد أخافه على .
وارتمل حاجب حتى أتى كسرى ؛ فلما شكّا إليه الجُهد في أنفسهم وأموالهم ،
وطلب أن يأذن لهم فيكونوا في حدّ بلاده حتى يعيشوا ويُحيّوا قال له : إنكم -
معشر العرب - حُرّباء على الفساد ، فإن أذنتُ لهم أفسدوا البلاد وأغاروا
على الرعية وآذوهم . قال له حاجب : فإني ضامنٌ للملك ألا يفعلوا ، قال : ومن لي
بأن تني بما تقول ؟ قال : أرهّنك قوسى بالوفاء بما ضمنتُك .

ولما جاء حاجب بقوسه ضحك القوم الذين كانوا حول الملك لما رأوا قوسه ،
وقالوا : بهذه العصا تني للملك بما ضمنتَ له . فقال الملك لهم : ما كان ليُسَلِّها لشيء
أبدًا . وأمرهم فقبضوها ، وأذن للعرب في أن يدخلوا الرِّيف^(١) .

ومكث بنو زُرارة في الريف مدة ، ثم مات حاجب ، وبعدها زال القحط ،
وخرج أصحابُ حاجب إلى بلادهم وارتمل عطارِد بن حاجب إلى كسرى ليطلبَ
قوس أبيه ، ولما دخل عليه وكلمه في القوس قال له كسرى : ما أنت بالذى وضعتها
عندى . قال : أجل أيها الملك ! ما أنا بالذى وضعتها . قال : فما فعل الذى وضعتها ؟
قال : هلك ، وهو والدى ، وقد وَفَى لك أيها الملك بما ضمن لك عن قومه ، ووفى هو
بما قال للملك ؛ قال كسرى : ردّوا عليه قوسه ؛ وكساه .

(١) الريف : الأرض فيها الزرع والمحصب .

٢ - فتكة البرّاض*

كان البرّاضُ بن قَيْس الكِنَانِي رجلاً فاتكاً خليعاً^(١)، يَحْنِي الجَنَائَاتِ عَلَى أَهْلِهِ ، فَخَلَعَهُ قَوْمُهُ ، وَتَبَرَّءُوا مِنْ صَنِيعِهِ ، فَفَارَقَهُمْ ، وَقَدِمَ مَكَّةَ ، فَخَالَفَ حَرْبَ بْنِ أُمِيَّةٍ ، ثُمَّ تَبَايَهَ الْمَقَامَ بِمَكَّةَ أَيْضاً ، فَفَارَقَ أَرْضَ الْحِجَازِ إِلَى أَرْضِ الْعِرَاقِ ، وَقَدِمَ عَلَى النُّعْمَانِ بْنِ الْمُنْذَرِ الْمَلِكِ - وَكَانَ النُّعْمَانُ يَبِيعُ كُلَّ عَامٍ بِلَطِيمَةٍ^(٢) لِلتَّجَارَةِ إِلَى عُكَاظٍ^(٣) تَبَاعُ لَهُ هُنَاكَ - فَقَالَ يَوْمًا ، وَعِنْدَهُ الْبَرَّاضُ وَعُرْوَةُ بْنُ عُتْبَةَ ابْنِ جَعْفَرٍ الْمَعْرُوفُ بِالرَّحَالِ^(٤) : مَنْ يُحِيزُنِي لَطِيمَتِي هَذِهِ حَتَّى يُبَلِّغَهَا عُبَاظًا ؟ فَقَالَ الْبَرَّاضُ : أَيْتَ اللَّعْنِ ! أَنَا أُحِيزُهَا عَلَى كِنَانَةٍ . فَقَالَ النُّعْمَانُ : إِنَّمَا أُرِيدُ مَنْ يُحِيزُهَا عَلَى كِنَانَةٍ وَقَيْسٍ . فَقَالَ عُرْوَةُ : أَكَلَبُ خَلِيعٍ^(٥) يُحِيزُهَا ! أَيْتَ اللَّعْنِ ! أَنَا أُحِيزُهَا عَلَى أَهْلِ الشَّيْحِ وَالْقَيْصُومِ^(٦) مِنْ أَهْلِ تِهَامَةٍ وَأَهْلٍ نَجْدٍ ! فَقَالَ الْبَرَّاضُ - وَقَدْ غَضِبَ : وَغَلَى كِنَانَةً^(٧) تَحِيزُهَا يَاعُرْوَةُ ؟ قَالَ : وَحَلَى النَّاسَ كُلَّهُمْ ! فَدَفَعَ النُّعْمَانُ اللَّطِيمَةَ إِلَى عُرْوَةَ الرَّحَالِ ، وَأَمَرَهُ بِالْمَسِيرِ بِهَا ، وَخَرَجَ الْبَرَّاضُ

(*) المضاف والنسوب : ١ - ١٠١ ، مجمع الأمثال : ٢ - ٢٣ ، الكامل لابن الأثير :

١ - ٣٦٠ .

(١) البرّاض بن قيس الكِنَانِي : فاتك جاهلي يضرب بفتكة الثل ، تبرأ منه قومه ففارقهم وقدم مكة ، ثم رحل إلى العراق . وبسببه هاجت حرب الفجار بين خندف وقيس .
(٢) اللطيمة : العير التي تحمل الطيب وبن التجار (٣) عكاظ : موضع كان بين نخلة والطائف ، كانت تقام من أول ذي القعدة إلى اليوم العشرين منه ، وكان يجتمع بها أكثر أشرف العرب للتجارة ومفاداة الأسرى والتحكيم في الخصومات والمفاخرة والمنافرة بالشعر والحطب .
(٤) لقب بالرحال لكثرة رحلته إلى الملوك (٥) كان في الجاهلية إذا قال قائل : هذا ابني خلعتة لا يؤخذ بجريزته (٦) الشيخ والقيصوم : نباتان مما يطلع في السهل ، ويريد على العرب كلهم .
(٧) كِنَانَةٍ : هم قوم البرّاض .

يَنْبَغُ أَنْزَهُ وَعُرْوَةُ يَرَى مَكَانَهُ وَلَا يَخْشَى مِنْهُ ، حَتَّى إِذَا كَانَ عُرْوَةُ بَيْنَ ظَهْرَانِي^(١) قَوْمَهُ أَدْرَكَهُ الْبَرَّاضُ بْنُ قَيْسٍ ، فَأَخْرَجَ قِدَاحَهُ يَسْتَقْسِمُ^(٢) بِهَا فِي قَتْلِ عُرْوَةَ ، فَرَّ بِهِ عُرْوَةُ فَقَالَ : مَا تَصْنَعُ يَا بَرَّاضُ ؟ فَقَالَ : أَسْتَقْسِمُ فِي قَتْلِكَ ، أَيُؤْذِنُ لِي أُمٌّ لَا ؟ فَقَالَ عُرْوَةُ : هَمَّتْكَ أضعف من ذلك ! فَوُثِبَ إِلَيْهِ الْبَرَّاضُ بِالسَّيْفِ فَقَتَلَهُ .

فَلَمَّا رَأَاهُ الَّذِينَ يَقُومُونَ عَلَى الْعِيرِ^(٣) وَالْأَحْمَالُ قَتِيلًا انْهَزَمُوا فَاسْتَأْنَسَ الْبَرَّاضُ الْعِيرَ ، وَسَارَ عَلَى وَجْهِهِ إِلَى خَيْبَرٍ ، وَتَبَعَهُ رَجُلَانِ لِأَخْذِهِ : أَحَدُهُمَا غَنَوِيٌّ وَالْآخَرُ غَطَفَانِيٌّ ، وَسَارَا حَتَّى لَقِيَهُمَا الْبَرَّاضُ بِخَيْبَرٍ ، فَقَالَ لَهَا : مَنْ الرِّجْلَانِ ؟ قَالَا : نَحْنُ مِنْ قَيْسٍ ، قَدْ مَنَّا لِنَقْتُلَ الْبَرَّاضَ ، فَأَنْزَلْهُمَا وَعَقَلْ رَاكِلَيْهِمَا ثُمَّ قَالَ : أَيَكُمَا أَجْرٌ عَلَيْهِ وَأَجُودُ سَيْفًا ؟ قَالَ الْغَطَفَانِيٌّ : أَنَا ، فَأَخَذَهُ وَمَشَى مَعَهُ لِيَدُلَّهُ - بِزَعْمِهِ - عَلَى الْبَرَّاضِ ، ثُمَّ قَالَ لِلْغَنَوِيِّ : احْفَظْ رَاكِلَيْكُمَا ، فَفَعَلَ .

وَانْطَلَقَ الْبَرَّاضُ بِالْغَطَفَانِيِّ حَتَّى أَخْرَجَهُ إِلَى خَرِبَةٍ^(٤) فِي جَانِبِ خَيْبَرٍ ، وَقَالَ لَهُ : هُوَ فِي هَذِهِ الْخَرِبَةِ يَا أَوَى إِلَيْهَا ، فَأَمْهَلْنِي حَتَّى أَنْظُرَ أَهْوَفَ فِيهَا ؟ فَوَقَفَ ، وَدَخَلَ الْبَرَّاضُ ؛ ثُمَّ خَرَجَ فَقَالَ : هُوَ فِيهَا وَهُوَ نَائِمٌ ، فَأَرَانِي سَيْفَكَ حَتَّى أَنْظُرَ إِلَيْهِ : أَضَارِبٌ هُوَ أُمٌّ لَا ، فَأَعْطَاهُ سَيْفَهُ ، فَضَرَبَهُ بِهِ حَتَّى قَتَلَهُ ، ثُمَّ أَخَذَ السَّيْفَ وَعَادَ إِلَى الْغَنَوِيِّ ، فَقَالَ لَهُ : لَمْ أَرَ رَجُلًا أَجِبَنَ مِنْ صَاحِبِكَ ، تَرَكْتُهُ فِي الْبَيْتِ الَّذِي فِيهِ الْبَرَّاضُ وَهُوَ نَائِمٌ فَلَمْ يُقَدِّمَ عَلَيْهِ ! فَقَالَ : أَنْظُرْ لِي مَنْ يَحْفَظُ الرَّاكِلَيْنِ حَتَّى أَمْضِيَ إِلَيْهِ فَأَقْتُلَهُ ، فَقَالَ : دَعَهُمَا وَهَمَا عَلَى ، ثُمَّ انْطَلَقَا إِلَى الْخَرِبَةِ ، فَقَتَلَهُ وَسَارَ بِالْعِيرِ إِلَى مَكَّةَ

(١) بَيْنَ ظَهْرَانِي قَوْمُهُ : أَيِ فِي وَسْطِهِمْ (٣) الِاسْتِقْسَامُ : كَانُوا إِذَا أَرَادُوا حُدُومَ سَفَرٍ أَوْ تَرْوِيجًا أَوْ نَحْوَ ذَلِكَ مِنَ الْمَهَامِ ضَرْبَ الْقِدَاحِ ، وَكَانَ عَلَى بَعْضِهَا مَكْتُوبٌ : أَمْرُنِي رَبِّي ، وَعَلَى بَعْضِهَا الْآخَرُ : نَهَانِي رَبِّي ، وَالْبَاقِي غُفْلٌ ، فَإِنْ خَرَجَ أَمْرُنِي رَبِّي مُضًى لِمَا أَنَّهُ ، وَإِنْ خَرَجَ نَهَانِي رَبِّي ، أَسْكَبْتُ ، وَإِنْ خَرَجَ الْغُفْلُ أَجَالَهَا ، وَضَرَبْتُ بِهَا أُخْرَى لِمَا أَنَّ يَخْرُجُ الْأَمْرُ أَوْ التَّهْيِ (٣) الْعِيرُ : الْإِبِلُ تَحْمِلُ الْمِيرَةَ ، وَلَا وَاحِدَ لَهَا مِنْ لَفْظِهَا (٤) الْخَرِبَةُ : مَوْضِعُ الْحَرَابِ .

٣ — حياة آل جَفَنَة*

قال خَارِجَة بن زيد : دُعِينَا إِلَى مَادُبَةٍ^(١) . فحَضَرَتْهَا وَحْسَانُ^(٢) بِنُ ثَابِتٍ
قَدْ حَضَرَهَا ، فَجَلَسْنَا جَمِيعًا عَلَى مَائِدَةٍ وَاحِدَةٍ ، وَهُوَ يَوْمُئِذٍ قَدْ ذَهَبَ بِصَرُّهُ ، وَمَعَهُ
ابْنُهُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ ، فَكَانَ إِذَا أَتَى طَعَامَ سَأَلَ ابْنَهُ : أَطْعَامُ يَدِي أَمْ يَدَيْنِ ؟ (يَعْنِي بِالْيَدِ
الثَّرِيدَ وَبِالْيَدَيْنِ الشَّوَاءَ لِأَنَّهُ يُنْهَسُ نَهْشًا) . فَإِذَا قَالَ : طَعَامُ يَدَيْنِ أَمْسِكْ يَدَهُ .
فَلَمَّا فَرَّغُوا مِنَ الطَّعَامِ أَتَوْا بِجَارِيَتَيْنِ : إِحْدَاهُمَا رَائِقَةٌ ، وَالْأُخْرَى عَزَّةٌ ، فَجَلَسْنَا
وَأَخَذْنَا مِنْهُنَّ هَرِيرًا^(٣) وَضَرَبْنَا ضَرْبًا عَجِيبًا ، وَغَنَّتَا بِقَوْلِ حَسَنِ :

انْظُرْ خَلِيلِي بَيْطُنٍ جَلَّتْ هَلْ تُونِسُ^(٤) دُونَ الْبَلْقَاءِ مِنْ أَحَدٍ

فَسَمِعَ حَسَنٌ يَقُولُ : قَدْ أَرَانِي بِهَا سَمِيعًا بِصِيرًا ، وَعَيْنَاهُ تَدْمَعَانِ ، فَإِذَا سَكَنَّا
سَكَتَ عَنْهُ الْبُكَاءُ ، وَإِذَا غَنَّتَا بَكَى ، فَكُنْتُ أَرَى ابْنَهُ عَبْدَ الرَّحْمَنِ إِذَا سَكَنَّا يُشِيرُ
إِلَيْهِمَا أَنْ تَغْنِيَا فَيَبْكِي أَبَوَهُ !

فَلَمَّا انْقَلَبَ حَسَنٌ مِنَ الْمَادُبَةِ إِلَى مَنْزِلِهِ اسْتَلْقَى عَلَى فِرَاشِهِ ، وَوَضَعَ إِحْدَى رِجْلَيْهِ
عَلَى الْأُخْرَى ، وَقَالَ : لَقَدْ أَذْكَرْتَنِي رَائِقَةً وَصَاحِبَتُهَا أَمْرًا مَاسِمَعَتَهُ أَذْنَايَ بُعِيدَ
لِيَإِلَى جَاهِلِيَّتِنَا مَعَ جَبَلَةَ بِنِ الْأَيْهَمِ ، ثُمَّ تَبَسَّمَ وَجَلَسَ فَقَالَ : لَقَدْ رَأَيْتُ عَشَرَ قِيَانٍ ؛
خَمْسٌ رُومِيَّاتٌ يَغْنَيْنَ بِالرُّومِيَّةِ بِالْبَرَابِطِ^(٥) ، وَخَمْسٌ يَغْنَيْنَ غَنَاءَ أَهْلِ الْحِيرَةِ أَهْدَاهُنَّ

(*) الْأَغَانِي : ١٦ : ١٤ .

(١) الْمَادُبَةُ : كُلُّ طَعَامٍ يُصْنَعُ لِدَعْوَةِ أَوْ عَرَسٍ . (٢) هُوَ شَاعِرُ رَسُولِ اللَّهِ ، وَقَدْ نَشَأَ
فِي الْجَاهِلِيَّةِ وَنَبِهَ شَأْنُهُ فِيهَا ، وَعَاشَ طَوِيلًا فِي الْإِسْلَامِ ، وَمَاتَ فِي خِلَافَةِ مُعَاوِيَةَ سَنَةَ ٤٤ هـ .

(٣) الزَّهْرُ : عَوْدٌ يُضْرَبُ بِهِ (٤) تُونِسُ : تَبَصَّرَ : اللِّسَانُ مَادَّةٌ — عَجَبٌ . وَمَادَّةٌ — بَلَقٌ .
وَجَلَقٌ بِكَسْرَتَيْنِ وَتَشْدِيدِ اللَّامِ وَقَافٌ : أَمَامَ لِكُورَةِ الْفُوطَةِ كُلِّهَا : وَقِيلَ قَرْيَةٌ مِنْ قَرَاهَا . وَقِيلَ
دَمَشَقُ نَفْسِهَا (الرَّاصِدُ) (٥) الْبَرَابِطُ : الْعُودُ .

إليه إياس بن قبيصة ، وكان يقدِّ إليه من يَغْنِيهِ من العرب من مكة وغيرها ، وكان إذا جلس للشربِ فُرِشَ تحته الآسُ والياسمينُ وأصنافُ الرياحين ، وضرب له العنبر والمسك في صحافِ الفضة والذهب ، وأُتِيَ بالمسك الصحيح في صحافِ الفضة ، وأوقد له المندى إن كان شاتياً ، وإن كان صائفاً أُتِيَ هو وأصحابه بكساء^(١) صيفية يتفضلون^(٢) بها ، وفي الشتاء يؤتى بفراء الفَنَك^(٣) وما أشبهه ، ولا والله ما جلستُ معه يوماً قط إلا خلع على ثيابه التي عليه في ذلك اليوم وعلى غيرى من جلسائه ، هذا مع حِلْمٍ عَمَّنْ جَهْلٍ وضحك ؛ وبَذَلٍ من غير مسألة ، مع حُسْنِ وجه وحسن حديث ، ما رأيت منه خناً قط ولا عَرَبَدة ، ونحن يومئذ على الشرك .

فجاء الإسلام فَمَحَا الكفر وتركنا المحروما كرهه . وأتم اليوم مسلمون تشربون هذا النبيذ من التمر ، والفضيخ^(٤) من الزهر والرطب ؛ فلا يشرب أحدٌكم ثلاثة أقداح حتى يذهب بعقله ودينه ؛ أفلا تتتهون !

(١) الكساء : جمع كسوة . (٢) التفضل : التوشع ؛ وأن يخالف المرء بين أطراف نوييه
(٣) الفَنَك : دابة فروتها أطيب أنواع الفراء وأشرفها . (٤) الفضِيخ : شراب يتخذ من بسر .

٤ — الأعشى والمُحلق*

قال بعض أهل البادية :

كان لأبي المحلق^(١) شرفٌ ، فمات وقد أتلف ماله ، وبقى المحلق وثلاثُ أخواتٍ له ولم يترك لهنَّ إلا ناقةً واحدةً وبرُدين كان يشهدُ فيهما الحقوق .

فأقبل الأعشى^(٢) من بعض أسفاره يريد منزله باليمامة ، فنزل الماء الذى به المحلق فقراه أهلُ الماء وأحسنوا قراه . ثم أقبلت عمةُ المحلق ، فقالت : يا بن أخنى ، هذا الأعشى قد نزل بمائتنا ، وقد قراه أهلُ الماء والعربُ تزعم أنه لم يمدحَ قوماً إلا رفعَهُم ، ولم يهينُ قوماً إلا وضعَهُم ، فانظر ما أقولُ لك واحتلّ في زِقٍ من خمر من عند بعض التجار ، وأرسل إليه بهذه الناقة والزَّقِ وبرُدىً أبيض ، فوالله لئن اعتلج^(٣) السكيدُ والسنام والخمرُ في جوفه ، ونظر إلى عطفيته في البردين ، ليقولنَّ فيك شعراً يرفعك به . قال : ما أملك غيرَ هذه الناقة ، وأنا أتوقع رِسْلها^(٤) .

ثم أقبلَ يدخل ويخرج ويهيم ولا يفعل ، فكلما دخلَ على عمته حضَّته ، حتى دخل عليها فقال : قد ارتحل الرجلُ ومضى . قالت : الآن والله أحسن ما كان القيرى ؛ تُنبِئُه ذلك مع غلام أبيض - وهو مولى له أسود شيخ - فإذا لحقه أخبره عنك أنك كنتَ غائباً عن الماء عند نزوله إياه ، وأنتك لما وردت الماء فعلتَ أنه كان

(*) الأغاني : ٩ : ١١٣ ، بلوغ الأرب : ٢ : ١٦٢ .

(١) المحلق : لقب عبد العزى بن حنتم من كلاب بن ربيعة ، ولقب بذلك يوم عضه حصان في وجنته فترك بها أثراً على شكل الحلقة . (٢) هو أعشى قيس ، واسمه ميمون بن قيس ، أحد الأعلام من شعراء الجاهلية وغولهم ، وهو أول من سأل بشعره وانتجع به أقاصى البلاد ، أدرك الإسلام ولكنه لم يسلم . توفي سنة ٧ هـ . (٣) اعتلج : اختلط . (٤) الرسل : اللبن .

به كَرِهَتْ أَنْ يَفُوتَكَ قِرَاهُ ؛ فَإِنَّ هَذَا أَحْسَنُ لِمَوْقِعِهِ عِنْدَهُ . وَلَمْ تَزَلْ تَحْضُهُ حَتَّى
أَتَى بِبَعْضِ التَّجَارِ فَكَلَّمَهُ أَنْ يُقْرِضَهُ ثَمَنَ زُقٍّ خَمِيرٍ ، وَأَتَاهُ بِنِ بَضْمَنُ ذَلِكَ عَنْهُ
فَأَعْطَاهُ . ثُمَّ وَجَّهَ بِالنَّاقَةِ وَالْخَمْرِ وَالْبُرْدِينَ مَعَ مَوْلَى أَبِيهِ ، فَخَرَجَ يَتَّبِعُهُ ؛ فَكَلِمًا مَرَّةً
بِمَاءٍ قَلِيلٍ : ارْتَحَلَ أَمْسٍ عَنْهُ ، حَتَّى صَارَ إِلَى مَنْزِلِ الْأَعْشَى بِمَنْفُوحَةٍ ^(١) الْيَمَامَةِ ؛
فَوَجَدَ عِنْدَهُ عِدَّةً مِنَ الْفَتَيَانِ قَدْ غَدَّاهُمْ بِغَيْرِ لَحْمٍ ، وَصَبَّ لَهُمْ فُضِيخًا ^(٢) ؛ فَهُمْ يَشْرَبُونَ
مِنْهُ . وَقَرَعَ الْبَابَ فَقَالَ : انْظُرُوا مَنْ هَذَا ؟ فَخَرَجُوا فَإِذَا رَسُولُ الْخَلْقِ يَقُولُ كَذَا
وَكَذَا ؛ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ وَقَالُوا : هَذَا رَسُولُ الْخَلْقِ الْكِلَابِيُّ أَتَاكَ بِكَيْتٍ وَكَيْتٍ .
فَقَالَ : وَيَحْكُمُ ! أَعْرَابِي وَالَّذِي أُرْسِلُ إِلَى لَا قَدْرَ لَهُ ! وَاللَّهِ لَنْ أَعْتَلِجَ الْكَيْدَ وَالسَّامَ
وَالْخَمْرُ فِي جَوْفِي لِأَقُولَنَّ فِيهِ شِعْرًا لَمْ أَقُلْ قَطُّ مِثْلَهُ . فَوَائِبُهُ الْفَتَيَانِ وَقَالُوا : غَبْتَ عَنَّا
فَأُطْلِتَ الْغَيْبَةَ ، ثُمَّ أَتَيْنَاكَ فَلَمْ تُطْعَمْنَا لَحْمًا وَسَقَيْتَنَا الْفُضِيخَ ؛ وَاللَّحْمُ وَالْخَمْرُ بِيَابِكَ ،
لَا نَرْضَى بِذَا مِنْكَ . فَقَالَ : انْذَنُوا لَهُ ؛ فَدَخَلَ فَادَّى الرِّسَالَةَ ، وَقَدْ آتَاخُ الْجَزُورَ
بِالْبَابِ ، وَوَضَعَ الزُّقَّ وَالْبُرْدِينَ بَيْنَ يَدَيْهِ ؛ فَقَالَ : أَقْرِهَ السَّلَامَ ، وَقُلْ لَهُ : وَصَلَّتْكَ
رَحْمٌ ، سَيَاتِيكَ ثَنَاؤُنَا .

وَقَامَ الْفَتَيَانِ إِلَى الْجَزُورِ فَنَحَرُوها وَشَقُّوا خَاصِرَتَهَا عَنْ كَبِدِهَا وَجَلَدَهَا عَنْ
سَنَامِهَا ، ثُمَّ جَاءُوا بِهِمَا ، فَأَقْبَلُوا يَشْوُونَ ، وَصَبُّوا الْخَمْرَ فَشَرَبُوا ، وَأَكَلَ كُلُّ مَعَهُمْ
وَشَرَبَ ؛ وَلَبَسَ الْبُرْدِينَ ؛ وَنَظَرَ إِلَى عِطْفَيْهِ فِيهِمَا ؛ فَأَنشَأَ يَقُولُ :

أَرِقْتُ وَمَا هَذَا الشَّهَادُ الْمُرَّقُ وَمَا بِي مِنْ سُقْمٍ وَمَا بِي مَعَشَقُ ^(٣)
وَفِيهَا يَقُولُ :

نَقَى الدَّمَ عَنْ آلِ الْخَلْقِ جَفَنَةً ^(٤) كَجَابِيَةِ ^(٥) الشَّيْخِ الْعِرَاقِيِّ تَفَهُقُ ^(٦)

(١) مَنْفُوحَةٌ : قَرْيَةٌ فِي نَوَاحِي الْيَمَامَةِ ؛ يَسْكُنُهَا الْأَعْشَى وَفِيهَا قَبْرُهُ . (٢) الْفُضِيخُ : شَرَابٌ
يَتَّخِذُ مِنْ بَسْرٍ . (٣) مَعَشَقٌ : عَشَقٌ . (٤) الْجَابِيَةُ : حَوْضٌ ضَخْمٌ . (٥) فَهِيَ الْإِنَاءُ : امْتَلَأَتْ .

تري القوم فيها شاري عَيْنَ ويَنهم مع القوم ولَدَانِ من النسل دَرَدَقُ^(١)
 لعمري لقد لاحتْ عيونٌ كثيرة إلى ضوءِ نارٍ باليَقَاعِ^(٢) تَحَرَّقُ
 تُشَبُّ لَمَقَرُورَيْنِ بِصَطْلِيَانِهَا وبات على النار النَّدى والمَلْحَقُ
 رَضِيعِي لِبَانٍ نَدَى أُمِّ تَقَاسِمَا بِأَسْحَمِ^(٣) دَاجٍ عَوْضُ لَا تَفَرَّقُ
 ترى الجودَ يجرى ظاهراً فوق وجهه كَمَا زَانَ مَتَنَ الْهُندُوَانِي رَوْنَقُ^(٤)
 يدها يداً صِدْقٍ ، فَكَفْتُ مُبِيدَةً وكَفْتُ إِذَا مَا ضُنَّ بِالْمَالِ تُنْفِقُ
 وسار الشعر وشاع في العرب . فما أتت على المَلْحَقِ سنة حتى رَوَّجَ أخواته الثلاث ،
 كل واحدة على مائة ناقة ؛ فَأَيْسَرَ وَشَرَّفَ .

٥ — احتكام الشعراء في عكاظ*

حكى عن نابغة^(٥) بنى ذُبْيَانُ أَنَّهُ كَانَتْ تُضْرَبُ لَهُ قُبَّةٌ مِنْ أَدَمٍ بِسَوْتِ
 عُكَاظٍ يَجْتَمِعُ إِلَيْهِ فِيهَا الشُّعْرَاءُ ، فَدَخَلَ إِلَيْهِ حَسَانُ بْنُ ثَابِتٍ ، وَعِنْدَهُ الْأَعَشَى ،
 وَقَدْ أَنْشَدَهُ شِعْرَهُ ، وَأَنْشَدَتْهُ الْخَنَسَاءُ قَوْلَهَا :
 قَدَى بِعَيْنِكَ أُمٌّ بِالْمَعِينِ عَوَّارُ أُمٌّ ذَرَفَتْ^(٦) إِذْ خَلَتْ مِنْ أَهْلِهَا الدَّارُ
 حَتَّى اتَّهَتْ إِلَى قَوْلَهَا :

(١) الدردق : الصبيان الصغار . (٢) اليقاع : الليل . (٣) الأسحَم : الأسود ؛ والمراد الليل ، ودجا الليل : أظلم . وعوض : أبدأ . (٤) الهندواني : السيف عمل ببلاد الهند ، وروْنَقُ السيف : ماؤه وحسنه .

(*) الأغاني : ٩ : ٣٤٠ ، الشعر والشعراء : ١٢٣ .
 (٥) هو أبو أمامة زياد بن معاوية ، أحد خول شعراء الجاهلية وحكمهم بعكاظ ، ولقب بالنابغة لنبوغه في الشعر فجاءه وهو كبير بعد أن امتنع عليه وهو صغير ، وهو من أشراف ذبيان ، وعمر طويلاً ومات قبل البعثة . (٦) العوار : كل ما أعل العين . وذرفت : قطرت .

وإنَّ صَخْرًا لَتَأْتِمُّهُمُ الْهَيْدَاءُ بِهِ كَأَنَّهُ عَلَمٌ^(١) فِي رَأْسِهِ نَارٌ
وإنَّ صَخْرًا لَمَوْلَانَا وَسَيِّدُنَا وإنَّ صَخْرًا إِذَا نَشْتُو^(٢) لَنَحَّارُ
فقال : لولا أن أبا بصير^(٣) أنشدني قَبْلَكَ لَقُلْتُ : إنك أشعرُ الناس . أنتِ
والله أشعرُ من كل أنثى ! قالت : والله ومن كل رجل .

فقال حسان : أنا والله أشعرُ منك ومنها . قال : حيثُ تقول ماذا ؟ قال :
حيثُ أقول :

لنا الجِفَنَاتُ الغُرُّ يَلْمَعْنَ بالضُّحَا وَأَسْيَافُنَا يَقْطُرْنَ مِنْ نَجْدَةٍ دَمًا
وَلَدْنَا بَنِي الْعَنْقَاءِ^(٤) وَابْنِي مُحَرَّقٍ فَأَكْرِمُ بَنَا خَالًا وَأَكْرِمُ بَنَا ابْنَمَا
فقال : إنك شاعر لولا أنك قلت : « الجِفَنَات » فقلَّتَ العدد ، ولو قلت :
« الجِفَان » لكان أكثر . قلت : « يَلْمَعْنَ فِي الضُّحَا » ، ولو قلت : « يَبْرُقْنَ
بِالدُّجَا » لكان أبلغ في المديح ؛ لأن الضيف بالليل أكثرُ طروقًا . وقلت :
« يَقْطُرْنَ مِنْ نَجْدَةٍ دَمًا » فدللتَ على قِلَّةِ القتل ، ولو قلت : « يَجْرَيْنَ » لكان
أكثرَ لَنَصِيبِ الدَّمِ ، وفخرتَ بما وَلَدْتَ ، ولم تَفْخَرْ بِمَنْ وَلَدَكَ .
فقام حسان منكسرًا منقطعًا !

(١) العلم : الجبل (٢) شتا القوم : أجذبوا في الشتاء . (٣) أبو بصير : كنية الأعشى .
(٤) العنقاء : ثعلبة بن عمرو مزريقا بن عامر بن ماء السماء . ومحرق : هو الحارث بن عمرو
مزريقا . وكان أول من عاقب بالنار .
(٢ - قصص - أول)

٦ - عند كسرى*

خرج أبو سفيان في جماعة من قريش ، يريدون العراق بتجارة ؛ فلما ساروا ثلاثاً جمعهم أبو سفيان ؛ فقال لهم : إنا من مسيرنا هذا لعلى خطرٍ ، لقد قدّمنا على ملك جبّار ، لم يأذن لنا فى القدوم عليه ، وليست بلادُهُ لنا بمتجَرٍ ، ولكن أيُّكم يذهبُ بالعير ، فإن أُصيبَ فنحنُ برّاء من دمه ، وإن غَنِمَ فله نصفُ الربح . فقال غيلان ^(١) بن سَلَمَة : دعونى إذن ، فأنا لها .

فلما قدّم بلاد كسرى تخلّق ^(٢) ، ولبس ثوبين أصفرين ، وشهرَ امرأةً ، وجلس بباب كسرى حتى أذن له ، فدخل عليه ، وخرج إليه التزجّان ^(٣) وقال له : يقولُ لك الملك : ما أدخلك بلادى بغير إذنى !

فقال : قل له : لستُ من أهل عداوةٍ لك ، ولا أتيتُك جاسوساً ليُضدّ من أضدادك ؛ وإنما جئتُ بتجارة تستمتعُ بها ؛ فإن أردتها فهى لك ، وإن لم تُردّها ، وأذنت فى بيعها لرعيّتك بعثها ؛ وإن لم تأذن فى ذلك ردّها ؛ وجعل يتكلم ، فإذا سمع صوت كسرى سجد . فقال له التزجّان : يقولُ لك الملك : لم سجدت ؟ فقال : سمعتُ صوتاً عالياً ، حيث لا ينبغى لأحد أن يعلوّ صوتهُ إجلالاً للملك ، فعلمتُ أنه لم يُقدّم على رفع الصوتِ هناك غيرُ الملك ؛ فسجدتُ إعظاماً له ، فاستحسن كسرى ما فعل ؛ وأمر له بمرقّة ^(٤) توضع تحته . فلما أتى بها

* بلوغ الأرب : ١-٣٢٠ ، العقد الفريد : ١-١٧٥ .

(١) غيلان بن سَلَمَة الثقفى شاعر جاهلى ، كانت له ثلاثة أيام : يوم يحكم فيه بين الناس ؛ ويوم ينشد فيه شعره ، ويزم ينظر فيه إلى جاله ، وأسلم بعد فتح الطائف . (٢) تخلّق : تطيب . (٣) التزجّان : بضم التاء المشددة وفتحها : المفسر . (٤) المرققة : المحدة .

رأى عليها صورةَ الملك ؛ فوضعها على رأسه ؛ فاستجبه له كسرى واستحمله . وقال
للترجمان : قل له : إنما بعثنا بهذه لتجلس عليها . قال : قد علمتُ ، ولكنى لما
أتيتُ بها رأيتُ عليها صورةَ الملك ، فلم يكن من حقِّ مثلى أن يجلس عليها ؛ ولكن
كان حقُّها التعظيم ؛ فوضعتها على رأسى ؛ لأنه أشرف أعضائى وأكرمها على !

فاستحسن فعله ، ثم قال له : ألك ولد ؟ قال : نعم ! قال : فأبهم أحبُّ إليك !
قال : الصغير حتى يكبر ، والمريض حتى يبرأ ، والهابث حتى يثوب . فقال كسرى :
زِه ! ما أذخلك على ، ودلك على هذا القول والفعل إلا حظُّك ! فهذا فعلُ الحكماء
وكلامُهم ، وأنت من قومٍ جُفَاء لا حكمةَ فيهم ؛ فما غذاؤك ؟ قال : خبز البر . قال :
هذا العقل من البر لا من اللبن والتمر .

ثم اشترى منه التجارة بأضعاف ثمنها ، وكساه ، وبعث معه من الفرس من بنى
له أطماً ^(١) بالطائف ، فكان أولَ أطمٍ بُنى بها .

(١) الأطم : القصر ، وجمعه أطام .

٧ — عند النجاشي *

قال عمرو ^(١) بن العاص :

لما انصرفنا مع الأحزاب عن الحندق جمعت رجالاً من قريش كانوا يرون رأيي ،
ويسمعون مني ، فقلت لهم : تعلمون - والله - أني أرى محمداً يعلو الأمور علواً منكراً ؛
وإني قد رأيت أمراً فساترون فيه ؟ قالوا : وماذا رأيت ؟ قال : رأيت أن نلحق
بالنجاشي فنكون عنده ، فإن ظهر محمد على قومنا كنا عند النجاشي ، وإن ظهر
قومنا فنحن من قد عرفوا ، فلن يأتينا منهم إلا خير . قالوا : إن هذا لرأى ! قلت :
فاجمعوا لنا ما نهدي له ، وكان أحب ما يهدي إليه من أرضنا الأدم .

فجمعنا له أدماً كثيراً ، ثم خرجنا حتى قدمنا عليه ، فوالله إنا لعنده إذ جاءه
عمرو بن أمية الضمري - وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد بعثه إليه في شأن
جعفر ^(٢) وأصحابه . قال : فدخل عليه ، ثم خرج من عنده ، فقلت لأصحابي : هذا
عمرو بن أمية الضمري ، لو قد دخلت على النجاشي فسألته إياه فأعطانيه ، فضربت
عنقه ! فإذا فعلت ذلك رأيت قريش أني قد أجزأت عنها حين قتلت رسول محمد .
قال : فدخلت عليه ، فسجدت له كما كنت أصنع ، فقال : مرحباً بصديقي ؛
أهديت إلي من بلادك شيئاً ؟ قلت : نعم أيها الملك ؛ قد أهديت إليك أدماً كثيراً ؛
ثم قربته إليه ، فأعجبه واشتهاه ، ثم قلت له : أيها الملك ؛ إني قد رأيت رجلاً خرج

* الروض الأثف : ٢ - ١١٢ .

(١) هو عمرو بن العاص بن وائل أحد دهاة العرب وفصاحمهم وساستهم وفتح مصر على عهد
عمر بن الخطاب ، توفي سنة ٤٣ هـ (٢) هو جعفر بن أبي طالب ، وكان قد هاجر إلى الحبشة .

من عندك ؟ وهو رسول رجلٍ عدوِّ لنا ، فَأَعْطَيْنَاهُ لَأَقْتَلَهُ ، فَإِنَّهُ قَدْ أَصَابَ مِنْ أَشْرَافِنَا وَخِيَارِنَا .

فغضب ؛ ثم مدَّ يده فضرب بها أنفه ضربةً ظننتُ أنه قد كسره ؛ فلو انشقتُ لى الأرض لدخلتُ فيها^(١) فرقاً منه ! ثم قلتُ له : أيها الملك ، والله لو ظننتُ أنك تكره هذا ما سألتُكَه ! قال : أتسألني أن أعطيك رسولَ رجلٍ يأتيه الناموس الأكبر الذي كان يأتي موسى لَتَقْتُلَهُ ؟ قلتُ : أيها الملك ، أأكذلك هو ؟ قال : ويحك يا عمرو ! أَطْعِنِي وَاتَّبِعْهُ ، فَإِنَّهُ وَاللَّهِ لَعَلَى الْحَقِّ ، وليظهرنَّ على مَنْ خالفه ، كما ظهر موسى على فرعون وجنوده .

قلتُ : أفتبايعني له على الإسلام ؟ قال : نعم ، فبسط يده فبايعتهُ على الإسلام ، ثم خرجتُ إلى أصحابي ، وقد حال^(٢) رأيي عما كان عليه ؛ وكتمتُ أصحابي إسلامي . ثم خرجتُ عامداً إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلقيتُ خالد بن الوليد ، وذلك قبيل الفتح ، وهو مقبلٌ من مكة ، فقلتُ : أين يا أبا سليمان ؟ قال : والله لقد استقام الميسم ، وإن الرجلَ لنبيٍّ ، اذهب والله فأسلم فحتى متى ؟ قلتُ : والله ما جئتُ إلا لأسلم .

فقدمنا المدينة على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فتقدَّم خالد بن الوليد فأسلم وبايع ، ثم دنوتُ فقلتُ : يا رسول الله ، إني أبايعك على أن يُففرَ لى ما تقدم من ذنبي ، ولا أذكر ما تأخر . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يا عمرو ، بايع فإن الإسلامَ يَجِبُ^(٣) ما كان قبله ، وإن الهجرةَ تَجِبُ ما كان ، فبايعتهُ ثم انصرفت .

(٣) يجب ما قبله : يقطع .

(٢) حال رأيي : تغير .

(١) فرقا : خوفاً .

٨ — رسول الله في سوق عكاظ*

رَوَى عَبْدُ الرَّحْمَنِ الْعَامِرِيُّ عَنْ أَشْيَاخٍ مِنْ قَوْمِهِ ، قَالُوا :
أَتَانَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَنَحْنُ بِسُوقِ عُكَاظٍ ؛ فَقَالَ : مِمَّنَ الْقَوْمُ ؟
قُلْنَا : مِنْ بَنِي عَامِرِ بْنِ صَعَصَعَةَ ! قَالَ : مَنْ أَيْ بَنِي عَامِرٍ ؟ قُلْنَا : بَنُو كَعْبِ بْنِ رَبِيعَةَ .
قَالَ : كَيْفَ الْمَنَعَةُ فَيْكُمْ ؟ قُلْنَا : لَا يُرَامُ مَا قَبِلْنَا ، وَلَا يُضْطَلَّى بِنَارِنَا ! فَقَالَ : إِنْ
رَسُولُ اللَّهِ ؛ فَإِنْ أَتَيْتُكُمْ تَمْنَعُونِي حَتَّى أَبْلُغَ رِسَالَةَ رَبِّي ، وَلَمْ أَكْرِهْ أَحَدًا مِنْكُمْ
عَلَى شَيْءٍ ؟ قَالُوا : وَمَنْ أَيْ قَرِيشٍ أَنْتَ ؟ قَالَ : مِنْ بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ ؟ قَالُوا : فَأَيْنَ
أَنْتَ مِنْ بَنِي عَبْدِ مَنَافٍ ؟ قَالَ : هُمْ أَوَّلُ مَنْ كَذَّبَنِي وَطَرَدَنِي ! قَالُوا : وَلَكِنَّا
لَا نُنْظِرُكَ وَلَا نُوْمِنُ بِكَ ، وَلَا نَمْنَعُكَ أَنْ تَبْلُغَ رِسَالَةَ رَبِّكَ .

فَنَزَلَ إِلَيْهِمُ الْقَوْمُ يَتَسَوَّقُونَ^(١) إِذْ أَتَاهُمْ بُجْرَةُ بْنُ قَيْسٍ الْقُشَيْرِيُّ ؛ فَقَالَ : مَنْ هَذَا
الَّذِي أَرَاهُ عِنْدَكُمْ أَنْكَرُهُ ! قَالُوا : هَذَا مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ الْقُرَشِيُّ . قَالَ : وَمَا لَكُمْ وَلَهُ ؟
قَالُوا : زَعِمْنَا أَنَّهُ رَسُولُ اللَّهِ وَيَطْلُبُ إِلَيْنَا أَنْ نَمْنَعَهُ حَتَّى يَبْلُغَ رِسَالَةَ رَبِّهِ . قَالَ :
فَمَاذَا رَدَدْتُمْ عَلَيْهِ ؟ قَالُوا : قُلْنَا : فِي الرَّحْبِ وَالسَّعَةِ ؛ نَخْرُجُكَ إِلَى بِلَادِنَا ؛ وَنَمْنَعُكَ
مِمَّا نَمْنَعُ مِنْهُ أَنْفُسَنَا . قَالَ بُجْرَةُ : مَا أَعْلَمُ أَحَدًا مِنْ أَهْلِ هَذِهِ السُّوقِ يَرْجِعُ بِشَيْءٍ أَشَرَّ
مِنْ شَيْءٍ تَرْجِعُونَ بِهِ ، بِدَأْتُمْ لَتُنَابِذَ كُمُ النَّاسُ ، وَتَرْمِيَكُمُ الْعَرَبُ عَنْ قَوْسٍ وَاحِدَةٍ ،
قَوْمُهُ أَعْلَمُ بِهِ ؛ لَوْ آتَسَوْا مِنْهُ خَيْرًا لَكَانُوا أَسْعَدَ النَّاسِ بِهِ ، تَعْمِدُونَ إِلَى مَرَهَقٍ^(٢)
قَدْ طَرَدَهُ قَوْمُهُ وَكَذَّبُوهُ فَتَوَوُوهُ ! فَبُئِسَ الرَّأْيُ مَا رَأَيْتُمْ !

* أسواق العرب : ٢١٧ .

(١) تسوق القوم : إذا باعوا واشتروا . (٢) فلان مرهق : أي متهم بسوء وسفه .

ثم أقبل على رسول الله فقال : قم ؛ اخلق بقومك ، فوالله لولا أنك عند قومي لضربت عنقك ! فقام رسول الله إلى ناقته فركبها . فغمرها بجمرة ^(١) فقمصت ^(٢) برسول الله فألقته ، وعند بني عامر يومئذ ضباعة بنت عامر بن قُرط ، وكانت من النسوة اللاتي أسلمن مع رسول الله بمكة ، جاءت زائرة إلى بني عمها ، فقالت : يا آل عامر ، أيصنع هذا برسول الله بين أظهركم لا يمنعه أحد منكم ! فقام ثلاثة من بني عمها إلى جمرة وثلاثة أعانوه ، فأخذ كل رجل منهم رجلا ، فجلّد ^(٣) به الأرض ، ثم جلس على صدره ، فقال رسول الله : اللهم بارك على هؤلاء ، وألعن هؤلاء .

فلما صدر الناس رجعت بنو عامر إلى شيخ لهم ، قد أدركته السن حتى لا يقدر أن يوافي معهم الموسم ، فكانوا إذا رجعوا إليه حدثوه بما يكون في ذلك الموسم . فلما قدموا عليه سألمهم عن كان في الموسم ، فقالوا : جاءنا فتى من قريش . ثم حدث أنه أحد بني عبد المطلب ، يزعم أنه نبي يدعونا إلى أن نمنعه ونقوم معه ، ونخرج به معنا إلى بلادنا ! فوضع الشيخ يده على رأسه ، ثم قال : يا بني عامر ! هل لها من تلاف ؟ هل لذُنابها ^(٤) تطلّب ؟ فوالذي نفس فلان بيده ما تقوّ لها إسماعيل قط ، ألا إنها الحق ، فأين كان رأيكم !

(١) في تاريخ الطبري صفحة ٢٣٢ من الجزء الثاني : بجمرة بن فراس . (٢) قصت : وثبت .

(٣) جلّد به الأرض : ضربها . (٤) أصل الذنابي : الذنب .

٩ - الكريم طروب *

قدم عبدُ الله بنُ جعفر^(١) على معاوية بالشام ، فأنزله دار عياله ، وأظهر من إكرامه ما يستحقه ، ففاظ ذلك زوج معاوية ، ثم سمعت ذات ليلة غناء عند عبد الله ابن جعفر : فجاءت إلى معاوية ، وقالت : هلمّ فاسمع ما في منزل الذي جعلته من لحك ودمك وأنزلته بين حرَمك .

فجاء معاوية ؛ فسمع شيئاً حرّكه وأطربه ، فقال : والله إنى لأسمع شيئاً تكاد الجبال تحز^(٢) له ! ثم انصرف .

فلما كان في آخر الليل سمع معاوية قراءة عبد الله بن جعفر ، وهو قائم يصلي ، فنتبه زوجه ، وقال لها : اسمعى مكان ما أسمعنى ، هؤلاء قومى ملوكٌ بالنهار ، ورهبانٌ بالليل !

ثم إن معاوية أرق ذات ليلة ؛ فقال لخادمه : اذهب فانظر مَنْ عند عبد الله ابن جعفر وأخبره أنى قادم عليه .

فذهب وأخبره ، فأقام عبد الله كلَّ مَنْ كان عنده ؛ فلما جاء معاوية لم يرَ في المجلس غير عبد الله ، فقال : مجلسٌ منْ هذا ؟ قال عبد الله : هذا مجلس فلان يا أمير المؤمنين . فقال معاوية : مُره فليرجع إلى مجلسه ، حتى لم يبق إلا مجلس رجل واحد . قال : مجلس منْ هذا ؟ قال : مجلس رجل يداوى الآذان يا أمير المؤمنين ؛ قال : إن أذننى عليه فُره أن يرجعَ إلى مجلسه ، وكان مجلس بُدّيح المغنى ، فأمره

* المستطرف : ٢ - ١٤٩ ، العقد الفريد : ٢ - ٤٩ ، الأغاني ٤ - ٢١٢ .

(١) هو عبد الله بن جعفر بن أبي طالب ، كان كريماً جواداً يحب البذل ويرتاح للطاء ، وعيّل إلى سماع الغناء ، وأخبره في الكرم والنساع كثيرة ، توفي سنة ٩٠ هـ . (٢) تحز : تسجد .

عبد الله بن جعفر فرجع إلى موضعه ، فقال له معاوية : داوِ أذنى من علّتها ، فتناول العودَ وغنى ، وقال :

ودّعْ هريرةَ إنَّ الركبَ مُرْتَحِلٌ وهل تطيقُ وداعاً أيها الرجل^(١)
فحرك عبد الله بن جعفر رأسه . فقال له معاوية : لم حركتَ رأسك يا بن جعفر ؟ قال أُرِيحِيَّةَ أجدها يا أمير المؤمنين لو لقيتُ عندها لأبليتُ ، ولو سئلتُ لأعطيت .

وكان معاوية قد خَضِبَ ، فقال ابن جعفر لبدِيع : غنِّ غير هذا - وكان لمعاوية جارية أعزُّ جواريه عليه ، وكانت تتولى خِضَابَه فغَنَّى بُدَيْعٌ وقال :

أليس عندك شكرٌ للتي جَعَلَتْ ما بَيْضٌ من قَادِمَاتِ^(٢) الرأْسِ كالْحَمِّ^(٣)
وجَدَدَتْ منك ما قد كان أخلقه صَرَفُ الزَّمانِ وطولُ الدهرِ والقدَمِ
فطرب معاوية طرباً شديداً ، وجعل يحرك رجله ، فقال له ابن جعفر :
يا أمير المؤمنين ، إنك سألني عن تحريك رأسك فأجبتك وأخبرتُك ، وأنا أسألك
عن تحريك رجلك ! فقال : كل كريم طروب !

ثم قام ، وقال : لا يبرح أحدٌ منكم حتى يأتيَ له إذنى . ثم ذهب فبعث إلى ابن جعفر بعشرة آلاف دينار ومائة ثوب من خاصة كُسوته ، وإلى كل رجل منهم بألف دينار ، وعشرة أثواب .

(١) هريرة : اسم قينة كانت لرجل من آل عمرو بن مرثد أهداها إلى قريب له . والبيت من قصيدة لأعشى قيس . (٢) أصل القوامد : أربع ريشات في مقدم الجناح ، والواحدة قادمة ، يريد مقدم الشعر . (٣) اللحم : الفم .

١٠ - الأعراب في جهدهم وضنك عيشهم *

قال زيادٌ لغيلان بن خَرَشة : أحبُّ أن تحدَّثني عن العرب وجهدها ، وضنك عيشها ، أنعمد الله على النعمة التي أصبَحنا بها ، فقال غيلان : حدثني عمي قال : توالى على العرب سنونَ تسعٌ في الجاهلية حطمت كلَّ شَيْءٍ ، فخرجتُ على بكرٍ لي في العرب ، فسكنت سبعةً لا أطمعُ إلا ما ينالُ منه بعيري ، أو من حشرات الأرض ، فشددت على بطني حجراً من الجوع ، حتى دفعتُ في اليوم السابع إلى حِوَاء^(١) عظيم ، فإذا بيتٌ جُحش^(٢) عن الحى ، فَمِلْتُ إليه ، فخرجتُ إلى امرأة طوالة^(٣) حسَّانة^(٤) ، فقالت : مَنْ ؟ قلتُ : طارقُ ليل ، يلتمسُ القرى ! قالت : لو كان عندنا شَيْءٌ لَأَثَرْنَاكَ به ، والدالُّ على الخير كفاعله ، حسَّ^(٥) هذه البيوت ، ثم انظر إلى أعظمها فإن يك في شَيْءٍ منها خيرٌ فففيه .

ففعلتُ حتى دَفَعْتُ إليه ، فرحَّبَ بي صاحبه ، وقال : مَنْ ؟ قلتُ : طارق ليل ، يلتمس القرى . فقال : يا فلان ، فأجابه ، فقال : هل عندك طعام ؟ فقال : لا ، فوالله ما وقر^(٦) في أذنى شَيْءٍ كان أشدَّ علىَّ منه .

قال : فهل عندك شراب ؟ قال : لا . ثم تأوَّه ، فقال : قد بقينا في ضرع الفلانة^(٧) شيئاً لطارق إن طرَّق . قال : فأت به . فأتى العطن^(٨) فابتنعها . فما

* المحاسن والمساوى : - ٩٩ (طبعة ليزج) ، عيون الأخبار : ٣ - ٢٤٤ .

(١) الحوَاء : جماعة البيوت المتداية (٢) جحش : نحى وأبعد عن البيوت (٣) طوالة :

طويلة القامة (٤) حسَّانة : حسناء (٥) حس : تعرف أحوالها (٦) وقر : ثقل

(٧) الفلانة والفلان بالتعريف : كناية عن غير الآدميين (٨) العطن : مناخ الإبل حول وردها .

سمعتُ شيئاً قطُّ كان أشد من شَحْبِ تِيكَ الناقَةِ في تلك العُلْبَةِ^(١) ، حتى إذا مَلَأَهَا ،
وفاضت من جوانبها ، وارتفعت عليها رَغْوَةٌ كَجُمَّةِ الشَّيْخِ ، أَقْبَلَ بِهَا يَهُوْيَ
نَحْوِي ، فَعَثَرَ بِمُودٍ أَوْ حَجَرٍ ، فَسَقَطَتِ الْعُلْبَةُ مِنْ يَدِهِ ، فَمَا أَصِبتُ بِمُصِيبَةٍ أَفْزَعَ لِقَلْبِي ،
وَلَا أَعْظَمَ مَوْقِعاً عِنْدِي مِنْ انْكَفَاءِ تِلْكَ الْعُلْبَةِ عَلَى مِثْلِ الْحَالِ الَّتِي كُنْتُ فِيهَا .

فَلَمَّا رَأَى ذَلِكَ رَبُّ الْبَيْتِ خَرَجَ شَاهِراً سَيْفَهُ ، فَبَعَثَ الْإِبِلَ ، ثُمَّ نَظَرَ إِلَى
أَعْظَمِهَا سَنَاماً ، وَدَفَعَ إِلَى مُدْيَةٍ ، وَقَالَ : يَا عَبْدَ اللَّهِ ، اصْطَلِ وَاحْتَمِلِ .

فَجَعَلَتْ أَهْوَى بِالْبَضْعَةِ^(٢) إِلَى النَّارِ ، فَإِذَا بَلَغَتْ إِيَّاهَا^(٣) أَكَلَتْهَا ، ثُمَّ مَسَحَتْ
مَا فِي يَدَيِهَا مِنْ إِهَالَتِهَا^(٤) عَلَى جِلْدِي ، وَقَدْ قَحِلَ^(٥) عَلَى عَظْمِي ، حَتَّى كَأَنَّهُ
شَنٌّ^(٦) ، ثُمَّ شَرِبْتُ شُرْبَةً مَاءً ، وَخَرَزْتُ مَغْشِياً عَلَى ، فَمَا أَقَفْتُ إِلَى السَّحَرِ .
وَقَطَعَ زِيَادُ الْحَدِيثِ ، وَقَالَ : لَا عَلَيْكَ إِلَّا أَنْ تَجْهَرَنَا بِأَكْثَرِ مِنْ هَذَا ، فَمَنْ
الْمَنْزُولُ بِهِ ؟ قُلْتُ : عَامِرُ بْنُ الطَّفِيلِ .

(١) العُلْبَةُ : قَدَحٌ ضَخْمٌ مِنْ جُلُودِ الْإِبِلِ ، أَوْ مِنْ خَشَبٍ يَحْلَبُ فِيهَا . (٢) الْبَضْعَةُ : الْقِطْعَةُ
مِنْ اللَّحْمِ . (٣) بَلَغَ إِذَا نَاهُ : نَضَجَهُ وَإِدَارَكَ . (٤) الْإِهَالَةُ : الشَّحْمُ أَوْ مَا أُذِيبَ مِنَ الشَّحْمِ .
(٥) قَحِلَ : يَبِسَ . (٦) الشَّنُّ : الْقُرْبَةُ الْخَلْقُ الصَّغِيرَةُ .

١١ — حفل غناء *

خرجت جميلة^(١) حاجةً ، فخرج معها من الرجال المغنين والنساء والأشراف وغيرهم جماعة ، وحجَّ معها من القيان مُشيعاتٍ لها ومعظّماتٍ لِقَدَرها ولِحَقِّها خمسون قينةً وجهَ بهنّ مواليهنّ معها ؛ وأعطوهنّ النفقاتِ وحملوهنّ على الإبل في الهوداج والقِياب وغير ذلك ؛ فأبّت جميلة أن تُنفقَ واحدةً منهنّ درهماً فما فوقه حتى رَجَعْنَ. وتخايَرَ مَنْ خرج معها في اتخاذ أنواع اللباس العجيب الظّريف والهوداج والقِياب ، فلم يَرِ أهلُ المدينة مثل ذلك الجمع سَفْراً^(٢) طَيِّباً ، وحُسنًا وملاحة .

ولما قاربوا مكة تلقاهم سعيد بن مسجع وابنُ سُرَيْجٍ والغريصُ وابنُ مُحَرِّزٍ والهُذَلِيُّونَ وجماعة من المغنين من أهل مكة وقِيَانٌ كثيرٌ ، ومن غير المغنين عمرُ ابن أبي ربيعة ، والحارث بن خالد الخزوميّ والمرَجِيّ ، وجماعةٌ من الأشراف . فدخلت جميلة مكة وما بالحجاز مُغَنٍّ حاذقٌ ولا مغنيةٌ إلا وهو معها وجماعةٌ من الأشراف ممن سمينا وغيرهم من الرجال والنساء . وخرج أبناء أهل مكة من الرجال والنساء ينظرون إلى جَمْعها وحُسنِ هيئتهم .

فلما قَضَتْ حَجَّها سألتها المكِّيُّونَ أن تجعل لهم مجاساً ؛ فقالت : للغناء أم للحديث ؟ قالوا : لهماً جميعاً . قالت : ما كنتُ لأُخلِطَ جدّاً بهزَلٍ ، وأبّت أن تجلسَ للغناء . فقال عمر بن أبي ربيعة : أقسمتُ على مَنْ كان في قلبه حبٌّ لاسْتِمَاعِ

* الأغاني : ٨ - ٢٠٩ ، نهاية الأرب : ٥ : ٤٣ .

(١) هي جميلة مولاة بني سليم ، كانت أصلاً من أصول الغناء ، وعنها أخذ معبد وابن عائشة وحبابة وسلامة وغيرهم من المغنين والمغنيات ، توفيت سنة ١٢٥ هـ تقريباً .

(٢) السفر : المسافرون .

غنائها إلا خرج معها إلى المدينة فإني خارج ، فعزَمَ القوم كلَّهم على الخروج ، فخرجت في جمعٍ أكثرَ من جمعها بالمدينة .

فلما قدِمَت المدينة تَلَقَّاهَا أهلها وأشرافُهم من الرجال والنساء ؛ فدخلت بأحسن مما خرجت منها ، وخرج الرجال والنساء من بيوتهم فوقفوا على أبواب دُورهم ينظرون إلى جَمْعِها وإلى القادمين معها . فلما دخلت منزلها وتفرَّقَ الجمعُ إلى منازلهم ، ونزل أهل مكة على أقاربهم وإخوانهم أتاها الناسُ مُسَلِّمينَ ، وما أُسَدَّتْ كَفَّ من ذلك كبيرٌ ولا صغيرٌ .

فلما مضى لِمَقْدَمِها عشرةُ أيامَ جلستُ للفناء ، فقالت لعمر بن أبي ربيعة : إني جالسةٌ لك ولأصحابك وإذا شئتَ فَعِدِ النامسَ لذلك اليوم ، فَفَصَّتِ الدارُ بالأشراف من الرجال والنساء ، فابتدأت جميلةٌ ففَتَّتْ صوتاً بشعرٍ عُمر^(١) :

هيهاتَ من أمةٍ الوَهَّابِ منزِلُنا	إذا حَلَلْنَا بسيفٍ ^(٢) البحرَ من عَدَنِ
وأَحْتَلَّ أَهْلُكَ أَجْيَاداً ^(٣) وليس لنا	إلا التذَكُّرُ أو حِظٌّ من الحَزَنِ
لو أنها أبصرتُ بالجِزْعِ عَبرَتَهُ	مِنْ أَنْ تَفَرَّدَ قُمُرِيٌّ عَلَى قَنَنِ
إِذْ نَ رَأَتْ غَيْرَ مَاظَنَّتْ بِصاحبها	وَأَيَقُنْتُ أَنَّ لَحْجاً ^(٤) ليس من وطني
مأْنَسَ لَا أُنْسَ يَوْمَ الْخَيْفِ ^(٥) مَوْقِفَهَا	ومَوْقِفِي وكَلانَا ثُمَّ ذُو شَجَنِ
وقولها للثريا وهي باكيةٌ	والدمعُ منها على الخدين ذوسَنَنِ ^(٦)
باللهِ قولي له في غيرِ مَعْتَبَةٍ :	ماذا أَرَدْتَ بطولِ المَكْثِ في البَيْنِ؟
إن كنتِ حاولتِ دنيا أو نَعِمْتَ بها	فما أَصَبْتَ بتركِ الحِجِّ من ثَمَنِ

(١) كان الحارث بن أبي ربيعة ينهى أخاه عن قول الشعر فيأبى أن يقبل منه ، فأعطاه ألف دينار على ألا يقول شعراً ، فأخذ المال وخرج إلى أخواله يلحج وأبى مخافة أن يهيجه مقامه بمكة على قول الشعر ، فطرب يوماً فقال هذا الشعر ! (٢) سيف البحر : سألحه (٣) أجساد : موضع بمكة . (٤) لحج : مخلاف باليمن (٥) الخيف : موضع بمعنى (ن) ذو : ذو طرائق .

فكلهم استحسنَ الفناء وَضَجَّ القومُ من حُسْنِ ما سمعوا ؛ وَدَمَعَتْ عَيْنُ عمر
حتى جرى الدمع على ثيابه ولحيته ، ثم أقبلتْ على ابنِ سُرَيْجٍ فقالت : هاتِ ،
فاندفع يُغْنِي ورفعَ صوتهَ بشعرِ عمر :

أَلَيْسَتْ بِالَّتِي قَالَتْ لِمَوْلَاةٍ لَهَا ظَهْرًا
أَشِيرِي بِالسَّلامِ لَهُ إِذَا هُوَ نَحْوَنَا نَظَرًا
وَقَوْلِي فِي مُلَاطَفَةٍ لَزَيْنَبَ نَوَّلِي عُمرًا
وهذا سِحْرُكَ النِّسْوَ نَ قَدْ خَبَّرْتَنِي الْخَبْرَا

فَسَمِعَ من ابنِ سُرَيْجٍ في هذا اللَّحْنِ من الحُسْنِ ما يقالُ إنه ما سَمِعَ مثله .
ثم قالت لسعيد بنِ مِسْجَحٍ : هاتِ يَا أَبَا عَثْمَانَ ، فاندفع فغنى :

قَدْ قُلْتُ قَبْلَ الْبَيْنِ لِمَا خَشِيتُهُ لَتُعْقِبَ وَدًّا أَوْ لَتَعْلَمَ مَا عُنْدِي
لَكَ الْخَيْرُ هَلْ مِنْ مَصْدَرٍ تَصْدُرِيَنَهُ ^(١) يُرِيحُ كَمَا سَهَّلْتُ لِي سُبُلَ الْوَزْدِ
فَلَمَّا شَكَّوتُ الْحَبَّ صَدَّتْ كَأَنَّمَا شَكَّوتُ الَّذِي أَلْقَى إِلَى حَجَرٍ صَلْدٍ
فَاسْتُحْسِنَ ذَلِكَ مِنْهُ وَبَرَعَ فِيهِ . ثم قالت : يَا مَعْبِدُ ، هاتِ ؛ فغنى :

أَحَارِبُ مَنْ حَارَبْتَ مِنْ ذِي عداوةٍ وَأَحْبَسُ مَالِي إِنْ غَرِمْتَ فَأَعْقِلُ ^(٢)
وإِنِّي أَخُوكَ الدَّائِمُ الْعَهْدُ لَمْ أَحُلْ إِنْ أَبْزَاكَ ^(٣) خَصْمٌ أَوْ نَبَا بِكَ مَنْزِلُ
سَتَقْطَعُ فِي الدُّنْيَا إِذَا مَا قَطَعْتَنِي يَمِينُكَ فَانْظُرْ أَيْ كَفٍّ تَبْدَلُ
قالت جميلة : أَحْسَنْتَ يَا مَعْبِدُ اخْتِيَارَ الشَّعْرِ وَالْفَنَاءِ .

ثم قالت : هاتِ يَا بَنَ مُحَمَّدٍ ؛ فَإِنِّي لَمْ أَوْخَرْكَ لِحْصَاسَةٍ بِكَ ؛ وَلَا جَهْلًا بِالَّذِي
يَجِبُ فِي الصَّنَاعَةِ ؛ وَلَكِنِّي رَأَيْتُكَ نَحْبُ مِنْ الْأُمُورِ كُلِّهَا أَوْسَطَهَا وَأَعَدَلَهَا ؛

(١) يقال : صدر هو ، وصدر غيره وأصدره (٢) يريد فأعقل عنه ، وعقل عنه : إذا غرم
ماله من دية (٣) لم أحل : لم أنغير . ابزأك خصم : قهرك . والشعر لمن بن أوس ، وهو
شاعر فعل من مخضرمي الجاهلية والإسلام .

فجعلتك - حيث تحب - واسطةً بين المكئين والمذنبين ، فغنى .

ثم قالت للغريص : هات ، فاندفع يغنى شعر عمرو بن شاس :

فواندى على الشباب وَوَاندَمُ نَدِمْتُ وبان اليوم منى بغير ذم

وإذ إخوتى حولى وإذ أنا شائخ وإذ لا أجيب العاذلات من الصمم

أرادت عَرَّاراً^(١) بالهوان ومن يرد عَرَّاراً لعمري بالهوان فقد ظلم

قالت حميلة : أحسن عمرو بن شاس ولم تحسن : إذ أفسدت غناءك بالتعريض ؛ والله ما وضعناك إلا موضعك ، ولا نقصنا من حظك ، فماذا أهلك !

ثم أقبلت على الجماعة فقالت : يا هؤلاء ، اصدقوه وعرفوه نفسه ليقنع بمكانه ؛ فأقبل القوم عليه ، وقالوا له : قد أخطأت إن كنت عرّضت . فقال : قد كان ذلك ! ولست بعائد . وقام إلى حميلة فقَبَّلَ طرفَ ثوبها واعتذر ، فقَبَّلتْ عُدْرَه ، وقالت له : لا تعد .

ثم أقبلت على ابن عائشة فقالت : يا أبا جعفر ؛ هات ، فتغنى شعر النابغة : سقى الغيثُ قبراً بين بُصرى^(٢) وجاسمٍ عليه من الوسمى^(٣) جودٌ ووابلٌ
قالت حميلة : حسنٌ ما قلت يا أبا جعفر . ثم أقبلت على نافع وبُدِّحَ فقالت : أحب أن تُغنياني صوتاً واحداً ؛ فغنى جميعاً بصوت واحد ولحن واحد :

ألا يَأْمَنُ يَوْمُ على التصابي أفيق شيئاً لتسمع من جوابي

بكرت تلومنى في الحب جهلاً ومافى حب مثلى من معاب^(٤)

أليس من السعادة غير شك هوى متواصلين على اقتراب

كريم نال ودّاً في عفافٍ وسر من مُنْقَمَةٍ كعاب^(٤)

(١) هو عرار بن عمرو بن شاس ، وهو من أمة لعمرو سوداء ، وكان بينه وبين زوج أبيه نزاع وخصام ، فقد كانت تؤذيه وتعيره وتشبهه ، وحاول عمرو أن يصالح ما بينهما فلم يفلح فطلقها
(٢) بصرى وجاسم : موضعان بالشام . (٣) الوسمى : ال المطر لأنه يسم النبات .
(٤) معاب : عيب ؛ وهو مصدر ميبى . (٥) كعاب : ناهة الندى .

فقلت جميلة : هَوَاكُمَا والله واحد ، وَغِنَاكما واحد ، وَأَنْتُمَا مُنْحِتَّامَا من بقية
الكرم وواحد الشرف : عبد الله بن جعفر بن أبي طالب .
ثم أقبلت على الهذليين الثلاثة فقالت : غَنُّوا صوتاً واحداً ، فاندفعوا فَغَنُّوا
بشعر عَنَتَرَةَ العبسي :

حَيِّتَ مَنْ طَلَّلَ تَقَادَمَ عَهْدُهُ أَقْوَى وَأَقْفَرَ بَعْدَ أُمِّ الْهَيْثَمِ
كَيْفَ الْمَزَارُ وَقَدْ تَرَبَّعَ أَهْلُهَا بُعِيزَتَيْنِ وَأَهْلُنَا بِالْقَيْلَمِ^(١)
إِنْ كُنْتَ أَزْمَعْتَ الْفِرَاقَ فَإِنَّمَا رُمْتُ^(٢) رَكَابَكُمْ بَلِيلٍ مُظْلَمٍ

قالت : ما رأيتُ شيئاً أشبهَ بفنائكم من اتفاق أرواحكم .
ثم أقبلت على نافع بن طنبُورة ، فقالت : هَاتِ يَا نَفْسُ الْغَضَارَ^(٣) ، وَيَا حَسَنَ
اللسان ، فاندفع يغنى :

يَا طُولَ لَيْلِي وَبَتُّ لَمْ أَتَمِّ وَسَادِي الْهَمُّ مُبْطِنٌ سَقَمِي
أَنْ قُمْتُ يَوْمًا عَلَى الْبَلَاطِ^(٤) فَأَبَدُ صرْتُ رَقَاشًا وَلَيْتَ لَمْ أَتَمِّ
فقلت جميلة : حَسَنٌ وَاللَّهِ !

ثم قالت : يَا مَالِكُ ؛ هَاتِ ؛ فَإِنِّي لَمْ أَوْخَرْكَ لِأَنَّكَ فِي طَبَقَةِ آخِرِهِمْ ، وَلَكِنِّي
أَرَدْتُ أَنْ أَخْتِمَ بِكَ يَوْمَنَا تَبَرُّكَ كَأَبِكَ ، وَكَيْ يَكُونَ أَوَّلُ مَجْلِسِنَا كآخِرِهِ ، وَوَسْطُهُ
كَطَرْفِهِ ، فَإِنَّكَ عِنْدِي وَمَعْبُدٌ لِي طَرِيقَةً وَاجِدَةً وَمَذْهَبٌ وَاحِدٌ ، لَا يَدْفَعُ ذَلِكَ
إِلَّا ظَالِمٌ ، وَلَا يَنْكُرُهُ إِلَّا عَاضِلٌ^(٥) ، الْحَقُّ أَقُولُ ، فَمَنْ شَاءَ فَلْيُنْكِرْ ، فَسَكَتَ
القوم كلهم إقراراً لما قالت ؛ واندفع يغنى :

عَدُوٌّ لِمَنْ عَادَتْ وَسَلِّمٌ لِسَلْمِهَا وَمَنْ قَرَّبَتْ سَلَمِي أَحَبَّ وَقَرَّبَا

(١) عِيزَتَيْنِ : موضع ، والتبليغ : موضع في ديار بني عيس . (٢) زَمَ البعير : خطمه .

(٣) الغضار : الطين اللزج الأخضر ، وهو لقب له .

(٤) البلاط : الأرض ، وقيل : الأرض المستوية للنساء (٥) العاضل : المنع .

بِهَبْنِي امراً إما بريئاً ظلمتني — وإما مُسِيناً تاب بعدُ وأعتبا
أقول - التماس العذر لِمَا ظلمتني وَحَمَلْتَنِي ذنباً وما كنتُ مُذنباً
لِيَهْنَتِكَ إثماتُ العدوِّ بهَجَرنا وَقَطَعُكَ حبلَ الوصلِ حتى تَقَضَّبَا^(١)
قالت جميلة : ليت صوتك يا مالك قد دام لنا ودُّنا له ! وقطعت المجلس ؛
وانصرف عامة الناس وبقي خواصُّهم .

فلما كان اليومُ الثاني حضر القوم جميعاً ، فقالت لطوَيْس : هاتِ يا أبا عبد
النعم ، فابتدأ طوَيْسُ فغنى :

قد طال ليلى وعادَ لي طَرْبِي من حُبِّ خَوْدِ^(٢) كريمةِ الحسبِ
غراءِ مثلِ الهلالِ آنسةٍ أو مثلِ تمثالِ صورةِ الذهبِ
صادتُ فؤادى بِجَمْدٍ مُغزَلَةٍ^(٣) ترعى رياضاً مُلتَفَّةَ العُشْبِ

فقالت جميلة : حسنٌ والله يا أبا عبد النعم !

ثم قالت للدَّلال : هاتِ يا أبا يزيد ، فاندفع فغنى :

قد كنتُ آمُلُ فيكمُ أملاً والمرءُ ليس بمدرِكِ أَمَلِهِ
حتى بداَ لي منكمُ خُلفٌ فزجرتُ قلبي فارغوى جَهْلِهِ
ليسَ الفتى بِمُخَلِّدٍ أبداً حياً ، وليسَ بفاتٍ أَجَلِهِ

قالت : حسنٌ والله يا أبا يزيد ! ثم قالت لِهَيْتِ : إنا نُجْلِكُ اليومَ لِسَكْبِ
سِنِّكَ وِرْقَةً عَظِيمَكَ . قال : أجل !

ثم قالت لِيزْدِ الفؤادِ وَنَوْمَةِ الضُّحَى : هاتيا جميعاً لِحنا واحداً فغنياً :

إني تذكركُ فلا تَلَحِّنِي لؤلؤة مكنونة تَنطِقُ

(١) تَقَضَّبَ : تَقَطَّعَ (٢) الخود : الحسنة الملقق الشابة .

(٣) المغزلة : الطيبة ذات الغزال .

فَقَالَتْ جَمِيلَةٌ : أَحْسَنْتُمَا .

ثُمَّ قَالَتْ لِفَنَدٍ وَرَحْمَةِ وَهْبَةِ اللَّهِ : هَاتُوا جَمِيعًا صَوْتًا وَاحِدًا ؛ فَإِنَّكُمْ مُتَّفِقُونَ فِي
الْأَصْوَاتِ وَالْأَلْحَانِ ؛ فَاذْفَعُوا فَفَنَّنُوا :

أَشَاقَكَ مِنْ نَحْوِ الْعَقِيقِ بُرُوقُ لَوَامِعُ تَخَفَّى تَارَةً وَلَشُوقُ
وَمَا لِي لَا أَهْوَى جَوَارِي بَرْبَرٍ وَرُوحِي إِلَى أَرْوَاحِنَ تَتَوَقُّ
لَهْنٍ جَهْلٍ فَاتِقٌ وَمَمْلَاحَةٌ وَدَلٌّ عَلَى دَلِّ النِّسَاءِ يَفُوقُ
وَكَانَ بَرْبَرٌ حَاضِرًا ، فَقَالَ : جَوَارِيَّ وَاللَّهِ عَلَى مَا وَصَفْتُمْ ؛ فَمَنْ شَاءَ أَقْرَ وَمَنْ
شَاءَ أُنْكَرَ . فَقَالَتْ جَمِيلَةٌ : صَدَقَ . ثُمَّ غَنَّتْ جَمِيلَةٌ بِشَعْرِ الْأَعَشَى :

بَانتْ سُعَادُ وَأَمْسَى حَبْلُهَا أُنْقَطَعَا وَأُخْتَلَّتِ الْغُورُ فَالْجَدَيْنِ فَالْفَرَعا^(١)
وَاسْتَنْكَرْتَنِي وَمَا كَانَ الَّذِي نَكِرْتُ مِنْ الْحَوَاثِ إِلَّا الشَّيْبَ وَالصَّلَمَا
تَقُولُ بِنْتِي وَقَدْ قَرَّبْتُ مُرْتَحِلًا : يَارَبَّ جَنَّبْ أَبِي الْأَوْصَابِ وَالْوَجَمَا
وَكَانَ شَيْءٌ إِلَى شَيْءٍ فَعُـيِّرَهُ دَهْرٌ مُلِحٌ عَلَى تَفْرِيقِ مَا جَمَعَا
فَلَمْ يُسْمَعْ شَيْءٌ أَحْسَنُ مِنْ ابْتِدَائِهَا بِالْأَمْسِ وَخَتَمِهَا فِي الْيَوْمِ الثَّانِي ، وَقَطَعَتْ
الْمَجْلِسَ ، فَانْصَرَفَ قَوْمٌ وَأَقَامَ آخَرُونَ .

فَلَمَّا كَانَ الْيَوْمُ الثَّلَاثُ اجْتَمَعَ النَّاسُ ، فَضَرَبَتْ سِتَارَةَ وَأَجْلَسَتْ الْجَوَارِيَّ
كُلَّهِنَّ فَضَرَبْنَ وَضَرَبَتْ ، فَضَرَبْنَ عَلَى خَمْسِينَ وَتَرًّا ، فَتَزَلَّزَتِ الدَّارُ ؛ ثُمَّ غَنَّتْ
عَلَى عَوْدِهَا ؛ وَهَنَّ يَضْرِبْنَ عَلَى ضَرْبِهَا بِهَذَا الشَّعْرِ :

فَإِنْ خَفِيتُ كَانَتْ لَعَيْنُكَ قُرَّةً وَإِنْ تَبَدُّ يَوْمًا لَمْ يُعَمِّمْكَ^(٢) عَارُهَا
مِنْ الْخَفِرَاتِ الْبَيْضِ لَمْ تَرَوْا غِلْظَةً وَفِي الْحَسْبِ الضَّخْمِ الرِّفِيعِ نَجَارُهَا

(١) الجدان والفرح : موزان .

(٢) لم يعممك . لم يلحقك .

فَارَوْضَةً بِالْحَزَنِ طَيِّبَةُ الثَّرَى يَمِجُّ النَّدَى جَنَاجِلَهَا ^(١) وَعَرَارُهَا
بَاطِبِيبٍ مِنْ فِيهَا إِذَا جُنَّتْ طَارِقًا وَقَدْ أَوْقَدَتْ بِالْمَنْدَلِ ^(٢) الرُّطْبَ نَارُهَا
فَدَمَعَتْ أَعْيُنُ كَثِيرٍ مِنْهُمْ حَتَّى بَلَّوْا ثِيَابَهُمْ وَتَنَفَّسُوا الصُّعْدَاءَ ، وَقَالُوا : بَأْنَفْسِنَا
أَنْتِ يَا جَمِيلَةَ ، ثُمَّ قَالَتْ لِلْجَوَارِي : اكْفُفْنَ ، فَكَفَفْنَ ؛ وَقَالَتْ : يَا عَزُّ ؛ غَنَى ، فَغَنَّتْ
بِشَعْرِ لَعْمَرٍ :

تَذَكَّرْتَ هَنَدًا وَأَعْصَارَهَا ^(٣) وَلَمْ تَقْضِ نَفْسُكَ أَوْطَارَهَا
تَذَكَّرْتَ النَّفْسُ مَا قَدْ مَضَى وَهَاجَتْ عَلَى الْعَيْنِ عُوَارَهَا ^(٤)
لِتَمْنَحَ رَامَةً مَنَا الْهَوَى وَتَرْعَى لِرَامَةٍ أَسْرَارَهَا
إِذَا لَمْ تَزُرْهَا حِذَارَ الْعِدَا حَسَدْنَا عَلَى الزُّورِ زُورَهَا
فَقَالَتْ جَمِيلَةُ : يَا عَزُّ ، إِنَّكَ لِبَاقِيَةٌ عَلَى الدَّهْرِ ، فَهَنِيئًا لَكَ حَسَنُ هَذَا الصَّوْتِ
مَعَ جَوْدَةٍ هَذَا الْغَنَاءُ !

ثُمَّ قَالَتْ لِجَبَابَةِ وَسَلَّامَةٍ : هَاتِيَا لَنَا وَاحِدًا ، فَغَنَّتَا :
كُنِي حَزَنًا أَنَّى أَغْيَبُ وَتَشْهَدُ وَمَا نَلْتَقِ وَالْقَلْبُ حَرَّانُ مُقْصَدُ ^(٥)
وَمَنْ عَجِبَ أَنَّى إِذَا اللَّيْلُ جَنَنِي أَقُومُ مِنَ الشُّوقِ الشَّدِيدِ وَأَقْعُدُ
أَحْنُ إِلَيْكُمْ مِثْلَ مَا حَنَّ نَائِقُ إِلَى الْوَرْدِ عَطْشَانُ الْفَوَادِ مُصْرَدُ ^(٦)
وَلِي كَيْدٌ حَرَّيْ يَمْدُبُهَا الْهَوَى وَلِي جَسَدٌ يَبْلَى وَلَا يَتَجَدَّدُ
فَاسْتَحْسَنُ غَنَاؤَهَا .

(١) الجَنَاجِلُ : من أحرار الشجر ، له زهرة صفراء طيبة . والعرار : نبت طيب الريح وهو
الترجيس البري . (٢) المندل : أجود العود . (٣) الأعصار : جمع عصر ، يريد الأوقات التي
كان يجتمعون فيها . (٤) العوار : ما عار في العين من الغدى والرمد فأوجعها .
(٥) مقصد : مجروح . (٦) التصريد : سقى دون الري .

ثم أقبلت على خَلِيدَة ، فقالت لها : بنفسى أنت ! غنى ، ففنت :

ألا يامن يَومُ على التَّصَابَى أَفَقٌ شَيْئًا لِسَمْعٍ مِنْ جَوَابِ
بَكَرَتْ تَلَوْنِي فِي الْحَبِّ جَهْلًا وما في حَبٍّ مثلى من مَعَابِ
أليس من السَّعَادَةِ غَيْرُ شَكٍّ هَوَى مُتَوَاصِلِينَ عَلَى اقْتِرَابِ
كَرِيمٌ نَالَ وَدًّا فِي عَفَافٍ وَسْتَرٍ مِنْ مُنْعَمَةٍ كَعَابِ
فاستُحْسِنَ مِنْهَا مَا غَنَتْ . ثم قالت لَعْقِيلَةَ وَالشَّمَّاسِيَّةَ : هَاتِيَا فَعَنَّتَا :

هَجَرَتْ الْحَبِيبَ الْيَوْمَ فِي غَيْرِ مَا اجْتَرَمَ وَقَطَعْتَ مِنْ ذِي وَدِّكِ الْحَبْلَ فَانصَرَمَ
أَطَعْتَ الْوَشَاةَ الْكَاشِحِينَ وَمَنْ يُطِيعَ مَقَالَةَ وَاشٍ يَقْرَعُ السَّنَّ مِنْ نَدَمِ
ثم قالت لِقِرْعَةَ وَبُلْبُلَةَ وَلَذَّةَ الْعَيْشِ : هَاتِينَ فَعَنَّتِينَ ، فاندفعن بصوت واحد :

لَعَمْرِي لئن كَانَ الْفَوَادُ مِنَ الْهَوَى بَنَى سَقْمًا إِنِّي إِذْنُ لَسَقِيمُ
عَلَى دِمَاءِ الْبُذْنِ إِنْ كَانَ حُبُّهَا عَلَى النَّأْيِ فِي طَوْلِ الزَّمَانِ يَرِيمُ
تَلَمْ مُلَمَّتٌ فَيُنْسَيْنَ بَعْدَهَا وَيَذْكَرُ مِنْهَا الْعَهْدُ وَهُوَ قَدِيمُ
فَأَقْسَمُ مَا صَافَيْتُ بِمَدِّ خَلَّةٍ ^(١) وَلَا لَكَ عِنْدِي فِي الْفَوَادِ قَسِيمُ
قالت : أَحْسَنْتُنِ ، وَهُوَ لَعَمْرِي حَسَنٌ !

وقالت لِسُعْدَةَ وَالزَّرْقَاءَ : غَنِيَا ، فَعَنَّتَا ، فَاسْتُحْسِنَ غَنَاؤُهُمَا .

ثم قالت لِلجَّامِعَةِ : غَنُّوا جَمِيعًا ؛ فَعَنُّوا ، وَانْفَضَّ الْمَجْلِسُ ، وَعَادَ كُلُّ إِنْسَانٍ إِلَى وَطْنِهِ . فَارْتَأَى مَجْلِسٌ وَلَا جَمْعٌ أَحْسَنُ مِنْ هَذِهِ الْأَيَّامِ !

١٢ - الغناء يحى القلب*

حدث من يفهم الغناء ، قال :

بلغنى أن جميلة قعدت يوماً على كرسى لها وقالت لأذنتها : لا تحجبى عنا أحداً اليوم ، واقعدى بالباب ، فكل من يمر بالباب فاعرضى عليه مجلسى ؛ ففعلت ذلك حتى غصت الدار بالناس ؛ فقالت جميلة : اصعدوا إلى العلالي^(١) ؛ فصعدت جماعة حتى امتلأت السطوح .

فجاءتها بعض جواربها فقالت لها : ياسيدتى ؛ إن تهادى أمرلك على ما أرى لم يبق فى دارك حائطٌ إلا سقط ، فأظهرى ماتريدين ؟ قالت : اجلسى ! فلما تعالى النهار واشتد الحر استسقى الماء الناس ، فدعت لهم بالسويق^(٢) ، فشرب من أراد ، ثم قالت : أقسمت على كل رجل وامرأة دخل منزلى إلا شرب ، فلم يبق فى سفل الدار ولا علوها أحدٌ إلا شرب ، وقام على رؤوسهم الجوارى بالمناديل والمراوح الكبار ، وأمرت جواربها فقمْنَ على كراسى صغار فيما بين كل عشرة جارية تُروِّح .

ثم قالت لهم : إني قد رأيت فى منامى شيتا أفزعنى وأزعبنى ، ولست أعرف ما سبب ذلك ، وقد خفت أن يكون قرب أجلى ، وليس ينفعنى إلا صالحٌ على ، وقد رأيت أن أترك الغناء كراهة أن يلحقنى منه شئ . عند ربى !

فقال قوم منهم : وفقك الله وثبت عزمك ! وقال آخرون : لا حرج عليك فى الغناء . وقال شيخ منهم ذو سن وعلم وفقه وتجربة : قد تكلمت الجماعة ،

* الأغاني : ٨ - ٢٢٤ .

(١) العلالي : جمع عليّة ، وهى الغرفة (٢) السويق : شراب يتخذ من الخنطة والشعير .

وكلَّ حَزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ، ولم أَعترض عليهم في قولهم ، ولا شَرِّكُنْهُمْ في رأيهم فاستَمِعُوا الآنَ لقولي ، وَأَنْصِتُوا وَلَا تَشْغَبُوا^(١) إلى وقت انقضاء كلامي ، فمن قَبِلَ قولي قاله مَوْقَعُهُ ، ومن خالفني فلا بأسَ عليه إذ كنتُ في طاعة ربي .

فسكت القومُ جميعاً ، وتكلم الشيخُ فَحَمِدَ اللهَ وأثنى عليه وصلى على محمد النبيِّ صلى الله عليه وسلم . ثم قال : يامعشرَ أهلِ الحجاز ، إنكم متى تخاذلتم فتلتم ، ووُثِبَ عليكم عدوُّكم ، وظفرَ بكم ، ولا تُفْلِحُوا بعدها أبداً . . . إلى أن قال : إن الغِناءَ من أكبر اللذات ، وأسَرُّ للنفس من جميع الشهوات ، يُحْيِي القلب ، ويزيد في العقل ، ويسرُّ النفس ، ويفسِّحُ في الرأي ، ويتيسر به العسيرُ ، وتُفتَحُ به الجيوشُ ، ويدلَّلُ به الجبارون حتى يمتهنوا أنفسهم عند استماعه ، ويُبري المرضي ومن مات قلبُهُ وعقلُهُ وبصرُهُ ، ويزيدُ أهلُ الثروة غنىً وأهلُ الفقر قناعة ورضاً باستماعه ، فيَعْرِفُونَ^(٢) عن طلب الأموال . من تمسَّك به كان علماً ، ومن فارقه كان جاهلاً ؛ لأنه لا منزلة أرفعُ ، ولا شيء أحسنُ منه ، فكيف يُسْتَصَوَّبُ تركه ، ولا يُستعان به على النشاط في عبادَةِ ربنا عزَّ وجل ! وكلام كثيرٍ غير هذا .

فما ردَّ عليه أحد ، ولا أنكرَ ذلك منهم بشرُّ ، وكلُّ عاد بالخطأ على نفسه ، وأقرَّ بالحق له !

ثم قال لجميلة : أَوْعَيْتِ ماقلتُ ؟ ووقع من نفسك ما ذكرتُ ؟ قالت : أجل ! وأنا أستغفرُ الله . قال لها : فاختمي مجلسنا وفرِّقي جماعتنا بصوتٍ فقط ، ففنت :

أَفِي رَسْمِ دَارٍ دُمُوعُكَ الْمَتَرَقُّقُ سَفَاهَا ! وَمَا اسْتِنَاطُ مَالِيسٍ يَنْطِقُ
بِمَيْثُ التَّقَى جَمْعٌ وَأَقْصَى مُحَسَّرٍ^(٣) مَفَايِهُ قَدْ كَادَتْ عَنِ الْعَهْدِ تَخْلُقُ

(١) شغبت على القوم : هيجت الشر عليهم . (٢) عزفت نفسي عن الشيء : تركته وزهدت فيه وانصرفت عنه . (٣) جمع : علم للزدلفة . ووادي عسر : موضع بين منى والزدلفة .

مُقَامٌ لَنَا بَعْدَ الْعِشَاءِ وَمَنْزِلٌ بِهِ لَمْ يَكْدِرْهُ عَلَيْنَا مَعْوَقٌ
فَأَحْسَنُ شَيْءٍ كَانَ أَوَّلُ لَيْلِنَا وَأَخْرَهُ حُزْنَ إِذَا تَفَرَّقُوا
فَقَالَ الشَّيْخُ : حَسَنٌ وَاللَّهِ ! أَمْثَلُ هَذَا يُتْرَكُ ! لَا وَاللَّهِ وَلَا كِرَامَةٌ لِمَنْ خَالَفَ
الْحَقَّ . ثُمَّ قَامَ وَقَامَ النَّاسُ مَعَهُ ، وَقَالَ : الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَفْرَقْ جَاعَتَنَا عَلَى الْيَأْسِ مِنْ
الْفَنَاءِ وَلَا جُحُودِ فَضِيلَتِهِ ، وَسَلَامٌ عَلَيْكَ وَرَحْمَةُ اللَّهِ يَاجَمِيلَةَ .

١٣ — ضَرْبٌ مِنَ التَّمَثِيلِ *

قَالَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ : جَلَسْتُ جَمِيلَةً يَوْمًا وَلَبِسْتُ بُرْنَسًا^(١) طَوِيلًا ، وَأَلْبَسْتُ
مَنْ كَانَ عِنْدَهَا بَرَانِسَ دُونَ ذَلِكَ ، وَكَانَ فِي الْقَوْمِ ابْنُ سُرَيْجٍ ، وَكَانَ قَبِيحَ
الصَّلَعِ ، قَدْ اتَّخَذَ وَفْرَةً^(٢) شَعْرَ يَضَعُهَا عَلَى رَأْسِهِ ، وَأَحَبَّتْ جَمِيلَةٌ أَنْ تَرَى
صَلَعَتَهُ^(٣) ، فَلَمَّا بَلَغَ الْبَرْنَسُ إِلَى ابْنِ سُرَيْجٍ قَالَ : دَبَّرْتُ عَلَى وَرَبِّ السَّكْبَةِ !
وَكَشَفَ صَلَعَتَهُ وَوَضَعَ الْقُلْدَنِيَّةَ^(٤) عَلَى رَأْسِهِ ، وَضَحَكَ الْقَوْمُ مِنْ قُبْحِ صَلَعَتِهِ .
ثُمَّ قَامَتِ جَمِيلَةٌ وَرَقَصَتْ ، وَضَرَبَتْ بِالْعُودِ ، وَعَلَى رَأْسِهَا الْبُرْنَسُ الطَّوِيلُ ،
وَعَلَى عَاتِقِهَا بُرْدَةٌ يَمَانِيَّةٌ ، وَعَلَى الْقَوْمِ أَمْثَالُهَا ، وَقَامَ ابْنُ سُرَيْجٍ يَرْقُصُ وَمَعْبُدُو الْغَرَايِضِ
وَابْنُ عَائِشَةَ وَمَالِكٌ ، وَفِي يَدِ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ عُودٌ يَضْرِبُ بِهِ عَلَى ضَرْبِ جَمِيلَةَ
وَرَقَصَ هَا ، فَفَنَّتْ وَغَنَّى الْقَوْمُ عَلَى غَنَائِهَا :

ذَهَبَ الشَّبَابُ وَلَيْتَهُ لَمْ يَذْهَبِ وَعَلَا الْمَفَارِقَ وَقَعُ شَيْبٌ مُغْرِبٍ^(٥)

* الْأَغَانِي : ٨ - ٢٢٦ .

(١) الْبَرْنَسُ : قُلْدَنُ طَوِيلَةٌ ، أَوْ كُلُّ نَوْبِ رَأْسِهِ مِنْهُ ، دِرَاعَةٌ كَانَ أَوْجِبَةً أَوْ مِمْعَارًا .
(٢) الْوَفْرَةُ : الشَّعْرُ الْمُجْتَمِعُ عَلَى الرَّأْسِ (٣) الصَّلَعَةُ : بَفَتْحِ اللَّامِ وَسُكُونِهَا : مَوْضِعُ الصَّلَعِ .
(٤) الْقُلْدَنِيَّةُ : الْقُلْدَنُ : مَا يَلْبَسُ فِي الرَّأْسِ . (٥) مُغْرِبٌ : أَيْبُضٌ .

وَالْفَانِيَاتُ يُرِدْنَ غَيْرَكَ صَاحِبًا وَيَعِدْنَكَ الْهَجْرَانَ بَعْدَ تَقَرُّبِ
إِنِّي أَقُولُ مَقَالَةً بِتَجَارِبِ حَقًّا ، وَلَمْ يُخْبِرْكَ مِثْلُ مُجَرَّبِ :
صَافِ الْكَرِيمِ وَكَنْ لِعِرْضِكَ صَائِنًا وَعَنِ اللَّئِيمِ وَمِثْلِهِ فَتَنَكِبِ
ثُمَّ دَعَتْ بَثْيَابَ مُصَبَّغَةٍ وَوَفْرَةَ شَعْرِ مِثْلَ وَفْرَةِ ابْنِ سُرَيْجٍ فَوَضَعَهَا عَلَى رَأْسِهَا ،
وَدَعَتْ لِلْقَوْمِ بِمِثْلِ ذَلِكَ فَلَبَسُوا ، ثُمَّ ضَرَبَتْ بِالْعُودِ وَتَمَشَّتْ وَتَمَشَّى الْقَوْمُ خَلْفَهَا ،
وَغَنَّتْ وَغَنُّوا بِغَنَائِهَا بِصَوْتٍ وَاحِدٍ :

يَمْشِينَ مَشْيَ قَطَا الْبَطَاحِ تَأَوُّدًا^(١) قُبَّ^(٢) الْبُطُونِ رَوَاجِحَ الْأَكْفَالِ
فِيهِنَّ آنَسَةُ الْحَدِيثِ حَيَّيَّةٌ لَيْسَتْ بِفَاحِشَةٍ وَلَا مِتْفَالٍ^(٣)
وَتَسْكُونُ رِيْقَتُهَا^(٤) إِذَا نَبَهَتْهَا كَأَلَمْسِكَ فَوْقَ سُلَاقَةِ الْجُرْيَالِ^(٥)
ثُمَّ نَعَرَّتْ^(٦) ، وَنَعَرَ الْقَوْمُ طَرَبًا ، ثُمَّ جَلَسَتْ وَخَلَعُوا ثِيَابَهُمْ ، وَرَجَعُوا
إِلَى زِيَّهِمْ ، وَأَذِنَتْ لِمَنْ كَانَ بِيَابِهَا فَدَخَلُوا ، وَانصَرَفَ الْمُغَنُّونَ ، وَبَقِيَ عِنْدَهَا مِنْ
بِطَارِحُهَا مِنَ الْجَوَارِي !

١٤ — وفود ابن مسجج على عبد الملك بن مروان *

قَالَ دَحْهَانُ الْأَشْقَرُ : كُنْتُ عَامِلًا لِعَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ بِمَكَّةَ ، فَنَمِيَّ إِلَيْهِ
أَنَّ رَجُلًا أَسْوَدَ يُقَالُ لَهُ : سَعِيدُ بْنُ مَسْجَجٍ^(٧) أَفْسَدَ فِتْيَانِ قَرِيشٍ ، وَأَنْفَقُوا عَلَيْهِ
أَمْوَالَهُمْ ؛ فَكُتِبَ إِلَيَّ : أَنْ أَقْبِضَ مَالَهُ وَسَيِّرَهُ ، فَفَعَلْتُ .

(١) تَأَوُّدُ الشَّيْءِ : تَعُوجٌ ، وَتَنَنٌ . (٢) قُبَّ الْبُطُونُ : ضَامَرَى الْبُطُونِ .
(٣) الْمِتْفَالُ : الْمُتَغَيَّرَةُ الرِّيحُ لَنَزْلِ التَّطْيِيبِ . (٤) الرِّيقُ : مَاءُ الْقَهْوِيِّوْثِ فِي الشَّعْرِ .
(٥) الْجُرْيَالُ : مِنْ أَسْمَاءِ الْحُمْرِ . (٦) نَعَرَ الرَّجُلُ : صَاحَ ، وَصَوَّتَ بِخَيْشُومِهِ .

* الْأَغَانِي : ٣ - ٢٧٢ .

(٧) سَعِيدُ بْنُ مَسْجَجٍ . أَحَدُ الْمَوَالِي ، مَكِّيٌّ أَسْوَدٌ ، مَغْنٍ مُقْتَدِرٌ ، كَانَ أَوَّلَ مَنْ غَنَى الْغَنَاءَ الْعَرَبِيَّ
بِمَكَّةَ ، وَهُوَ الَّذِي عَلَّمَ ابْنَ سُرَيْجٍ وَالْغَرِيضَ .

فتوجه ابن مسجح إلى الشام ، فصحبه رجل له جوارٍ مُغْنِيَاتٌ في طريقه ، فقال له : أين تريد ؟ فأخبره خبره ، وقال له : أريدُ الشام . قال له : فتكونُ معي ؟ قال : نعم .

فصحبَه حتى بلغا دِمَشق ، فدخلَا مسجدها ، فسألا : مَنْ أَخَصُّ النَّاسِ بِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ؟ فقالوا : هؤلاء النَّفَرُ من قريش ، فوقف ابن مِسْجَحَ عليهم وسلّم ، ثم قال : يافِتَيَانُ ؛ هل فيكم من يُضَيِّفُ رجلاً غريباً من أهل الحجاز انظر بعضهم إلى بعض - وكان عليهم موعد أن يذهبوا إلى قَيْنَةِ يقال لها «بَرَقُ الْأَفْقِ» - فتناقلوا به إلا فتى منهم تَدَمَّ (١) ؛ فقال : أنا أُضَيِّفُكَ . وقال لأصحابه : انطلقوا أتم ، وأنا أذهب مع ضيفي . قالوا : لا ، بل تجيء أنت وضيفك .

فذهبوا جميعاً إلى بيت القَيْنَةِ ؛ فلما أثوا بالغداء قال لهم سعيد : إني رجل أسود ، ولعل فيكم من يَقْدَرُنِي (٢) ، فأنا أجلسُ وآكلُ ناحيةً ، وقام . فاستحيوا منه ، وبعثوا إليه بما أكل ، فلما صاروا إلى الشراب قال لهم مثل ذلك ، ففعلوا به كما فعلوا في المأكل . وأخرجوا جارتين فجلستا على سريرٍ قد وُضِعَ لهما ففغنتا إلى العشاء . ثم دخلتا ، وخرجت جاريةٌ حسنةُ الوجه والمهيئة ، وهما معها ، فجلست على السرير وجلستا أسفلَ منها عن يمين السرير وشماله ، قال ابن مسجح : فتمثلتُ هذا البيت :

قللت أتمسُّ أم مصاييحُ بيعةٍ (٣) بدت لك خاف السَّجَفُ (٤) أم أنت حالم !
ففضبت الجارية ، وقالت : أضربُ هذا الأود بي الأمثال ! فنظروا إلى نظرا مُسْكراً ، ولم يزلوا يسكّنونها ، ثم غنت صوتاً . فقلت : أحسنت والله ؛ فغضب

(١) تدمم : خشي الذم واللوم . (٢) قدّرت الشيء : استقدّرتَه وكرهته .

(٣) البيعة : كنيسة النصارى . (٤) السجف - بالفتح وبكسر : السرير .

مولاهما ، وقال : أَمثلُ هذا الأسودُ يُقَدِّمُ على جاريتي ! فقال لى الرجل الذى أنزلنى عنده : قم فانصرف إلى منزلى ؛ فقد نُقِلْتَ على القوم . فذهبتُ أقومُ فقدمَ القوم ، وقالوا لى : بل أقيم وأحسن أدبك ، فأقمت وغنّيت . فقلت : أخطأتِ والله وأسأتِ ! ثم اندفعتُ فغنّيتُ الصوت . فوثبتِ الجارية وقالت لمولاهما : هذا والله أبو عثمان سعيدُ بن مسجح ! فقلت : والله أنا هو ، والله لا أقيم عندهم ! فوثب القرشيون ؛ فقال هذا : يكونُ عندى . وقال هذا : يكونُ عندى . وقال هذا : بل عندى ! فقلت : والله لا أقيم إلا عند سيّدكم - يعنى الرجل الذى أنزله منهم .

ثم سألوهُ عما أقدمه ؛ فأخبرهم الخبر ، فقال له صاحبه : إني أَسْمُرُ الليلةَ مع أمير المؤمنين ؛ فهل تُحَسِّنُ أن تُحَدِّثُوا ؟ قال : لا ! ولكنى أَسْتَعْمِلُ حَدَاءً . قال : فإن منزلى بِحَدَاءِ منزل أمير المؤمنين ؛ فإن وافقتُ منه طيبَ نفس أرسلتُ إليك .

ومضى إلى عبد الملك ، فلما رآه طيَّبَ النَّفْسَ أرسل إلى ابن مسجح ، فأخرجَ رأسه من وراء شُرْفِ القصر ، ثم حَدَا :

إِنَّكَ يَا مُعَاذُ يَا بَنَ الْفُضَّلِ إِنْ زُلْزِلَ الْأَقْدَامُ لَمْ تَزَلْزَلِ

عن دين موسى والكتابِ الْمُنْزَلِ تُقِيمُ أَصْدَاغَ الْقُرُونِ الْمِيلِ^(١)

* لِلْحَقِّ حَتَّى يَنْتَحُوا لِلْأَعْدَلِ *

فقال عبد الملك للقرشي : مَنْ هذا ؟ قال له : رجل حجازي قَدِمَ عَلَى . قال : أَحضره . فأحضره وقال له : احْدُ مُحَدِّثًا ، ثم قال : هل تغنى غناء الرُّكبان ؟ قال : نعم . قال : غَنِّ . فتغنّى . فقال له : فهل تغنى الغناء الْمُتَقَنُّ ؟ قال : نعم . قال : غَنِّ ، فتغنّى .

(١) الصدغ : ما بين العين والأذن . والقرنان : جانبا الرأس ، والصدغ : الميل ، ومنه : « لأقمن صدغك ، أى ميلك .

فَاهْتَزَّ عَبْدُ الْمَلِكِ طَرَبًا . ثُمَّ قَالَ : أَقْسَمُ إِنَّ لَكَ فِي الْقَوْمِ لَأَسْمَاءَ كَثِيرَةً !
 مَنْ أَنْتَ ؟ وَيْلَكَ ! قَالَ لَهُ : أَنَا الْمَظْلُومُ ، الْمَقْبُوضُ مَالُهُ ، الْمَسِيرُ عَنْ وَطْنِهِ سَعِيدُ بْنُ مَسْجَحٍ ،
 قَبِضَ مَالِي عَامِلُ الْحِجَازِ وَنَفَانِي !

فَتَبَسَّمَ عَبْدُ الْمَلِكِ . ثُمَّ قَالَ لَهُ : قَدْ وَضَحَ عُذْرُ فَتَيَانٍ قَرِيشٍ فِي أَنْ يُنْفَقُوا
 عَلَيْكَ أَمْوَالُهُمْ . وَأَمَنَهُ وَوَصَلَهُ ، وَكُتِبَ إِلَى عَامِلِهِ بِرَدِّ مَالِهِ عَلَيْهِ وَالْأَلَا يُعْرِضُ
 لَهُ بِسُوءٍ .

١٥ — دَعَايَةُ لِلْوَطَنِ *

كَانَ بَعْضُ وَلَاةِ الْكَوْفَةِ يَذُمُّ الْحَيْرَةَ فِي أَيَّامِ بَنِي أُمَيَّةَ ، فَقَالَ لَهُ رَجُلٌ مِنْ
 أَهْلِهَا — وَكَانَ عَاقِلًا ظَرِيفًا : أَتَعِيبُ بِلَدَةً بِهَا يُضْرَبُ الْمَثَلُ فِي الْجَاهِلِيَّةِ وَالْإِسْلَامِ !
 قَالَ : وَبِمَاذَا تُمَدِّحُ ؟ قَالَ : بِصَحَّةِ هَوَائِهَا ، وَطِيبِ مَائِهَا ، وَنَزْهَةِ ظَاهِرِهَا ، تَصْلُحُ
 لِلْخُفِّ وَالظَّلْفِ ، مَهْلٌ وَجَبَلٌ ، وَبَادِيَةٌ وَبُسْتَانٌ ، وَبَرٌّ وَبَحْرٌ ، مَحَلٌّ لِلْمُلُوكِ
 وَمَزَارُهُمْ وَمَسْكَنُهُمْ وَمَثْوَاهُمْ ، وَقَدْ قَدِمَتْهَا — أَصْلَحَكَ اللَّهُ — مُخَفًّا ^(١) فَرَجَعَتْ
 مُتَقِلًا ، وَوَرَدَتْهَا مُقِلًّا فَأَصَارَتْكَ مُكْثَرًا ، قَالَ : فَكَيْفَ نَعْرِفُ مَا وَصَفْتَهَا بِهِ مِنْ
 الْفَضْلِ ؟ قَالَ : بَأَن تَصِيرَ إِلَيَّ ، ثُمَّ أَدْعُ مَا شِئْتَ مِنْ لَذَاتِ الْعَيْشِ ، فَوَاللَّهِ لَا أَجُوزُ
 بِكَ الْحَيْرَةَ فِيهِ !

قَالَ : فَاصْنَعْ لَنَا صَنِيعًا ^(٢) ، وَاخْرُجْ مِنْ قَوْلِكَ . قَالَ : أَفْعَلُ ، فَصَنَعَ لَهُمْ طَعَامًا ،
 وَأَطْعَمَهُمْ مِنْ خُبْزِهَا وَسَمَكِهَا وَمَا صِيدَ مِنْ وَخْشِهَا : مِنْ ظَبَاءٍ وَنَعَامٍ وَأَرَانِبَ
 وَحُبَارَى ^(٣) ، وَسَقَامَ مَاءِهَا فِي قِلَالِهَا ، وَأَجْلَسَهُمْ عَلَى رَقِيمِهَا ^(٤) ، وَلَمْ يَسْتَخْدِمْ لَهُمْ

* الْأَغَانِي : ٢ — ٣٥١ .

(١) يُقَالُ أَخَذْتُ الرَّجُلَ : إِذَا خَفَتْ حَالُهُ وَرَقَتْ . (٢) الصَّنِيعُ هُنَا : الطَّعَامُ . (٣) طَائِرٌ
 طَوِيلُ الْعُنُقِ رَمَادَى اللَّوْنِ . (٤) الرَّقِيمُ : الْوَشْيُ الْمُخَطَّطُ .

حُرّاً ولا عبداً إلا من مؤلّديها ومولّداتها، من خديم ووصائف ووصفاء كأنهم اللؤلؤ،
لَقَتُهُمْ لَفَةً أَهْلِيهَا، ثُمَّ غَنّاهُمْ حُنَيْنٌ وَأَصْحَابُهُ فِي شِعْرِ عَدِيَّ بْنِ زَيْدٍ شَاعِرِهِمْ وَأَعَشَى
هَمْدَانٍ لَمْ يَتَجَاوَزْهُمَا، وَحَيَّاهُمْ بِرِيَاحِينِهَا، وَقَلَّهْمُ^(١) عَلَى شَرَابِهَا - وَقَدْ شَرَبُوا -
بَفُؤَاكِهِمَا. ثُمَّ قَالَ لَهُ: هَلْ رَأَيْتَنِي اسْتَعْنْتُ عَلَى شَيْءٍ مِمَّا رَأَيْتَ وَأَكَلْتَ وَشَرَبْتَ
وافتَرَشْتَ وَشَمَمْتَ وَسمعت بغير ما في الخيرة؟ قال: لا والله، ولقد أحسنت
صفة بلدك، وأنصرتَه فأحسنت أنصرتَه والخروج مما تضمّنته، فبارك الله لكم
في بلدكم.

١٦ - أَيْ الْأُمِّ أَعْقِلُ ؟ *

قال شبيب^(٢) بن شيبّة أحد بلغاء العرب وجليس الملوك :

كنا وقوقاً بالمِرْبَدِ^(٣)، وكان المِرْبَدُ مَأْلَفَ الْأَشْرَافِ، إِذْ أَقْبَلَ ابْنُ الْمُفَقِّعِ^(٤)
فَبَشَّشْنَا بِهِ وَبِأَنَّهُ بِالسَّلَامِ، فَرَدَّ عَلَيْنَا السَّلَامَ ثُمَّ قَالَ: لَوْ مِلْتُمْ إِلَى دَارِ نَيْرُوزِ

(١) قلهم : أطعمهم النقل .

* أسواق الذهب : ٤٠٠ ، بلوغ الأرب : ١ - ١٥٩ .

(٢) هو شبيب بن شيبّة بن عبد الله المنقري التميمي خطيب البصرة في زمانه نشأ في البصرة
وامتاز بنبالة نفس وسخاء كف ، وحسن تواضع ونزاهة لسان . وعرف شبيب أبا جعفر المنصور
قبل خلافته ، ثم اتصل به بعدها ، فجعله في حاشية ولي عهده المهدي ، وبقي كذلك حتى ولي
المهدي الخلافة فصار من خيرة سماره وجلسائه إلى أن مات سنة ١٧٠ هـ . (٣) مربد البصرة :
هو في الأصل متسع للابل تعرض فيه للبيع ، ثم أصبح على عهد الأمويين سوقاً عامة تتخذ فيه
المجالس وتتعقد الحلقات يتوسطها الشعراء والرجاز ويؤمها الأشراف فيتناشدون ويتفاخرون
ويتهاجون ويتشاورون (٤) كان عبد الله بن المفقع من أبناء الفرس الذين نشأوا بين العرب ،
ولد سنة ١٠٦ هـ ونشأ بالبصرة وكان أبوه مجوسياً يجمع خراج فارس للحجاج بن يوسف وبقي
ابن المفقع أكثر أيامه على دين المجوسية ، ثم أسلم في آخر عمره ، وتعلم صناعة الكتابة ، وبرع
في ذلك ، وكتب لكثير من الأمراء ، وكان غاية في الذكاء ، اشتهر ببلاغته ورشاقته عبارته ، وكان
فوق ذلك من كبار المترجمين والمؤلفين ، ومات مقتولاً سنة ١٤٢ هـ .

وظلّها الظليل ، وسورها المديد ، ونسيمها العجيب ، فعودتُمْ أبدأ نَكْمَ تمهيدِ الأرض ، وأرحتُمْ دَوَابَّكُمْ من جهدِ الثقل ! فإن الذي تطلبونه لم تفلتوه^(١) ، ومهما قضى الله لكم من شئ تناوله .

فقلنا ومِلْنَا ، ولما استقرَّ بنا المكانُ قال لنا : أىُّ الأممِ أعقل ؟ فنظر بعضنا إلى بعض ! فقلنا : لعله أراد أصله من فارس ، فقلنا : فارس ، فقال : ليسوا بذلك ؛ إنهم ملكوا كثيراً من الأرض ، ووجدوا عظيماً من الملوك ، وغلبوا على كثير من الخلق ، ولبثَ فيهم عَقْدُ الأمر ، فما استنبطوا شيئاً بعقولهم ، ولا ابتدعوا باقى حُكْمٍ فى نفوسهم . . .

قلنا : فالروم ، قال : أصحاب صنعة . قلنا : فالصين ، قال : أصحاب طرفة . قلنا : فالهند . قال : أصحاب فلسفة . قلنا : فالسودان ، قال : شرُّ خلقِ الله . قلنا : فالترك . قال : كلاب مُحْتَلِسَة . قلنا : فالخزر ، قال : بقرُ سائمة . قلنا : فقل ، قال : العرب !

فضحكنا جميعاً ؛ فقال : أما إني ما أردتُ موافقتكم ، ولكن إذ فاتني حظي من النسبة ، فلا يفوتني حظي من المعرفة ؛ إن العرب حكمتُ على غير مثال لها ، ولا آثار أثرت ؛ أصحابُ إبل وغنم ، وسكانُ شعر وأدم ، يجود أحدهم بقوته ، ويتفضل بجهوده ، ويشارك في ميسوه ومعسوره ، ويصف الشيء بعقله فيكون قُدوةً ، ويفعله فيصير حجةً ، ويحسن ما شاء فيحسن ، ويقبح ما شاء فيقبح ؛ أدبَتهم أنفسهم ورفعتهم همهم ، وأعلتهم قلوبهم وألستهم ، فلم يزل حياء الله فيهم ، وجباؤهم في

(١) أى لم يفلت منكم .

أنفسهم حتى رفعَ لهم الفخر ، وبلغ بهم أشرف الذكر ، وختمَ لهم بملكهم الدنيا
على الدهر ، وافتتح دينه وخلافته بهم إلى الحشر ، ولهم قال سبحانه : « إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ
يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ » ^(١) .
فَمَنْ وَضَعَ حَقَّهُمْ خَسِرَ ، ومن أنكر فضلهم خُصِمَ ^(٢) ، ودفعُ الحقِّ باللسان
أَكْبَتُ لِلْجَفَّانِ .

(١) سورة الأعراف ، آية ١٢٧ . (٢) خصم : غلب بالحجة .

١٧ — قِرَانُ الْعِلْيَةِ *

قال خادمُ أمير المؤمنين المأمون^(١) : طلبني أمير المؤمنين ليلة ، وقدمضي من الليل ثلثه ، فقال لي : خذْ معك فُلانًا وفلانًا وسَمًاها : أحدهما علي بن محمد ، والآخر دينار الخادم ، واذْهَبْ مسرعًا لما أقوله لك ؛ فإن أصحاب الأخبار قد أكثرُوا في أنَّ شيخًا يَحْضُرُ ليلاً إلى آثار البرامكة ، ويُشد شعراً وَيَذْكَرُهم ذكراً جميلاً ، ويندُبُهُم ويسكي عليهم ، ثم ينصرف ، فامضِ الآن أنت وعليّ ودينار حتى تَرِدُوا هذه الخربات ، فاستترُوا خَلْفَ جِدَارٍ من هذه الجُدُر ، فإذا رأيتم الشيخ قد جاء وبكى وندب ، وأنشد شيئاً فأتوني به .

قال : فأخذتهما ومضينا حتى وَرَدْنَا الخربات ، وإذا نحن بفلام قد أتى ، ومعه بساط وكرسی جديد ، وإذا شيخٌ وسيم ، له جمال وعليه مَهَابَةٌ وصَلَفٌ ، فجلس يسكي وينتجب ويقول :

ولَمَّا رَأَيْتَ السيفَ جَلَلًا^(٢) جعفرًا ونادى منادٍ للخليفةِ في يحيى
بكيتُ على الدنيا وأيقنتُ أَنَّهُ قُصَارَى الفتي يوماً مفارقةً الدُّنْيَا
أجعفرُ إن تهلكَ فَرُبَّ عَظِيمَةٍ كَشَفَتْ وتُعْمَى قد وصلتَ بها نُعْمَى
فقل للَّذِي أَبْدَى ليحيى وجعفرَ شَمَاتَتَهُ : أَبْشِرْ ، لَتَأْتِيَهُمُ الْعُقْبَى

* العقد الفريد للملك السعيد : ٨٩ ، المحاسن والمساوى : ١٢٢ — طبع ليزج .

(١) هو عبد الله المأمون بن هارون الرشيد ، بُويع بالخلافة بعد مقتل الأمين سنة ١٩٨ هـ ، كان ميالاً للعفو مطبوعاً على الخير ، راغباً في العلم ، محباً للجدل ، وأخباره في كل هذا مشهورة مأثورة ، توفي سنة ٢١٨ هـ .

(٢) جلله : علاه .

لَنْ زَالَ غُصْنُ الْمَلِكِ عَنْ آلِ بَرْمَكٍ فَا^(١) زَالَ حَتَّى أَتَمَّ الْفُضْنُ وَأَسْتَعْلَى
وَمَا الدَّهْرُ إِلَّا دَوْلَةٌ بَعْدَ دَوْلَةٍ تُبَدِّلُ ذَا مُلْكٍ وَتُعْقِبُ ذَا بُلُوَى
عَلَى أَنَّهَا لَيْسَتْ تَدُومُ لِأَهْلِهَا وَلَوْ أَنَّهَا دَامَتْ لَكُنْتُ بِهَا أُولَى
بَنِي بَرْمَكٍ كَفْتُمْ نَجُومًا مُضِيئَةً بِهَا يَهْتَدَى فِي ظُلْمَةِ اللَّيْلِ مَنْ أَسْرَى
لِكُلِّكُمْ أُنْكِى بَعَيْنٍ غَزِيرَةٍ وَقَلْبٍ قَرِيحٍ لَا يَمُوتُ وَلَا يَحْيَا
قال . فقرأينا^(٢) له لما فَرَّغَ ، ثم قبضنا عليه ؛ فجزع وفزع ، وقال : مَنْ أَنْتُمْ ؟

فقلتُ له : حاجبُ أمير المؤمنين ، وهذا فلان وفلان ! قال : وما تريدون مني ؟
فأعلمته ما أمر به أمير المؤمنين من أَخْذِهِ إِلَى مَجْلِسِهِ ؛ فقال : دَرْنِي أَوْصٍ وَصِيَّةً ؛
فإني لَا آمَنُ الْعَطَبَ . ثم تقدَّم إلى بعض الدكاكين ، وأخذ ورقة ، وكتب فيها
وصيةً دفعها إلى غلامه ؛ ثم سِرْنَا بِهِ .

فلما دخلَ إِلَى الْمَجْلِسِ وَمَثَلَ بَيْنَ يَدَيِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ زَجَرَهُ ، وقال له : مَنْ أَنْتَ ؟
وبماذا استوجب منك البرامكةُ ما تَفَعَّلُهُ فِي خَرِبَاتِ دُورِهِمْ ؟ فقال : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ؛
للبرامكةِ عِنْدِي أَيَادٍ خَضِرَاءُ ، أَفْتَاذُنُ لِي أَنْ أَحْدِثَكَ عَنْ حَالِي مَعَهُمْ ؟ قال : قل .
قال : أَنَا يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ الْمُنْذَرُ مِنَ الْغَيْبَةِ مِنْ أَهْلِ دِمَشْقَ ، كَفْتُ بِهَا مِنْ أَوْلَادِ
الْمُلُوكِ ، فَزَالَتْ عَنِّي نِعْمَتِي كَمَا تَزُولُ عَنِ الرِّجَالِ ، فلما رَكِبْتُ الدِّيُونَ ، وَاحْتَجَجْتُ إِلَى
بَيْعِ مَسْقَطِ رَأْسِي وَرُمُوسِ آبَائِي ، أَشَارُوا عَلَيَّ بِالْخُرُوجِ إِلَى الْبِرَامِكَةِ ، فَخَرَجْتُ مِنْ
دِمَشْقَ وَمَعِيَ نَيْفٌ وَثَلَاثُونَ امْرَأَةً وَصَبِيًّا وَصَبِيَّةً ، وَلَيْسَ مَعَنَا مَا يُبَاعُ وَلَا مَا يَرَهُنَ ،
حَتَّى دَخَلْنَا بَغْدَادَ وَنَزَلْنَا بِيَابَ الشَّامِ فِي بَعْضِ الْمَسَاجِدِ ، فَدَعَوْتُ بَثْيَابٍ لِي كَفْتُ

(١) الجواب للشرط مع تقدم القسم ، وإليه أشار ابن مالك في قوله :

وربما رجيع بعد قسم شرط بلاذى خبر مقدم

وهو مذهب الفراء ، ويرى الجمهور أن مثل البيت اللام فيه زائدة (٢) تراعى له : تصدى :

قد أعددتها لأستميح^(١) بها الناس فلبستها ، وخرجت وتركتهم جياعاً لا شيء عندهم ، ودخلتُ شوارعَ بغداد أسألُ عن دُور البرامكة . فإذا أنا بمسجد مزخرف ، وفيه مائة رجل بأحسن زِيٍّ وزينة وبرّة ، وعلى الباب خادمان .

فطمعتُ في القوم ، وولّجت المسجد ، وجلست بين أيديهم ، وأنا أقدم وأوخر ، والعرقُ يسيل مني ، لأنّها لم تكن صفّاعتي ، وإذا بخادم قد أقبل فحدث الخادمين فدخلوا وأزعجوا القوم ، فقاموا وأنا معهم .

فأدخلونا دارَ يحيى بن خالد ؛ ودخلت معهم ، فإذا يحيى جالس على دَكَّةٍ^(٢) له وسطُ بستان ، فسلمنا وهو يعدُّنا مائة وواحداً ، وبين يدي يحيى عشرة من ولده ، وإذا غلام أمرّد حين عذَرَ^(٣) خدّاه . قد أقبلَ من بعض المقاصير ، بين يديه خدام مُعَرِّطُونَ^(٤) ، في وسط كل خادم مِنطقة من ذهب يقربُ وزنها من ألف مثقال ، ومع كل خادم حِجَمرة من ذهب ، في كل حِجَمرة قطعة من عود كهيئة الفِهر^(٥) ، قد ضُمَّ إليه مثله من العنبر السلطاني ؛ فوضعه بين يدي الغلام ، وجلس الغلام إلى جنب يحيى .

ثم قال يحيى للزُّبُرقي القاضي : تكلم فقد زوجتُ بنتي عائشة من ابن عمي هذا . فخطب القاضي وزوّج ، وشهدت أولئك الجماعة ، وأقبلوا علينا بالنشّار^(٦) وبنّادق المسك والعنبر ، فالتقطتُ والله يا أمير المؤمنين ملء كمي ، ونظرتُ وإذا نحن مائةً واثنا عشر رجلاً ، فخرج إلينا مائة خادم واثنا عشر خادماً ، مع كل خادم صينية فضة ، عليها ألف دينار شاميّة ؛ فوضع بين يدي كل رجل منا صينيّته ،

(١) استميحه : سأله العطاء (٢) الدكة والدكان : الذي يقعد عليه (٣) عذر الغلام :

نبت شعر عذاره (٤) القرطبي كجندب : ضرب من الثياب ، (معرب كرتة) (٥) الحجر ملء الكف (٦) النشار : مانتائر من الشيء .

فرأيت القاضي والمشايخ يصبون الدنانير في أكمامهم، ويجعلون الصواني تحت آباطهم، ويقوم الأول فالأول حتى بقيت بين يدي يحيى لا أجبر على أخذ الصينية، فغمزني الخادم فجسرت وأخذتها، وجعلت الذهب في كُمِّي، وأخذت الصينية في يدي وقت، فجعلت ألتفت ورأى مخافة أن أمتنع من الذهاب بها.

فبينما أنا كذلك في صحن الدار أكثر من الالتفات، ويحني يَلْحظني، قال للخادم: ائتنى بذلك الرجل. فرُدْتُ إليه، فأمر فسكبت الدنانير والصينية وما كان في كمي، ثم أمرني بالجلوس فجلست؛ فقال: مِمَّن الرجل؟ فقصصت عليه قصتي. فقال: على بموسى، فأُتِيَ به، فقال: يا بني؛ هذا الرجل غريب، فخذْه إليك واحفظه بنفسك ونعمتك.

فقبض موسى على يدي، وأخذني إلى بعض دُورِهِ، فأكرمني وعاشرني يومى وليأتى أكلاً وشرباً؛ فلما أصبح دعا بأخيه العباس، وقال: إنَّ الوزير أمرني بالعطف على هذا الفتى، وقد علمت اشتغالي في دار أمير المؤمنين، فأقبضه إليك وأكرمه، ففعل، ثم لم أزل في أيدي القوم يتداولوني عشرة أيام، لا أعرفُ خبر عيالي وصِبياني؛ أفي الأموات هم أم في الأحياء؟

فلما كان اليوم العاشر دُفعت إلى يد الفضل، فعطف على وزاد في الكرامة، فلما كان اليوم الحادى عشر جاءني خادم ومعه جماعة من الخدم، فقالوا: قم فاخرج إلى عيالك بسلام. فقلت: وأويلاه! سُلِبَت الدنانير والصينية، وقد تمزقت ثيابي واتسخت وأخرجُ إلى عيالي على هذه الحالة! إنا لله وإنا إليه راجعون! فرفع الستر الأول، ثم الثانى، ثم الثالث، ثم الرابع، ثم الخامس والسادس، فلما رفع الخادم الست السابع قال لى: تمنّ ما شئت، وتقدّم إلى بقضاء جميع ما تأمر به. فلما رفع الست رأيت حُجْرَةً كالشمس حسناً ونوراً، استقبلاني

منها رائحةُ النَّدِّ والعودِ ونفحاتُ المسكِ ، وإذا أنا بصبيانٍ يتقلبون في الحرير والديباج ، وقد حُمِلَ إلى ألف ألف درهم مبدرةً ، وعشرةُ آلاف دينار ، وقبالتان^(١) بضيعتين ، وتلك الصينية فيها الدنانير والبنادق ، فبقيتُ يا أمير المؤمنين مع البرامكة في دورهم ثلاث عشرة سنة ، لا يعلم الناسُ أمِنَ البرامكة أنا أم رجل غريب اصطفوني !

فلما جاءت القومُ البليةُ ، ونزلتْ بهم من أمير المؤمنين الرشيدِ النازلةُ ، قصدني عمرو بن مسعدة وألزماني في هاتين الضيعتين من الخراج مالا يفي دخلهما به ، فلما تحاملَ على الدهر كنتُ في أواخر الليل أقصدُ خربات القوم ، فأندُبهم وأذكرُ حسنَ صنيعهم إليَّ ، وفاءً لهم على إحسانهم .

فقال المأمون : علىَّ بعمرو بن مسعدة . فلما أتني به قال له : يا عمرو ؛ أتعرفُ هذا الرجل ؟ قال : نعم يا أمير المؤمنين ، هو بعضُ صنائع البرامكة ، قال : كم ألزمته في ضيعتيه ؟ قال : كذا وكذا . فقال : ردَّ عليه كل ما استأديته^(٢) إياه في مدَّته ، وأوغرُوا^(٣) ضيعتيه تكونان له ولعقبه من بعده .

فعلًا نَحِيبُ الرجل ! ولما طال بكأوه قال له المأمون : أحسنًا إليك فلمَ تبكي ؟ فقال : يا أمير المؤمنين ؛ وهذا أيضًا من صنيع البرامكة . أرأيتك يا أمير المؤمنين لو لم آتِ خبرَ بائسهم فأبكيهم وأندبهم حتى اتَّصلَ خبري بأمر المؤمنين ففعل بي ما فعل ، من أين كنتُ أصلُ إلى ما وصلتُ إليه !

قال إبراهيم بن ميمون : فلقد رأيت المأمون وقد دَمَعَتْ عيناه ، واشتدَّ حزنُه على القوم ، وقال : صدقت ! لعمري هذه أيضًا من صنائع البرامكة ؛ فعليهم فأبك وإياهم فاشكر ، ولهم فأوفِ ، ولإحسانهم فأذكُر !

(١) النفاية : السكافة . (٢) استأداه مالا : إذا صادره وأخذه منه .

(٣) أوغر الملك الرجل الأرض : جعلها له من غير خراج .

١٨ — في قصور بني أمية*

قال محمد بن أحمد المسكي : حدثني أبي قال : دخلتُ إلى علويِّه^(١) أعودُهُ في علَّةٍ اعتلَّها ثم عوفي منها . فجرى حديثُ المأمون فقال : كِدْتُ — علم الله — أذهبُ دفعة ذات يوم وأنا معه ، لولا أن الله تعالى سلَّني ووهب لي حله . فقلت : كيف كان السببُ في ذلك ؟ فقال : كنتُ معه لما خرج إلى الشام ، فدخلنا دمشق فطُفْنَا فيها ، وجعل يطوفُ على قصور بني أمية وَيَتَّبِعُ آثارهم ، فدخل صحفا من صُحُوفهم ، فإذا هو مفروش بالرخام الأخضر كلَّه ، وفيه برَّكةُ ماء فيها سمك ، وبين يديها بستانٌ على زواياه أربعُ سرَّواتٍ^(٢) كأنها قُصَّتْ بمقراض من التفافها ، أحسنُ ما رأيتُ من السروات قدًّا وقَدْرًا .

فاستحسن ذلك وعزم على الصَّبوح ، وقال : هاتوا لي الساعةَ طعامًا خفيفًا ، فأتى به بين ماء وورد ، فأكل ودعا بشرابٍ ، وأقبل عليَّ وقال : غَنَّنِي ونَشِّطْنِي ، فكان الله عز وجل أنساني الغناء كله إلا هذا الصوت :

لو كان حولي بنو أمية لم تَنطِقْ رجالٌ أَرَاهُم نَطَقُوا
فنظر إلى مُغَضِّبًا ، وقال : عليك وعلى بني أمية لعنةُ الله ! ويلك ! أقلتُ لك سُوءِي أوسُرَنِي ! ألم يكن لك وقتٌ تذكُرُ فيه بني أمية إلا هذا الوقت ؟
تُعَرِّضُ بي !

* الأغانى : ١٠ — ١٢٤

(١) هو علي بن عبد الله بن سيف ، ويكنى علويه أبا حسن ، كان مغنياً حاذقاً ، ومؤدباً حسناً . وضارباً متقدماً نغم خفة روح ، وطيب مجالسة ، وملاحة نواذر ، علمه إبراهيم الموصلي وعنه به جداً ، فبرع ، وغنى لمحمد الأمين ، وعاش إلى أيام المتوكل (٢) السرو : شجر واحدته سروة .

فَتَحَيَّيْتُ^(١) عَلَيْهِ ، وَعَلِمْتُ أَنِّي قَدْ غَلَطْتُ فَقُلْتُ : أَتَلُومُنِي عَلَى أَنْ أَذْكَرَ
بَنِي أُمِيَّةَ ! هَذَا مَوْلَاكُمْ زُرِّيَابُ^(٢) عِنْدَهُمْ يَرْكَبُ فِي مَائَتِي غَلَامَ مَمْلُوكٍ لَهُ وَيَمْلِكُ
ثَلَاثُمِائَةَ أَلْفِ دِينَارٍ وَهَبُوهَا لَهُ سَوَى الْخَلِيلِ وَالضِّيَّاعِ وَالرَّقِيقِ . وَأَنَا عِنْدَكُمْ أَمُوتُ جُوعًا !
فَقَالَ : أَوَلَمْ يَكُنْ لَكَ شَيْءٌ تُذَكِّرُنِي بِهِ نَفْسِكَ غَيْرُ هَذَا ؟ فَقُلْتُ : هَكَذَا خَصَّرَنِي
حِينَ ذَكَرْتَهُ . فَقَالَ : اغْدِلْ عَنْ هَذَا وَغْنِنِي . فَأَنَسَانِي اللَّهُ كُلَّ شَيْءٍ أَحْسَنُهُ إِلَّا
هَذَا الصَّوْتُ :

الْحَيْنُ^(٣) سَأَقُ إِلَى دِمَشْقَ وَلَمْ أَكُنْ أَرْضَى دِمَشْقَ لِأَهْلِنَا بَلَدًا
فَرَمَانِي بِالْقَدَحِ فَأَخْطَأَنِي فَانْكَسَرَ الْقَدَحُ . وَقَالَ : قُمْ عَنِّي إِلَى لَعْنَةِ اللَّهِ وَحَرِّ
سَقَرٍ . وَقَامَ فَرَكَبَ .

فَكَانَتْ وَاللَّهِ تِلْكَ الْحَالُ آخِرَ عَهْدِي بِهِ حَتَّى مَرَضْتُ وَمَاتُ .

ثُمَّ قَالَ لِي : يَا أَبَا جَعْفَرٍ ، كَمْ تَرَانِي أَحْسَنُ أَغْنَى ؟ ثَلَاثَةَ آلَافِ صَوْتٍ ، أَرْبَعَةَ
آلَافِ صَوْتٍ ، خَمْسَةَ آلَافِ صَوْتٍ ، أَنَا وَاللَّهُ أَغْنَى أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ . ذَهَبَ - عِلْمُ اللَّهِ -
كُلُّهُ ، حَتَّى كَأَنِّي لَمْ أَعْرِفْ غَيْرَ مَا غَنَّيْتُ . وَلَقَدْ ظَنَنْتُ أَنَّهُ لَوْ كَانَتْ لِي أَلْفُ
رُوحٍ مَا تَجَمَّتْ مِنْهُ وَاحِدَةٌ مِنْهَا ، وَلَكِنَّهُ كَانَ رَجُلًا حَلِيمًا ، وَكَانَ فِي
الْعُمُرِ بَقِيَّةً !

(١) التحيل : الاحتيال (٢) هو علي بن نافع ، نابغة الموسيقى في زمنه ، رحل إلى الأندلس
وذاعت شهرته هناك ، ، وفضله عبد الرحمن بن الحكم على ما عداه ، وأقام بقرطبة إلى أن مات
سنة ٢٣٠ هـ . (٣) الحين : الهلاك .

١٩ — في دار الفضل بن الربيع *

قال أحمد بن يحيى المكي : دَعَانِي الفضل ^(١) بن الربيع ودعا عَلَوَيْهِ وَمُحَارِقًا ، وذلك في أيامِ المأمونِ بعد رجوعه ورضاه عنه ، إلا أن حاله كانت ناقصةً مُتَضَعِّعةً ؛ فلما اجتمعنا عنده كتب إلى إسحاق ^(٢) الموصلي يسأله أن يصيرَ إليه ويُعلمه الحالَ في اجتماعنا عنده . فكتب إليهم : لا تنتظروني بالأكل ، فقد أكلتُ وأنا أصير إليكم بعد ساعة .

فأكلنا وجلسنا نشرب حتى قَرُبَ العصر ، ثم وافى إسحاقُ فجلس ، وجاء غلامُه بِقَطْرَمِيزٍ ^(٣) نبيذٍ ، فوضعه ناحيةً ، وأمرَ صاحبَ الشرابِ بِإِسْقَائِهِ منه ، وكان عَلَوَيْهِ يُغْنِي الفضلَ بن الربيع في لَحْنِ اقترحه الفضلُ عليه وأعجبه ، وهو :
فإن تَعَجَّبِي أو تُبْصِرِي الدهرَ طَمَنِي ^(٤) بأحْدَاثِهِ طَمَّ الْمُقْصَصِ بِالْجِلْمِ ^(٥)
فقد أترك الأضيافَ تَنْدَى رَحَالِهِمْ وأكرمهم بِالْمَحْضِ والتامكِ السِّمِّ ^(٦)
فقال له إسحاق : أخطأتَ يا أبا الحسن في أداء هذا الصوت ؛ وأنا أصلحه لك .
فجَنَّ عَلَوَيْهِ واغْتَظَ ، وقامت قيامته . ثم أقبل إسحاق على عَلَوَيْهِ فقال له :
يا حبيبي ، ما أردتُ الوَضْعَ ^(٧) منك بما قلتُ لك ، وإنما أردتُ تهذيبك وتقويمك ،

* الأغاني : ٥ - ٣٠٦

(١) كان الفضل بن الربيع وزيراً للرشيد بعد زوال دولة البرامكة ، وبعد موت الرشيد استوزر للأمين ، ووقف معه ضد المأمون ، وبعد قتل الأمين تشفع طاهر بن الحسين للفضل عند المأمون فرضى عنه ؛ ومات سنة ٢٠٨ هـ (٢) إسحاق الموصلي : من أشهرنداء الخلفاء تفرد بصناعة الفناء وكان عالماً باللغة والموسيقى والتاريخ وعلوم الدين وعلم الكلام ورواية الشعر وحافظاً للأخبار . توفي سنة ٢٣٥ هـ (٣) القطرميز : قلة كبيرة من الزجاج (٤) طمني : غمرني . (٥) الجلم : الذي يجزبه الشعر والصوف . والمقصص : الشيء الذي يقص (٦) المحض : اللبن الخالص بلا رغو . والتامك : العظيم السنام من الإبل ، ومثله السَّم . (٧) الوضع : الضعة .

لأنك منسوب الصواب والخطأ إلى أبي وإليّ ، فإن كرهت ذلك تركتُك ؛ وقلتُ لك أحسنتَ وأجملتَ . فقال له علّوئيه : والله ما هذا أردتُ ، ولا أردتُ إلا ما لا تتركه أبداً من سوء عشرتك ! أخبرني عنك حين تجي . هذا الوقت لما دعاك الأمير وعرفتُك أنه قد نشط للاصطباح : ما حملك على الترفع عن مُبَاكَرته ^(١) وخِدْمته مع صنائعه عندك ؟ وما كان ينبغي أن يشغلك عنه شيء إلا الخليفة ! ثم تجيئه ومعك قطر مِيزُ نبيذ ترفعاً عن شرابه ، كما ترفعتَ عن طعامه ومجاسته إلا كما تشتهي وحين تَنَشُّط ، كما تفعل الأكفاء ^(٢) ، بل تزيد على فعل الأكفاء . ثم تعمدُ إلى صوتٍ قد اشتهاه واقتراحه ، وسمعه جميعُ من حضر ، فما عابه منهم أحد ، فتعييه ليتم تنفيضك إياه لذته ! أما والله لو الفضلُ بن يحيى أو أخوه جعفر دعاك إلى مثل ما دعاك إليه الأمير ، بل بعضُ أتباعهم ؛ لبادرت وباكرت ؛ وما تأخرت ولا اعتذرت . فأمسك الفضلُ بن الربيع عن الجواب إعجاباً بما خاطب به علّوئيه إسحاق .

فقال له إسحاق : أمّا ما ذكرته من تأخرى عنه إلى الوقت الذي حضرتُ فيه ، فهو يعلم أني لا أتأخرُ عنه إلا بعائقٍ قاطع ، إن وثق بذلك مني ، وإلا ذكرتُ له الحجة سرّاً من حيث لا يكون لك ولا لغيرك فيه مدخل . وأما ترفعي عنه فكيف أترفع عنه وأنا أنسبُ إلى صنائعه ، وأستمّحه وأعيشُ من فضله مذكت ؟ وهذا التضرّيب ^(٣) لا أبالي به منك ، وأما حملُ النبيذ معي فإن لي في النبيذ شرطاً من طعمه وريحه ؛ وإن لم أجده لم أقدر على الشرب ، وتغنصَ عليّ يومئذ ، وإنما حملته ليتم نشاطي ويُنتفع بي ، وأما طغني على ما اختاره فإني لم أطعن على اختياره ،

(١) باكروه : أنابه بكرة : غدوة (٢) الأكفاء : النظراء المتماثلون .

(٣) التضرّيب : الإغراء بين القوم .

وإنما أردتُ تقويمَكَ ؛ ولستَ واللهَ ترانى متبِعاً لك بعد هذا اليوم، ولا مُقَوِّماً شيئاً من خَطَايَاكَ ، وأنا أُغْنِيُ له - أعزّه الله - هذا الصوتُ فيعلم وتعلم ؛ ويعلمُ مَنْ حضرُ أنكَ أخطأتَ فيه وقصّرت . وأما البرامكةُ ومُلازمتي لهم فأشهرُ من أن أجحدَه ، وإنى لحقيق فيه بالمعذرة ، وأخرى أن أشكرهم على صَنِيعهم ، وبأن أذيعه وأنشرَه ؛ وذلك - والله - أقلُّ ما يستحقونه منى .

ثم أقبلَ على الفضل - وقد غاظه مدحُه لهم - فقال : اسمع منى شيئاً أخبرك به مما فعلوه ، ليس هو بكبير صنائعهم عندى ولا عند أبى قَبِيلِي ، فإنَّ وَجَدْتَ لى عذراً وإلا فَلَمْ : كنتُ فى ابتداءِ أمرى نازلاً مع أبى فى داره ، فكان لا يزالُ يجرى بين غِلْمَانِي وغِلْمَانِهِ وجواريَ وجواريهِ الخصومةُ ؛ كما تجرى بين هذه الطبقات فيشكونهم إليه ؛ فَأَتَبِين الضَجَرَ والتَنَكُّرَ فى وجهه ، فاستأجرتُ داراً بقُرْبِهِ ؛ وانتقلتُ إليها أنا وغِلْمَانِي وجواريَ ، وكانت داراً واسعةً ، فلم أرضَ مامعِي من الآلة لها ، ولا لمن يدخل إلى من إخواني أن يروا مثله عندى .

ففكرت فى ذلك ، وكيف أصنع ؛ وزاد فِكْرِي حتى خَطَرَ بقلبي قُبْحُ الأخدوثِ من نزول مثلى فى دارٍ بأجرة ، وأنى لا آمنُ فى وقتٍ أن يستأذنَ على صاحبُ دارى ، وعنْدِي من أَحْتَشِم منه ^(١) ولا يعلم حالى فيقال : صاحبُ دارك ، أو يوجّه فى وقتٍ فيطلب أجرةَ الدار ، وعنْدِي مَنْ أَحْتَشِم منه ؛ فضاقتُ بذلك صَدْرِي ضيقاً شديداً حتى جاوز الحدَّ .

فأمرتُ غُلَامِي بأن يُسْرِجَ لى حِماراً كان عنْدِي ، لأمضى إلى الصحراء أتفرّجُ فيها مما دخل على قلبي ، فأسرَجَه وركبتُ برداءً وأنعلُ ، فأفضى بى المسير وأنا مفكّرٌ لا أميزُ الطريق التى أسلكُ فيها ، حتى هجم بى على باب يحيى بن خالد ، فتوائب

(١) احتشم منه : استعيا .

غلمانهُ إلىّ ، وقالوا : إلى أين ؟ قلت : إلى الوزير . فدخلوا فاستأذنوا لى ، وخرج الحاجبُ فأمرنى بالدخول ؛ وبقيتُ خَجِلاً ، قد وقعتُ فى أمرين فاضحين : إن دخلتُ إليه برداء ونعلٍ ؛ وأعلّمتُهُ أنى قصدته فى تلك الحال كان سوء أدب ، وإن قلتُ له كنتُ مجتازاً ، ولم أقصدكَ فجعلتُكَ طريقاً كان قبيحاً .

ثم عزمتُ فدخلتُ ؛ فلما رآنى تبسم وقال : ماهذا الزّى بأبنا محمد ! قد علمنا أنك جعلتنا طريقاً ، قلت : لا والله ياسيدى ، ولكنى أصدّقك . قال : هاتِ . فأخبرتهُ القصةَ من أولها إلى آخرها ، فقال . هذا حق مستور ؛ أفهذا شغل قلبك ؟ قلتُ : إى والله ! وزاد فقال : لا تشغلْ قلبك بهذا . يا غلام ، ردّوا حماره ، وهاتوا له خِلْمَةً . فجاءونى بخِلْمَةٍ تامّةٍ من ثيابه فلبستُها ، ودعا بالطعام فأكلت ، ووضعَ النبيذ فشربت وشربَ ففنيته ، ودعا فى وسطِ ذلك بدَوَاةٍ ورُقْمَةٍ ، وكتبَ أربعَ رقاعَ ظننتُ بعضَها توقيعاً لى بجائزة ؛ فإذا هو قد دعا بعضَ وكلائه فدفعَ إليه الرّقاعَ وسأرهَ بشيء ، فزاد طَمَعى فى الجائزة ، ومضى الرجلُ وجلسنا نشرب ، وأنا أُنْتَظَرُ شيئاً فلا أراه إلى العتمة^(١) ، ثم اتّكأُ يحبى فنام . فقمّتُ وأنا منكسر خائب ، فخرجتُ وقُدّم لى حمارى .

فلما تجاوزتُ الدار قال لى غلامى : إلى أين تمضى ؟ قلت : إلى البيت . قال : قد والله يبيعتُ داركُ ، وأشهد على صاحبها ، وابتيعَ الدَّربُ كُلَّهُ ووُزِنَ ثمنه ، والمشتري جالسٌ على بابك ينتظركَ ليعرّفك ، وأظنه اشترى ذلك للسلطان ، لأنى رأيتُ الأمر فى استعجاله أمراً سلطانياً ، فوقعتُ من ذلك فيما لم يكن فى حسابى ، وجئتُ وأنا لا أدرى ماأعمل ، فلما نزلتُ على باب دارى إذا أنا بالوكيل الذى سأرهَ يحبى قد قام إلى . فقال لى : ادخل - أيدك الله - دارك حتى أدخلَ لمخاطبتك فى أمر احتياج

(١) العتمة : وقت صلاة العشاء .

إليك فيه ، فطابتْ نفسى بذلك ، ودخلتُ ، ودخل إلى فأقرأنى توقيعَ يحيى :
 « يُطَلَّقُ لأبى محمد إسحاق مائة ألف درهم يُبْتَاعُ له بها داره وجميع مايجاورها
 ويلاصقها » . والتوقيع الثانى إلى ابنه الفضل : « قد أمرتُ لأبى محمد إسحاق بمائة
 ألف درهم يُبْتَاعُ له بها دارُهُ ، فأطلقُ إليه مثلها لينفقها على إصلاح الدار كما يريد
 وبنائها على مايشتهى » . والتوقيع الثالث إلى جعفر : « قد أمرتُ لأبى محمد إسحاق
 بمائة ألف درهم يُبْتَاعُ له بها منزلٌ يسكنه ، وأمر له أخوك بدفع مائة ألف درهم
 ينفقها على بنائها وممرمتها على مايريد ، فأطلقُ له أنت مائة ألف درهم يُبْتَاعُ بها
 فرشاً لمنزله » . والتوقيع الرابع إلى محمد : « قد أمرتُ لأبى محمد إسحاق أنا وأخواتك
 بثلاثمائة ألف درهم لمنزلٍ يبتاعه ونفقة ينفقها عليه ، وفرش يبتدله ^(١) ، فرُّ له أنت
 بمائة ألف درهم يصرفها فى سائر نفقته » . وقال الوكيل ، قد حملتُ المال واشترتُ
 كل شىء جاورك بسبعين ألف درهم ، وهذه كُتُبُ الابداعات بأسمى والإقرار لك ،
 وهذا المال بُورِكَ لك فيه فأقبضه .

فقبضته وأصبحتُ أحسن حالا من أبى فى منزلى وفرشى وآلتى ، ولا والله
 ما هذا بأكبر شىء فعلوه لى أفألام على شكر هؤلاء !

فبكى الفضل بن الربيع وكلُّ من حضر . وقالوا : لا والله لا تُتَلام على شكر
 هؤلاء . ثم قال الفضل : بحياتى غنَّ الصوت ، ولا تبخل على أبى الحسن بأن
 تقومه له ! فقال : أفل . وغناه فتبين علويته أنه كما قال . فقام فقبل رأسه ، وقال :
 أنت أستاذنا وابن أستاذنا وأولى بتقويتنا واحتمالنا من كل أحد ، وردّه ^(٢) إسحاق
 مراتٍ حتى استوى لعلويته .

(١) الابتذال : ضد الصيانة . (٢) رده : أعاده ، مثل ردهه .

٢٠ — المعتصم في يوم العيد*

قال حمدون بن إسماعيل النديم : حضر العيد ، فعَبِيَ المعتصم ^(١) بالله خِيَلَهُ تعبية لم يُسَمَّعْ بمثلها ، ولم يَرْ لأحدٍ من ولدِ العباس شبيهٌ بها ، وأمر بالطريق فُسِّحَ ^(٢) من باب قصره إلى المصلَّى ، ثم قسم ذلك على القواد ، وأعطى كل واحد منهم مَصَافَةً ^(٣) .

فلما كان قبلَ الفِطْرِ بيوم حضر القوادُ وأصحابُهُم في أَجْمَلِ زِيٍّ وأحسن هيئة ، فلزموا مصافَهُم منذ وقت الظهر ، إلى أن ركب المعتصمُ بالله إلى المصلَّى ، فكان الموضع الذي وقع لإبراهيم بن المهدي بعد الحَرَسِيِّ ^(٤) بجذاء مسجد الخوارزمي ، وإبراهيمَ واقفٌ وأصحابُهُ في المصافِ .

فلما أصبح المعتصم أمر القواد الذين لم يرتَّبوا في المصاف بالمصير إلى المصلَّى على التعبية التي حدَّها ، ولبس ثيابه ، وجلس على كرسي ينتظرُ مُضَىَّ القواد . فلما انقضى أمرهم تَقَدَّمَ إلى الرَّجَالَةِ في المسير بين يديه ، فتقدم منهم سبعة آلاف ناشبٍ من الموالي ، كلُّ ثلاثمائة منهم في زِيٍّ مخالف لزيِّ الباقين ، وأربعة آلاف من المغاربة ، وأمر الشيعة فكانوا وراءه بالأعمدة ، وعِدَّتْهم أربعة آلاف ، وركبتُ لأدري منزلتي أين هي ، ولا أعرفُ مرتبتي ، ولم أعلم أين أسيرُ من الموكب ؟

* المحاسن والمساوي : ١٦٤ .

(١) هو أبو إسحاق محمد بن هارون الرشيد ، ولقب بالمعتصم بالله في اليوم الذي دعى له بالخلافة سنة ٢١٨ هـ ، وكان شجاعا مقداما شديد البأس محبا للعمارة ، منصرفا إلى الجيش ، وتوفي سنة ٢٢٧ هـ . (٢) يقال : مسح الأرض ، أي ذرعها . (٣) المصف : موضع الصف ، وجمعه مصاف . (٤) الحرسي : واحد حرس السلطان .

فلما وضع رجله في الركاب ، واستوى على سرجه التفت إلى ، وقال : يا حمدون ، كن أنت خَلْفِي ، فلزمتُ مؤخرَ دَابَّتِهِ ، فلما خرج من باب القصر تلقاهُ القواد وأصحابُ المصاف : يخرجُ الرجل من مصافه ، فإذا قرب نزل وسلم عليه بالخلافة ، فيأمره بالركوب ويمضي ، حتى وصل إلى إبراهيم بن المهدي فنزل وسلم عليه بالخلافة فرد عليه السلام ، فقال : كيف أنت يا إبراهيم ؟ وكيف حالُك ؟ وكيف كنت في أيامك ! اركب فرك فلما جاوزته التفت إلى وقال : يا حمدون ، قلت : لبيك يا أمير المؤمنين ! قال : تذكر ؟ قلت : إى والله ياسيدي ! وأمسك .

فنزطتُ فيما قال فلم أجدني أذكر شيئاً في ذلك الموضع مما يشبه ما كنّا فيه ! فنقص على يومي ، وما رأيت من حسنه وسروره بالمرتبة التي أهّلني بها ، وقلت : الخلفاء لا يعاملون بالكذب ، ولا يجوزُ أن يسألني عند انصرافي عن هذا الأمر ، فلا يكونُ له عندي جواب ولا حقيقة ! وتخوفت أن ينالني منه مكروه ، فلم أزل واجماً في طريقى إلى وقت انصرافه ، ثم أجمعتُ على مغالطته إن أمكنني ، وإعمال الحيلة في التخلص إن يسألتني .

فلما استقرّ في مجلسه ، وبُسط السّماط^(١) ، وجلس القواد على مراتبهم للطعام أقبلتُ أخدم وأختلف ، ليست لي همّةٌ غير ما كان قد قاله لي ، لا أغفلُ عن ذلك ، حتى انقضى أمرُ السّماط ، ورفع السّتر ، ونهض أميرُ المؤمنين ، ودخل الحجر ، ومضى إلى المرقد ، فلم ألبثُ أن جاء الخادم وقال : أجب أمير المؤمنين ، فضيتُ .

فلما دخلتُ ضحك إلى ، وقال يا حمدون ، رأيت ؟ قلت : نعم ياسيدي قد رأيت ! فالحمدُ لله الذي بلغ بي هذا اليوم وأرانيه ؛ فما رأيتُ ولا سمعتُ لأحدٍ من الخلفاء والملوك بأجل منه ولا أبهى ولا أحسن ؟ قال : ويحك ! رأيت إبراهيم

(١) السباط : ما يمد عليه الطعام .

ابن المهدي ؟ قلت : نعم يا سيدي ! قال : رأيت سلامه على وردى عليه ، ونزوله إلى ؟ قلت : نعم ! فقال : إنه لما كان من أمره ما كان - يعنى الخلافة - قسم الطريق في يوم عيد من منزله إلى المصلّى كقسمتي إياه في هذا اليوم بين قواده ، فوقع موضعي منه الموضع الذى كان به هذا اليوم ، فلما حاذانى نزلت فسلمت عليه ، فردّ على مثل ما رددتُ حرفاً حرفاً على ما قال لى .

فدعوتُ له ، وانفرج عني ما كنتُ فيه ، وتخلّى عني الغم والكرب . ثم قال : يا حمدون ؛ إنى لم آكل شيئاً ، وأنا أنتظر أن تأكل معى ، فامض إلى حجرة الندماء ؛ فإنك تجد إبراهيم هنالك ، فاجلس إليه وعاتبه وضاحكه ، وأجر له هذا الحديث ، وقل له : إنك رأيتَه في ذلك اليوم فعل بى فعلى به في هذا اليوم ؛ وانظر إلى وجهه وكلامه ، وما يكون منه فعرّفنيه على حقيقته ، وأصدقنى عنه ، وعجل ولا تحتبس ! قلت : نعم يا سيدي !

فمضيتُ ، وقد دُفعت إلى أغاظ مما كنتُ فيه ؛ لعلى بأن إبراهيم لو كان من حجرٍ لأثر فيه هذا القول وتغيّر ، وظهر منه ما يُكره ، وخِفْتُ أن يأتى بما يُسفك به دمه ، فمضيتُ حتى دخلتُ الحجرة ، فجلست إلى إبراهيم ، وقلت ما أمرنى به ، وأنا مبادرٌ خَوْفاً من خادم يلحقنى ، أو رسول ، فلا يمكننى معه تحسين الأمر ، وما يظهر لى منه ؛ فقلتُ لإبراهيم : كيف رأيتَ يا سيدي هذا اليوم ؟ أمّا أعجبتُ حسنه ؟ وما كان من تعبية أمير المؤمنين ؟ قال : بلى والله إنه أعجبنى ! فالحمد لله الذى بلّغني وأرانيه ، وأطنب في الدعاء للمعتصم .

فلما أمسك قلت : يا سيدي ؛ أذكرك ، فى أيامك ، وقد ركبت فعبيت شبيهاً بهذه التعبية ، وقسمت الطريق مثل هذه القسمة ؛ فوقع لأمر المؤمنين الموضع الذى وقع لك واجتزت به ، فنزل إليك وسلم ، فرددت عليه ترده عليك فى هذا اليوم !

فوالله ما قلتُ له ذلك حتى اربدَ لونه ، وجفَ ريقه ، واعتقِلَ لسانه ، وبقي لا يتكلم بحَرْفٍ ، ثم قال بلسان ثقيل : لسكَّاني في ذلك الموضع في ذلك اليوم ! فالحمد لله الذي رأيتُه لأُمير المؤمنين ، فعل الله به وفعل .

فتغنمتُ^(١) ذلك وقت ، وأنا ألتفتُ ، ونهضتُ حتى أتيت المعتصم ، فقال لي : هيه يا حمدون ! فقلت : يا أمير المؤمنين ؛ أتيتُ إبراهيم ، وقلتُ له ما أمرتني به ، فأظهر سروراً ودعاء ، وقال : كيت وكيت . فقال : والله قال ! بحياتي ! قلت : وحياتك يا أمير المؤمنين ! قال : فكيف رأيت وجهه ! فلم أدر ما أقولُ ، فقلتُ : يا أمير المؤمنين ، بالله لما تركتني من وجه عمك الذي لا يتبين فيه فرح ولا حزن . فاستضحك ، ثم أمسك ، ودعا بانطعام فأكلنا ، ثم رقد .

فلما انتبه وجلس دعا بإبراهيم وسائر الندماء ، فشرب وبرت إبراهيم وألطفه .

٢١ — رسلُ الروم عند الناصر *

رحل الناصر^(٢) لدين الله من قصرِ الزُهرَاءِ^(٣) إلى قصرِ قرطبة^(٤) لدخول وفود الروم عليه ، وقعد لهم في بهوِ المجلس الزاهر قعوداً حسناً نبيلًا ، وقعد عن يمينه ولى العهد من بنيهِ ، وقعد عن يساره مُنذر بن سعيد ؛ وحضر الوزراء على مراتبهم يمينًا وشمالًا ، ووقف الحجابُ من أهل الخِدْمَةِ من أبناء الوزراء والموالي وغيرهم ، وقد

(١) تغنمه : انتهر غنمه ، وعده غنيمة .

* نفع الطيب : ١٧٢١

(٢) هو عبد الرحمن الناصر لدين الله ثامن ملوك الأندلس وأول من تلقب بالخلافة منهم ؛ وكانت أيامه أيام جهاد ، وكان عادلاً محسناً محباً للعلم ، شغوفاً بالعمارة ، توفي سنة ٣٥٠ هـ (٣) هي المدينة التي بناها الناصر (٤) قرطبة : حاضرة الخلافة بالأندلس ، وكانت أخت بغداد عزاً وعلواً وحضارة وفيها المسجد الجامع الذي بناه عبد الرحمن الأموي سنة ٧٩٢ م ، وهو الآن الكنيسة الكنتراية .

بُسِطَ صَحْنُ الدارِ أجمع بعِتَاقِ البُسْطِ ، وكرَأُمِ الدَّرَانِكِ^(١) ، وظُلَّتْ أبوابُ الدارِ
وحفَايَاها بغَالِي الديباجِ ورَفِيعِ الشُّتورِ .

فوصل رسلُ ملكِ الرومِ حائرِينَ مما رَأَوْهُ من بهجةِ الملكِ وخِمامَةِ السلطانِ ،
ودفعوا كتابَ ملكهم صاحبِ قُسْطَنْطِينِيَةِ العظمَى ؛ وهو في رَقٍّ^(٢) مصبوغِ بلونٍ
سماوِيٍّ ، مكتوبِ بالذهبِ بالخطِ الإغريقيِّ ، وداخلِ الكتابِ مُدْرَجَةٌ^(٣) مصبوغةٌ
أَيْضاً مكتوبةٌ بِفِضَّةٍ بخطِ إغريقيٍّ أَيْضاً ، فيها وصفُ هديتهِ التي أرسلَ بها وعدُّها ،
وعلى الكتابِ طابعُ ذهبٍ وَزَنُهُ أربعةُ مثاقيلَ ، على وجهٍ منه صورةُ المسيحِ وعلى الآخرِ
صورةُ الملكِ وصورةُ ولده .

وكان الكتابُ بداخلِ دُرُجٍ^(٤) فضةٍ منقوشٍ ، عليه غطاءُ ذهبٍ ، فيه صورةُ
الملكِ من الزَّجاجِ الملونِ البديعِ ، وكان الدرجُ داخلِ جَعْبَةٍ ملبَّسةٍ بالديباجِ .
ولما احتفلَ الناصرُ لدينِ اللهِ هذا الاحتفالَ أَحَبَّ أنْ يقومَ الخطباءُ والشعراءُ بينَ
يديهِ لِيَذْكُرُوا جَلَالََةَ مُلْكِهِ ، وعَظِيمَ سُلْطَانِهِ ، وَيَصِفُوا ما تَهَيَّأَ من توطيدِ الخلافةِ
في دولتهِ .

وتقدم إلى الأميرِ الحكمِ ابنهِ ووليُّ عهده بإعدادِ من يقومُ بذلكِ من الخطباءِ ؛
فأمرَ الحكمُ الفقيهَ محمدَ بنَ عبدِ البرِ الكَيْسَانِيَّ بالتأهَّبِ لذلكِ ، وإعدادِ خطبةٍ
بليغةٍ يقومُ بها بينَ يدي الخليفةِ ، وكان يدَّعي من القدرةِ على تأليفِ الكلامِ
ما ليس في وَسْعِ غيره . وحضرَ المجلسَ السلطانيَّ ، فلما قامَ يحاولُ التكلمَ بما رأى
هاله وبهرَّه هولُ المقامِ وأبْهَتَه الخلافةُ ، فلم يَهْتَدِ إلى لَفْظَةٍ ، بل غَشِيَ عليه ، وسقطَ
إلى الأرضِ .

(١) الدَرَانِكُ : الطنافسُ (٢) الرق : ما يكتبُ فيه ، وهو جلد رقيق

(٣) أدرجت الكتاب : طويته .

(٤) أصل الدرج : السفط الصغير توضع فيه المرأة متاعها وطيبها .

فَقِيلَ لِأَبِي عَلَى الْقَالَى ^(١) - وَهُوَ حِينَئِذٍ ضَيْفُ الْخَلِيفَةِ الْوَافِدُ عَلَيْهِ مِنَ الْعِرَاقِ ،
وَأَمِيرُ الْكَلَامِ ، وَبَحْرُ الْلُغَةِ : قِمَ فَارَقَعَ هَذَا الْوَهْيُ ، فَقَامَ فَحَمَدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ ،
ثُمَّ انْقَطَعَ الْقَوْلُ بِالْقَالَى ، فَوَقَفَ سَاكِنًا مَفْكَرًا فِي كَلَامٍ يَدْخُلُ بِهِ إِلَى ذِكْرِ مَا أُرِيدُ
مِنْهُ . فَلَمَّا رَأَى ذَلِكَ مُنْذِرٌ ^(٢) بَنَ سَعِيدَ قَامَ ، فَوَصَلَ افْتِتَاحَ أَبِي عَلَى لِأَوَّلِ خُطْبَتِهِ
بِكَلَامٍ عَجِيبٍ ، وَنَادَى مِنَ الْإِحْسَانِ فِي ذَلِكَ الْمَقَامِ كُلِّ عَجِيبٍ ، يَسُحُّهُ سَحًّا ، كَأَنَّمَا
كَانَ يَحْفَظُهُ قَبْلَ ذَلِكَ بِمَدَّةٍ ، وَبَدَأَ مِنَ الْمَكَانِ الَّذِي اتَّهَى إِلَيْهِ أَبُو عَلَى فَقَالَ ^(٣) :
أَمَّا بَعْدَ حَمْدِ اللَّهِ وَالثَّنَاءِ عَلَيْهِ وَالتَّعْدَادِ لآلَائِهِ ، وَالشُّكْرِ لِنِعْمَائِهِ ، وَالصَّلَاةِ
وَالسَّلَامِ عَلَى مُحَمَّدٍ صَفِيهِ وَخَاتَمِ أَنْبِيَائِهِ ، فَإِنَّ لِكُلِّ حَادِثَةٍ مَقَامًا ، وَلِكُلِّ مَقَامٍ
مَقَالًا ، وَلَيْسَ بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ ، وَإِنِّي قِمْتُ فِي مَقَامِ كَرِيمٍ بَيْنَ يَدَيِ مَلِكٍ عَظِيمٍ ،
فَاصْفُوا إِلَيَّ مَعْشَرَ الْمَلَأِ بِأَسْمَاعِكُمْ ، وَأَلْفُوا إِلَيَّ بِأَفْئِدَتِكُمْ ، إِنْ مِنَ الْحَقِّ أَنْ يُقَالَ
لِلْحَقِّ صَدَقْتُ ، وَلِلْمُبْطِلِ كَذَبْتُ ، وَإِنْ الْجَلِيلُ - تَعَالَى فِي سَمَائِهِ وَتَقَدَّسَ بِصِفَاتِهِ
وَأَسْمَائِهِ - أَمَرَ كَلِيمَهُ مُوسَى أَنْ يُذَكِّرَ قَوْمَهُ بِأَيَّامِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ عَنْدهُمْ ، وَفِيهِ وَفِي
رَسُولِ اللَّهِ أَسْوَةٌ حَسَنَةٌ ، وَإِنِّي أَذْكُرْكُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ عَنْدهُمْ ، وَتِلَاوَةِ لَكُمْ بِخِلَافَةِ
أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ، الَّتِي لَمْتُ شَعْمَكُمْ ، وَأَمَنْتُ سِرْبَكُمْ ، وَرَفَعْتُ قُوَّتَكُمْ ؛ بَعْدَ أَنْ
كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَثُرْتُمْ ، وَمُسْتَضْعِفِينَ فَقَوَّيْتُمْ ، وَمُسْتَذَلِّينَ فَفَضَلْتُمْ . . .

وَاسْتَمَرَ كَذَلِكَ بِكَلَامٍ عَجِيبٍ بَهَرَ الْعُقُولَ جَزَالَةً ، وَمَلَأَ الْأَسْمَاعَ جَلَالَةً ؛ فَخَرَجَ
النَّاسُ يَتَحَدَّثُونَ عَنْ حَسَنِ مَقَامِهِ وَثَبَاتِ جَنَانِهِ ، وَبِلَاغَةِ لِسَانِهِ ؛ وَكَانَ النَّاصِرُ
أَشَدَّهُمْ تَعْجِبًا مِنْهُ ؛ فَأَقْبَلَ عَلَى ابْنِهِ الْحَكَمِ ؛ فَسَأَلَهُ عَنْهُ ؛ فَقَالَ لَهُ : هَذَا مِنْذِرُ بْنُ

(١) هُوَ إِسْمَاعِيلُ بْنُ الْقَاسِمِ صَاحِبُ الْأُمَالَى ، رَحَلَ إِلَى الْغَرْبِ ، وَدَخَلَ الْأَنْدَلُسَ فِي أَيَّامِ
عَبْدِ الرَّحْمَنِ النَّاصِرِ وَاسْتَوْدَعَ قَرْطُبَةَ ، تَوَفَّى سَنَةَ ٣٥٦ هـ (٢) كَانَ إِمَامًا فَرِيضًا خَطِيبًا
شَاعِرًا فَرِيضًا ، وَلَى الْقَضَاءِ بِقَرْطُبَةَ أَيَّامَ عَبْدِ الرَّحْمَنِ ، وَتَوَفَّى بِقَرْطُبَةَ سَنَةَ ٣٣٥ هـ .
(٣) الْخُطْبَةُ بِتَمَلُّهَا فِي نَفْحِ الطَّيِّبِ : ١ - ١٧٢ طَبْعُ الْمَطْبَعَةِ الْأَزْهَرِيَّةِ ، وَمُعْجَمُ الْأَدْبَاءِ : ١ - ١٧٦ .

سميد البلوطى ! فقال : والله لقد أحسن ماشاء ، ولئن أخرنى الله بعدُ لأرفعنَّ من ذكرِهِ ، فضَعُ يدك يا حَكَمُ عليه ، واستخلصه وذَكَّرْنى بشأنه ؛ فما للصنيعة مذهبٌ عنه . ثم ولّاه الصلاةَ والخطابةَ فى المسجد الجامع بالزَّهراء .

٢٢ — ليلة مآلقة *

قال أبو الطاهر إسماعيل بن أحمد التَّجِيبِيّ : كنتُ بمدينة مآلقة ^(١) من بلاد الأندلس سنة ست وأربعمائة ، فاعتَلَبَ بها مدّة انقطعتُ فيها عن التصرُّف ، ولزمتُ المنزل ، وكان يمرُّ بى ^(٢) حينئذ رفيقان كانا معى ، يَلُمَّان من شَعْنى ، ويرَفَقَان بى . وكنتُ إذا جئنى الليل اشتدَّ سهرى ، وخَفَقْتُ حولى أوتارُ العידان والطناير والمعازف من كلِّ ناحية ، واختلطت الأصواتُ بالغناء ؛ فكان ذلك شديدًا علىّ ، وزائدًا فى قلِّقى وتألِّمى ؛ فكانت نفسى تعافُ تلك الضروبَ طبعًا ، وتكره تلك الأصواتَ جِبِلَّةً ، وأودَّ لو أجدُ مَسْكَنًا لا أسمعُ فيه شيئًا من ذلك ، ويتعذَّر علىّ وجوده لعلَّبة ذلك الشأن على أهل تلك الناحية وكثرته عندهم .

وإنى لساهرٌ ليلةً بعد إغفَاءٍ فى أول ليلتى ، وقد سكنتُ تلك الألفاظُ المكروهة ، وهدأت تلك الضروبُ المضطربة ، وإذا ضربُ خفى معتدِل حسن لا أسمعُ غيره ، فكان نفسى أنست به ، وسكنتُ إليه ، ولم تُنفِرْ منه نِفَارُها من غيره ، ولم أسمعُ معه صوتًا ، وجعل الضرب يرتفعُ شيئًا فشيئًا ، ونفسى تتبَّعه ، وسمعى يُصغى إليه ، إلى أن بلغَ فى الارتفاع إلى ما لا غاية وراءه ، فارتحتُ له ،

* شرح المختار من شعر بشار ١٤ .

(١) مدينة بالأندلس كانت تُقرأ حصينًا على بحر الروم ، أسسها الفينيقيون ، وكان لها شهرة أيام الرومان والقرطاجيين ، وكان بها بنو حود من ملوك الطوائف (٢) مرضه : قام عليه في مرضه . (٥ - قصص - أول)

ونسيتُ الألم ، وتداخلى سرورُ وطرب ، وخُيِّلَ إلىَّ أن أرضَ المنزل ارتفعتْ بي ،
وأن حيطانه تَمُورُ^(١) حولى ، وأنا فى كل ذلك لا أسمعُ صوتاً .

فقلتُ فى نفسى : أما هذا الضربُ فلا زيادةَ عليه ؛ فليت شعرى كيف صوتُ
الضارب ! وأين يقع من ضربه ؟ ولم ألبثُ أن اندفعتُ جاريةً تغنى فى هذا الشعر
بصوتٍ أندى من النوار ، غِبَّ القِطَارُ^(٢) ، وأحلى من البارد المَذْبُ ، على كبد
الهائم الصَّبِّ ؛ فلم أملك نفسى أن قُمْتُ ورفيقاى نائمان ، ففتحتُ الباب ؛ وتبعْتُ
الصَّوتَ ، وكان قريباً منى ؛ فاطلعت من وسط منزلى على دار فسيحة ، وفى وسط
الدار بستانٌ كبير ، وفى وسط البستان شَرَبُ^(٣) نحو من عشرين رجلاً ، قد
اصطفوا وبين أيديهم شراب وفاكهة ، وجوارٍ قيامٌ يعيدان وطنابير وآلات لهو ،
ومزامير لا يحرّكنها ، وجاريةٌ جالسةٌ ناحية ، وعودها فى حجرها ، وكلُّ يرمقها
ببصره ، ويؤعيها سمعه ، وهى تغنى وتضربُ ، وأنا قائمٌ بحيث أراهم ولا يروننى ،
وكما غنت بيتاً حفظته ؛ إلى أن غنت عدة أبيات وقطعت ؛ فعدتُ إلى موضعى ،
يشهدُ الله وكأنما أنشِطْتُ من عقال ، وكان لم يكن بى ألم ، وقد وعيتُ الأبيات
وهى :

مابالُ أنجمٍ هذا الليل حائرةً أضلتِ القصد ، أم لئستِ على فَلَكَ ؟
عادتِ سواريه وفقاً لا حراكَ بها كأنما جُثْتُ صرعى بمُعْتَرَكِ^(٤)
هل من بشيرٍ بنور الصبح ، تنقِذُنِ بُشْرَاهُ من طُولٍ وَجْدٍ غيرِ مَتَرَكِ
فقد أجدُ التواءَ الليل لى شَجْنًا وأضجعتنى تباريحى على الحسَكِ^(٥)
خذْ يا شمولُ كثوسَ الراح مُتَرَعَةً فسقنيها ولا تسألُ عن الدَّرَكِ^(٦)

(١) تمور : تتحرك وتذهب وتجيئ . (٢) القطار : جمع قطر ، وهو المطر (٣) جمع شارب .

(٤) السوارى : جمع سار . (٥) تباريح الشوق : توهجه ، والتباريح : الشدائد . الحسك :

نبات ورقه كورق الرحلة وأدق ، وعند ورقه شوك صلب ذو ثلاث شعب (٦) شمول : اسم غلام صقلبي من صقالبة المنصور .

وهج بالحنك الطنبور : إن له على شجون المعنى سطورة الملك
ثم انصرفت في صباح تلك الليلة ، فلقيتُ صديقاً لي من أهل العلم قرطبيّاً
سكن مألقة ، فأخبرته الخبر ، وأنشدته الشعر ، ووصفتُ له الدار ، فاغرورقتُ
عيناه وقال : الدار للوزير فلان ، والجارية فلانة البغدادية ، إحدى المحسنات من
جوارى المنصور بن أبي عامر ؛ وصارت إلى هذا الوزير بعد موت المنصور ، وتمزق
ملكه .

البَابُ الثَّانِي

في القصص التي تتضمن معتقداتهم ، وأخبار كهانهم
وكواهنهم، وتبسط ما كانوا يعرفون من حقائق التوحيد
والبعث، والدار الآخرة، وما كانوا يتوسّلون به من إقامة
الأوثان ، وتمهدها بألوان الزُلفى والقُرْبان .

٢٣ — قوم عاد يستسقون بمكة

لما كذبت عادُ هودا - عليه السلام - توالى عليهم ثلاثُ سنوات ، لم يروا فيها مطراً . فبعثوا من قومهم وفدًا إلى مكة ؛ ليستسقوا لهم ، ورأسوا^(١) عليهم قَيْلَ بنِ عُنُقٍ ولَقَيْمَ بنَ هَزَّالٍ ، ولقمان بن عاد ، وكان أهل مكة إذ ذاك المالقي ، وكان سيدهم بمكة معاوية بن بكر .

فلما قدموا نزلوا عليه ؛ لأنهم كانوا أحواله وأصهاره ؛ فأقاموا عنده شهرًا ، وكان يكرّمهم ، والجرادتان^(٢) تغنيانهم ؛ فنسوا قومهم ؛ فقال معاوية : هلك أحوالى ، ولو قلتُ لهؤلاء شيئًا ظنوا بى بخلاً ، فقال شعراً ، وألقاه إلى الجرادتين ، فأنشدتاه ، وهو :

أَلَا يَأْقِيلُ ^(٣) وَيُحْكَمُ فَهَيْئِمُ ^(٤)	لَعَلَّ اللَّهَ يَبْعَثُهَا غَمَامًا !
فَيَسْقِي أَرْضَ عَادَ ؛ إِنَّ عَادًا	قَدْ أَمْسَوْا لَا يُبَيِّنُونَ الْكَلَامَا
مِنَ الْعَطَشِ الشَّدِيدِ فَلَيْسَ نَرْجُو	بِهِ الشَّيْخَ الْكَبِيرَ وَلَا الْفَلَامَا
وَقَدْ كَانَتْ نَسَاؤُهُمْ بِخَيْرٍ	فَقَدْ أَمْسَتْ نَسَاؤُهُمْ أَيَّامِي ^(٥)
وَأِنْ الْوَحْشَ يَأْتِيهِمْ جَهَارًا	وَلَا يَخْشَى لِعَادِي سِهَامَا
وَأَتَمُّ هَاهُنَا فِيمَا اشْتَهَيْتُمْ	نَهَارَكُمْ وَلَيْلَكُمْ التَّامَا ^(٦)
فَقُبِّحَ وَفْدُكُمْ مِنْ وَفْدِ قَوْمٍ	وَلَا تُقُوا التَّحِيَّةَ وَالسَّلَامَا

* البداية والنهاية لابن كثير : ١ - ١٢٦ ، مجمع الأمثال : ١٠ - ١١٥ ، المسعودى : ١ - ٣٢١ ، ٢ : ٤٥٦ .

(١) رأسوه : جملوه رئيساً (٢) الجرادتان : مغنيتان لمعاوية المذكور ، كانتا بمكة (٣) قيل : هو رئيسهم من عاد (٤) الهيمنة : الصوت الحفى ، والمراد الدعاء (٥) الأيامى : جمع الأيام : وهى من لا زوج لها (٦) الالتئام : النزول .

فلما غنّتهم الجرادتان بهذا قال بعضهم لبعض : يا قوم ؛ إنما بعثكم قومكم
يتغوّثون^(١) بكم !

فقاموا ليدعّوا ، وتخلّف لقمان ، وكانوا إذا دعّوا جاءهم ندا من السماء : أن
سلّوا ما شئتم ، فتعطون ما سألتهم ! فدعّوا ربهم ، واستسّقوا لقومهم ، فأنشأ الله
ثلاث سحابات : بيضاء وحمراء وسوداء ، ثم نادى مناد من السماء : يا قَيْلُ ، اختر
لقومك ولنفسك واحدة من هذه السحاب !

فقال : أما البيضاء فجعل^(٢) ، وأما الحمراء فعارض^(٣) ، وأما السوداء فهطل ،
وهي أكثر ماء ، فاخترها !

فنادى مُنادٍ : قد اخترت لقومك رماداً رَمِداً^(٤) ، لا تذر من عاد أحداً ،
لا والداً ولا ولداً !

وسير الله السحابة التي اختارها إلى عاد ونُودي لقمان سلّ ، فسأل عُمر
ثلاثة^(٥) أنسر ، فأعطى ذلك !

وكان يأخذ فرخ النسر من وَكْرِهِ ، فلا يزال عنده حتى يموت ! وكان آخرها
لُبْدَ ، وهو الذي يقول فيه النابغة :

أضحتْ خَلَاءً وأضحى أهلها احتملوا أَخْنَى عليها الذي أَخْنَى على لُبْدِ

(١) غوث الرجل واستغاث : صاح واغوثاه (٢) الجفل : السحاب هراق مائه ومضى
(٣) العارض . السحابة المعترضة في الأفق (٤) الرمّدد بالكسر : المتناهي في الدقة (٥) يقال سبعة

٢٤ — زيد بن عمرو يتلمس الدين الصحيح*

خرج زيد^(١) بن عمرو إلى الشام يسأل عن الدين ويتبعه ، فلقي عالماً من اليهود ، فسأله عن دينهم ، فقال : لعلّي أدين بدينكم فأخبرني به ؛ فقال اليهودي : إنك لا تكون على ديننا حتى تأخذ بنصيبك من غضب الله . فقال زيد بن عمرو : لا أفرّ إلا من غضب الله ، وما أحل من غضب الله شيئاً أبداً وأنا أستطيع ، فهل تدلني على دين ليس فيه هذا ؟ قال : ما أعلمه إلا أن يكون حنيفاً ، قال : وما الحنيف ؟ قال : دين إبراهيم . فخرج من عنده وتركه .

فأتى عالماً من علماء النصارى ، فقال له نحواً مما قال لليهودي . فقال له النصراني : إنك لن تكون على ديننا حتى تأخذ بنصيبك من لعنة الله ، فقال : إني لأحل من لعنة الله ولا من غضبه شيئاً أبداً وأنا أستطيع ، فهل تدلني على دين ليس فيه هذا ؟ فقال له نحواً مما قال اليهودي ؛ لا أعلمه إلا أن يكون حنيفاً . فخرج من عندهما وقد رضى بما ، أخبراه واتفقا عليه من دين إبراهيم ، فلما برز رفع يده ، وقال : اللهم إني على دين إبراهيم .

* الأغاني : ٣ - ١٢٦ .

(١) كان زيد بن عمرو أحد من اعتزل عبادة الأوثان وامتنع من كل ذبائحها وكان يقول : يامعشر قريش ، أيرسل الله قطر السماء ، وينبت بقل الأرض ، ويخلق السائمة فتعى فيه ، وتذبحوها لغيره ! توفي سنة ١٧ ق . هـ .

٢٥ — النعمان بن المنذر يتنصّر*

خرج النعمان بن المنذر إلى الصيد ومعه عدِيُّ بن زيد ، فرثوا بشجرة ، فقال له
عدِيُّ بن زيد : أيها الملك ، أتدرى ما تقول هذه الشجرة ؟ قال : لا ، قال تقول :
رُبَّ رَكْبٍ قَدْ أَنَاخُوا عِنْدَنَا يَشْرَبُونَ الْخَمْرَ بِالْمَاءِ الزَّالَالِ
عَصَفَ الدَّهْرُ بِهِمْ فَأَقْرَضُوا وَكَذَلِكَ الدَّهْرُ حَالًا بَعْدَ حَالٍ
ثم جاوز الشجرة فرث بمقبرة ، فقال له عدِيُّ : أيها الملك ، أتدرى ما تقول هذه
المقبرة ؟ قال : لا ، قال : تقول :

أَيُّهَا الرِّكْبُ الْخَبِيثُ نَ عَلَى الْأَرْضِ الْمَجْدُونُ
فَكَمَا أَنتُمْ كُنَّا^(١) وَكَمَا نَحْنُ تَكُونُونَ

فقال له النعمان : إن الشجرة والمقبرة لا تتكلمان وقد علمت أنك إنما أردت
عِظَتِي ، فما السبيل التي تُذَرِّكُ بها النجاة ؟ قال : تدعُ عبادة الأوثان وتعبُدُ الله ،
وتَدِينُ بدين المسيح عيسى بن مريم ، قال : أو في هذا النجاة ؟ قال : نعم ،
فتنصّر يومئذ !

* الأغاني : ٢ - ٩٦ .

(١) جاء في الأغاني : أن الشعر من مجزوء الرمل المسبغ وتقطيعه :

فاعلاتن فاعلاتن فاعلاتن فاعلاتن

فيكون على هذا غير موزون .

٢٦ — طَريفة الكاهنة*

كانت العمارةُ في أرض سَبَّأٍ أزيد من مَسيرة شهرين للراكب الحدة ، وكان أهلها يقتبسون النارَ بعضهم من بعض مسيرة أربعة أشهر ، ثم مُزَّقُوا كلَّ مُمزَّق . وكان أولَ مَنْ خرجَ من اليمن في أول الأمرِ عَمْرُو بن عامر مَزِيْقِيَاءَ^(١) ، وكان سببُ خروجه أنه كانت له زوجةٌ كاهنةٌ ، يقال لها طَريفة الخير ، وكانت رأت في منامها أَنَّ سحابةً غَشِيَتْ أرضَهُمْ ، فأرعدتْ وأبرقتْ ، ثم صَعَقَتْ^(٢) فأحرقت منامها أَنَّ سحابةً غَشِيَتْ أرضَهُمْ ، فأرعدتْ وأبرقتْ ، ثم صَعَقَتْ^(٢) فأحرقت كلَّ ما وقعت عليه . ففزعَتْ طريفةٌ لذلك فرعاً شديداً وأتت الملكَ عَمْرُاً ، وهي تقول : « مارأيتُ كالسيوم ، أزال عني النومَ ! رأيتُ غيماً أرعدَ وأبرق ، وَزَجَجَ وَأَصْعَق ، فما وقع على شيء إلا أحرق » . فلما رأى ما داخلها من الفزع سكَّنها .

ثم إن عمراً دخل حديقةً له ، ومعه جاريثان من جَواريه ؛ فبلغ ذلك طريفة ، فخرجتُ إليه وخرج معها وَصِيف^(٣) لها اسمُه سِنان ؛ فلما برزت من بيتها عرض لها ثلاثُ مُنَاجِدٍ^(٤) منتصبات على أرجلهن ، واضعات أيديهن على أعينهن ، فقعدت إلى الأرض واضعةً يديها على عينيها ، وقالت لو صيفها : إذا ذهبت هذه المناجد فأخبرني . فلما ذهبت أخبرها ، فانطلقت مُسرعة ، فلما عارضها الخليج الذي في حديقة عمرو وثبتت من الماء سُكْحَفَةً ، فوقعت في الطريق على ظهرها ، وجعلت

* شرح مقامات الحريري : ١ - ٢٦٥ ، بلوغ الأرب : ٣ - ٢٨٣ ، مجمع الامثال : ١ - ٢٥٢ ، المسعودي : ١ - ٢٤٤ ، معجم البلدان : مأرب .

(١) ملك اليمن ، ومزيقياء : لقبه ، فقد كان يلبس كل يوم حلتين ويمزقهما بالعشي ، يكره العود فيهما ، ويأثم أن يلبسهما غيره . (٢) أصابت بصاعقة : وهي نار تسقط من السماء مع الرعد الشديد . (٣) الوصيف : الخادم ، غلاماً كان أو جارية . (٤) هي دواب تشبه اليرابيع ، واليربوع : دوية نحو القارة ، لكن ذنبه وأذنيه أطول منها ، ورجليه أطول من يديه .

تَرُومُ الاقْلابَ فلا تَسْتَطِيعُ ، وتَسْتَمِيعُ بِذَنبِهَا فَتَحْنُو التُّرابَ على بطنِها من جَنَباتِها ،
وتَقْدِفُ بالبُولِ قَدْفًا .

فلَمَّا رَأَتْها طَريفةُ جَلَسَتْ إلى الأَرْضِ ، فلَمَّا عَادَتْ السَّلْحَفَةُ إلى المَاءِ مَضَتْ
طَريفةُ إلى أن دَخَلَتْ على عَمْرٍو ، وذلك حِينَ انْتَصَفَ النَّهارُ في سَاعَةِ شَدِيدِ حَرِّها ؛
فَإِذَا الشَّجَرُ يَتَكَفَّمُ ^(١) من غَيْرِ رِيحٍ ، فلَمَّا رَأَاهَا اسْتَحْيَا مِنْهَا ، وأَمَرَ الجَارِيَتَيْنِ
بِالانْصِرَافِ إلى نَاحِيَةٍ ؛ ثُمَّ قالَ لَهَا : هَلُمِّي يا طَريفةُ ، فَكَهَنَبُ ^(٢) لهُ ، وَقَالَتْ :
« والنَّورِ والظُّلُمَاءِ ، والأَرْضِ والسَّمَاءِ ؛ إِنْ الشَّجَرَ لَهَالِكٌ ، وَلِيَعُودَنَّ المَاءُ كما كانَ
فِي الزَّمَنِ السَّالِكِ » .

قالَ عَمْرٍو : مَنْ أَخْبَرَكَ بِهَذَا ؟ قَالَتْ : أَخِيرًا ؛ لِمُفَاجَأَةٍ ، بِسَنِينَ شَدَائِدٍ ، يَقْطَعُ
فِيهَا الولدُ الوالدَ . قالَ : ما تَقُولِينَ ؟ قَالَتْ : « أُنِ قولَ النَّدَّمانِ لَهْمَا ، لَقَدْ رَأَيْتُ
سُلْحَفًا ^(٣) ، تَجْرِفُ التُّرابَ جَرْفًا ، وتَقْدِفُ بُولَ قَدْفًا » ؛ فَدَخَلَتْ الحَدِيقَةَ ، فَإِذَا
الشَّجَرُ مِنْ غَيْرِ رِيحٍ يَتَكَفَّمُ !

قالَ : طَلَرْتَيْنِ فِي ذَلِكَ ؟ قَالَتْ : هـ . دَاهِيَةَ دَهْيَاءَ ^(٤) مِنْ أُمُورٍ جَسِيمَةٍ ،
وَمَصَائِبَ عَظِيمَةٍ ! قالَ : وما هُوَ وَيْلًا ! قَالَتْ : « أَجَلٌ ؛ إِنْ فِيهِ الوَيْلُ ، وَمَالِكٌ
فِيهِ مِنْ قَيْلٍ ^(٥) ، وَإِنْ الوَيْلُ فَمَا يَحْيِي بِهِ السَّيْلُ » !

فَأَلْقَى عَمْرٍو نَفْسَهُ عَنْ فَرَّاشِهِ ، وَقَالَ : ما هَذَا يا طَريفةُ ! قَالَتْ : « خَطْبُ جَلِيلٍ ،
وَحُزْنٌ طَوِيلٌ ، وَخَلَفٌ ^(٦) قَلِيلٌ » قالَ . وما هَلَامَةُ ما تَذَكِّرِينَ ؟ قَالَتْ : « أَذْهَبَ
إِلَى السَّدِّ ، فَإِذَا رَأَيْتَ جُرْدًا ^(٧) يُكْثِرُ يَدِيهِ فِي السَّدِّ الْخَفَرِ ، وَيَقْلُبُ بِرِجْلَيْهِ

(١) يَمِيلُ ٠ (٢) كَهَنَ لَهُ : قَضَى لَهُ بِالْقَيْبِ (٣) السَّلْحَفَةُ (٤) دَاهِيَةُ دَهْيَاءَ : شَدِيدَةٌ

(٥) قالَ قَيْلا : نَامَ فِي القَائِلَةِ ، وَهُوَ نِصْفُ النَّهارِ ، وَالرَّادُ الإِمَامَةُ وَالْمَكْتُبُ .

(٦) الخَلْفُ : ما اسْتَخْلَفْتَهُ مِنْ شَيْءٍ (٧) ضَرْبٌ مِنَ الفُتْرانِ .

من أَجَلِ الصَّخْر ، فاعلم أن غَمَرَ الْغَمْرُ^(١) ، وأن قد وقع الأمر .
قال : وما الذى تَذَكِّرُن أنه يقع ؟ قالت : « وعدُّ من الله تعالى نزل ، وباطل
بطل ، ونكالٌ بنا نكل ؛ فبغيرك يا عمرو يكون الشكل^(٢) » !

فانطلق عمرو فإذا الجُرَذ يقرب برجليه صخرة ما يقبلها خسون رجلا ، فرجع
إلى طَريفة فأخبرها الخبر ، وهو يقول :

أبصرتُ أمراً عادى، منه أَلَمٌ وهاج لى من هَوَ له بَرَحُ السَّقَمِ^(٣)
من جُرَذٍ كفحل خنزير الأُجَمِ^(٤) أو كَبَشٍ صِرْمِ^(٥) من أفاريق^(٦) الْغَمِّ
يَسْحَبُ صَخْرًا من جلاميد العَرَمِ له مَخَالِبُ وَأَنِيَابُ قُصَمِ^(٧)
* ما فاتهُ سَحْلًا^(٨) من الصخر قَصَمِ^(٩) *

فقالت طَريفة : وإن علامة ذلك الذى ذكرته لك أن تجلس فتأمر بزجاجة
فتوضع بين يديك فإن الريح تملؤها من تراب البطحاء من مِهْلَةٍ^(١٠) الوادى
ورَمْلِهِ ، وقد علمت أن الجنان مُظْلَلَةٌ لا يدخلها شمس ولا ريح .

فأمر عمرو بزجاجة فوضعت بين يديه ، ولم تمكث إلا قليلاً حتى امتلأت
من التراب ، فأخبرها بذلك ، وقال لها : متى يكون ذلك الخراب الذى يتحدث
فى السد ؟ قالت : فيما بينى وبينك سبع سنين ! قال : ففى أيها يكون ؟ قالت :
لا يعلم بذلك إلا الله تعالى ، ولو علمه أحدٌ لعلمته ، وإنه لا تأتى على ليلة فيما بينى
وبين سبع السنين إلا ظننتُ هلاكه فى غدٍها أو مسائها !

(١) الغمر : الماء الكثير .

(٢) الشكل : كسبب وقفل : الموت والهلاك (٣) البرح : السدة (٤) الأجم : جمع أجمة ،
وهو الشجر الكثير اللثف (٥) الصرم : الجماعة (٦) الأفاريق : الفريق تجم على فرق ، وجمت
فى الشعر على أفارق وجمع أفراق وجمه أفاريق (٧) قصم قصاً : أكل بأطراف أسنانه .
(٨) سحله : قشره ونحته . (٩) قصم : كسر (١٠) المهلة : تراب كالرمل يجىء بالماء .

ثم رأى عمرو في منامه سِيلَ العَرِمِ ^(١) ، وقيل له : إن آيةَ ذلك أن ترى الحُصْبَاءَ قد ظهرت في سَعَفِ النخل ؛ فنظر إليها فوجد الحُصْبَاءَ قد ظهرت فيها ، فلم أنه واقعٌ ، وأن بلادَهم ستخرب .

فكتم ذلك ، وأجمع على بَيْعِ كلِّ شيءٍ له بأَرْضِ مَأْرِبٍ ، وأن يخرج منها هو وولده ؛ ثم خشي أن تُنْكَرَ النَّاسُ عليه ذلك ، فأمرَ أحدَ أولادِهِ إذا دعاه لِمَا يدعوه إليه أن يتأبَّى عليه ^(٢) ، وأن يفعلَ ذلك به في المَلَأِ من الناس ؛ وإذا لطمه يرفعُ هو يده ، ويلطِّمُهُ .

ثم صنع عمرو طعاماً ، وبعث إلى أهل مَأْرِبٍ : إن عمرًا قد صنع طعاماً يوم مجْدٍ وذكر ، فاحضروا طعامه !

فلما جلس الناس للطعام جلس عنده ابنه الذي أمره بما قد أمره ، فجعل يأمره فيتأبَّى عليه ؛ فرفع عمرو يده فلطمه ، فلطمه ابنه ؛ فصاح عمرو : واذْلاهُ يوم فخرِ عمرو ! يهيجُهُ صَبِيٌّ وَيَضْرِبُ وَجْهَهُ ! وحلف ليقْتلَنَّهُ ، فلم يزالوا به حتى تركه ، وقال : والله لا أقيمُ بموضعٍ صنَّعَ هذا بي فيه ! ولأيعنَّ أموالى حتى لا يرثَ بعدى منها شيئاً !

فقال الناسُ بعضهم لبعض : اغتتموا غَضَبَةَ عمرو ، واشتروا منه أمواله قبل أن يرَضَى ؛ فابتاع الناسُ منه كلَّ ماله بأَرْضِ مَأْرِبٍ ، وفشا بعضُ حديثه فيما بلغه من شأنِ سِيلِ العَرِمِ ، فقام ناسٌ من الأَزْدِ فباعوا أموالَهم ؛ فلما أكثروا البيع استنكر الناسُ ذلك فأمسكوا عن الشراء ! فلما اجتمعت إلى عمرو أمواله أخبر الناسَ بشأن السيل وخرج ، فخرج لخروجه منها بشرٌ كثير .

(١) العرم : السيل الذى لا يطاق ، وقيل : هو الطر الشديد . وقيل : هو اسم واد (٢) تأبى عليه : امتنع .

٢٧ — عُفَيْرَاءَ وَمَرْتَدَ بْنَ عَبْدِ كَلَالٍ *

قفل مَرْتَدَ ^(١) بن عبد كلال من غَزَاةٍ غزاها بغنائم كثيرة ، فوفدَ عليه زعماء العرب وشعراؤها وخطباؤها يهنئونه ؛ فرفع الحجابَ عن الوافدين ، وأوسعهم عطاءً ، واشتدَّ سروره بهم .

فبينما هو كذلك إذ نام يوماً ؛ فرأى رؤيا في المنام أخافتهُ وأذعرتهُ ، فلما انتبه أنسيها ، حتى لم يذكر منها شيئاً ، وثبت في نفسه ارتياعه بها ، فانقلبَ سروره حزناً ، واحتجب عن الوفود ، حتى أساءوا به الظنَّ .

ثم إنه حشَرَ الكهَّانَ : فجعل يخلو بكاهنٍ بعد كاهنٍ ، ثم يقول له : أخبرني عما أريدُ أن أسألكَ عنه ! فيجيبه الكاهنُ : بأن لا علمَ عندي ! حتى لم يدعْ كاهناً علمه إلا كان إليه منه ذلك ! فتضاعفَ قلقُهُ ، وطالَ أرقُّه ، وكانت أمُّه قد تكهنتَ ^(٢) ، فقالت له : أبيتَ اللعن أيُّها الملك ! إن الكواهنَ ^(٣) أهْدَى إلى ما تسألُ عنه ، لأنَّ أتباعَ الكواهن من الجانبِ ، أطفُ وأظرف من أتباع الكهان .

فأمر بمحشَر الكواهن إليه ، وسألهم كما سأل الكهان ، فلم يجدْ عند واحدةٍ منهنَّ علماً بما أرادَ علمه ، ولما يئس من طَلَبَتِهِ سَلَا عنها ، ثم إنه بعد ذلك ذهب يتصيّد ، فأوغلَ ^(٤) في طلب الصيد ، وانفرد عن أصحابه ، فرُفِعَتْ له أبياتٌ من

* بلوغ الأرب : ٣ - ٢٩٦ ، الأغاني : ١٠ - ٢١

(١) هو أخو تبع بن حسان لأمه ، وكان ذا رأى وبأس وجود ، وملك إحدى وأربعين سنة .

(٢) تكهنت : قضت بالغيب (٣) الكواهن : جمع كاهنة (٤) أوغل في طلب الصيد :

بالغ في ذلك وأمعن

ذَرَاً^(١) جبل ، وكان قد لَفَحَهُ^(٢) الهَجِيرُ ، فعدَل إلى الأبيات ، وقصد بيتاً منها منفرداً عنها ، فبرزت إليه منه عجوز ، فقالت له : انزل بالرحب والسعة ، والأمن والدعة ، والجفنة المددعة^(٣) ، والملبة^(٤) المترعة .

فنزل عن جَوَادِهِ ، ودخل البيت ، فلما احتجب عن الشمس ، وخفت عليه الأرواح^(٥) ، نام فلم يستيقظ حتى نصرم الهَجِيرُ ، فجلس يمسح عينيه ، فإذا بين يديه فتاة لم ير مثلاً قواماً ولا جالاً ؛ فقالت : أبيت اللعن أيها الملك الهمام ! هل لك في الطعام ؟ فاشتد إشفاقه ، وخاف على نفسه لَمَّا رأى أنها عرفته ، وتصامت عن كلمتها ، فقالت له : لا حذر ، فذاك البشر ، فخذك الأكبر ، وحظنا بك الأوفر . ثم قربت إليه ثريداً وقديداً وحيساً^(٦) ، وقامت تذبُّ عنه حتى انتهى أكله ، ثم سقته لبناً صريفاً وضريباً^(٧) ، فشرب ما شاء ، وجعل يتأملها مُقبلةً مُدبرةً ، فلأت عينه حُسناً ، وقلبه هوى ، فقال لها : ما اسمك يا جارية ؟ قالت : اسمي عُفراء ، فقال لها : يا عُفراء ، من الذى دعوتك بالملك الهمام ؟ قالت : مرئد العظيم الشان ! حاشر الكواهن والكهّان ، لمعضلة^(٨) بعد عنها الجان !

فقال : يا عُفراء ، أتعلمين تلك المعضلة ؟ قالت : أجل أيها الملك ! إنها رؤيا منام ، ليست بأضغاث أحلام !

قال الملك : أصبت يا عُفراء ! فما تلك الرؤيا ؟ قالت : رأيت أعاصير^(٩) زوابع ،

(١) ذرا الجبل : كنفه وسفحه (٢) لفحه : أحرقه ، والهجير : نصف النهار وشدة الحر .
 (٣) الجفنة : القصعة ، والمددعة : التى ملئت بقوة ثم حركت حتى تراس ما فيها ، ثم ملئت بعد ذلك
 (٤) الملبة : لئاء من جلد الإبل أو من خشب يحلب فيها ، المترعة : الملوثة .
 (٥) الأرواح : جمع ريح (٦) القديد : اللحم المقدد ، والحيس : تمر وأقط وسمن .
 (٧) الصريف : اللبن آن الحلاب يصرف عن الضرع إلى الشارب . والضريب : اللبن الذى يحلب من عدة لقاح في لئاء واحد فيضرب بعضه ببعض (٨) المعضلات : الضدائد . وبعد عنها الجان : لم يطبقوها (٩) الأعاصير الزوابع : هى من الرياح ، لا يثير التراب فيعليه في الجو ويديره .

بعضها لبعض تابع، فيها لَهَبٌ لا مع . ولها دُخَانٌ ساطع ^(١) يقفوها نَهْرٌ مُتَدَا فِع ،
وسمعتَ فيما أنتَ سامع، دعاءَ ذى جَرَسٍ ^(٢) صاذع : هلموا إلى المشارع ^(٣) ؛ فَرَوَى
جارع ^(٤) ، وغَرِقَ كارع ^(٥) !

فقال الملك : أَجَلٌ ! هذه رؤياى ! فما تأويلُها يا عُفَيْراء ؟ قالت : الأعاصير
الزوابع ملوكٌ تَبَّاعٌ ^(٦) . والنهر علم واسع . والداعى نبيٌّ شافع . والجارع ولىُّ تابع
والكارع عدو منازع !

فقال الملك : يا عفَيْراء ، أَسَلِمَ هذا النبيُّ أم حرب ؟ فقالت : أَقْسِمُ بِرافِعِ السماء ؛
ومُنْزِلِ الماءِ مِنَ الْعَمَاءِ ^(٧) ، إنه لَمُطِّلٌ ^(٨) الدماء ، وَمُنْطَقٌ ^(٩) العقائل نُطَقُ الإمام .
فقال الملك : إلامَ يدعو يا عفَيْراء ؟ قالت : إلى صلاةٍ وصيامٍ ، وصلةٍ أَرْحَامٍ ،
وكَسْرِ أصنام ، وتعطيلِ أَرْلام ^(١٠) ، واجتنابِ آثام !

فقال الملك : يا عُفَيْراء ؛ إذا ذبحَ قَوْمُهُ فَمَنْ أَعْضَادُهُ ^(١١) ؟ قالت : أَعْضَادُهُ
عَطَارِيفُ ^(١٢) يَمَانُونَ ، طائرُهم به ميمون ، يُغْزِرِهم فَيَغْزُونَ ؛ وَيُدْمَتُ ^(١٣) بهم
الْحُزُونُ ، وإلى نَصْرِهِ يَمْتَرُونَ !

فأطرق الملك يُوْأَمِرُ ^(١٤) نفسه في خطبتها ؛ فقالت : أَيْدِى اللعن أيها الملك ! إن
تابعى غَيُور ، ولأمرى صَبُور ، والكَلْفُ بى ثُبُور ^(١٥) .

فنهض الملك ، وحَالَ ^(١٦) فى صَهْوَةٍ جواده وانطلق ؛ فبعث إليها بمائة ناقةٍ كَوْماء ^(١٧) !

(١) ساطع : مرتفع (٢) الجرس : الصوت (٣) المشارع : جمع مشرعة وهى التى ينحدر
أليها الماء (٤) أى من شرب جرعا روى (٥) أى ومن أمعن فى الشرب غرق (٦) التبايع
جمع تبع ، وهو لقب للملك البين (٧) العماء : السحاب الكثيف (٨) طل دمه . هدر ،
أو ألا يثار به (٩) منطق العقائل : الكرائم من النساء ؛ أى يسبهن فيشددن النطق على
أوساطهن كالإماء للهيئة والخدمة .

(١٠) الأزلام : سهام كانوا يستقسمون بها فى الجاهلية ؛ أى يطلبون معرفة ما قسم لهم .
(١١) الأعضاد : الأنصار : أى إذا قطعوه وتركوا نصرته (١٢) العطاريف : السادة ، وتريد
الأنصار وهم من أهل البين (١٣) يدمت : يسهل (١٤) يؤامر نفسه : يشاور (١٥) ثبور : هلاك
(١٦) حال : أى وثب واستوى ، والصهوة : مقعد الفارس من ظهر فرسه (١٧) الكوماء :
الناقة العظيمة السنام .

٢٨ — كاهنة بني سعد*

نَذَرُ عَبْدُ الْمَطْلَبِ بْنِ هَاشِمٍ أَنَّهُ مَتَى رُزِقَ عَشْرَةُ أَوْلَادٍ ذَكَوْرًا ، وَرَأْمَ بَيْنَ يَدَيْهِ رَجَالًا أَنْ يَنْحَرَّ أَحَدَهُمْ عِنْدَ الْكَعْبَةِ شُكْرًا لِرَبِّهِ !
فَلَمَّا اسْتَكْمَلَ وَلَدَهُ الْعَدَدَ ، وَصَارُوا مِنْ أَظْهَرِ الْعُدَدِ ، قَالَ لَهُمْ : يَا بَنِيَّ ؛ كُنْتُ نَذَرْتُ نَذْرًا عَلِمْتُمُوهُ قَبْلَ الْيَوْمِ ، فَمَا تَقُولُونَ ؟

قَالُوا : الْأَمْرُ لَكَ وَإِلَيْكَ . وَنَحْنُ بَيْنَ يَدَيْكَ ! فَقَالَ : لِيَنْطَلِقَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْكُمْ إِلَى قِدْحِهِ ^(١) ، وَلِيَكْتُبْ عَلَيْهِ اسْمَهُ ، فَفَعَلُوا ؛ ثُمَّ أَتَوْهُ بِالْقِدَاحِ فَأَخَذَهَا .
ثُمَّ دَعَا بِالْأَمِينِ الَّذِي يَضْرِبُ بِالْقِدَاحِ ، فَدَفَعَ إِلَيْهِ قِدَاحَهُمْ ، وَقَالَ : حَرِّكْ وَلَا تَمْجَلْ .

وَكَانَ أَحَبُّ وَلَدِ عَبْدِ الْمَطْلَبِ إِلَيْهِ عَبْدُ اللَّهِ . فَضَرَبَ صَاحِبُ الْقِدَاحِ السَّهْمَ ، فَخَرَجَ عَلَى عَبْدِ اللَّهِ ؛ فَأَخَذَ عَبْدَ الْمَطْلَبِ الشَّفْرَةَ ^(٢) ، وَأَتَى بِعَبْدِ اللَّهِ وَأَضْجَعَهُ بَيْنَ إِسَافٍ ^(٣) وَنَائِلَةٍ .

وَهُمْ بِذَنْجِهِ ، فَوُثِبَ إِلَيْهِ ابْنُهُ أَبُو طَالِبٍ ، وَكَانَ أَخَا عَبْدِ اللَّهِ لِأَيِّهِ وَأُمِّهِ ، وَأَمْسَكَ بِيَدِهِ عَنْ أَخِيهِ .

فَلَمَّا سَمِعَتْ بَنُو مَخْزُومٍ بِذَلِكَ — وَكَانُوا أَخْوَالَهُ — وَثَبُوا إِلَى عَبْدِ الْمَطْلَبِ ، فَقَالُوا : يَا أَبَا الْحَارِثِ ، إِنَّا لَا نَسْلُمُ إِلَيْكَ ابْنَ أَخْتِنَا لِلذَّبْحِ ، فَادْبَحْ مَنْ شِئْتَ مِنْ وَلَدِكَ غَيْرِهِ !

* بلوغ الارب : ٣ - ٤٦ ، ابن هشام : ١ - ١٠٣ ، الطبري : ٢ - ١٧٤
(١) القدح : السهم (٢) الشفرة : السكين العظيم (٣) إساف ونائلة : صنان كانا لقريش ، وضمهما عمرو بن لحي على الصفا والروة ، وكان يذبح عليهما تجاه الكعبة .
(٦ - قصص العرب - أول)

فقال : إني نذرتُ نذراً ، وقد خرج القِدْحُ ، ولا بدَّ من ذبحه ! قالوا : كلاً ! لا يكونُ ذلك أبداً ، وفينا رَوْحٌ ؛ وإنا لنفدِّيه بجميع أموالنا من طارفٍ وتآلد .
ثم وثب الساداتُ من قريش إلى عبد المطلب ، فقالوا : يا أبا الحارث ؛ إن هذا الذي عزمْتَ عليه لعظيم ، وإنك إن ذبحتَ ابنَكَ لم تَهَنَأَ بالعيش من بعده ، ولكن تثبتْ حتى نصيرَ معكَ إلى كاهنةِ بنى سعد ، فما أمرتك من شيء فامتثلْهُ .
فقال عبد المطلب : لكم ذاك .

ثم خرج في جماعةٍ من بنى تَخْزُومٍ نحو الشام ^(١) إلى الكاهنة ؛ فلما دخلوا عليها أخبرَها عبدُ المطلب بما عزمَ عليه من ذَبْحِ ولده . فقالت الكاهنة : انصرفوا عني اليوم . فانصرفوا .

وعادوا من القَدِّ ، فقالت : كم ديةُ الرجلِ عندهم ؟ قالوا : عشر من الإبل . قالت : فارجعوا إلى بلدكم ، وقرَّبوا هذا الغلام الذي عزمتم على ذبحه ، وقدّموا معه عشرًا من الإبل ، ثم اضربوا عليه وعلى الإبل القِدَاحَ ، فإن خرج القِدْحُ على الإبل فأنحروها ، وإن خرج على صاحبكم فزِيدوا على الإبل عشرًا عشرًا حتى يَرْضَى ربكم .

فانصرف القومُ إلى مكة ؛ وأقبلوا عليه يقولون : يا أبا الحارث ؛ إن لك في إبراهيمَ أسوةً حسنة ؛ فقد علمتَ ما كان من عزمه على ذبح ابنه إسماعيل وأنت سيدُ ولد إسماعيل ، فقدّم مالك دون ولدك !

فلما أصبحَ عبدُ المطلب قرَّبَ عَبْدَ اللَّهِ وعشرًا من الإبل ، ثم دعا بأمينِ القِدَاحِ وجعل لابنه قِدْحًا ، وقال : اضرب ولا تَعْجَلْ ، فخرج القِدْحُ على عبد الله ،

(١) في سيرة ابن هشام والطبري : فاطلقوا حتى قدموا المدينة .

فجعلها عشرين ، فضرب فخرج على عبد الله ؛ فجعلها ثلاثين فضرب فخرج القِدْح على عبد الله ؛ فجعلها أربعين ، . . . وكما خرج القِدْح على ابنه زادها عشراً ، حتى جعلها مائة ، فضرب فخرج القِدْح على الإبل ، فكَبَّرَ عبدُ الله وكَبُرَتْ قريش ، وقالت : يا أبا الحارث ؛ إنه قد رَضِيَ رَبُّكَ ، وقد نجا ابنُك من الذبح .

فقال : لا والله حتى أُضْرَبَ عليه ثلاثاً ! فضرب الثانية فخرج على الإبل ، فضرب الثالثة فخرج على الإبل ، فلم عبدُ المطلب أنه قد بلغ رِضاً ربه في فِدَاء ابنه .

فَقُرِبَتِ الإبلُ ، وهي مائةٌ من جِلَّةِ إبلِ عبد المطلب ، فَتُحِرَّتْ كلها ، فداءً لعبد الله ، وتُرِكَتْ في مواضعها ، لا يُصَدُّ عنها أحدٌ ينتابها ممن دبَّ ودرَج^(١) ؛ وانصرف عبد المطلب بابنه عبد الله فرحاً .

(١) درج : مشى ، ودب : مشى على هيئته ، و المقصود كل واحد .

٢٩ - كهانة سَطِيح*

لما كانت الليلة التي وُلد فيها رسولُ الله اِرْتَجَسَ^(١) إيوانُ كسرى ، وسقطت منه أربعَ عشرةَ شُرْفَةً ، وُحِدَتِ نارُ فارس ، ولم تحمُدْ قبل ذلك مائةَ عام ، وغازت بحيرة ساوَة ، ورأى الموبذان إبلاً صعباً^(٢) ، تقودُ خَيْلاً عِراباً^(٣) ، قد قطعت دجلة وانتشرت في بلادها .

فلما أصبح كسرى أفزعَهُ ما رأى ، فصبر تشجماً ، ثم رأى ألا يكتَمَ ذلك عن وزرائه ومَرازِيتِه^(٤) ؛ فلبس تاجَهُ ، وقعد على سريره ، وجمعهم إليه . فلما اجتمعوا أخبرهم بالذي بعث إليهم فيه ؛ فبينما هم كذلك إذ ورد عليه كتابٌ بخمود النار ؛ فازداد غما إلى غمه ، فقال الموبذان^(٥) : وأنا - أصلح الله الملك - قد رأيتُ في هذه الليلة رؤيا ، وقصَّ عليه الرؤيا في الإبل ، فقال له : وأى شيء يكون هذا يا موبذان ، وكان أعلمهم عند نفسه بذلك - فقال : ما عندي فيها ولا في تأويلها شيء ، ولكن أرسل إلى عاملك بالحيرة يوجه إليك رجلا من علمائهم ، فإنهم أصحاب علم بالحديثان . فكتب عند ذلك : « من كسرى ملك الملوك إلى النعمان بن المنذر ، أما بعد ، فوجهُ إلى رجل عالما بما أريدُ أن أسأله عنه » . فوجهُ إليه عبد المسيح بن عمرو بن بُقَيْلَةَ^(٦) الفسافي .

فلما قدم عليه ، قال له : أعندك علم بما أريدُ أن أسألك عنه ؟ قال : ليخبرني

* السيرة الحلبية : ١ - ٧٠ ، بلوغ الأرب : ٣ - ٢٨١ ، العقد الفريد : ٢ - ١٠٨ ، الطبري ٢ - ١٣١ ، لسان العرب - مادة سطح ، الفائق للزخشمي : ١ - ٤٦٠ .
(١) ارتجس : ارتجف (٢) بعر صعب : غير متقاد (٣) خيل عراب : عربية منسوبة إلى العرب (٤) المرازبة : جمع مرزبان : وهو الفارس الشجاع المقدم على القوم دون الملك (٥) الموبذان : المجوس كقاضى القضاة للساميين (٦) في اللسان : نفيلة .

الملك فإن كان عندي منه علم وإلا أخبرته بمن يعلمه له . فأخبره بما رأى ، فقال :
علم ذلك عند خال لي يسكن مشارف الشام ، يقال له سطيح . قال : فإنه فاسأله
عما سألتك وأتني بحوابه ، فركب عبد المسيح راحلته حتى قدم على سطيح وقد أشفى
على الموت ، فسلم عليه وحيّاه فلم يجبه ، وكلمه فلم يرد عليه ، فقال :

أَصَمُّ أَمْ يَسْمَعُ غَطْرِيفُ ^(١) الْيَمِينُ	أَمْ قَادَ فَازَلَمْ بِهِ شَأْوُ الْعَمَنِّ ^(٢)
يَا فَايَصِلَ الْخُلَطَّةِ أَغَيْتَ مَنْ وَمَنْ	أَتَاكَ شَيْخُ الْحَيِّ مِنْ آلِ سَنَنْ
وَأُمُّهُ مِنْ آلِ ذَنْبِ بْنِ حَجَنْ	أَبْيَضُ فَضْفَاضُ ^(٣) الرِّدَاءِ وَالْهَدَنْ
رَسُولُ قَيْلٍ ^(٤) الْعُجْمِ بِسَرَى لِلْوَسَنْ	لَا يَرْهَبُ الرَّعْدَ وَلَا رَبِّبَ الزَّمَنْ
تَجُوبُ بِي الْأَرْضَ عَلَنَدَاةُ شَزَنْ ^(٥)	تَرْفَعُنِي وَجَنْ ^(٦) وَتَهْوِي بِي وَجَنْ
حَقِّي أَنِّي عَارِي الْجَاغِي وَالْقَطَنْ ^(٧)	تَلْفُهُ فِي الرِّيحِ بَوَغَاءِ الدَّمَنْ ^(٨)

فلما سمع سطيح شعره رفع رأسه وقال : عبد المسيح ، على جلٍ مُشِيح^(٩) ،
جاء إلى سطيح ، وقد أوفى على الضريح^(١٠) بعثك ملك بني ساسان ، لارُجُباس
الإيوان ، وُخود النيران ، ورويا الموبدان : رأى إبلا صعباً ، تقود خيلاً عراباً ،
قد اقتحمت في الواد ، وانتشرت في البلاد ؛ ثم قال : يا عهد المسيح ؛ إذا كثرت
التلاوة ، وبُعث صاحبُ الهراوة^(١١) ، وفاض وادى السماء ، وغاضت بحجرة ساوة ،
وخذت نار الفرس ، فليست الشام لسطيح شاماً ، يملك منهم ملوك ومليكات ، على عدد

(١) الفطريف : السيد العريف (٢) قاد : مات ، وأزلم : ذهب مسرعاً . وشأوه : سبقه إليه ،
والعمن : ما ينوبك من عارض (٣) فضفاض : واسع (٤) القيل : الملك أو هو دون الملك
(٥) علنداة : ناقة ضخمة طويلة . وشزن : فيها نشاط (٦) الوجن : هي الأرض الغليظة
الصلبة (٧) القطن : أسفل الظهر (٨) البوغاء : التراب الناعم : والدمن : ماتدمن منه أي
تجعم (٩) مشيح : جاد مسرع (١٠) الضريح : القبر ، والمراد الموت (١١) الهراوة :
العصا ، وصاحب الهراوة هو سيدنا محمد ، لأنه كان يمسك العصا كثيراً عند مشيه .

الشرفات ؛ وكل ماهو آت آت ، ثم قُبِضَ سطيحٌ مكانه ، ونهض عبد المسيح إلى راحلته وهو يقول :

شمر فإنك ما عثرتَ شَمِيرُ لا يُفِرُّ عَنْكَ تَفْرِيقُ وَتَفِيرُ
 إن يمس ملكُ بني ساسانَ أفرطهمُ فإن ذا الدهرَ أطوارُ دَهارِيرُ^(١)
 فرُبما ريموا أضحوًا بمنزلةٍ تهابُ صولهمُ أسدٌ مهَاصِيرُ^(٢)
 منهم أخو الصرحِ بهرامٌ وإخوتهمُ وهُرُمُزَانُ وسابورُ وسابورُ
 والناسُ أولادُ علاتٍ^(٣) فمن علموا أن قد أقلَّ فهجورُ ومُخْشُورُ
 وهم بنو الأمِّ لَمَّا أن رأوا نَشَبًا فذاك بالغيبِ مَخْفوظُ وَمَنْصُورُ
 والخيرُ والشرُّ مقرونان في قرنٍ^(٤) فالخيرُ مُتَّبِعُ والشرُّ مُحْذُورُ

فلما قدم عبد المسيح على كسرى أخبره بقول سطيح . فقال : إلى أن يملك منا أربعة عشرَ ملكا تكونُ أمور ، ويدور الزمان . فلك منهم عشرة في أربع سنين ، وملك الباقون إلى زمنَ عثمان بن عفان رضى الله عنه !

(١) أفرطهم : تركهم . والدَهارِيرُ : تصاريف الدهر ونوائبه ، مشتق من لفظ الدهر ليس له واحد من لفظه كعبايد (٢) المهاسير : جمع مهصار أو مهصير ، وهو الأسد (٣) أولاد العلات : أولاد أمهات شتى لرجل واحد . (٤) القرن : الحبل .

٣٠ — مَصْرَعُ الْعُزَّى *

كانت العُزَّى شيطانةً تأتي ثلاث سَمَرَاتٍ ^(١) ببطن نَحْلَةٍ ^(٢) . فلما افتتح النبي صلى الله عليه وسلم مكة بعث خالد بن الوليد ، فقال له : إيت بطن نَحْلَةٍ ؛ فإنك تجد ثلاث سَمَرَاتٍ فاعضد ^(٣) الأولى ! فأثاها فعضدها . فلما جاء إليه عليه السلام قال : هل رأيت شيئاً ؟ قال : لا . قال : فاعضدِ الثانية ! فأثاها فعضدها . ثم أتى النبي عليه السلام ، فقال : هل رأيت شيئاً ؟ قال : لا . قال : فاعضدِ الثالثة ! فأثاها ، فإذا هو بجبشية نافشة شعرها ، واضعة يديها على عاتقها ، تصرِف ^(٤) بأنيابها ، وخلفها دُبْيَةٌ بن حَرَمَى الشَّيبَانِي وكان سادِنُها ^(٥) . فلما نظر إلى خالد قال :

أَعَزَّاءُ شُدَّى شَدَّةً لَا تُكَذِّبِي على خالدٍ ! أَلْقِ الْخِمَارَ وَشَمِّرِي !
فإنك إِلَّا تَقْتُلِي الْيَوْمَ خَالداً تُبَوِّئِي بِذُلٍّ عَاجِلاً وَتَنَصَّرِي
فقال خالد :

يَا عَزُّ كُفْرَانِكَ لَا سَبْحَانَكَ إني رأيتُ الله قد أهاَنَكَ !

ثم ضربها ففلق رأسها ، فإذا هي مُحَمَّةٌ ^(٦) . ثم عضدَ الشجرة ، وقتل دُبْيَةَ السَّادِنِ . ثم أتى النبي صلى الله عليه وسلم ، فأخبره . فقال : « تلك العُزَّى ، ولا عُزَّى بعدها للعرب ! أما إنها لن تُعْبَدَ بعد اليوم » .

* الأَصْنَامُ لابن الكلبي : ٢٥ .

(١) سمرات جمع سمرة ، وهي نوع من الشجر (٢) بطن نَحْلَةٍ : قرية من المدينة .

(٣) فاعضد : فاقطع . (٤) تصرِف : تصوت (٥) السادن : خادم الكعبة وبيت الأصنام

(٦) الحُم : الفحم ، واحدته بهاء .

٣١ — أُمِّيَّةُ بْنُ أَبِي الصَّلْتِ وَرَوَّيَا شَقَّ الصَّدْر*

دخل يوماً أُمِّيَّةُ^(١) بْنُ أَبِي الصَّلْتِ عَلَى أُخْتِهِ ، وَهِيَ تَهَيَّئُ أَدَمًا^(٢) لَهَا ، فَأَدْرَكَهُ النَّوْمُ ؛ فَنَامَ عَلَى سَرِيرٍ فِي نَاحِيَةِ الْبَيْتِ ، ثُمَّ انشَقَّ جَانِبٌ مِنَ السَّقْفِ فِي الْبَيْتِ ، وَإِذَا بِطَائَرَيْنِ قَدْ وَقَعَ أَحَدُهُمَا عَلَى صَدْرِهِ ؛ وَوَقَفَ الْآخَرُ مَكَانَهُ ، فَشَقَّ الْوَاقِعُ صَدْرَهُ فَأَخْرَجَ قَلْبَهُ فَشَقَّهُ ، فَقَالَ الطَّائِرُ الْوَاقِفُ لِلطَّائِرِ الَّذِي عَلَى صَدْرِهِ : أَوْعَى ؟ قَالَ : وَعَى ، قَالَ : أَقْبَلَ ؟ قَالَ : أَبَى . قَالَ : فَرُدَّ قَلْبَهُ فِي مَوْضِعِهِ . ثُمَّ نَهَضَ فَاتَّبَعَهُمَا أُمِّيَّةُ طَرَفَهُ ، وَقَالَ :

لَيْكُمَا لَيْكُمَا هَانَذَا لَدَيْكُمَا

لَا بَرِيءٌ فَأَعْتَذِرُ ، وَلَا ذُو عَشِيرَةٍ فَأَنْتَصِرُ .

فَرَجَعَ الطَّائِرُ فَوْقَ عَلَى صَدْرِهِ فَشَقَّهُ ، ثُمَّ أَخْرَجَ قَلْبَهُ فَشَقَّهُ ؛ فَقَالَ الطَّائِرُ الْأَعْلَى : أَوْعَى ؟ قَالَ : وَعَى ، قَالَ : أَقْبَلَ ؟ قَالَ : أَبَى ؛ وَنَهَضَ ، فَاتَّبَعَهُمَا أُمِّيَّةُ بَصَرَهُ وَقَالَ :

لَيْكُمَا لَيْكُمَا هَانَذَا لَدَيْكُمَا

لَا مَالٌ يَفْنِيَنِي ؛ وَلَا عَشِيرَةٌ تَحْمِينِي . فَرَجَعَ الطَّائِرُ فَوْقَ عَلَى صَدْرِهِ فَشَقَّهُ ؛ ثُمَّ أَخْرَجَ قَلْبَهُ فَشَقَّهُ . فَقَالَ الطَّائِرُ الْأَعْلَى : أَوْعَى ؟ قَالَ : وَعَى . قَالَ : أَقْبَلَ ؟ قَالَ : أَبَى . وَنَهَضَ فَاتَّبَعَهُمَا أُمِّيَّةُ بَصَرَهُ ، وَقَالَ :

* الْأَغَانِي : ٤ - ١٢٧

(١) كَانَ أُمِّيَّةٌ قَدْ نَظَرَ فِي الْكُتُبِ وَقَرَأَهَا قَبْلَ بَعَثَةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَلَبَسَ الْمَسْحُوحَ تَعْبُدًا ، وَحَرَّمَ الْخَمْرَ ، وَشَكَ فِي الْأَوْثَانِ . وَلَمَّا بَعَثَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : « لَمَّا كُنْتُ أَرْجُو أَنْ أَكُونَهُ » . وَلَمْ يَسْلَمْ (٢) تَهَيَّئَتْهُ وَتَقْدِرُهُ قَبْلَ الْقَطْعِ وَتَقْيِيسِهِ لِنَقْطِ مَزَادَةٍ أَوْ قُرْبَةٍ أَوْ خَفَا .

ليبيكا ليبيكا هأنذا لديكما

محفوظ بالنعم ، محوط من الرّيب . فرجع الطائرُ فوقع على صدره فشقه ،
وأخرج قلبه فشقه ، فقال الأعلى : أوعى ؟ فقال : وعى . قال : أقبل ؟ قال : أبى .
ونهمض فأتبعهما أمية بصره ، وقال :

ليبيكا ليبيكا هأنذا لديكما

إن تَغْفِرِ اللهم تَغْفِرِ جَمًّا وَأَيُّ عَبْدٍ لَكَ لَا أَلَمًا^(١)

قالت أخته : ثم انطبق السقف ؛ وجعل أمية يمسح صدره ، فقلت : يا أخى ،
هل تجد شيئاً ؟ قال : لا ، ولكنى أجد حرّاً فى صدرى ، ثم أنشأ يقول :

لَيْتَنِي كُنْتُ قَبْلَ مَا قَدْ بَدَأَ لِي فِي قَيْنَانِ^(٢) الْجِبَالِ أَرْعَى الْوُعُولَا
أَجَلِ الْمَوْتِ نَصَبَ عَيْنِكَ وَاحْذَرُ غَوْلَةَ الدَّهْرِ إِنْ لِلدَّهْرِ غُولا^(٣)

(١) أَلَمٌ : ارتكب اللوم ، وهو صفار الذنوب (٢) القنان : أعلى الجبال ، واحدهما قنة .
(٣) كل ما اغتال الإنسان فأهلكه .

٣٢ - أم العوام ! *

خرج ركبٌ من ثَقِيفٍ إلى الشام ، وفيهم أُمَيَّةُ بْنُ أَبِي الصَّلْتِ ، فلما قَفَلُوا راجعين نزلوا منزلاً لِيَتَعَشَّوْا بَعَثَاءَ ، إِذْ أَقْبَلَتِ عَطَايَةُ ^(١) حَتَّى دَنَتْ مِنْهُمْ ، فَحَصَبَهَا بِعَضْمٍ شَيْءٍ فِي وَجْهِهَا ، فَرَجَعَتْ ، وَكَفَّتُوا ^(٢) سَفَرَهُمْ ، ثُمَّ قَامُوا بِرَحْلُونِ مُنْسِينَ ، فَطَلَعَتْ عَلَيْهِمْ عَجُوزٌ مِنْ وَرَاءِ كَثِيبٍ مُقَابِلٍ لَهُمْ تَتَوَكَّنُ عَلَى عَصَا ، فَقَالَتْ : مَا مَنَعَكُمْ أَنْ تُطْعِمُوا رَجِيمَةَ ، الْجَارِيَةَ الْيَتِيمَةَ ، الَّتِي جَاءَتْكُمْ عَشِيَّةً ! قَالُوا : وَمَنْ أَنْتِ ؟ قَالَتْ : أَنَا أُمُّ الْعَوَامِ ، إِمْتُ ^(٣) مِنْذُ أَعَوَامَ ! أَمَا وَرَبُّ الْعِبَادِ ، لَتَفْتَرُقَنَّ فِي الْبِلَادِ ! وَضَرَبَتْ بِعَصَاهَا الْأَرْضَ ، ثُمَّ قَالَتْ : بَطَّئِي إِيَابَهُمْ ، وَنَفِّرِي رُكْلَهُمْ ؛ فَوُثِبَتِ الْإِبِلُ كَأَنَّ عَلَى ذُرْوَةِ كُلِّ بَعِيرٍ مِنْهَا شَيْطَانًا ، مَا يُمْلِكُ مِنْهَا شَيْءٌ ، حَتَّى افْتَرَقَتْ فِي الْوَادِي .

قال الراوى : فجمعناها في آخرِ النهار من الغدِ ولم نَكُدْ ، فلما أُنْخَنَّاها لِرُجْلِهَا طَلَعَتْ عَلَيْنَا الْعَجُوزُ ، فَضَرَبَتْ الْأَرْضَ بِعَصَاهَا ، ثُمَّ قَالَتْ كَقَوْلِهَا الْأَوَّلِ ، فَفَعَلَتْ الْإِبِلُ كِفْعَلِهَا بِالْأَمْسِ ، فَلَمْ تَجْمَعْهَا إِلَّا الْغَدَ عَشِيَّةً ؛ فَلَمَّا أُنْخَنَّاها لِرُجْلِهَا أَقْبَلَتِ الْعَجُوزُ ، فَفَعَلَتْ كِفْعَلِهَا فِي الْيَوْمَيْنِ ، وَنَفَرَتْ الْإِبِلُ .

فقلنا لأُمَيَّةَ : أَيْنَ مَا كُنْتَ تُخْبِرُنَا بِهِ عَنْ نَفْسِكَ ؟ فَقَالَ : اذْهَبُوا أَتَمُّ فِي طَلَبِ الْإِبِلِ وَدَعُونِي ؛ فَتَوَجَّهَ إِلَى ذَلِكَ الْكَثِيبِ الَّذِي كَانَتْ الْعَجُوزُ تَأْتِي مِنْهُ حَتَّى عَلَاهُ ،

* الأغانى : ٤ - ١٢٥ .

- (١) العطاية : دوية ملساء ، تشبه سام أبرص ، من طبعها أنها تمشى مشياً سريعاً ثم تقف .
(٢) كفت الشيء : ضم بعضه إلى بعض . والسفرة : ما يبسط تحت الخوان من جلد أو غيره .
(٣) آمت المرأة : إذا فقدت زوجها .

وهبط منه إلى وادٍ ؛ فإذا فيه كنيسةٌ وقناديل ، وإذا رجلٌ أبيضُ الرأسِ واللحية مُضْطَجِعٌ معترضٌ على بابها ؛ فلما رأى أُمَيَّةَ قال : إنك لَمَتَّبُوعٌ ، فمن أين يَأْتِيكَ صاحبُكَ ؟ قال : من أذني اليسرى ؛ قال : فبأي الثياب يَأْمُرُكَ ؟ قال : بالسَّوَادِ ؛ قال : هذا خَطِيبُ الجنِّ ، كدَّتْ والله أَنْ تَكُونَهُ ولم تفعل ؛ إن صاحبَ النبوة يَأْتِيهِ صاحِبُهُ مِنْ قِبَلِ أذُنِهِ اليمْنَى ، ويَأْمُرُهُ بِإِبْسِ البِياضِ ، فما حاجتُكَ ؟ فحدَّثَهُ حَدِيثَ الفُجُوزِ ؛ فقال : هي أُمْرَأَةٌ يهوديةٌ من الجنِّ ، هلك زوجها منذ أعوام ، وإنها لن تزال تصنعُ ذلك بِكُمْ حتى تهْلِكْكُمْ إن استطاعت .

فقال أُمَيَّةُ : وما الحيلةُ ؟ فقال : جَمَعُوا ظَهَرَكُمْ ^(١) ؛ فإذا جاءكم ففعلتْ كما كانت تفعلُ فقولوا لها : « سَمِعَ من فوق ، وَسَمِعَ من أسفل ، بِأَسْمِكَ اللَّهُمَّ » ! فلن تضُرَّكُمْ .

فرجع أُمَيَّةُ إليهم وقد جَمَعُوا الظَّهْرَ ؛ فلما أقبلتْ قال لها ما أَمَرَهُ به الشيخ ، فلم تضُرَّهُمْ . فلما رأتِ الإِبِلَ لم تَتَحَرَّكَ قالت : قد عرفتُ صاحبَكُمْ ، وَلَيْبَيْضُنَّ أَعْلَاهُ ، وَلَيْسَوْدُنَّ أَسْفَلُهُ ؛ فأصبح أُمَيَّةُ وقد برِصٌ في عِذَارِيهِ وَأَسْوَدَ أَسْفَلُهُ .

فلما قَدِمُوا مَكَّةَ ذكروا لهم هذا الحديث ؛ فكان ذلك أولَ ما كَتَبَ أَهْلُ مَكَّةَ : « بِأَسْمِكَ اللَّهُمَّ » في كُتُبِهِمْ !

(١) الظهر : الركاب التي تحمل عليها الأنفال في السفر .

٣٣ — عُمارة بن الوليد والسَّوَّاحِر*

كان عُمارة^(١) بن الوليد الحزومي قد خرج هو وعمرو بن العاص بن وائل السَّهمي - وكانا كلاهما تاجرين - إلى النجاشي ، وكانت أرض الحبشة لقريش متَجَرَأً وَوَجْهًا ، وكلاهما مُشْرِك شاعر فاتك وهما في جاهليتهما ؛ وكان عُمارة مُعْجَبًا بالنساء صاحبَ مُحَادَثَةٍ ، فركبا في السفينة ليالى . وحذِر عمرو على زوجته من عُمارة ، فجعل إذا شرب معه أَقْلَ عمرو من الشراب ، وأرقَّ لنفسه بالماء ؛ مخافة أن يسكر فيغلبه عُمارة على أهله .

ثم إن عمرو جلس إلى ناحية السفينة ، فدفعه عُمارة في البحر . فلما وقع فيه سبَح حتى أخذ بالقَلَس^(٢) ، فارتفع فظَهَرَ على السفينة . فقال له عُمارة : أما والله لو علمتُ ياعمرؤ أنك تُحَسِّن السَّباحة ما فعلتُ ؛ فاضطَّعَها عمرو ، وعلم أنه أراد قتله . فضيا على وجههما ذلك ، حتى قدما أرضَ الحبشة ونزلاها ، وكتب عمرو بن العاص إلى أبيه العاص : أن أَخْلَعَنِي^(٣) ، وتبرأ من جَرِيرَتِي^(٤) إلى بنى المُغيرة وجميع بنى مخزوم . وذلك أنه خشى على أبيه أن يُتَّبَعَ بحريته وهو يرصد^(٥) لُمارة ما يرصد . فلما ورد الكتابُ على العاص بن وائل مشى في رجالٍ من قومه إلى بنى المُغيرة

* الأغانى : ٩ - ٥٦ .

(١) عُمارة بن الوليد : هو الذى دفعت به قريش إلى أبي طالب حين طلبوا إليه أن يسلم إليهم محمداً (ص) ويأخذه عوضاً عنه (٢) القلس : جبل غليظ من حبال السفن (٣) يقولون : إنا خلعنا فلاناً ، فلا نأخذ أحداً بجنابة تجبى عليه ، ولا نؤاخذ بجناباته التى يحجبها . (٤) جريرتى : جنابى (٥) رصده رصداً ؛ رقبه .

وغيرهم من بنى مخزوم ؛ فقال : إن هذين الرجلين قد خرجا حيث علمتُم ، وكلاهما فاتكٌ صاحبُ شرٍّ ، وهما غيرُ مأمونين على أنفسهما ، ولا ندرى ما يكون ؛ وإني أبرأُ إليكما من عمرو من جريرته ، وقد خلعتُهُ .

فقال بنو المغيرة وبنو مخزوم : أنت تخافُ عمرواً على عُمارَةِ ! وقد خلَعنا نحن عُمارَةَ ، وتبرأنا إليك من جريرته ، فخلَّ بين الرجلين .

فقال السَّهْمِيُّونَ^(١) : فدَقِيلنا ؛ فابعدوا مُنادياً بمكة : إنا قد خلَعناهما ، وتبرأُ كلُّ قومٍ من صاحبهم ومماجرَّ عليهم . فبعثوا منادياً يُنادي بمكة بذلك . فقال الأسود ابن المطلب : بطلَ والله دمُ عُمارَةِ بن الوليد آخرَ الدهرِ !

فلما اطمأنَّا بأرض الحبشة لم يلبث عُمارَةُ أن دَبَّ لأمرأةٍ عند النجاشي فأدخلته فاختلف إليها . وجعل إذا رجع يُخبرُ عمرو بن العاص بما كان من أمره . فجعل عمرو يقول : ما أصدقُ أنكَ قدَرتَ على هذا الشأن ! إن المرأة أرفعُ من ذلك .

فلما أكره على عمرو بما كان يخبرُهُ قال له : إن كنتَ صادقاً فقل لها : تَذْهَبُكَ من دُهْنِ النجاشي الذي لا يدُهْنُ به غيرهُ فإني أعرفه ، لو أتيتني به لصدَّقْتُكَ ! ففعل عُمارَةُ فجاء بقارورةٍ من دُهْنِهِ ؛ فلما شمَّ عَرَفَهُ . فقال له عمرو عند ذلك : أنت صادق ! لقد أصبتَ شيئاً ما أصاب أحدٌ مثله قطُّ من العرب ، ونلتَ من المرأة شيئاً ؛ ماسمعنا بمثل هذا - وكانوا أهلَ جاهلية - ثم سكَّت عنه ؛ حتى إذا اطمأنَّ دخل على النجاشي فقال : أيها الملك ! إن ابن عَمِي سَفِيهٌ ، وقد خَشِيتُ أن يَعَرَنِي^(٢) عندك أمرُهُ ، وقد أردتُ أن أُعْلِمَكَ شأنَهُ ؛ ولم أفعل حتى استبنتُ أنه قد دَخَلَ على بعض نساءك ، وهذا من دُهْنِكَ قد أعطِيَهُ ودَهَنِي منه .

(١) السَّهْمِيُّونَ : قوم عمرو بن العاص . (٢) عَرَه : لطمه بعيب .

فلما شَمَّ النجاشي الدَّهْنَ قال : صدَقْتَ . هذا دُهْنِي الَّذِي لَا يَكُونُ إِلَّا عُنْدِي .
ثم دعا بُعْمَارَةَ ودعا بالسَّوَّاحِرَ فَجَرَّدُوهُ مِنْ ثِيَابِهِ فَنفَخْنَ فِيهِ ، ثُمَّ خَلَّى سَبِيلَهُ ؛
فخرج هارباً .

فلم يزل بأَرْضِ الحبشة حتى كانت خلافةُ عمرَ بنِ الخطَّابِ ؛ فخرج إليه
عَبْدُ اللَّهِ بنُ أَبِي ربيعةَ ، فرَّصَدَهُ عَلَى مَاءِ بَارِضِ الحبشة ، وكان يَرِدُّهُ مَعَ الْوَحْشِ
فَوَرَدَ ، فلما وجد ريحَ الْإِنْسِ هَرَبَ ، حتى إذا أَجْهَدَهُ الْعَطْشُ وَرَدَ فَشَرِبَ حتى
تَمَلَّأَ^(١) ونفر ، فخرجوا في طلبه .

قال عَبْدُ اللَّهِ بنُ ربيعةَ : فسَعَيْتُ إِلَيْهِ فَالْتَزَمْتُهُ ؛ فَجَعَلَ يَقُولُ لِي : يَا بَاحِيرَ^(٢) ؛
أُرْسِلْنِي ! يَا بَاحِيرَ أُرْسِلْنِي ، إِنْ أَمُوتَ إِنْ أَمْسَكْتُمُونِي .

قال عَبْدُ اللَّهِ : وَضَفَطْتُهُ فَمَاتَ فِي يَدَيَّ مَكَانَهُ . فَوَارَيْتُهُ ثُمَّ انصرفت ، وكان
شَعْرُهُ قَدْ غَطَّى كُلَّ شَيْءٍ مِنْهُ

(١) امتلأ (٢) كان اسم عبد الله في الجاهلية بغيراً ، وسماه رسول الله صلى الله عليه وسلم عبد الله .

٣٤ - في حفر زمزم*

قال عبدُ المطلب بن هاشم : إني لنائم في الحجر^(١) إذ أتاني آتٍ ، فقال : احفر طيبة^(٢) ، قلت : وما طيبة ؟ فذهب عني . فلما كان من الغد رجعت إلى مضجعي ، فنمتُ فيه ، فجاءني فقال : احفر برة^(٣) ، فقلت : وما برة ؟ فذهب عني . فلما كان الغد رجعتُ إلى مضجعي فنمتُ فيه ، فجاءني فقال : احفر المزنونة^(٤) ، فقلت : وما المزنونة ؟ فذهب عني . فلما كان الغد رجعتُ إلى مضجعي ، فنمتُ فيه فجاني ، فقال : احفر زمزم ، إنك إن حفرتها لا تندم . فقلت : وما زمزم ؟ قال : لا تُنزفُ أبداً ولا تُذم .^(٥) ، تسقى الحجيج الأعظم ، وهي بين الفرث والدم^(٦) ، عند نقرة الغراب الأعصم^(٧) ، عند قرية^(٨) النمل .

قال ابن إسحاق : فلما بين له شأنها ، ودلّه على موضعها ، وعرف أنه قد صدق

* سيرة ابن هشام : ١ - ٩٨ ، البداية والنهاية لابن كثير : ٢ - ٢٢٤
 (١) الحجر : ما حواه الحطيم المدار بالكعبة من جانب الشمال (٢) طيبة - بكسر الطاء فهي اسم لمدينة الرسول سميت بذلك لأنها للطيبين والطيبات من أولاد إسماعيل . أما طيبة بفتح الطاء فهي اسم لمدينة الرسول
 (٣) برة : اسم لزمزم أيضاً . قال في الروض الأنف : هو اسم صادق عليها لأنها فاضت للابرار
 (٤) المزنونة : سميت المزنونة ، لأنه ضن بها على غير المؤمنين (٥) لا تذم : من قول العرب : بثر ذمة ، أي قليلة الماء ، والمعنى أن ماءها لا ينقطع أبداً (٦) روى أنه لما قام ليحفرها رأى ما رسم له من قرية النمل ونقرة الغراب ولم ير الفرث والدم ، فبينما هو كذلك نادت بقرة من جازرها ، فلم يدركها حتى دخلت المسجد الحرام ، فحفرها في الموضع الذي رسم لعبد المطلب ، فسال هناك الفرث والدم ، فحفر عبد المطلب حيث رسم له (٧) الغراب الأعصم : الذي في جناحيه يياض (٨) شبه مكة - مكان زمزم - التي يرد إليها الحجيج والعمار من كل جانب فيعملون إليها البر والشعير وغير ذلك ، وهي لا تحترق ولا تزرع ، بقرية النمل التي لا تحترق ولا تزرع ولا تبذر ، وتجلب إليها الحبوب من كل جانب .

غدا بمفعوله ، ومعه ابنه الحارثُ بنُ عبد المطلب ، ليس معه يومئذ ولد غيره ، فحفر فيها .

فلما بدا له الطَّوى^(١) كَبَّرَ ، فعَرَفَتْ قريش أنه قد أدرك حاجته ، فقاموا إليه ، فقالوا : بأعبد المطلب ؛ إنها بئرُ أينا إسماعيل ؛ وإن لنا فيها حقاً ، فأشركنا معك فيها . قال : ما أنا فاعل ؛ إن هذا الأمر قد خُصِّصْتُ به دونكم ، وأعطيتُ من بينكم . فقالوا له : فأَنصِفنا ؛ فإنَّا غيرُ تاركيك حتى نَخاصِمَكَ فيها ، قال : فاجعلوا بيني وبينكم مَن أَحَاكُمْ إِلَيهِ . قالوا : كَاهِنَةُ بَنِي سَعْد . قال : نعم - وكانت بالشام .

فركب عبدُ المطلب ومعه نَفَرٌ من بني أُمَيَّة من بني عَبْدِ مَنَاف ، وركب من كل قبيلة من قريش نَفَرٌ - والأرض إذ ذاك مَفَاوِز - فخرجوا حتى إذا كانوا ببعض تلك المفاوز بين الحجاز والشام فَنِيَ ماء عبد المطلب وأصحابه ، فظمئوا حتى أيقنوا بالهَلَكَةِ ، فاستسقوا مَن معهم من قبائل قريش ، فأَبَوْا عليهم ؛ وقالوا : إِنَّا بِمَفَازَةٍ ونحن نَحْشَى على أنفسنا مِثْلَ مَا أَصَابَكُمْ .

فلما رأى عَبْدُ المطلب مَاصِنَعَ القوم ؛ وما يَتَخَوَّفُ على نفسه وأصحابه قال : ماذا تَرَوْنَ ؟ قالوا : مَا رَأَيْنَا إِلَّا تَبِعْ لِرَأْيِكَ ، فَرُنَا بِمَا شِئْتَ . قال : فَإِنِّي أَرَى أَن يَحْفِرَ كُلُّ رَجُلٍ مِنْكُمْ حُفْرَتَهُ لِنَفْسِهِ بِمَا بَكُمْ الْآنَ مِنَ الْقُوَّةِ ، فَكَلِمَاتِ رَجُلٍ دَفَعَهُ أَصْحَابُهُ فِي حُفْرَةٍ ، ثُمَّ وَارَوْهُ حَتَّى يَكُونَ آخِرُكُمْ رَجُلًا وَاحِدًا ؛ فَضِيعَةُ رَجُلٍ وَاحِدٍ أَبْسَرُ مِنْ ضِيعَةِ رَكْبٍ جَمِيعَةٍ . قالوا : نَعَمْ مَا مَرَّتْ بِهِ ! فقام كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ فَحَفَرَ حُفْرَتَهُ ؛ ثُمَّ قَعَدَ يَنْتَظِرُ الْمَوْتَ عَطْشًا .

ثم إن عبدَ المطلب قال لأصحابه : وَاللَّهِ إِنِ الْقَلْبُ نَا بِأَيْدِينَا هَكَذَا لِلْمَوْتِ -

(١) الطوى : البئر المطوية بالحجارة .

لا نضربُ في الأرض ، ولا نبتغي لأنفسنا - لَعَجُزٌ ، فعسى الله أن يرزقنا ماءً ببعض
البلاد، ارتحلوا . فارتحلوا حتى إذا فرغوا ، ومن معهم من قبائل قريش ينظرون إلى
ماهم فاعلون ، تقدّم عبد المطلب إلى راحلته فركبها ؛ فلما انبعثت به انفجرت من
تحت خفيها عين من ماء عذب ، فكبر عبد المطلب وكبر أصحابه ؛ ثم نزل فشرب
وشرب أصحابه ، واستقوا حتى ملئوا أسقيتهم .

ثم دعا القبائل من قريش ؛ فقال لهم : هلموا إلى الماء فقد سقانا الله ؛ فاشربوا
واستقوا . فجاءوا فشربوا واستقوا ؛ ثم قالوا : والله قد قضى لك علينا يا عبد المطلب ؛
والله لا نخاصمك في زمزم أبداً ؛ إن الذي سقاك هذا الماء بهذه القلّة لهو الذي
سقاك زمزم ! فارجع إلى سقايك راشداً . فرجع ورجعوا معه ، ولم يصلوا . إلى
الكاظمة ، وخلوا بينه وبينها !

٣٥ — سَيْفُ بْنُ ذِي يَزَنَ وَالْبَشَارَةُ بِرَسُولِ اللَّهِ *

لَمَّا ظَفَرَ سَيْفُ^(١) بْنُ ذِي يَزَنَ بِالْحَبْشَةِ ؛ أَتَى وَفُودُ الْعَرَبِ : خُطَبَاؤُهَا وَأَشْرَافُهَا وَشُعْرَاؤُهَا لَتَهْنِئَتِهِ وَمَذْحِهِ ، وَذِكْرِ مَا كَانَ مِنْ بِلَائِهِ وَطَلْبِهِ بِثَارِ قَوْمِهِ . وَقَدِمَ إِلَيْهِ وَفْدُ قُرَيْشٍ ، وَفِيهِمْ عَبْدُ الْمَطْلَبِ بْنُ هَاشِمٍ ، وَأُمَيَّةُ بْنُ عَبْدِ شَمْسٍ ، وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ جُدْعَانَ ، وَأَسَدُ بْنُ خُوَيْلِدٍ بْنُ عَبْدِ الْعُزَّى ، فِي نَاسٍ مِنْ أَشْرَافِ قُرَيْشٍ . فَلَمَّا قَدِمُوا عَلَيْهِ وَجَدُوهُ فِي رَأْسِ قَصْرِ يُقَالُ لَهُ عُحْدَانُ ، فَاسْتَأْذَنُوا عَلَيْهِ ، فَأَذِنَ لَهُمْ ؛ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ ، فَإِذَا الْمَلِكُ مُضْمَخٌ بِالْعَنْبَرِ^(٢) ، يُرَى وَبَيضُ الطَّيْبِ مِنْ مَفْرِقِهِ^(٣) ، عَلَيْهِ بُرْدَانٌ مُؤْتَزَّرٌ بِأَحَدِهَا ، مُرْتَدٍّ بِالْآخَرِ ، سَيْفُهُ بَيْنَ يَدَيْهِ ، وَعَنْ يَمِينِهِ وَعَنْ يَسَارِهِ الْمُلُوكُ وَأَبْنَاءُ الْمُلُوكِ وَالْمَقَاوِلُ^(٤) .

فَدَنَا عَبْدُ الْمَطْلَبِ وَاسْتَأْذَنَ فِي الْكَلَامِ ؛ فَقَالَ لَهُ : إِنْ كُنْتَ تَحْتَمِنُ بَيْنَ يَدَيِ الْمُلُوكِ فَتَكَلِّمْ ، فَقَدْ أَذِنَّا لَكَ . فَقَالَ عَبْدُ الْمَطْلَبِ : إِنْ اللَّهُ أَحَلَّكَ أَيُّهَا الْمَلِكُ - مَحَلًّا رَفِيعًا ، صَعْبًا مَنِيْعًا ، شَاحِحًا بِأَذْحَا ، وَأَنْبَتَكَ مَنِيْبًا طَابَتْ أَرْوْمَتُهُ^(٥) ، وَعَزَّتْ جُرُثُومَتُهُ^(٦) ، وَثَبَتَ أَصْلُهُ ، وَبَسَقَ فَرَعُهُ^(٧) . فِي أَكْرَمِ مَوْطِنٍ ، وَأَطْيَبِ مَعْدِنٍ ، وَأَنْتَ - أَيْتَ الْعَلَنِ^(٨) - مَلِكُ الْعَرَبِ وَرَبُّ يَمِينِهَا الَّذِي بِهِ تُخَصِّبُ ، وَأَنْتَ - أَيُّهَا الْمَلِكُ - رَأْسُ الْعَرَبِ الَّذِي إِلَيْهِ تَنْقَادُ ، وَعَمُودُهَا الَّذِي عَلَيْهِ الْعِمَادُ ، وَمَعْقَلُهَا الَّذِي تَلْجَأُ إِلَيْهِ الْعِبَادُ ، سَلَفَكَ

* البداية والنهاية لابن كثير : ٢ - ٣٢٨ ، الأغاني : ١٦ - ٧٥ ، طبعة بولاق ، العقد : ١ - ١٧٥ ، بلوغ الأرب : ٢ - ٢٦٦ ، المختار من نوادر الأخبار - مخطوط .

(١) هو ملك اليمن من قبل كسرى أنوشروان ، كان يكتبه ويصدر عن رأيه إلى أن قتل يزيد الأحباش قبيل الإسلام (٢) التضمين : لطنخ الجسم بالطيب حتى كأنه يقطر (٣) الويض : اللعان ، ومفرق الرأس حيث يفرق فيه الشعر (٤) المفاول : جمع مقول ، وهو الرئيس دون الملك (٥) الأرومة : الأصل (٦) الجرثومة : الأصل (٧) بسق : طال (٨) من تحيات ملوك العرب في الجاهلية .

خيرُ سلف ، وأنت لنا منهم خيرُ خَلَف ، ولن يَحْمِلَ ذِكْرُ من أنتَ سَلَفُه ، ولن يَهْلِكَ مَنْ أَنْتَ خَلَفَه . ونحن - أيها الملك - أهلُ حَرَمِ الله وسَدَنَةِ بيته ، أَشْخَصْنَا إِلَيْكَ الذِي أَبْهَجْنَا ؛ لكشف الكَرْبِ الذِي فَدَحْنَا ؛ فنحنُ وفدُ التَّهْنِئَةِ لا وفدُ المَرْزُوتَةِ ^(١) .

فقال ابنُ ذِي يَزَن : فأَيُّهم أنتَ أَيُّها المتكلم ؟ فقال : أنا عبدُ المطلب بنِ هاشم . قال : ابنُ أختنا ؟ قال : نعم ابنُ أختكم . قال : ادْنُ ، فأَذْنَاهُ وقال : مرحباً وأهلاً ، وناقَةً ورَحْلاً ، ومُسْتَنَافَاحاً مَهْلاً ، وَمَلِكاً رِيحَلاً ^(٢) ، يُعْطَى عَطَاءُ جَزْلاً . قد سمع الملكُ مَقَالَتَكُمْ ، وعرف قَرَابَتَكُمْ ، وَقَبِيلَ وَسِيلَتَكُمْ ، فَأَتَمَّ أَهْلُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ، لَكُمْ الْكَرَامَةَ مَا أَقَمْتُمْ ، وَالْحِبَاءَ ^(٣) . إِذَا ظَلَعْتُمْ . ثم اسْتَنْهَضُوا إِلَى دَارِ الضِّيَافَةِ وَالْوَفُودِ ؛ فَأَقَامُوا شَهْرًا لَا يُؤْذَنُ لَهُمْ وَلَا يَصِلُونَ إِلَيْهِ .

ثم انتبه انتباهَةً ؛ فَأَرْسَلَ إِلَى عَبْدِ الْمَطْلَبِ ، فَأَخْلَاهُ ^(٤) وَأَدْنَى مَجْلِسِهِ ، وقال : يا عبدَ المطلب ؛ إني مُفَضِّلٌ إِلَيْكَ مِنْ سِرِّي وَعَلَى مَا لَوْ كَانَ غَيْرُكَ لَمْ أَبُخْ لَهُ ؛ وَلَكِنِّي رَأَيْتُكَ مَعْدِنَهُ ، فَأَطْلَعْتُكَ عَلَيْهِ ؛ فَلْيَكُنْ عِنْدَكَ مَطْوِيًّا حَتَّى يَأْذَنَ اللَّهُ فِيهِ ؛ فَإِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ . إني أَجِدُ فِي الْكِتَابِ الْمَكْنُونِ ، وَالْعِلْمِ الْخَزُونِ ، الذِي اخْتَرْنَاهُ لَأَنْفُسِنَا ، وَاحْتِجَبْنَاهُ دُونَ غَيْرِنَا ، خَيْرًا عَظِيمًا ، وَخَطَرًا جَسِيمًا ، فِيهِ شَرَفُ الْحَيَاةِ ، وَفَضِيلَةُ الْوَفَاةِ ، وَهُوَ لِلنَّاسِ عَامَةٌ ، وَلِرَهْطِكَ كَافَّةٌ ، وَلَكَ خَاصَّةٌ .

قال عبدُ المطلب : أَيُّهَا الْمَلِكُ ؛ فَتِلْكَ مَنْ سَرَّ وَبَرَّ ، فَهَو ، فِدَاكَ أَهْلُ الْوَبَرِ ، زُمْرًا بَعْدَ زُمْرٍ ، قال : إِذَا وُلِدَ بَتِّهَامَةٌ غَلامٌ بَيْنَ كَتْفَيْهِ شَامَةٌ ، كَانَتْ لَهُ الْإِمَامَةُ وَلَكُمْ بِهِ الزَّعَامَةُ ، إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ .

(١) رزأه ماله : أصاب منه شيئاً ورزأه رزءاً ومرزئته : أصاب منه خيراً ، أى لسنا وافدين للعطاء (٢) الربح : الكثير العطاء (٣) الحباء : العطاء (٤) أخلاه : خلا به .

فقال له عبدُ المطلب : أبيتَ اللعن ! لقد أنيتُ بخبرٍ ما أتىَ بمثله وافتد ، فلولا هيمَةُ المَلِكِ وإجلاله وإعظامه ، لسألتُهُ مِنْ كُشفِ بشارته إياي ما أزدادُ به سروراً .
قال ابنُ ذِي يَزَنَ : نبيُّ هذا حينُهُ الذي يولدُ فيه - أو قد وُلِدَ - اسمه أحمد ؛ يموت أبوه وأمه ، ويكفله جدُّه وعمُّه ، واللهُ باعتهُ جهاراً ، وجاعل منَّا له أنصاراً ، يُعزِّزُ بهم أوليائه ، ويُذِلُّ بهم أعداءه ؛ يُكسِّرُ الأوثان ، ويخمدُ النيران ، ويعبد الرحمن ، ويزجرُ الشيطان ؛ قوله فصلٌ ، وحكمه عدلٌ ؛ يأمر بالمعروف ويفعله ، وينهى عن المنكر ويبطله .

قال عبد المطلب : أيها الملك ؛ عزَّ جدُّك ، وعلا كعبُك ، وطاب مُلكك ، وطال عُمرُك ! فهل الملكُ سارَى يافصح ؛ فقد أوضَحَ بعضُ الإيضاح !
فقال ابنُ ذِي يَزَنَ : والبيتُ ذِي الحُجُبِ ، والعلامات والنُصُبُ ^(١) ، إنك يا عَبْدَ المطلب ، لجدُّه غيرُ الكَذِبِ . فخرٌ عبدُ المطلب ساجداً ثم رفع رأسه ؛ فقال له ابنُ ذِي يَزَنَ : ارفع رأسك ، تَلَجَّ صدرك ، وعلا أمرُك ! فهل أحسستَ شيئاً مما ذكرتُ لك ؟ فقال : نعم ؛ أيها الملك ! كان لي ابنٌ وكنتُ عليه شقيقاً ، وبه رفيقاً ؛ فزوجتهُ كريمةً من كرائمِ قَوْمِي ، وهى آمنَةُ بنتُ وهبِ بنِ عبد مناف ؛ فأتت بغلامٍ سَمَّيْتُهُ محمداً ، مات أبوه وأمه ، وكفلتهُ أنا وعمُّه ، بين كففيه شامةٌ ، وفيه كلُّ ما ذَكَرَ الملكُ من علامة .

قال ابنُ ذِي يَزَنَ : إن الذي قلتُ لك لسكَّامٌ ؛ فاحتفظ بأبنيك ، واحذر عليه من اليهود ؛ فإنهم له أعداء ، ولن يجعلَ اللهُ لهم عليه سبيلاً ، واللهُ مظهرٌ دَعْوَتِهِ ، وناصرٌ شِيعَتِهِ ؛ فاطنو ما ذكرتهُ لك دون هؤلاء الرهط الذين معك ، فإنى لستُ آمنُ

(١) النصب : كل ما عبد من دون الله ، جمعه أنصاب .

أَنْ تَدْخُلَهُمُ النَّفَاسَةُ^(١)، مَنْ أَنْ تَكُونَ لَكَ الرِّيَاسَةُ؛ فَيَبْغُونَ لَهُ الْغَوَائِلَ . وَيَنْصَبُونَ لَهُ الْحَبَائِلَ ، وَهُمْ فَاعِلُونَ ذَلِكَ ، أَوْ أَبْنَاؤُهُمْ ؛ وَلَوْلَا أَنِّي أَعْلَمُ أَنَّ الْمَوْتَ يَجْتَاخُنِي قَبْلَ مَبْعَثِهِ لِسِرْتُ بِخَيْلِي وَرَجُلِي حَتَّى أَصِيرَ بِيَثْرَبَ دَارِ مُلْكِهِ ؛ فَأَكُونَ أَخَاهُ وَوَزِيرَهُ ، وَصَاحِبَهُ وَظَهِيرَهُ ؛ فَإِنِّي أَجِدُ فِي الْكِتَابِ الْمَكْنُونِ ، وَالْعِلْمِ الْخُزُونِ ، أَنَّ فِي يَثْرَبَ اسْتِحْكَامَ أَمْرِهِ ، وَأَهْلَ نُصْرَتِهِ ، وَارْتِفَاعَ ذِكْرِهِ ؛ وَمَوْضِعَ قَبْرِهِ ، وَلَوْلَا الذَّمَامَةُ^(٢) لَأُظْهِرْتُ أَمْرَهُ ، وَأَوْطَأْتُ الْعَرَبَ كَعَبَةِ ، عَلَى حَدَاثَةِ سَنَةِ ؛ وَلَكِنِّي صَارَفْتُ ذَلِكَ إِلَيْكَ ، عَنْ غَيْرِ تَقْصِيرٍ بِكَ .

ثُمَّ أَمَرَ لِكُلِّ رَجُلٍ مِنَ الْقَوْمِ بَعْشَةَ أَعْبَدَ وَعَشْرَ إِمَاءَ سُودَ ، وَحُلَّتَيْنِ مِنْ حُلِّ الْيَمَنِ ، وَخَمْسَةَ أَرْطَالٍ ذَهَبَ وَعَشْرَةَ أَرْطَالٍ فِضَّةَ ، وَكَرْشٍ مَمْلُوءَةٍ بِالْعَنْبَرِ . وَلِعَبْدِ الْمَطْلَبِ بَعْشَةَ أَمْثَالِ ذَلِكَ .

وَقَالَ لَهُ : إِذَا حَالَ الْحَوْلُ فَأَتْنِي بِأَمْرِهِ وَمَا يَكُونُ مِنْ خَبَرِهِ . فَمَاتَ ابْنُ ذِي يَزْنَ قَبْلَ أَنْ يَحْوَلَ الْحَوْلُ !

فَكَانَ عَبْدُ الْمَطْلَبِ كَثِيراً مَا يَقُولُ : يَا مَعْشَرَ قُرَيْشَ ؛ لَا يَغْبِطُنِي رَجُلٌ مِنْكُمْ بِجَزِيلِ عَطَاءِ الْمَلِكِ ، وَإِنْ كَانَ كَثِيراً ، فَإِنَّهُ إِلَى نَفَادٍ ، وَلَكِنْ لِيُغْبِطُنِي بِمَا يَبْقَى لِي وَلِعَقْبِي ذِكْرُهُ وَفَخْرُهُ وَشَرَفُهُ .

فَإِذَا قِيلَ لَهُ : وَمَا ذَاكَ ؟ قَالَ : سَتَعْلَمُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ بَعْدَ حِينٍ !

(١) النَّفَاسَةُ : الْحَسَدُ ، نَفْسُ عَلِيكَ فَلَانِ يَنْفَسُ نَفْساً وَنَفَاسَةً : حَسَدُكَ (٢) الذَّمَامَةُ : كُلُّ حَرَمَةٍ تَلْزِمُكَ - إِذَا ضَيَعَتْهَا - الْمَذْمَةُ .

٣٦ — بِشَارَةُ بَحِيرَى *

خرج أبو طالب ^(١) بن عبد المطلب في رَكْبٍ إلى الشام. تاجرًا ، فلما تهيأ للرحيل وأجمع المسير ، صَبَّ ^(٢) به رسولُ الله صلى الله عليه وسلم فيما يزعمون ، فَرَّقَ له وقال : والله لأُخرجنَّ به معي ولا يفارقتي ولا أفارقه أبدًا . فخرج به .

فلما نزل الركب بُصِرَى ^(٣) مرَّوا ببَحِيرَى ^(٤) . وكانوا كثيرًا ما يَمْرَوْنَ به قبل ذلك فلا يَكَلِّمُهُمْ ، ولا يعرض لهم — حتى كان ذلك العام ، فلما نزلوا به قريبًا من صَوْمَعَتِهِ صنع ^(٥) لهم طعامًا كثيرًا ، ثم أرسل إليهم فقال : إني قد صنعتُ لكم طعامًا يامعشر قريش ، وأحِبُّ أن تحضروا كُلَّكُمْ صغيركم وكبيركم ، وعبدكم وحرُّكم . قال له رجل منهم : والله يا بحيرى إنَّ لك لَشَأْنًا اليوم ! ما كنتَ تصنع هذا بنا وقد كُنَّا نمرُّ بك كثيرًا ! فما شَأْنُكَ اليوم ؟ قال له بحيرى : صدقت ، قد كان ما تقول ؛ ولكنكم ضَيْفٌ ^(٦) ، وقد أُحْبِيتُ أن أُكْرِمَكم وأصنعَ لكم طعامًا ، فتأكلوا منه كُلُّكُمْ .

فاجتمعوا إليه ، وتَخَفَ رسول الله من بين القوم لحدائثة سنِّه ، في رحال القوم تحت الشجرة ، فلما نظر بحيرى في القوم ، ولم ير الصفةَ التي يعرفُ ويَحْدِثُهَا عنده قال :

* ابن هشام : ١ - ١١٨ .

- (١) كان أبو طالب هو الذى ولى أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد وفاة جده عبد المطلب
- (٢) الصبابة : رقة الشوق ، يقال : صببت (بكسر الباء) أصب ، وكانت سن رسول الله إذ ذاك تسع سنين فيما ذكر بعض من ألف في السير ، وقال الطبرى : كانت سنه اثنتى عشرة سنة .
- (٣) بصرى : من أرض الشام (٤) كان بحيرى يقيم في صومعة له هناك وكان إليه علم أهل النصارى (٥) زعموا أنه رأى رسول الله وهو في صومعته في الركاب حين أقبلوا وغمامة تظله من بين القوم ، ثم أقبلوا فنزلوا في ظل شجرة قريباً منه ، فنظر إلى الغمامة حين أظلت الشجرة ، وتهصرت أغصان الشجرة على رسول الله حتى استظل تحتها . (٦) الضيف : يطلق على الواحد والجمع .

يَا مَعَشَرَ قُرَيْشٍ ، لَا يَتَخَلَّفَنَّ أَحَدٌ مِنْكُمْ عَنْ طَعَامِي . قَالُوا لَهُ : يَا بَحِيرَى ، مَا تَخْلَفُ عَنْكَ أَحَدٌ يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَأْتِيكَ إِلَّا غُلَامًا ، وَهُوَ أَحَدُ الْقَوْمِ سَنًا . فَقَالَ : لَا تَفْعَلُوا ، ادْعُوهُ فَلْيَحْضُرْ هَذَا الطَّعَامَ مَعَكُمْ . فَقَالَ رَجُلٌ مِنْ قُرَيْشٍ مَعَ الْقَوْمِ : وَاللَّاتِ وَالْعُزَّى إِنْ كَانَ لَوُؤْمُ بَنِي أَنْ يَتَخَلَّفَ ابْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبْدِ الْمَطْلَبِ عَنْ طَعَامٍ مِنْ بَيْنِنَا . ثُمَّ قَامَ إِلَيْهِ فَاحْتَضَنَهُ ، وَأَجْلَسَهُ مَعَ الْقَوْمِ .

فَلَمَّا رَأَاهُ بَحِيرَى ، جَعَلَ يَلْحَظُهُ لَحْظًا شَدِيدًا ، وَيَنْظُرُ إِلَى أَشْيَاءَ مِنْ جَسَدِهِ — وَقَدْ كَانَ يَجِدُهَا عِنْدَهُ مِنْ صِفَتِهِ — حَتَّى إِذَا فَرَّغَ الْقَرْمُ مِنْ طَعَامِهِمْ وَتَفَرَّقُوا ؛ قَامَ إِلَيْهِ بَحِيرَى فَقَالَ : يَا غُلَامُ ؛ أَسَأَلْتُ بِحَقِّ اللَّاتِ وَالْعُزَّى إِلَّا مَا أَخْبَرْتَنِي عَمَّا أَسَأَلْتُكَ عَنْهُ — وَإِنَّمَا قَالَ لَهُ بَحِيرَى ذَلِكَ لِأَنَّهُ سَمِعَ قَوْمَهُ يَحْلِفُونَ بِهِمَا .

قَالَ الرَّاوِي : زَعَمُوا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : لَا تَسْأَلُنِي بِاللَّاتِ وَالْعُزَّى شَيْئًا ، فَوَاللَّهِ مَا أَبْغَضْتُ شَيْئًا قَطَّ بَفَضْهُمَا ! فَقَالَ لَهُ بَحِيرَى : فَبِاللَّهِ إِلَّا مَا أَخْبَرْتَنِي عَمَّا أَسَأَلْتُكَ عَنْهُ ! فَقَالَ لَهُ : سَلْنِي عَمَّا بَدَا لَكَ . فَجَعَلَ يَسْأَلُهُ عَنْ أَشْيَاءَ مِنْ حَالِهِ فِي نَوْمِهِ وَهَيْئَتِهِ وَأُمُورِهِ ، فَجَعَلَ رَسُولُ اللَّهِ يُخْبِرُهُ ؛ فَيُوافِقُ ذَلِكَ مَا عِنْدَ بَحِيرَى مِنْ صِفَتِهِ ، ثُمَّ نَظَرَ إِلَى ظَهْرِهِ فَرَأَى خَاتَمَ النَّبُوءَةِ بَيْنَ كَتِفَيْهِ عَلَى مَوْضِعِهِ مِنْ صِفَتِهِ الَّتِي عِنْدَهُ .

فَلَمَّا فَرَّغَ أَقْبَلَ عَلَى عَمِّهِ أَبِي طَالِبٍ ، وَقَالَ لَهُ : مَا هَذَا الْغُلَامُ مِنْكَ ؟ قَالَ : ابْنِي . قَالَ لَهُ بَحِيرَى : مَا هُوَ بَابُنْكَ ، وَمَا يَنْبَغِي لِهَذَا الْغُلَامِ أَنْ يَكُونَ أَبُوهُ حَيًّا ! قَالَ : فَإِنَّهُ ابْنُ أُخِي . قَالَ : فَمَا فَعَلَ أَبُوهُ ؟ قَالَ : مَاتَ وَأُمُّهُ حُبْلَى بِهِ . قَالَ : صَدَقْتَ ! فَارْجِعْ بَابِنَ أَخِيكَ إِلَى بِلَدِهِ ، وَاحْذَرِ عَلَيْهِ يَهُودَ ، فَوَاللَّهِ لَتَنْ رَأَوْهُ وَعَرَفُوا مِنْهُ مَا عَرَفْتُ لِيَبْغَنَّهُ شَرًّا ، فَإِنَّ لَابْنَ أَخِيكَ هَذَا شَأْنًا عَظِيمًا ، فَأَسْرِعْ بِهِ إِلَى بِلَدِكَ . فَخَرَجَ بِهِ أَبُو طَالِبٍ سَرِيعًا حَتَّى أَقْدَمَهُ مَكَّةَ حِينَ فَرَّغَ مِنْ تِجَارَتِهِ بِالشَّامِ !

٣٧ — في بعثة رسول الله *

قال العباس بن عبد المطلب :

خرجتُ في تجارة إلى اليمن ، في ركبٍ منهم أبو سفيان بن حرب ، فقدِمتُ
اليمنَ ، فكنتُ أصنعُ يوماً طعاماً وأنصرفُ بأبي سفيانَ وبالنَّفَرِ ، ويصنعُ أبو سفيان
يوماً ، فيفعلُ مثلَ ذلك . فقال لي في يومٍ الذي كنتُ أصنعُ فيه : هل لك
يا أبا الفضل أن تنصرفَ إلى بيتي وترسلَ إلى غَدائك ؟ فقلت : نعم ، فانصرفتُ أنا
والنفرُ إلى بيته وأرسلتُ إلى الغداء .

فلما تغدَّى القوم قاموا واحتبسني فقال لي : هل علمتَ يا أبا الفضل أن ابنَ
أخيك يزعمُ أنه رسولُ الله ؟ قلت : وأىُّ بني أخى ؟ قال أبو سفيان : إياى تكتم !
وأىُّ بني أخيك ينبئني أن يقولَ هذا إلا رجلٌ واحد ! قلت : وأيّهم هو على ذلك ؟
قال : محمد بن عبد الله . قلت : ما فعل ! قال : بلى قد فعل ! ثم أخرج إلى كتاباً
من ابنه حَنْظَلَةَ بن أبي سفيان فيه : « إن محمداً قام بالأبطح ^(١) غُدوةً فقال : أنا
رسولُ الله أدعوكم إلى الله » .

قلتُ : يا أبا حَنْظَلَةَ ، لعلَّ صادق ! قال : مهلاً يا أبا الفضل ؛ فوالله ما أحبُّ
أن تقولَ مثلَ هذا ، وإني لأخشى أن تكونَ على بَصَرٍ من هذا الأمر . ثم قال :
يا بني عبد المطلب ، إنه والله ما برحتُ قريشٌ تزعمُ أن لكمُ يَمَنَةً وشؤمةً ، كلَّ

* الأغاني : ٦ - ٣٤٩ ، البداية والنهاية لابن كثير : ٢ - ٣١٨ .

(١) أبطح مكة : مسيل واديها .

واحدة منهما عامّةً ، فنشدتُك الله يا أبا الفضل هل سمِعتَ ذلك ؟ قلت : نعم . قال :
فهذه والله إذنُ شوْمتكم . قلت : فلعلّها يُمنّنا !

فما كان بعد ذلك إلا ليالٍ حتى قدِمَ عَبْدُ اللهِ بن حُذَافَةَ السَّهْمِيِّ بالخبر وهو
مُؤْمِنٌ ، فَفَقَّشَا ذلك في مجالس أهلِ الْيَمِينِ يُتحدَّثُ به فيها ، وكان أبو سفيان يجلسُ
إلى حَبْرٍ من أَجْبَارِ الْيَمِينِ ، فقال له اليهودي : ما هذا الخبر الذي بلغني ؟ قال : هو
ما سمعت ، قال : أَيْنَ فيكم عَمُّ هذا الرجل الذي قال ما قال ؟ قال أبو سفيان : صدّقوا ،
وأنا عمّه . قال اليهودي : أأخو أبيه ؟ قال : نعم . قال : حَدِّثْنِي عنه . قال : لا
تسألني ، فما كنتُ أحسب أن يدّعي هذا الأمر أبداً ، وما أَحِبُّ أن أُعَيِّبه وغيره
خيرٌ منه . قال اليهودي : فليس به أدّى ؛ ولا بأس على يهودٍ وتوراةٍ موسى منه .
قال العباس : فتأدّى إلى الْخَبَرِ فَحَمِيَتْ وخرجتُ حتى أَجَلَسَ إلى ذلك المجلس
من غَدٍ ، وفيه أبو سفيان والخبر . فقلت للحَبْرِ : بلغني أنك سألتَ ابنَ عَمِّي هذا عن
رجلٍ منّا يزعم أنه رسولُ الله فأخبرك أنه عمّه ؛ وليس بعمّه ، ولكنه ابن عمّه وأنا
عمّه أخو أبيه . فقال : أأخو أبيه ؟ قلتُ : أخو أبيه .

فأقبل على أبي سفيان فقال : أَصَدَقَ ؟ قال : نعم صدق . قال : فقلت : سألني
عنه ، فإن كذبتُ فليردد عليّ . فأقبل عليّ فقال : أنشدك الله ، هل فشتَ لابن أخيك
صَبَوَةَ أو سَفَهَةَ ؟ قلت : لا وإله عبد المطلب ، ولا كذب ولا خان ، وكان اسمه
عند قریش الْأَمِينِ . قال : فهل يكتب بيده ؟ قال عباس : فظننتُ أنه خيرٌ له أن
يكتب بيده ، فأردتُ أن أقولها ، ثم ذكرتُ مكانَ أبي سفيان ، وأنه مُكذِّبِي
ورادُّ عليّ ، فقلت : لا يكتب . فذهب الخبر وترك رِداءه وجعل يصيح : ذُبِحَتْ
يهود ! قُتِلَتْ يهود !

قال العباس : فلما رجعنا إلى منزلنا قال أبو سفيان : يا أبا الفضل ، إن اليهوديَّ

لَفَزِعَ مِنْ ابْنِ أَخِيكَ . قلت : قد رأيتَ ما رأيتَ ! فهل لك يا أباسفيان أن تُؤْمِنَ به ، فإن كان حقاً كنتَ قد سَبَقْتَ ، وإن كان باطلاً ففعلك غيرُكَ من أَكْفَانِكَ ؟ قال : لا والله ما أؤمن به حتى أرى الْخَيْلَ تَطْلُعُ مِنْ كَدَاءٍ ^(١) ! فقلت : ماتقول ؟ قال : كلمةٌ والله جاءت على فمى ما أَلْقَيْتُ لَهَا بِالْأَلِّ ، إلا أنى أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ لَا يَتْرُكُ خَيْلًا تَطْلُعُ مِنْ كَدَاءٍ .

قال العباس : فلما فتح رسولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم مَكَّةَ ونظرنا إلى الْخَيْلِ قد طَلَعَتْ مِنْ كَدَاءٍ ، قلتُ ، يا أباسفيان ، أُنْذِرُ الْكَلِمَةَ ؟ قال لى : والله إني لَأُذَكِّرُهَا ! فَالْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانِي لِلْإِسْلَامِ !

٣٨ - تطير المنصور *

قال الربيع ^(١) : نام المنصور ^(٢) ليلة - وكان في قصره في بغداد - فانتبه مرعوباً ، ثم عاوده النوم فانتبه كذلك فزعاً مرعوباً ، ثم راجع النوم فانتبه كذلك ، ثم قال : ياربيع ! فقلت : لبيك يا أمير المؤمنين ! قال : لقد رأيت في منامى عجباً ، قلت : ما رأيت ، جعلني الله فداك ! قال : رأيت كأن آتياً أتاني ، فهِنَمَ ^(٣) بشيء لم أفهمه ؛ فانتبهت فزعاً ، ثم عاودت النوم فعاودني يقول ذلك الشيء ، ثم عاودني يقوله حتى فهمته وحفظته وهو :

كان بهذا القصر قد باد أهله وعُرِّي منه أهله ومنازلُه
وصار رئيسُ القوم من بعد بهجّةٍ إلى جدّثٍ تُدبّي عليه جنادله
وما أحسبني ياربيعُ إلا حانت وفاتي ، وحضر أجلي ، ومالي غيرُ ربّي ! قمْ
فاجعل لي غُسلًا ^(٤) . ففعلت فاغتسل وصلى ركعتين ، وقال : أنا عازم على الحج ،
فهبي لي آلة الحج ، فخرج وخرَجْنَا ، حتى إذا انتهى إلى الكوفة ، ونزل
النَّجَفَ ^(٥) أقام أياماً ، ثم أمر بالرحيل ، فتقدمتُ جنوده ، وبقيتُ أنا وهو

* محاضرات الأبرار : ١٤٢

(١) هو الربيع بن يونس ، كان يخدم المنصور ، ثم تدرج في المناصب عنده إلى أن استوزره وكان جليلاً نبيلًا عارفاً بخدمة الخلفاء ، مات سنة ١٧٠ هـ (٢) هو أبو جعفر عبد الله بن محمد بن علي ثاني خلفاء بني العباس وأعظمهم شدة وبأساً ويقظة وثباتاً . توفي سنة ١٥٨ هـ (٣) الهينة : الصوت الخفي (٤) الفصل : بالضم والكسر الماء الذي يغتسل به .
(٥) النجف : التل . أو النجفة التي يظهر الكوفة ، وهي تمنع السيل أن يملأ منازل الكوفة وقبورها . والنجفة أيضاً : موضع بين البصرة والبحرين .

بالقصر ، فقال لى : يا ربيع ؛ جئنى بِفَحْمَةٍ مِنَ المَطْبَخِ ، وقال لى : اخرج فكن مع
دابقى إلى أن أخرج ، فلما خرج وركب رجعتُ إلى المكان كأنى أطلب شيئاً ،
فوجدته قد كتب على الخائط بالفحمة :

المرء يهوى أن يعيش وطولُ عيش قد يضرُّه
تَفَنَّى بشاشته وينبقي بعد حُلُو العيش مرُّه
وتخونه الأيامُ حتى ما يرى شيئاً يسرُّه
كَمْ شامتٍ بى إن هلكَتْ وقائل : لله دَرُّه !

٣٩ — المنصور تُنغِي إِلَيْهِ نَفْسُهُ*

قال الفضلُ بن الربيع : كنتُ مع المنصور في السفر الذي مات فيه ، فنزل منزلاً من المنازل ، فبعث إلىّ وهو في قُبّةٍ ، ووجهه إلى الحائط ، فقال لي : ألم أنْهَكَ أن تدعَ العامة يدخلون هذه المنازل ، فيكتبوا مالا خيراً فيه ؟

قلت : وما هو يا أمير المؤمنين ؟ قال : أما ترى على الحائط مكتوباً :
أبا جعفرٍ حانت وفاتُك ، وانقضتْ سُنُوك وأمرُ الله لا بدّ نازلُ
أبا جعفرٍ هل كاهنٌ أو مُنَجِّمٌ يردُّ قضاء الله أم أنتَ جاهلٌ !
فقلت : والله ما أرى على الحائط شيئاً ! وإنه لنقّ أبيض ! قال : إنها والله
إذَنْ نفسى نُعِيَتْ إلىّ ، الزحيل ! بادزّ بي إلى حرَمِ ربّي وأمنه ، لأهربَ
من ذنوبي وإسرافي على نفسي ، فرحلنا وقد ثقل ، حتى إذا بلغنا بئر مَيْمُون
تُوفى بها !

٤٠ — رؤيا الرشيد*

قال جبريل بن بختيشوع :

كنتُ مع الرشيد^(١) بالرقّة^(٢) ، وكنتُ أولَ مَنْ يدخلُ عليه في كلّ غداةٍ ، فأتعرّفُ حاله في ليلته ، فإن كان أنكر شيئاً وصفه ، ثم يَنْبَسِطُ فيحدثني بحديث جواريه وما عمل في مجلسه ، ثم يسألني عن أخبار العامة وأحوالها ؛ فدخلتُ عليه في غداة يوم ، فسَلَمْتُ فلم يكْذُ يرفعُ طرفه ، ورأيتُه عابساً مفكراً مهموماً ؛ فوقفتُ بين يديه ملياً ، وهو على تلك الحال .

فلما طال ذلك أقدمتُ عليه فقلت : يا سيدي ؛ جعلني الله فداك ! ما حالك هكذا ! أعلّة ! أخبرني عنها فلعله يكونُ عندي داؤها ؛ أو حادثة في بعض من تُحِبُّ فذلك مالا يُدفع ولا حيلة فيه إلا بالتسليم ، والنعم لا دَرَكَ فيه ؛ أو فتقٌ ورَدَ عليك في مُلْكِكَ ، فلم تحُلْ للوك من ذلك ، وأنا أولى من أفضيتَ إليه بالخبر ، وترَوَّختَ إليه بالمشورة .

فقال : ويحك يا جبريل ! ليس غمّي وكرهِي لشيء مما ذكرتَ ، ولكن لرؤيا رأيتها في ليلتي هذه ، وقد أفزعَتْنِي ، وملأتُ صَدْرِي ، قلت : فرَجّتَ غمّي

* الطبري : ١٠ - ١١٠

(١) هو هارون الرشيد بن محمد المهدي ، كان ديناً محافظاً ، كثير الجهاد ، توفي سنة ١٩٣ هـ .
وجبريل هو طبيب هارون الرشيد وجليسه توفي سنة ٢١٣ هـ (٢) الرقة : مدينة مشهورة على الجانب الأيسر للفرات بولاية حلب ، ويقال لها : الرقة البيضاء ، وبقرها كانت واقعة صفين المشهورة .

يا أمير المؤمنين ! فدنوتُ منه فقتلت رِجلَه ، وقلت : أهذا النعم كله ! الرؤيا إنما تكون من خاطرٍ أو غيره ؟ وإنما هي أضغاثُ أحلام !

بعد هذا كله قال : فأقصها عليك : رأيتُ كأني جالس على سريري هذا إذ بدتُ من تحتي ذراعٌ أعرفها ، وكفٌ أعرفها ، وأفهمُ اسمَ صاحبها ، وفي الكف تربةٌ حمراء ، فقال لي قائلٌ أسمعه ولا أرى شخصه : هذه التربة التي تُدفنُ فيها ؛ فقلتُ : وأين هذه التربة ؟ قال : بطوس^(١) . وغابت اليدُ وانقطع الكلام وانتهت .

فقلت : ياسيدي ؛ هذه والله رؤيا بعيدةٌ ملتبسةٌ ، وأحسبُك أخذتَ مضجعك ، ففكرتَ في خراسان وحروبها ، وما قد وردَ عليك من انتقاض بعضها . قال : قد كان ذلك .

قلت : فلذلك الفكرُ خالطَكَ في منامك ما خالطَكَ ؛ فولدَ هذه الرؤيا ، فلا تحفلُ بها - جعلني الله فداك - وأتبعَ هذا النعم سروراً يخرجُه من قلبك .
وما برحتُ أطيبُ نفسَه بضروبٍ من الحيل حتى سَلَا وانبسط ، وأمر يا غداد ما يشتهيهِ ويزيدُ في ذلك اليوم من لهوهِ .

ومرت الأيامُ فنسى ونسينا تلك الرؤيا فما خطرتُ لأحدٍ منا ببالٍ ، ثم قدّر مسيرُهُ إلى خراسان حين خرج رافع^(٢) ، فلما صار في بعض الطريق ابتدأت به العلةُ ، فلم تزل تتزايدُ ، حتى دخلنا طوس ؛ فبينما هو يُمرّضُ في بستانٍ إذ ذكر تلك الرؤيا ؛ فوثب متحاملاً يقوم ويسقط ، فاجتمعنا إليه ، كلٌّ يقول : ياسيدي ما حالك ؟ وما دهالك ؟

(١) طوس : مدينه بخراسان ، وبها مات الرشيد (٢) هو رافع بن الليث ، خرج إليه الرشيد سنة ١٩٢ هـ حينما استفحل أمره فيما وراء النهر .

فقال : يا جبريل ! تذكرُ رؤياي بالزّقة ؟ ثم رفع رأسه إلى مسرور ، فقال :
جنّى بشيء من ترّبة هذا البستان ؛ فمضى مسرور فأتى بالترّبة في كفّه حاسراً عن
ذراعه ، فلما نظر إليه قال : هذه والله الذراع التي رأيتها في منامي ، وهذه والله الكفّ
بعينها ، وهذه التربة الحمراء ، ما خرمتُ شيئاً ، وأقبل على البُكاء والنحيب ،
ثم مات بها - والله - بعد ثلاثة ، ودفن في ذلك البستان !

٤١ — تطير الأمين *

قال إبراهيم بن المهدي : خرج الأمين^(١) ذات ليلة يريد أن يتفرّج من الضيق الذي هو فيه ، فصار إلى قصر له ، ثم أرسل إلى ، فحضرت عنده ، فقال : ترى طيبَ هذه الليلة ، وحسنَ القمر في السماء ، وضوءه في الماء على شاطئ دجلة ! فهل لك في الشراب ؟ فقلت : شأنك ! فشرب رطلاً ، وسقاني آخر ، ثم غنّيته ما كنت أعلم أنه يحبه ؛ فقال لي : ماتقول فيمن يضربُ عليك ؟ فقلت : ما أحوجني إلى ذلك !

فدعا بجارية متقدمة عنده اسمها « ضَعْف » ، فتطيرت من اسمها ونحن على تلك الحال^(٢) ، فقال لها : غني ؛ فغنّت بشعر الجعدي :

كَلِيبٌ لَعَمْرِي كَانَ أَكْثَرَ نَاصِرًا وَأَبْسَرَ جُرْمًا مِنْكَ ضُرِّجَ بِالْدَمِّ
فَاشْتَدَّ ذَلِكَ عَلَيْهِ ، وَتَطِيرَ مِنْهُ ، وَقَالَ : غَنِّي غَيْرَ ذَلِكَ ، فَغَنَّت :

أَبْكِي فِرَاقَهُمْ عَيْنِي فَأَرَقَهَا إِنَّ التَّفَرُّقَ لِلْأَحْبَابِ بَكَاءُ
مَازَالَ يَمْدُو عَلَيْهِمْ رَيْبٌ دَهْرٍ حَتَّى تَفَاقَنُوا - وَرَيْبُ الدَّهْرِ عَدَاءُ

* الطبري ١٠ - ١٩٥ ، المحاسن والمساوي : ٣٦١ - طبع ليبرج ، المسعودي : ٢ - ٣٠١
(١) الأمين : هو محمد بن هارون الرشيد ، اتخذ الفضل بن الربيع وزيراً ، فأغرى الفضل بينه وبين المأمون فنصب محمد ابنه موسى لولاية العهد بعده ، وأخذ له البيعة ، وجعله في حجر علي ابن عيسى ، وأمر علياً بالتوجه إلى خراسان لمحاربة المأمون سنة ١٩٥ هـ ووجه المأمون طاهر ابن الحسين ، فالتقيا بالري فاقْتَتلا ، ولم يزل القتال بينهما حتى قتل الأمين سنة ١٩٨ هـ (٢) كان الأمين قد حاصره طاهر بن الحسين من قبل المأمون .

فقال لها : لعنك الله ! أما تعرفين من الغناء غيرَ هذا ؟ فقالت : ما تغنيتُ إلا ما ظننتُ أنك تحبُّه ! ثم غنَّت :

أما وربَّ السَّكُونِ والحَرَكِ
إن المنايا كثيرةُ الشَّرَكِ
ما اختلفَ اللَّيْلُ والنَّهَارُ ، وما
دارَتْ نَجْمُ السَّمَاءِ فِي الْفَلَكِ
إلا لِنَقْلِ النِّعَمِ مِنْ مَلِكٍ
قد زال سُلْطَانُهُ إِلَى مَلِكٍ
ومَلِكُ ذِي الْعَرْشِ دائِمٌ أَبَدًا
ليس بِفَانٍ وَلَا بِمَشْرَكِ
فقال لها : قومي ، غَضِبَ اللهُ عَلَيْكَ ولَعَنَكَ !

وكان له قَدَحٌ مِنْ بَلُورٍ حَسَنُ الصَّنْعَةِ ، وكان موضوعاً بين يديه ، فَعَثَرَتِ
الجارية به فكَسَرَتْهُ ، فقال : ويحك يا إبراهيم ! أما ترى ما جاءت به هذه الجارية ؟
ثم ما كان من كَسْرِ الْقَدَحِ ! والله ما أظن أُمْرِي إِلَّا قَدْ قَرُبَ . فقلت : يُدْرِي اللهُ
مُلْكَكَ ، وَيُعِزُّ سُلْطَانَكَ ، وَيَكْبِتُ عَدُوكَ ! فما اسْتَمَّ الْكَلَامَ حَتَّى سَمِعْنَا
صَوْتًا : « قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ » . فقال : يا إبراهيم ، أما سمعتَ ؟
قلتُ : ما سمعتُ شيئًا ، وكنتُ قد سمعتُ ؛ قال : تسمع حسًّا ! فدنوت من الشَّط
فلم أَرِ شيئًا ، ثم عاوَدَنا الحديث ، فعاد الصوتُ بمثله .

فقام مُتَقَمًّا إِلَى مَجْلِسِهِ بِالْمَدِينَةِ . فَمَا مَضَى إِلَّا لَيْلَةٌ أَوْ لَيْلَتَانِ حَتَّى قُتِلَ !

٤٢ — ذنب لا يطمع صاحبه في عُفْرانه *

قال يوسف الكوفي - وكان قد رَوَى الأشعارَ والأحاديث :

حجبتُ ذاتَ سنةٍ ، فإذا أنا برجلٍ عند البيت ، وهو يقول : اللهم اغفر لي
وما أراك تفعل ! فقلت : يا هذا ؛ ما أعجبَ يأْسَك من عُفْو الله ! قال : إن لي ذنباً عظيماً !
فقلت : أخبرني .

قال : كنتُ مع يحيى بن محمد بالموصل ، فأمرنا يومَ جمعة ؛ فاعترضنا المسجد ؛
فقتلنا ثلاثين ألفاً ؛ ثم نادى مناديه : من علق سَوْطه على دار فالدارُ وما فيها له ،
فعلقت سوطي على دار ودخلتها ، فإذا فيها رجلٌ وأمرأة وابنان لهما ، فقدّمتُ الرجلَ
فقتلته ، ثم قلتُ للمرأة : هاتي ما عندك ! وإلا ألحقتُ ابنيك به ؛ فجاءتني بسبعة
دنانير : فقلتُ : هاتي ما عندك ؟ فقالت : ما عندي غيرها ، فقدّمتُ أحدَ ابنيها
فقتلته . ثم قلتُ : هاتي ما عندك وإلا ألحقتُ الآخر به ، فلما رأت الجدّ مني قالت :
ارْفُتُ ! فإنَّ عندي شيئاً كان أوْدعنيهِ أبوها ، فجاءتني بِدِرْعٍ مُذهبة لم أر مثلاً في
حُسْنها ؛ فجعلتُ أقلبها فإذا عليها مكتوب بالذهب :

إذا جَارَ الأميرُ وحاجِبَاهُ وقاضى الأرض أسرف في القضاء

فويلٌ ثم ويلٌ ثم ويلٌ لقاضى الأرض من قاضى السماء

فسقط السيفُ من يدي وارتعدتُ ، وخرجت من وجهي إلى حيث ترى .

٤٣ — طَيِّرَةُ ابْنِ الرُّومِيِّ*

قال عليُّ بن إبراهيم: كنتُ بِدَارِي جالِساَ ؛ فإذا حِجَارَةٌ سَقَطَتْ بِالْقَرَبِ مِنِّي ،
فبادرتُ هاربًا ؛ وأمرتُ الغلامَ بالصعودِ إلى السَّطْحِ ، والنظرِ إلى كلِّ ناحية ،
من أين تأتينا الحِجَارَةُ ؟ فرجع إليَّ وقال لي : امرأةٌ من دار ابن الرومي ^(١) الشاعِر !
قد تشوّفتُ ^(٢) ، وقالت ؛ اتقوا اللهَ فينا ، واسقونا جرَّةً من ماء ! وإلا هلكنا ،
فقد مات مَنْ عندنا عطشًا !

فتقدّمتُ إلى امرأةٍ عندنا ذاتِ عقلٍ ومعرفة : أن تصعدَ إليها وتخطبَها ،
ففعلتُ وبادرتُ بالجرَّةِ ، وأتبعَها شيئًا من الطعام ، ثم عادتُ إليَّ فقالت : ذكرتِ
المرأةُ أن البابَ عليها مُقفلٌ منذ ثلاثة أيام بسببِ تطيرِ ابنِ الرومي ؛ وذلك أنه
يلبسُ ثيابه كلَّ يومٍ ويتعوّذُ ؛ ثم يصيرُ إلى البابِ ، والمفتاحُ معه ؛ فيضعُ عينه على
نُقْبٍ في خشبِ البابِ ، فتقعُ على جارِلِه كان نازلا بإزائه ؛ وكان أحدبٌ يقعدُ
كلَّ يومٍ على بابِه ؛ فإذا نظرَ إليه رجع ، وخلعَ ثيابه ، وقال : لا يفتحُ أحدُ البابِ !
فعجبتُ لحديثِها ، وبعثتُ بخادمٍ لي كان يعرفُه ، فأمرتهُ أن يجلسَ
بإزائه - وكانت العينُ تميلُ إليه - وتقدّمتُ إلى بعضِ أعوانِي أن يدعوَ الجارَ
الأحدبَ . فلما حضرَ عندي أرسلتُ وراءَ غلامي ، لينهضَ إلى ابنِ الرومي ،
ويستدعيه . فإني لجالِسٌ ، ومعِي الأحدبُ ؛ إذ وافي أبو حُدَيْفَةَ الطَّرْسُوبِي ؛ ومعه

* زهر الآداب : ٢ - ١٧٧ ، ذيل زهر الآداب : ٢٢٣ ، معجم الأدباء : ١٣ - ٢٩٦

(١) هو أبو الحسن علي بن العباس الرومي ، ولد ببغداد وعاش فيها متأثرًا بالأدب اليوناني
وبالثقافة العربية كذلك ، فكان شعره صورة طريفة في الأدب العربي من حيث الابتكار والتسويق
المنطقي والاستقصاء في أسلوب جزل متين ، ومات سنة ٢٨٣هـ (٢) تشوّفت : نظرت وتطاوت .

برذعة الموسوس ، صاحب المعتصد ؛ ودخل ابن الرومي ؛ فلما تخطى عتبة باب الصحن عثر ؛ فانقطع شسع^(١) نعله ، فدخل مذعوراً ! وكان إذا فاجأه الناظر رأى منه منظراً يدل على تغير حاله .

فدخل ، وهو لا يرى جاره المتطير منه ؛ فقلت له : يا أبا الحسن ، أيكون شيء في خروجك أحسن من مخاطبتك للخادم ، ونظرك إلى وجهه الجميل ؟ فقال : قد لحقني ما رأيت من العثرة ، لأنني فكرت أن به عاهة ! وهي قطع أنثييه^(٢) ! قال برذعة : وشيخنا يتطير ؟ قلت : نعم ويفرط ! قال : ومن هو ؟ قلت : على ابن العباس^(٣) . قال : الشاعر ؟ قلت : نعم ! فأقبل عليه وأنشده :

ولما رأيت الدهر يؤذن صرْفه بتفريق ما بيني وبين الحباب^(٤)
رجعت إلى نفسي فوطنتها على ركوب جميل الصبر عند التوائب !
ومن صحب الدنيا على جور حكامها فأيامه محفوفة بالمصائب
فخذ خلسة من كل يوم تعيشه وكُن حذراً من كائنات العواقب
ودع عنك ذكر النال والزجر واطرح تطير جارٍ أو تفاؤل صاحب !
فبقى ابن الرومي باهتاً ينظر إليه ! ولم أدر أنه قد شغل قلبه حفظ ما أنشده ، ثم نهض أبو حذيفة وبرذعة معه .

خلف ابن الرومي لا يتطير أبداً من هذا ولا من غيره ، وعجب من جودة الشعر ومعناه ؛ وحسن مأثاه ، فقلت له : لیتنا كتبناه ! قال : اكتبه فقد حفظته وأملأه على !

(١) الشسع : أحد سيور النعل ، وهو الذي يدخل بين الإصبعين ويدخل طرفه في الثقب الذي في صدر النعل المشدود في الزمام (٢) يعني أنه محبوب (٣) هو اسم ابن الرومي (٤) الحباب : مفردة حبيبة .

٤٤ — تطير الرشيد بن المعتمد *

قال ابن اللبانه ^(١) : كنتُ بين يدي الرشيد بن المعتمد في مجلس أنسه ، فورد
الخبر بأخذ يوسف بن تاشفين غرناطة ، ففجع وتلف ، واسترجع ^(٢) وتأسف ،
وذكر قصر غرناطة ، فدعونا لقصره بالدوام ، ولملكه بترأخي الأيام ، وأمر عند
ذلك أبا بكر الإشبيلي بالغناء ؛ فغنى :

يا دار ميسة بالعلياء فالسند أقوت ^(٣) وطال عليها سالف الأمد
فاستحالت ^(٤) مسرته ، وتجهمت أسرته ، وأمر بالغناء من ستارته فغنى :
إن شئت ألا ترى صبراً لمصطبر فانظر على أي حال أصبح الطلل
فتأكد تطيره ؛ واشتدَّ اربداد وجهه وتغيره ، وأمر مغنية أخرى بالغناء ،
فغنت :

يا لهف نفسي على مالٍ أفرقه على المقلين ^(٥) من أهل المروات
إن اعتذاري إلى من جاء يسألني مالست أملك ، من إحدى المصيبات
فتلافيت الحال بأن قلت :
محل مكرمة لا هـد مبناه وشمـل مأثرة لا شئت الله
البيت كالبيت لكن زاداً شرفاً أن الرشيد مع المعتد ركناه
ثاو على أنجم الجوزاء مقعده وراحـل في سبيل السعد مسراه

* فتح الطيب : ٢ - ٣٩٢

(١) هو أبو بكر الداني ، ويعرف بابن اللبانه ، وقد قال عنه في المطمح ص ٢٥٦ : المديد الباع ،
الفريد الانطباع الذي ملك للمجاسن مقاداً ، وغدا له البديع منقاداً ... (٢) استرجع عند المصيبة :
قال : إنا لله ولنا إليه راجعون . (٣) أقوت : خلت . (٤) استحالت : تغيرت . (٥) أقل : افتقر .

حتم على الملّك أن يقوّى وقد وصلت بالشرق والغرب يُمنّاه ويُسرّاه
فلعمري لقد بسطت من نفسه، وأعادت عليه بعض أنسه . على أنى وقعت
فيما وقعوا فيه لقولى : « البيت كالبيت » .
وأمر إثر ذلك أبا بكر بالغناء ، فغنى :
ولما قضينا من مئى كل حاجةٍ ولم يبقَ إلا أن نُزَمَّ^(١) الرَّكائب
فأيقنا أن هذا التطير يعقبه التغير !

(١) زم البعير : خطمه .

٤٥ — رُؤْيَا*

قال عبد الله بن المعلم : خرجنا من المدينة حُجَّاجًا ، فإذا أنا برَجُلٍ من بني هاشم من بني العباس بن عبد المطلب ؛ وقد رفض الدنيا ، وأقبل على الآخرة ، فجمعتني وإياه الطريقُ ، فأنستُ به ؛ وقلتُ له : هل لك أن تعادَ لَنِي ^(١) ؛ فإنَّ معي فضلاً من راحِلَتِي ! فخراني خيراً ، ثم أنسَ إلى ؛ فجعل يحدِّثُنِي ؛ فقال :

أنا رجلٌ من وَلَدِ العباس ، كنتُ أسكنُ البَصْرَةَ ، وكنتُ ذا كِبَرٍ شديد ؛ ونعمةٍ طائلة ، ومالٍ كثير ، وبَذَخٍ زائد . فأمرت يوماً خادماً لي أن يحشولِي فِرَاشاً من حرير ومخدةً بورِدٍ نَثيرٍ ! ففعل .

فإني لَنائمٌ إذا بَقِمَعَ وَرْدَةٌ قد نَسِيَهُ الخادم ، فقمْتُ إليه ، فأوجعته ضرباً ؛ ثم عُدْتُ إلى مَضْجَعِي بعد إخراج القِمَعِ من المِخْدَةِ ؛ فأتاني آتٍ في منامي في صورةٍ فظيعة ، فهِزَّنِي ؛ وقال : أَفِقْ من غَشِيَتِكَ ، وانتبه من رَقَدَتِكَ ، ثم أنشأ يقول :

يَاخِلُ ، إِنَّكَ إِنْ تَوَسَّدَ كَيْنًا وَسَدْتَ بَعْدَ الْيَوْمِ صُمَّ الْجَنْدَلِ
فَأَمَّهْدَ لِنَفْسِكَ صَالِحًا تَسْعُدُ بِهِ فَلَتَنْدَمَنَّ غَدًا إِذَا لَمْ تَفْعَلْ
فَانْتَبَهْتُ مرعوباً ، وخرجتُ من ساعتي هارباً إلى ربي !

* بحاني الأدب : ٤ - ٢٠ .
(١) عادله في الحمل : ركب معه .

البَابُ الثَّالِثُ

في القصص التي تجلوعلوهم ومعارفهم، وتوضح منها
ثقافتهم، وما كان متداولاً بينهم من مسائل العقل والنقل
التي هدتهم إليها فطرتهم، أو أنهتها إليهم تجاربهم.

٤٦ — فراسة أبناء نزار*

لما حضرت نزاراً الوفاةُ جمعَ بينه : مُضَرَ وإياداً وربيعةً وأثماراً ، وقال لهم :
يا بني ؛ هذه القبةُ الحمراء - وكانت من آدم^(١) - لمضر ، وهذا الفرسُ الأدم^(٢)
والخباه^(٣) الأسود لربيعة ، وهذه الخدام - وكانت شمطاء^(٤) - لإياد ، وهذه
الندوة^(٥) والمجلس لأثمار يجلس فيه ؛ فإن أشكل عليكم كيف تقتسمون فأتوا
الأفعى الجرهمى ، ومنزله بنجران^(٦) . فلما مات تشاجروا في ميراثه ، فتوجهوا
إلى الأفعى الجرهمى .

فبينما هم في مسيرهم إليه ، إذ رأى مُضَرَ أثرَ كَلَأٍ قد رُعي ؛ فقال : إن البعير
الذى رعى هذا لأغور ! قال ربيعة : إنه لأزور^(٧) ! قال إياد : إنه لأبتر^(٨) !
قال أثمار : إنه لشروود^(٩) !

ثم ساروا قليلاً فإذا هم برجل يُنشد^(١٠) جملةً ، فسألهم عن البعير ، فقال مضر :
أهو أغور ؟ قال : نعم ، قال ربيعة : أهو أزور ؟ قال : نعم ، قال إياد : أهو أبتر ؟
قال : نعم . قال أثمار : أهو شروود ؟ قال : نعم ! وهذه والله صفةُ بعيرى فدلوني
عليه . قالوا : والله ما رأيناه ، قال : هذا والله الكذب ! وتعلق بهم ، وقال :
كيف أصدقكم وأنتم تصفون بعيرى بصفته ! فساروا حتى قدموا بنجران .

* يجمع الأمثال : ١ - ١٥ ، بلوغ الأرب : ٣ - ٢٦٤ ، السعوى : ١ - ٣٠٢ .
(١) الأدم : الجلد (٢) الأدم : الأسود (٣) الخباه : يكون من وبر أو صوف أو شعر
(٤) شمطاء : برأسها شيب يخالط السواد (٥) الندوة : مجلس القوم نهائراً (٦) نجران :
مدينة شهيرة باليمن ، جرت فيها حوادث قصة « أصحاب الأخدود » (٧) الأزور : من يعشى
على شق . (٨) الأبتر : مقطوع الذنب (٩) الشروود : النافر . (١٠) أنشد الضالة : طلبها .

فلما نزلوا نادى صاحبُ البعير : هؤلاء أخذوا جملي ، ووصفوا لى صِفَتَه ، ثم قالوا : لم نَرِه .

فاختصموا إلى الأفعى الجرهمى - وهو حَكَمُ العرب - فقال الأفعى : كيف وصفتموه ولم تَرَوْه ؛ قال مُضَر : رأيته رَعَى جانباً وترك جانباً ؛ فعلت أنه أعور . وقال ربيعة : رأيْتُ إحدى يديه ثابتةً الأثر والأخرى فاسدتَه ؛ فعلت أنه أزور ؛ لأنه أفسده بشدة وطئه لازوراره . وقال إياد : عرفتُ أنه أَبْتَرَّ باجتماع بَعْرِهِ ، ولو كان ذَيْباً لَأَلَمَصَعَ به ^(٢) . وقال أنمار : عرفتُ أنه شَرُود ، لأنه كان يَرَعَى فى المكان الملتفّ نبتَه ، ثم يَجُوزُه إلى مكانٍ أرقَ منه وأخبثَ نبتاً ؛ فعلتُ أنه شَرُود . فقال للرجل : ليسوا بأصحابٍ بعيرك فاطلبه !

ثم سألهم : من أنتم ؟ فأخبروه ، فرحب بهم ، ثم أخبروه بما جاء بهم ، فقال : أحتاجون إلىّ وأنتم كما أرى ! ثم أنزلهم ، فذبح لهم شاة ، وأتاهم بخمر ، وجلس لهم الأفعى ، حيث لا يرى وهو يَسْمَعُ كلامهم . فقال ربيعة : لم أَرِ كاليوم لحماً أطيبَ منه ، لولا أن شاتَه غُذِيت بلبن كَلْبَةٍ ، فقال مضَر : لم أَرِ كاليوم خمرأً أطيبَ منه لولا أن حُبَلَتِها ^(٣) نبتت على قَبْرِ ، فقال إياد : لم أَرِ كاليوم رجلاً أسرى ^(٤) منه لولا أنه ليس لأبيه الذى يُدْعَى له ، فقال أنمار : لم أَرِ كاليوم كلاماً أنفع فى حاجتنا من كلامنا ؛ وكان كلامهم بأذنه ، فقال : ما هؤلاء إلا شياطين !

ثم دعا القَهْرمان ^(٥) فقال : ماهذه الخمر ؟ وما أمرُها ؟ قال : من حُبَلَةٍ غرستها على قَبْرِ أبيك لم يكن عندنا شرابٌ أطيبُ من شرابها ، وقال للراعى : ما أمرُ هذه

(١) ذبالا : له ذيل طويل . (٢) مصع به : يقال مصعت الدابة بذنبها ؛ أى حركته .

(٣) الحبله : السكرم أو أصل من أصوله (٤) السرو : الروة فى شرف (٥) القهرمان : القائم بأمر الرجل .

الشاة ؟ قال : هى شاة صغيرة أرضعتها بِلَيْنِ كَلْبَةٍ ، وذلك أن أمها كانت قدمات ولم يكن فى الغنم شاةٌ وَلِدَتْ غيرها .

ثم أتى أمه فسألها عن أبيه فأخبرته أنها كانت تحت ملك كثير المال ، وكان لا يؤلِّدُ له ، قالت : فَخِفْتُ أن يموتَ ولا وَلَدَ له فيذهبَ الملكُ !

فخرج الأفعى عليهم ، فقصَّ القومُ عليه قصَّتهم ، وأخبروه بما أوصى به أبوهم ، فقال : ما أشبهَ القُبَّةَ الحمراء من مال فهو لمضر ، فذهب بالدنانير والإبل الحمر ، فسمى مُضر الحمراء لذلك . وقال : أما صاحبُ الفرس الأذم والخِباء الأسود فله كل شيء أسود ، فصارت لربيعة الخيلُ الدهم ، فقيل : ربيعة الفرس . وما أشبه الخادم الشمطاء فهو لإياد ، فصارت له الماشية البلق من الحَبْلَقِ ^(١) والنَّقْدِ ^(٢) ، فسمى إياد الشمطاء ، وقضى لأثمار بالدراهم وبما فَضَلَ ، فسَمَّى أثمار الفضل ، وصَدَرُوا ^(٣) من عنده على ذلك !

(١) الحبلق : غنم صفار لا تكبر ، أو قصار المعز ودماهما (٢) النقد : جنس من الغنم يبيع الشكل .

(٣) صدروا : رجعوا

٤٧ — ارعني وأحذري*

خرج أعرابي مكفوف البصر ، ومعه ابنة عم له لرغى غم لها ، فقال الشيخ :
أجد ريح النسيم قد دنا ، فارفعي رأسك فانظري ، قالت : أراها كأنها ربّ ربّ^(١)
معزى هزلى ، قال : ارعني وأحذري .

ثم قال لها بعد ساعة : إني أجد ريح النسيم قد دنا ، فارفعي رأسك فانظري .
قالت : أراها كأنها بفأل دهم ، تبحر جلالها ؛ قال : ارعني وأحذري .

ثم مكث ساعة ، ثم قال : إني لأجد ريح النسيم قد دنا فانظري . قالت :
أراها كأنها بطن حمار أضحر^(٢) . فقال : ارعني وأحذري . ثم مكث ساعة ،
فقال إني لأجد ريح النسيم فما ترين ؟ قالت : أراها كما قال الشاعر^(٣) :

دانٍ مسف^(٤) فوق الأرض هيد به^(٥) يكاد يدفعه من قام بالراح
كأنما بين أعلاه وأسفله ريط^(٦) منشرة أو ضوء مصباح
فمن بنجوتته^(٧) كمن بمقوته^(٨) والمستكين كمن يمشى بقرواح^(٩)

فقال : انجى ، لا أبالك ! فما انقضى كلامه حتى هطلت السماء عليهما !

* الأغاني : ١١ — ٧١

- (١) الريب : القطيع (٢) الصخرة : حرة في غيرة (٣) هو عبيد بن الأبرص
(٤) المسف : الذى قد أسف على الأرض ، أى دنا منها (٥) الهيدب : السحاب يقرب من
الأرض كأنه متدل (٦) الریط : جمع ریطة وهى كل ملءة غير ذات لفقين ، كلها نسج واحد
(٧) النجوة : المكان المرتفع الذى تظن أنه نجاؤك (٨) العقوة : ساحة الدار (٩) القرواح :
أرض قرواح : واسعة . والقرواح أيضا : البارز الذى لا يبرزه عن السماء شئ .

٤٨ — طبّ الحارث بن كَلْدَة*

وفد الحارث^(١) بن كَلْدَة الثقفى على كسرى أنوشروان ، فأذن له بالدخول عليه ؛ فلما وقف بين يديه ، قال له : مَنْ أَنْتَ ؟ قال : أنا الحارث بن كَلْدَة الثقفى . قال : فما صناعتك ؟ قال : الطب ، قال : أعرابى أَنْتَ ؟ قال : نعم ، من صميمها ، ومُحبوبة^(٢) دارها . قال : فما تصنع العرب بطبّ مع جهلها ، وضعف عقولها ، وسوء أغذيتها ؟ قال : أيها الملك ؛ إذا كانت هذه صفتها كانت أحوَجَ إلى مَنْ يُصْلِحُ جَهْلَهَا ، ويقيم عَوَجَهَا ، ويُسْوِسُ أبدانها ، ويعدل أمشاجها^(٣) ، فإن العاقل يعرفُ ذلك من نفسه .

قال كسرى : فكيف تعرفُ ما توردّه عليها ؟ ولو عرفتِ الحَلْمَ لم تُنْسَبِ إلى الجهل !

فقال : أيها الملك ؛ العقل من قسم الله تعالى ، قَسَمَهُ بين عباده كَقِسْمَةِ الرزق فيهم ، فكلُّ من قَسَمْتَهُ أَصَابَ ، فمنهم مُثَرِّ ومُعَدِّم ، وجاهل وعالم ، وعاجز وحازم ، وذلك تقديرُ العزيزِ العليم . فأعجِبَ كسرى بكلامه .

ثم قال : فما الذى تَحَمَدُ من أخلاقها ، ويعجبُك من مذاهبها وسجاياها ؟ قال الحارث : أيها الملك ، لها أنفُسٌ سَخِيَّةٌ ، وقلوبٌ جَرِيَّةٌ^(٤) ، ولغة فصيحة ، وألسنٌ بليغة ،

* بلوغ الأرب : ٣ — ٣٢٨ ، العقد الفريد : ٤ — ٣٤١

(١) كان الحارث من الطائفة ، وهو طبيب العرب في عصره ، سافر إلى فارس وتعلم الطب ، وعرف الداء والدواء ، وكان يضرب بالعود ، تعلم ذلك بفارس واليمن ، وبقى أيام رسول الله وأبى بكر وعمر وعثمان وعلى معاوية وتوفى نحو سنة ٥٠ (٢) محبوبة : صميم (٣) الأمشاج : الأخلاط . (٤) جرية : جريئة .

وأنساب صحيحة ، وأحساب شريفة ، يمرق^(١) من أفواههم الكلامُ مُرُوقَ السهم من نَبْعةِ الرّام^(٢) ، أعذبَ من هواءِ الربيع ، وألينَ من سلسبيلِ المَعين^(٣) ؛ مُطعموُ الطعامِ في الجذبِ ، وضاربوُ الهامِ في الحربِ ، لا يُرامُ عِزُّهم ، ولا يُضامُ جارُّهم ، ولا يُستَباحُ حَرِيمُهم ، ولا يُذَلَّ كَرِيمُهم ، ولا يُقرُّونَ بفضلٍ للأنام ، إلّا للملكِ الهام ، الذي لا يقاسُ به أحد ، ولا يوازيه سُوقَة^(٤) ولا مَلِك !

فاستوى كسرى جالساً ، وسُرَّ لما سمع من مُحْكَمِ كلامه ؛ وقال جلسائه : إني وجدته راجحاً ، ولقومه مَدِحاً ، وبفضيلتهم ناطقاً ، وبما يُورِدُهُ من لفظه صادقاً ؛ وكذا العاقل من أحكمته التجارب ! ثم أمره بالجلوس فجلس ، فقال له : كيف بَصْرُكَ بالطَّبِّ ؟ قال : ناهيك !

قال : فما أصلُ الطبِّ ؟ قال : ضَبْطُ الشفتين ، والرَّفْقُ باليدين . قال : أصبت ! فما الداءُ الدَّويّ^(٥) ؟ قال : إدخالُ الطعامِ على الطعام ، هو الذي يُفْنِي البريَّةَ ، ويُهْلِكُ السباعَ في جَوْفِ البريَّةِ . قال : فما الجُمرةُ التي تُلَهَّبُ منها الأدواء ؟ قال : هي التَّخمةُ ، إن بقيت في الجوف قتلت ؛ وإن تحلّت أسقت . قال : صدقت . فما تقول في الحِجامة ؟ قال : في نقصانِ الهلال ، في يومِ صَحْوٍ لا غَيْمٍ فيه ، والنفسُ طيبة ، والعروقُ ساكنة ، لسرورٍ يفاجئك ، وهمٌّ يباعدك . قال : فما تقول في دخولِ الحمام ؟ قال : لا تدخله شَبْعان ، ولا تنم بالليل عُرْيَان ، ولا تقعد على الطعام غَضْبَان ، وارفق بنفسك يكن أرخى لبالك ، وقلِّل من طعامك يكن أَهْنًا لنومك .

قال : فما تقول في الدَّواء ؟ قال : ما لزمَتكَ الصِّحَّةُ فَاجْتَنِبْهُ ، فإن هاج داء

(١) يمرق : يخرج (٢) الرام : شجر (٣) السلسبيل : العذب . والمعين : الماء الجاري (٤) السوقة : خلاف الملك (٥) الداء الدوي : المهلك .

فأخسسه بما يردّعه قبل استحكامه ؛ فإنّ البدن بمنزلة الأرض ؛ إن أصلحتها عمّرت ، وإن تركتها خربت .

قال : فما تقول في الشراب ؟ قال : أطيبه أهناه ، وأرقه أمراه ، وأعذبه أشباهه ، لا تشربه صِرْفًا ^(١) فيورثك صداعاً ، ويثير عليك من الأدوية ^(٢) أنواعاً .

قال : فأى اللحمان أفضل ؟ قال : الضأن الفتي ؛ والتديد المالح مهلك للآكل ؛ واجتنب لحم الجزور والبقر .

قال : فما تقول في الفواكه ؟ قال : كلّها في إقبالها وحين أوانها ، وتركها إذا أدبرت وولّت وانقضى زمانها ؛ وأفضل الفواكه الرمان والأنثروبج ، وأفضل الرياحين الورد والبنفسج ، وأفضل البقول الهندباء ^(٣) . والخس .

قال : فما تقول في شرب الماء ؟ قال : هو حياة البدن ، وبه قوامه ، ينفع ما شرب منه بقدر الحاجة ، وشربه بعد النوم ضرر ، أفضله أمراه ، وأرقه أضفاه . قال : فما طعمه ؟ قال : شيء لا يوصف ، قال : فما لونه ؟ قال : اشتبه على الأبصار لونه ؛ لأنه يحكى لون كل شيء يكون فيه .

قال : فما النور الذي في العينين ؟ قال : مرّكب من ثلاثة أشياء : فالبياض شحم ، والسواد ماء ، والناظر ريح .

قال : فعلى كم جيل وطّيع البدن ؟ قال : على أربعة طباع : المرّة السوداء وهي باردة يابسة ، والمرّة الصفراء وهي حارة يابسة ، والدم وهو حار رطب ، والبلغم وهو بارد رطب . قال : فلم لم يكن من طبع واحد ؟ قال : لو خلق من طبع واحد لم يأكل ولم يشرب ؛ ولم يمرض ولم يهلك ؛ قال : فمن طبيعتين لو كان

(١) صرفاً : غير ممزوج . (٢) جمع داء . (٣) بقلة نافعة للعدة والسكبد والطحال

اقتصر عليهما ! قال : لم يَجْزُ لَأَنَّهُمَا ضِدَانِ يَقْتَتِلَانِ ؟ قال : فمن ثلاث ؟ قال : لم يصلح مُوَافِقَانِ وَمُخَالِف ! فالأربع هو الاعتدال .

قال : فَاجْعَلْ لِي الْحَارَّ وَالْبَارِدَ فِي أَحْرُفٍ جَامِعَةٍ ؟ قال : كُلَّ حُلُو حَارٍّ ، وَكُلَّ حَامِضٍ بَارِدٍ ، وَكُلَّ حَرِيْفٍ ^(١) حَارٍّ ، وَكُلَّ مَرَّةٍ مُعْتَدِلٍ ، وَفِي الْمَرَّةِ حَارٌّ وَبَارِدٌ . قال : فَأَفْضَلُ مَا عُولِجَ بِهِ الْمَرَّةُ الصَّفْرَاءُ ؟ قال : كُلُّ بَارِدٍ لَيْنٍ ، قال : فَالْمَرَّةُ السُّودَاءُ ؟ قال : كُلُّ حَارٍّ لَيْنٍ . قال : فَالْبَلَنَمُ ؟ قال : كُلُّ حَارٍّ يَابِسٍ . قال : فَالْدَّمُ ؟ قال : إِخْرَاجُهُ إِذَا زَادَ ، وَتَطْفِئُهُ إِذَا سَخُنَ بِالشَّيْءِ الْبَارِدَةِ الْيَابِسَةِ . قال : فَالزِّيَاحُ ؟ قال : بِالْحَقَنِ اللَّيْنَةِ ، وَالْأَذْهَانِ الْحَارَةِ اللَّيْنَةِ . قال : أَفَتَأْمُرُ بِالْحَقَنَةِ ؟ قال : نَعَمْ ! قَرَأْتُ فِي بَعْضِ كُتُبِ الْحِكْمَاءِ أَنَّ الْحَقَنَةَ تُنْقِي الْجُوفَ وَتَكْسَحُ الْأَذْوَاءَ عَنْهُ ، وَالْعَجَبُ لِمَنْ احْتَقَنَ كَيْفَ يَهْرَمُ أَوْ يَعْدَمُ الْوَلَدُ ! وَإِنَّ الْجَاهِلَ مَنْ أَكَلَ مَا قَدْ عَرَفَ مُضَرَّتَهُ ، وَيُؤَثِّرُ شَهْوَتُهُ عَلَى رَاحَةِ بَدَنِهِ .

قال : فَمَا الْحَيَمَةُ ؟ قال : الْاِقْتِصَادُ فِي كُلِّ شَيْءٍ ، فَإِنَّ الْأَكْلَ فَوْقَ الْمَقْدَارِ يُضَيِّقُ عَلَى الرُّوحِ سَاحَتَهَا ، وَيَسُدُّ مَسَامَهَا .

قال : فَمَا تَقُولُ فِي النِّسَاءِ ^(٢) ... وَأَيُّهُنَّ الْقَلْبُ إِلَيْهَا أَمِيلُ ، وَالْعَيْنُ بِرُؤْيَيْهَا أَسْرَى ؟ قال : إِذَا أَصَبَتْهَا مَدِيدَةُ الْقَامَةِ ، عَظِيمَةُ الْهَامَةِ ^(٣) ، وَاسِعَةُ الْجَبِينِ ، قَنَوَاءُ الْعَرْنَيْنِ ^(٤) ، كَحَلَاءِ ^(٥) لَعْسَاءِ ^(٦) ، صَافِيَةِ الْخُلْدِ ، عَرِيضَةِ الصَّدْرِ ، مَلِيحَةِ النَّحْرِ ^(٧) ، فِي خَدَّهَا رِقَّةٌ ، وَفِي شَفَتَيْهَا لَعَسٌ ، مَقْرُونَةُ الْحَاجِبَيْنِ ، نَاهِضَةُ الثَّدْيَيْنِ ، أَطْيَفَةُ الْخَطَمِ ^(٨)

(١) الحريف : الذي يلذع اللسان .

(٢) عبارات في الأصل حذفت هنا (٣) الهامة : الرأس (٤) قنواء : بينة القنا ، وهو

ارتفاع أعلى الأنف واحديداب وسطه وسبوغ طرفه . والعرنين : الأنف كله أو ما صلب منه .

(٥) الكحلأ : التي كأنها مكحولة ولم تكحل (٦) لعساء : في شفتها سواد (٧) النحر :

أعلى الصدر (٨) الحصر : وسط الإنسان .

والقدمين ، مبيضاء فرعاء ^(١) ، جمعدة ^(٢) غضة بضة ^(٣) ، تخالها في الظلمة بذراً زاهراً
تبسم عن أقحوان وعن مبسم ^(٤) كالأرجوان ^(٥) ، كأنها بيضة مكنونة ، ألين
من الزبد ، تفرح بقربها ، وتسرك الخلوة معها .

فاستضحك كسرى حتى اختلجت كتيافه ! وقال : لله درك من أعرابي !
لقد أعطيت علماً ، وخصيصة فطنة وفيهما ! وأحسن صلته ، وأمر بتدوين مناطق به .

(١) الفرعاء : التامة الشعر
(٢) جمعدة : غير سبطة الشعر
(٣) بضة : ناعمة
(٤) المبسم : الثغر . الأقحوان : نبت من نبات الربيع ، له نوراًبيض . كأنه ثغرافية حديثة السن
(٥) الأرجوان : صبغ أحمر .

٤٩ — حديث قس بن ساعدة مع ملك الروم *

قال إسحاق بن إبراهيم الموصلي :

حضرت مجلس المأمون ، فقلت : يا أمير المؤمنين ؛ ألا أحدثك عن الفضل ابن يحيى ؟ قال : بلى ! فقلت : دخلت دار الرشيد ، وإذا الفضل بن يحيى وإسماعيل ابن صبيح ، وعبد الملك بن صالح في بعض تلك الأروقة يتحدثون ؛ فلما بصرتي الفضل أومأ إليّ ، وقال : يا إسحاق ؛ انتظرناك منذ الغداة ؛ لتساعد على ما نحن فيه من المذاكرة ! فقلت : ياسيدي ؛ أنا الشكيت^(١) إذا أُجريت الجياد ، وفاز السابق والمُصَلَّى ! فقال عبد الملك : مدحت نفسك ، ولما تكذب .

ولما فرغ عبد الملك من حديثه قال الفضل : إن لقس^(٢) حديثاً سمعته من الخليل بن أحمد ؛ فهل عند واحد منكم له ذكرٌ ؟ فسكت القوم ، فقلت : ياسيدي ؛ ما نعرف له حديثاً إلا حديث خطبته بمُكاظ ! قال : ذاك شيء قد فهمته العامة واختبرته الخاصة . ثم أطرقت ساعة ، فقلنا : إن رأيت أن نتحدثنا ؟ فقال :

حدثني الخليل بن أحمد : أن قيصر ملك الروم بعث إلى قس بن ساعدة أسقف نجران . وكان حكيماً طيباً بليغاً في منطقته ؛ فلما دخل عليه ومثل بين يديه حمد الله

* المحاسن والمساوي : ٣٨١ - طبع لبيزج .

(١) السكيت : الذي يحيى في الحلبة آخر الخيل (٢) هو قس بن ساعدة خطيب العرب فاطبة ، والمضروب به المثل في البلاغة والحكمة ، والموعظة الحسنة . كان يدين بالتوحيد ، ويؤمن بالبعث ويدعو العرب إلى نبذ الأوثان ، في المحافل العامة ، ومواسم الأسواق وسمعه النبي قبل البعثة يخطب بمكاظ ، فمجب من حسن كلامه وأثنى عليه ، وعمر طويلاً ومات قبيل البعثة .

وأثنى عليه ، فأمره بالجلوس ، فجلس ورحَّبَ به ؛ وأذِنَ مجلسه ، وقال : ما زِلْتُ مشتاقاً إليك لِمَا سمعتُ من مُناظَرَتِكَ في الطب .

فكان أول ما سأله عن الشراب ، فقال : أيُّ الأثرية أفضل عاقبةً في البدن؟ قال : ما صَفَا في العَيْنِ ، واشتَدَّ على اللسان ، وطابت رائحته في الأنف من شراب السكرم . قال : فما تقول في مطبوخه ؟ قال : مرعى ولا كالسَّعدان ^(١) ! قال : فما تقول في نَبِيذ الزبيب ؟ قال : مَيِّتٌ أَحْيَى ، وفيه بعضُ المتعة وما كاد يَقْوَى شيءٌ بعد الموت ! قال : فما تقول في نَبِيذ العسل ؟ قال : نِعْم شرابُ الشيخ للمعدة الفاسدة . قال : فما تقول في أنبذة التمر ؟ قال : أوساخ يطيبُ مذاقها في اللِّهَوَات ، وتسوء عاقبتها في البدن ، وتولد الأرواح ^(٢) في البطنِ لرقَّتْها .

قال : فمن أي شيء يكون النَّمَل الذي يُذهب النِّعمَ ويَطْيِب النفس ؟ قال : زعموا أَنَّ العقلَ تُصعِّده سَوْرَةُ الشراب إلى الدِّماغ ؛ فإذا صعدت السَّوْرَةُ إلى الدماغ الذي هو أصله ، احتجب البصرُ بغير عَمَى ، والسمع بغير صَمَم ، واللسانُ بغير خَرَس ؛ فلا يزال العقلُ كذلك محتجباً حتى تفكَّه الطبيعة من إِسَارِ السكر ، إمَّا بقوة فيعجل ، وإمَّا بضعْفٍ فيبطيء .

قال : فمن أيِّ شيء الخُمَار ^(٣) من بَعْدِ صَحْوِ السكران ؟ قال : من إغْيَاء الطبيعة عن مُجَاهَدَةِ السَّوْرَةِ في افتكاك العقلِ وتخلُّصه ، حتى يردَّها النومُ إلى هُدُوِّه وما أشبهه . قال : الصَّرْفُ أفضلُ أم الممزوج ؟ قال : الصَّرْفُ سلطانٌ جائرٌ ، والجائرُ مذمومٌ ، والممزوج سلطانٌ عادلٌ ، والعادلُ محمودٌ .

قال : فصِفْ لِي الأطعمة . قال : الأطعمةُ كثيرةٌ مختلفةٌ . وجملةُ ما آمرك به

(١) السعدان : نبت ذو شوك ، وهو من أنجع المرعى ، وهذا مثل ينسب للشيء يفضل على أقرانه وأشكاله (٢) الأرواح : جمع ريح (٣) الخمار : بنية السكر .

الإمساكُ عن غاية الإكثار ، فإن ذلك من أفضل ما بَلَوْنَاهُ من الأدوية ، ورأسُ ما نأمرُ به من الحِمِيَةِ . قال له : عَمَّنْ حَلَّتْ الحِكْمَةُ ؟ قال : عن عِدَةٍ من الفلاسفة . قال : فما أَفْضَلُ الحِكْمَةُ ؟ قال : معرفة المرء بقَدْرِهِ . قال : فما تَقُولُ في الحلم ؟ قال : حلمُ الإنسان ماء وجهه . قال : فما تَقُولُ في المال وفضله ؟ قال : أَفْضَلُ المال ما أُعْطِيَ منه الحق . قال : فما أَفْضَلُ العَطِيَّةِ ؟ قال : أن تُعْطِيَ قَبْلَ السُّؤال .

قال : فأخبرني عما بَلَوْتُ^(١) من الزمان وتصرّفه ، ورأيتَ من أخلاقِ أَهْلِهِ . قال : بَلَوْنَا الزمانَ فوجدناهُ صاحباً يَخُونُ صاحبه ، ولا يَعْتَبِرُ مَنْ عَاتَبَهُ ، ووجدناهُ الناسَ صورةً من صُورِ الحيوان ، يتفاضلون بالعقول ، ووجدناهُ الأحسابَ ليست بالآباء والأمهات ، ولكِنَّها في أخلاقٍ محمودة ، وفي ذلك أقول :

لَقَدْ حَلَبْتُ الزمانَ أَشْطَرَهُ ثُمَّ تَخَضَّعْتُ^(٢) الصريحَ^(٣) مِنْ حَلَبِ
فَلَمْ أَرَ الْفَضْلَ وَالْمَعَالِي فِي قَوْلِ الْفَتَى : إِنِّي مِنَ الْعَرَبِ
حَتَّى نَرَى سَامِياً إِلَى خُلُقٍ يَذُودُ مُحْشُودَهُ عَنِ النَّسَبِ
مَا يَنْفَعُ الْمَرْءَ فِي فُكَاكِهِتِهِ مِنْ عَقْلِ جَدٍّ مَضَى وَعَقْلِ أَبِ
مَا الْمَرْءُ إِلَّا ابْنُ نَفْسِهِ فَبِهَا يُعْرِفُ عِنْدَ التَّحْصِيلِ لِلنُّوْبِ

ووجدنا أبلغَ العَظَمَاتِ النَّظَرَ إلى محلِّ الأموات ، وأَحَدَ البلاغة الصلَمَتَ ، ووجدنا لأهل الحَزْمِ حذاراً شديداً ، وبذلك نَجَّوْا مِنَ المَكْرُوهِ ، والكَرْمُ حَسَنُ الاصْطِبَارِ ، والعَزْزُ سُرْعَةُ الانْتِصَارِ ، والتَّجَرُّبَةُ طَوْلُ الاعتبار .

قال : خبرني هل نظرتَ في النجوم ؟ قال : مانظرتُ فيها إلا فيما أُرِدْتُ به الهِدَايَةَ ، ولم أنظر فيما أُرِدْتُ به السَّكْهَانَةَ ، وقد قلتُ في النجوم :

(١) بلوت : خبرت (٢) محض اللبن : أخذ زبد (٣) الصريح : الخالص .

علم النجوم على العقول وَبَالُ^(١) وَطَلَابُ^(٢) شَيْءٌ لَا يُنَالُ ضَلَالُ
 ماذا طِلَابُكَ عِلْمَ شَيْءٍ أَغْلَقْتُ مِنْ دُونِهِ الْأَفْلَاكُ لَيْسَ يُنَالُ
 هِبَاتَ مَا أَحَدٌ بِغَامُضِ قَدْرِهِ يَدْرِي كَمْ الْأَرْزَاقُ وَالْأَجَالُ
 إِلَّا الَّذِي فَوْقَ السَّمَاءِ مَكَانَهُ فَلَوْجِهِ الْإِكْرَامُ وَالْإِجْلَالُ

قال : فهل نظرتَ في زَجَرِ^(٣) الطير ؟ قال : نحن معاشرَ العرب مولعون بزَجَرِ
 الطير . قال : فما أعجبُ ما رأيته منه ؟ قال : شَخَصْتُ^(٤) أنا وصاحبُ لي من العرب
 إلى بعض الملوك ، فألفيناهُ يريد غزو قوم كانوا على دين النصرانية ، فخرج حتى
 إذا كان على فراسخٍ من مدينته أمر بضرب فساطيطه وأزوقته لتتوَّأ في إليه جنوده ،
 وضرب له فُسطاط على شاطئ نهر ، وأمر ببناء فُصْرٍ لي ولصاحبي ، فبينما نحن
 كذلك إذ أقبل طائران : أسود وأبيض ، وأنا وصاحبي نرمُقهما ، حتى إذا كانا على
 رأسه رَفَرَفَا ، ثم غابا ، ثم رجعا أيضاً ، حتى إذا كانا قريباً منه طويآه ، ثم أقبلا
 نحونا فوقاً ثم رَتَمَا^(٥) . فقال صاحبي : ما رأيتُ كالיום طائرين أعجبَ منهما ،
 فأيهما أنت مختار ؟ فقلت : الأسود . قال : الأبيض أعجبهما إليّ ، فأتاؤتهما ؟ قلت :
 الليل والنهار يطويان هذا الرجلَ في سفره فيموت ، وتأتلت اختيارك الأبيض أنك
 تنصرف بيد بيضاء مُحْفَقَةً^(٦) من المال . فإذا هو قد غضب .

فلما جَنَّ الليل بعثَ إلينا الملكَ لنَسْمُرَ عنده ، فإذا صاحبي قد أخبره بالخبر ،
 فسألني فأخبرته وصدقته . فغَضِبَ ، وقال : هذه حميةٌ منك لأهل دينك ! فقلت :
 أما أنا فقد صدقتك . فأمر بحبسِي ومضى لوجهه . فلم يتجاوزْ إلا قليلاً حتى مات !
 فأوصي لي بعشرين ناقة ، وقال : قاتل الله قُتْلًا ! لقد مُحَضَّنِي النصيحة . فانصرفْتُ
 من سفرِي ذلك بعدةً من الإبل ، وانصرف مُحْفَقًا من المال .

(١) طلاب : طلب (٢) الزجر : ما يحدث من بعض الناس من التكلم بالقيب عند سnoch
 طائر أو حيوان (٣) الرتم : الأكل والشرب رغداً في الرف (٤) محفقة : خالية .

قال الملك : وما رأيتَ أيضاً من الزجر أعجب ؟ قلت : ما رأيتُ مرةً عند الملك
الهُمامِ أبايَ قَابُوسَ ، وقد خرج عليه خارجٌ من مُضَرَّ يريدُ مُلكه ، وقد حشد له ،
فبعث إلى بعض عماله في توجيه أربعمائة فارس ، ووجهني مع الرسول ، وأمرنا بالشدِّ
على أيديهم في جَمْعِ الخيلِ والرجالِ - وكان الرسولُ شاعراً ، فبينما نحن نسير إذ
سَفَحَتْ لنا ظباء فيها تَيْسٌ ^(١) يقدُمُها ، وكان أبو قابوس يواعد للقاءه في يوم كذا
وكذا ، فنحن نقول : إن كان الملكُ خرج في يوم كذا فهو اليوم في موضع كذا ،
وقد أقبلنا ، ونحن نقود جيشاً عَرْمَماً ، فأنشأ الرسول يقول :

أَلَا لَيْتَ شَعْرِي مَا تَقُولُ السَّوَانِحُ أَغَادِرُ أَبُوقَابُوسَ أَمْ هُوَ رَاحٌ ؟

فنظرت إلى التَّيْسِ عند فراغه من هذا البيت ، فوجدته قد دخل في
مَكْنِسِهِ ^(٢) حتى توارى فيه ، فدخلني من ذلك ما لم أقدر على أن أُنسِكَ نفسي ؟
حتى استرجعت ، فقال لي رفيقي : مالك ؟ قلت : إن صدَّقَ الزجر فصاحبك قد
تَوَّى في التراب ، والتحفَّتْ عليه أطباقُ الثَّرى ! قال : كيف ذلك ؟ قلت : وافقَ
فراغك من البيت دخولَ التيس في مَكْنِسِهِ ، فأعرض عني .

فلما أصبحتُ في اليوم الذي واعدنا للقاءه لم يُوافِ ، ولم يكن بأوشك من أن
أتانا الخبرُ بهلاكه وقعود ابنه .

فأكرمه قَيْصَرَ وأحسنَ جائزته .

قلنا : أيَّدَ الله الوزير ! لقد بلغتَ ما بلغتَ باستحقاق ، ولقد حُزَّتْ قصبَةُ
الرهان في كل مَنَقَبَةٍ ، فتبسَّم وقال : عزُّ الشريف أدبُهُ ، وإذا رسولُ الرشيد قد
وفاه فنهض نحوه ، وتصدَّع المجلس وانصرفنا .

(١) التيس : الذكر من الظباء والمز والوعول (٢) المكس - بكسر النون : مولج الوحش
من الظباء والبقر تسكن فيه من الحر .

فلما مضى من الليل بعضه إذا أنا بطارق قد طرقتي ، وبين يديه غلمان على
أغناقهم البدر^(١) ، وإذا رسول الفضل وقد حل إلى مائة ألف درهم ، وقال : الوزيرُ
يقرأ عليك السلام . ويقول : ضجرتَ باستماع الأحاديث ، وأوجبتَ على بذلكِ مِنَّةً ،
وهذا عطاء وَتَح^(٢) في جنب قدركِ عندي ، فخذْه ولا تعتدَّ به .

قلت : سبحان الله الذي خلق هذا الرجل ! وَجَبَلَهُ على كرم بذِّه من مَضَى
وَمَنْ غَبَر . وإذا هو قد وَجَّه إلى أصحابي الذين كانوا معي بمثل الذي وَجَّه به إلىَّ ،
ففلدوتُ إليه وأردتُ أن أشكره ، فقال : والله لئن ذهبتَ تكشفُ ما سَتَرَ اللهُ
لأَجْنُوتِكَ ! فكأنما ألقني حجراً . واحتبسني عنده ، فطَعِمْتُ وشربت ، ورُخْتُ
وقد حملني على عِدَّة أفراس بِسُروج وَلُجُم مُذْهَبَةٍ ، ووجَّه معي بعشرة نخوت^(٣)
ثياب وعشر بَدَرٍ .

فقال المأمون : وَيَمُحِك يا إسحاق ! ثوابُ حديثك ضعفُ ما أمرك به الفضل ،
وقد أَمَرْتُ لك بمائة ألف درهم .
فقبضْتُ ذلك وانصرفت .

(١) البدر : جمع بدرية : كيس فيه ألف أو عشرة آلاف درهم . (٢) وتَح : قليل .

(٣) النخوت : وعاء تمان فيه الثياب .

٥٠ - أعرابي في سفر*

زعموا أن رجلا من كعب خرج في جماعة^(١)، ومعه سقاء^(٢) من لبن، فسار صدر يومه، فعطش فأناخ ليشرب؛ فإذا غراب^(٣) ينعب^(٤)، فأثار راحلته، ثم سار، فلما أظهر^(٥) أناخ ليشرب، فنعب الغراب وتمرغ في التراب، فضرب الرجل السقاء بسيفه، فإذا فيه أسود^(٦) ضخّم فقتله.

ثم سار، فإذا غراب واقف على سِدْرَة^(٧)، فصاح به فوق على سلمة^(٨)، فصاح به، فوق على صخرة، فاتمى إليها، فأثار كنزاً.

فلما رجع إلى أبيه قال له: إيه ما صنعت؟ قال: سرت صدر يومي، ثم أنخت لأشرب فنعب الغراب، قال: أثرها، وإلا فلست بابني! قال: أثرتها، ثم أنخت لأشرب؟ فنعب الغراب، وتمرغ في التراب، قال: اضرب السقاء، وإلا فلست بابني! قال: فعلت، فإذا أسود ضخّم، قال: ثم مه! قال: ثم رأيت غراباً على سِدْرَة، قال: أطره وإلا فلست بابني! قال: فعلت. فوق على سلمة، قال: أطره وإلا فلست بابني! قال: فعلت، فوق على صخرة، قال: أخبرني بما وجدت، فأخبره!

* نهاية الأرب : ٣-١٤٠ ، بلوغ الأرب : ٣-٣٠٩ .

(١) السقاء : ما يوضع فيه اللبن . (٢) نعب الغراب : صاح . (٣) أظهر : سار في الظهور
(٤) الأسود : العظيم من الحيات . (٥) السدرة : شجرة التبق (٦) السلم : شجرة من الغضاء ، الواحدة سلمة .

٥١ - في موت رسول الله *

قال أبو ذؤيب الهذلي^(١) : بلغنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم عليل ؛ فأوجس أهل الحى خيفةً عليه ، فبت ليلةً ثابتةً النجوم ، طويلةً الأناة ، لا ينجاب دَيجورها^(٢) ولا يطلع نورها ، حتى إذا قرب السحر غفوت ، فهتف لى هاتفٌ يقول :

خَطْبٌ أَجَلُ أَنَاخَ بالإسلامِ بين النخيل ومَعْقَدِ الآطامِ^(٣)
قُبْضَ النَّبِيِّ مُحَمَّدَ فَمِوْنُنَا تُذَرِي الدَّمْعَ عليه بالتَّسْجَامِ^(٤)
فَوُثِّتُ مِنْ نَوْمِي فَرِغَا ؛ فَنظَرْتُ إِلَى السَّمَاءِ فَلَمْ أَرِ إِلَّا سَعْدَ الدَّابِجِ^(٥) ؛ فَفَتَاءُ لَتْ بِهِ ذَنْجًا يَقَعُ فِي الْعَرَبِ ، وَعَلِمْتُ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَدْ مَاتَ ، أَوْ هُوَ مَيِّتٌ مِنْ عِلَّتِهِ .

فَرَكِبْتُ نَاقَتِي وَرَسَرْتُ حَتَّى أَصْبَحْتُ ، فَطَلَبْتُ شَيْئًا أَزْجِرُهُ ، فَعَنَّى لِي شَيْئٌ^(٦)
قَدْ أَرَمَ^(٧) عَلَى صِلِ^(٨) ، وَهُوَ يَتَلَوَّى ، وَالشَّيْئُ يَقْضِمُهُ حَتَّى أَكَلَهُ ، فَزَجَرْتُ ذَلِكَ شَيْئًا مُهِمًّا ؛ فَقُلْتُ : تَلَوَّى الصَّلَّ انْقِتَالُ^(٩) النَّاسِ عَنِ الْحَقِّ عَلَى الْقَائِمِ بَعْدَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، ثُمَّ أَوَّلْتُ أَكُلَ الشَّيْئِ إِيَّاهُ : غَلَبَةُ الْقَائِمِ عَلَى الْأَمْرِ .

* بلوغ الأرب : ٣ - ٣١٥ ، نهاية الأرب : ٣ - ١٤٢ ، معاهد التنصيص : ١ - ١٩٣
(١) أبو ذؤيب الهذلي : شاعر مقدم من شعراء هذيل ، كان في جند عبد الله بن سعد حينما فتح إفريقيا وعاد إلى مصر ومات بها (٢) الديجور : الظلام (٣) الأطم : القصر وكل حصن مبني بججارة وكل بيت مربع مسطح ، جمعه أطام (٤) سجم الدمع : قطار وسال قليلا أو كثيرا (٥) منزل من منازل القمر . (٦) الشيم : ذكر القنفذ (٧) أرم عليه : عض (٨) الصل : الحية . (٩) انقتل عن الشيء : انصرف .

فَحَنَنْتُ نَاقَتِي حَتَّى إِذَا كُنْتُ بِالْعُلْيَةِ^(١) زَجَرْتُ الطَّيْرَ فَأَخْبَرَنِي بِوَفَاتِهِ .
وَنَعِبُ غَرَابُ سَانِحَا^(٢) بِمَثَلِ ذَلِكَ ، فَنَعَمَوْتُ مِنْ شَرِّ مَا عَنَّ لِي فِي طَرِيقِي ، سَمِ
قَدِمْتُ الْمَدِينَةَ ، وَلَأَهْلَهَا ضَجِيجٌ كَضَجِيجِ الْحَجِيجِ ، أَهْلُوا جَمِيعًا بِالْإِحْرَامِ ، فَقُلْتُ :
مَهْ ! قَالُوا : قُبِضَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَجِئْتُ الْمَسْجِدَ فَأَصَبْتُهُ خَالِيًا ،
فَأَتَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَأَصَبْتُ بَابَهُ مُرْتَجًا^(٣) ، وَقَدْ خَلَا بِهِ أَهْلُهُ ،
فَقُلْتُ : أَيْنَ النَّاسُ ؟ فَقِيلَ : فِي سَقِيفَةِ بَنِي سَاعِدَةَ ، وَصَارُوا إِلَى الْأَنْصَارِ .

فَجِئْتُ السَّقِيفَةَ ، فَوَجَدْتُ أَبَا بَكْرٍ وَعُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ، وَأَبَا عُبَيْدَةَ وَسَلَامًا ،
وَجَمَاعَةً مِنْ قُرَيْشٍ ، وَرَأَيْتُ الْأَنْصَارَ فِيهِمْ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ وَمَعَهُمْ شَعْرَاؤُهُمْ ، وَأَمَامَهُمْ
حَسَّانُ بْنُ ثَابِتٍ ، فِي مَلَأَ مِنْهُمْ ، فَأَوَيْتُ إِلَى الْأَنْصَارِ ، فَتَكَلَّمُوا فَأَكْثَرُوا ،
وَتَكَلَّمَ أَبُو بَكْرٍ ، فَلِلَّهِ مِنْ رَجُلٍ لَا يُطِيلُ الْكَلَامَ ، وَيَعْلَمُ مُوَاضِعَ الْفَصْلِ .

وَاللَّهُ لَقَدْ تَكَلَّمَ بِكَلَامٍ لَمْ يَسْمَعْهُ سَامِعٌ إِلَّا أَنْقَادَ لَهُ وَمَالَ إِلَيْهِ . وَتَكَلَّمَ بَعْدَهُ
عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بِكَلَامٍ دُونَ كَلَامِهِ ، وَمَدَّ يَدَهُ فَبَايَعَهُ ، وَرَجَعَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ
اللَّهُ عَنْهُ ، وَرَجَعْتُ مَعَهُ ؛ فَشَهِدْتُ الصَّلَاةَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ،
وَشَهِدْتُ دَفْنَهُ !

(١) عُلْيَةُ الْقَوْمِ : جَلَّتُهُمْ (٢) نَعِبُ الْغَرَابِ : صَاح . وَالسَانِحُ : مَا أَتَاكَ عَنْ يَمِينِكَ مِنْ طَيْرٍ
أَوْ طَائِرٍ أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ . وَالْعَرَبُ تَخْتَلِفُ فِي الْعِيَاةِ ، فَتَنْهَى عَنْ يَمِينِهَا بِالسَانِحِ : وَيَتَشَامَمُ بِالْبَارِحِ ،
وَمِنْهُمْ مَنْ يَخَالِفُ ذَلِكَ (٣) أَرْتَجُ الْبَابَ : أَغْلَقَهُ .

٥٢ — عِيَافَةُ لِهَبْ *

تَمْشِقُ كَثِيرٌ^(١) امْرَأَةً مِنْ خُرَاعَةِ يَقَالُ لَهَا أَمَّ الْحَوَيْرِثِ ؛ فَشَبَّ بِهَا
فَكَرِهَتْ أَنْ يُسَمَّعَ بِهَا وَيَفْضَحَ بِهَا كَمَا سَمِعَ بِعَزَّةَ ، فَقَالَتْ لَهُ : إِنَّكَ رَجُلٌ فَقِيرٌ
لَا مَالَ لَكَ فَابْتَغِ مَالاً ، ثُمَّ نَعَالَ فَاحْطَبْنِي كَمَا يَخْطُبُ الْكِرَامُ ، قَالَ : فَاحْلِفِي
وَوَثِّقِي أَنَّكَ لَا تَنْزَوِّجِينَ حَتَّى أَقْدِمَ عَلَيْكَ ، خَلَفَتْ وَوَثَّقَتْ لَهُ . فَدَحَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ
ابْنَ إِبْرِيْقِ الْأَزْدِيَّ وَخَرَجَ إِلَيْهِ ، فَلَقِيَ ظَبَاءَ سَوَانِخِ^(٢) ، وَلَقِيَ غُرَابًا يَفْحَصُ التُّرَابَ
بُوجْهِهِ ، فَتَطَيَّرَ مِنْ ذَلِكَ ، حَتَّى قَدِمَ عَلَى حَيٍّ مِنْ لِهَبٍ^(٣) ، فَقَالَ : أَيُّكُمْ يَزْجُرُ^(٤) ؟
قَالُوا : كُلُّنَا إِنْ فَنَ تَرِيدُ ؟ قَالَ : أَعَلَيْكُمْ بِذَلِكَ ! قَالُوا : ذَلِكَ الشَّيْخُ الْمُتَحَنِّ الصُّلْبُ ،
فَأَنَاهُ فَقَصَّ عَلَيْهِ الْقِصَّةَ فَكَرِهَ ذَلِكَ لَهُ ، وَقَالَ : قَدْ مَاتَتْ أَوْ تَزَوَّجَتْ رَجُلًا مِنْ بَنِي
عَمَّهَا ؛ فَقَالَ كَثِيرٌ :

تَيَمَّمْتُ لِهَبًا أَبْتَغِي الْعِلْمَ عِنْدَهُمْ	وَقَدْ رُدَّ عِلْمُ الْعَاطِفِينَ إِلَى لِهَبٍ
فَيَمَّمْتُ شَيْخًا مِنْهُمْ ذَا بَجَالَةٍ ^(٥)	بَصِيرًا يَزْجُرُ الطَّيْرَ مُتَحَنِّ الصُّلْبِ !
فَقُلْتُ لَهُ : مَاذَا تَرَى فِي سَوَانِخٍ	وَصَوْتِ غُرَابٍ يَفْحَصُ الْوَجْهَ بِالتُّرَابِ
فَقَالَ : جَرَى الطَّيْرُ السَّنِيحُ بَيْنَ نَهَا	وَنَادَى غُرَابٌ بِالْفِرَاقِ وَبِالسَّلْبِ

* نَهَايَةُ الْأَرْبِ : ٣ - ١٤٠ ، الْأَغَانِي : ٩ - ٣٤

(١) كَثِيرُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ : مِنَ الشُّعْرَاءِ الْفُزَيْنِ ، وَلَكِنَّهُ كَانَ دَعِيًّا فِي الْحُبِّ غَيْرَ مَرْغُوبٍ فِيهِ
لَقِبَ صُورَتَهُ وَهُوَ أَنَّ شَخْصِيَّتَهُ فَوْقَ فِقَاحِهِ السِّيَاسِيِّ ، وَتَرَدَّدَ بَيْنَ الشُّعْبَةِ وَبَيْنَ أُمِيَّةٍ . فَأَخَذَ بِعَشْرِ بَعْزَةٍ
بَنَتْ حَمْدَ الضَّمْرِيِّ حَتَّى عَرَفَ بِهَا ، وَكَانَتْ وَقَاتِهِ سَنَةُ ١٠٥ هـ . (٢) السَّانِخُ : مَا أَتَاكَ عَنْ يَمِينِكَ
مِنْ طَيْرٍ أَوْ طَائِرٍ أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ ، وَالْبَارِحُ : مَا أَتَاكَ مِنْ ذَلِكَ عَنْ يَسَارِكَ (٣) لِهَبٌ : قَبِيلَةٌ مِنْ
الْبَلَمِ مَعْرُوفَةٌ بِالْعِيفَةِ وَزَجَرَ الطَّيْرِ . (٤) الزَّجْرُ : ضَرْبٌ مِنَ التَّكْهَنِ ، وَهُوَ الْبَلَمُ وَالتَّقَاؤُمُ بِالطَّيْرِ
وغيرها . (٥) يَبْجَلُ النَّاسَ وَيُظْلِمُونَهُ .

فَالَا تَكُنْ مَاتَ فَقَدْ حَالَ دُونَهَا سِوَاكَ خَلِيلٌ بَاطِنٌ مِنْ بَنِي كَعْبٍ
 ثُمَّ مَدَحَ الرَّجُلَ الْأَزْدِيَّ فَأَصَابَ مِنْهُ خَيْرًا ، ثُمَّ قَدِمَ عَلَيْهَا ، فَوَجَدَهَا قَدْ
 تَزَوَّجَتْ رَجُلًا مِنْ بَنِي عَمِّهَا ، فَأَخَذَهُ الْهَلَّاسُ ^(١) ، فَكَشَحَ ^(٢) جَنْبَاهُ بِالنَّارِ ، فَلَمَّا
 انْدَمَلَ ^(٣) مِنْ عِلَّتِهِ ، وَضَعَ يَدَهُ عَلَى ظَهْرِهِ ؛ فَإِذَا هُوَ بِرَقْمَتَيْنِ ^(٤) ؛ فَقَالَ : مَا هَذَا ؟
 قَالُوا : أَخَذَكَ الْهَلَّاسُ ، وَزَعَمَ الْأَطْبَاءُ أَنَّهُ لَا عِلَاجَ لَكَ إِلَّا بِالْكَشْحِ بِالنَّارِ ،
 فَكَشَحْتَ بِهَا ، فَأَنْشَأَ يَقُولُ :

عَفَا اللَّهُ عَنْ أُمِّ الْخَوَيْرِثِ ذَنْبَهَا عَلَامٌ تُعَنِّيَنِي وَتَكْمِي ^(٥) دَوَائِي ؟
 وَلَوْ آذَنُونِي قَبْلَ أَنْ يَرْقُمُوا بِهَا لَقُلْتُ لَهُمْ : أُمُّ الْخَوَيْرِثِ دَائِيَا

(١) الهلاس : الضمور ، أو مرض السل . (٢) كشح : كوى . (٣) اندمل : برى .
 (٤) المرقوم من الدواب : الذي يكون على أوطفته كيات صفراء ، وكل واحدة منها رقة ، والمراد
 أنه وجد أثر كيتين . (٥) كى القى : ستره وكتمه .

٥٣ — أبو النّشاش ولهب *

كان أبو النّشاش من لُصوص بني تميم ، وكان يعترضُ القوافلَ في شُدَاذٍ ^(١) من العرب بين طريق الحجاز والشام ، فَيَجْتَاكُهَا ، فَظَفِرَ به بعضُ عمال مروان بن الحكم ، فحبسه وقيده مدة ، ثم استطاع أن يهرب في وقت غيرة ، فهرب ، ومرت بغُرَاب على بَانَةٍ ^(٢) ، يَنْتِفُ ريشه وينعَب ، فجزع من ذلك ، ثم مرَّ بحَيٍّ من لَهَب ، فقال لهم : رجل كان في بلاء وشر ، وحَبَس وضيق ، فنجنا من ذلك ، ثم نظر عن يمينه فلم يرَ شيئاً ، ونظر عن يساره فرأى غراباً على شجرة بَانٍ ، ينتف ريشه ، وينعَب ! فقال له اللّهي : إن صدقتِ الطيرُ يُمَادُ إلى حبسه وقيده ، ويطول ذلك به ، ويُقتَل ويُصلب ، فقال له : بِفِيكَ الْحَجَرُ ! قال : لا ، بل بفيك ! وأنشأ يقول :

وسائلة أين الرحيلُ وسائلٍ	وَمَنْ يسأل الصُّلوكَ أينَ مَذَاهِبُهُ ؟
مذاهبه أن الفجاج عريضة	إذا ضَنَّ عنه بالنَّوَالِ أقاربه
إذا المرء لم يَسْرَح ^(٣) سَوا ما ولم يُرَخ	سَوا ما ولم يَبْسُط له الوجهَ صاحبه
فلَمَمْتُ خَيْرٌ للفتى من قعوده	عديماً ومن مَوَلَى تُعَافُ مشاربه
ودَوِيَّة ^(٤) قَفَرٍ يحارُ بها القطا ^(٥)	سَرَتْ بأبي النّشاشِ فيها ركائبه
ليُذْرِكَ ثَاراً أو ليكسب مَفْناً	ألا إن هذا الدهرَ تَتَرَى عجائبه
فلم أرَ مثلَ الفقر ضاجعهُ الفتى	ولا كَسَوادِ اللَّيْلِ أخفقَ طالبه
فَعِشْ مُعْدِماً ^(٦) أو مُتْ كريماً فإنني	أرى الموتَ لا يُبقي على مَنْ يُطَالِبُهُ

* الأغاني : ١١ - ٤٢ ، ديوان الحماسة : ١ - ٣١

- (١) الشداذ : الذين لم يكونوا في حبيهم ومنازلهم . (٢) البان : شجر لحب ثمره دهن طيب
(٣) يقال سرح الماشية سرحاً : أخرجها بالغداة إلى المرعى ، والسوام والسائمة : الإبل أرسلت لترعى ، وأراح الماشية : ردها من العشى إلى مراحها ليلاً . (٤) الدوية : منسوبة إلى الدو وهو الفلاة البعيدة الأطراف . (٥) يضرب المثل بالقطا في الهداية فيقال : أدل من قطاة .
(٦) المعدم : الذي افتقر .

٥٤ - غراب يبشر بموت الحجاج *

قال مُحدِّث : كنتُ في حَبْسِ الحجاج ؛ فحُبِسَ معنَا رجل ، فأقام حينًا لا نسمعهُ يتكلَّمُ بكلمة ، حتى كان اليوم الذي مات الحجاجُ في الليلة التي تليه ، فأقبل غراب في عَشِيَّةِ ذلك اليوم ، فوقع على حائط السجن فنقق ^(١) ، فقال الرجل : وَمَنْ يَقْدِرُ على ما تقدرُ عليه يا غراب ؟ ثم نقى الثانية فقال : مثلكَ مَنْ بَشَّرَ بخير يا غراب ! ثم نقى الثالثة فقال : مِنْ فيكَ إلى السماء يا غراب !

فقلت له : ماسمعناك تكلمتَ منذُ حُبِسْتَ إلى الساعة ، فما دعاك إلى ماقلت ؟ قال : إنه نقى فقال : إني وقعتُ على سِرِّ الحجاج ، فقلت : ومن يقدرُ على ما تقدر عليه ؟ ثم نقى الثانية ، فقال : إن الحجاج أصابه وَجَعٌ ، فقلت : مثلكَ مَنْ بَشَّرَ بخير ! ثم قال في الثالثة : الليلة يموت ! فقلت : مِنْ فيكَ إلى السماء .

ثم قال الرجل : إن أنسلخ ^(٢) الصبحُ قبل أن أخرجَ فليس علىَّ بأسٌ ، وإن دُعيتُ قبل الصبحِ فسُتضَرَّبُ عنقي ، ثم تلبثون ثلاثًا لا يدخلُ عليكم أحدٌ ، ثم يدعى بكم في اليوم الرابع ، فيهتف على رؤوسكم بالكفالة ، فمن وَجَدَ له كفيلاً خلى سبيله ، ومن لم يجدْ له كفيلاً فويلٌ له طويلاً .

فلما دخل الليل سمعنا الصراخَ على الحجاج ، ثم أخرجَ الرجل قبل الصبح ، فضُرِبَ عنقه ، ثم لم يدخل علينا أحدٌ ثلاثًا ، ثم دُعِيَ بنا وطلب منا الكفالة ، ثم صار الأمر إلى ، فكثتُ طويلاً حتى خِفتُ أن أَرَدَّ إلى الحبس ، ثم تقدم رجل فضمنني ، فقلت له : يا عبدَ الله ؛ مَنْ أَنْتَ حتى أشكرَكَ ؟ فقال لي : اذهب ، ولستُ بمسئولٍ عنكَ أبداً ، فانطلقت .

* الفرج بعد الشدة : ١ - ١١٤ .

(١) نقى الغراب : نبَّ وصاح (٢) أنسلخ النهار من الليل : خرج منه خروجاً لا يبقى معه شيء من ضوءه .

٥٥ — صدق الزاجر ^(١) *

كان المنصورُ أرمَ خالدَ بنَ برمكٍ ثلاثةَ آلافِ درهمٍ ، ونذرَ دمه فيها ،
وأجله ثلاثةَ أيامٍ ، فقال خالدٌ ليحيى ابنه : إني قد طُوبتُ بما ليسَ عندي ، وإنما
يُرَادُ بذلكِ دمي ، فانصرفَ إلى أهلِكَ فما كنتُ فاعلاً بعد موتي فافعله ، ثم قال :
يأبني ، ولا يمنعكَ ذلك من أن تَلْقَى إخواننا ، فتُعَلِّمهم حالنا .

قال يحيى : فأتيتُ إخوانَ والدي ، ففهم من جِبَتِي ^(٢) بالرد ، ثم بعثَ إلى
بمالٍ جليلٍ ، ومنهم من لم يأذن لي ، وبعثَ بمالٍ في أثري لكيلا يُخبر
به المنصور .

فدخلتُ على عُمارَةَ ^(٣) بنِ حَمْزَةَ ، وهو متَّجِهٌ بوجهه إلى الحائط ، فسَلَّمتُ
فردَّ رَدًّا ضعيفًا ، فضاقتُ بي الأرضُ ، ثم كَلَّمته فيما كنتُ أتيتُه فيه ، فقال :
إن أمكننا شيءٌ فسيأتيك . فانصرفتُ عنه ، وصِرتُ إلى أبي ، فأعلمته ذلك ،
وقلتُ : أراك تَشْتَقُّ من عُمارَةَ بما لا يُوثَقُ به .

فوالله إني لفي ذلك الحديث ، إذ طلع رسولُ عُمارَةَ بمائة ألفِ درهمٍ ، ورسولُ
صاحبِ المصلى بمائة ألفِ درهمٍ ، ورسولُ مباركِ التركي بمائتي ألفِ درهمٍ ، فجمعنا
في يومين أُلْفَ درهمٍ ، وبقِيَتْ ثلاثمائة ألفِ درهمٍ ، فتعدَّ ذلك ، فوالله إني
لمازَّ بالجسرِ مهمومًا مغمومًا ، إذ وَثَبَ إليَّ زاجرٌ ، فقال : قف أخبرك ، فلم أَلْتَفَت

الحامس والمساوي : ٣٤٩ .

(١) الزجر : العيافة والتكهن (٢) جبهه : رده عن حاجته واستقبله بما يكره (٣) عمارَة
ابن حمزة : من الولاة الأجواد الشعراء جسم له بين ولاية البصرة وفارس والأهواز واليمامة
والبحرين ، وله في السكرم أخبار عجيبة ، وتوفي نحو سنة ١٨٠ هـ .

إليه ، فلحقني وتعلق بي ، فقلت : وَيْحَكَ ! اذهب عني ، فإني مشغولٌ عنك ، فقال : أنت والله مهموم ، والله ليفرجنَّ همك ، ولتترنَّ غدا في هذا الموضع واللواء بين يديك ، فأقبلتُ أعجب من قوله ، فقال لي : إن كان ذلك فلي عليك خمسة آلاف درهم ! قلت : نعم ! ولو قال خمسين ألف درهم لقلت نعم ؛ ليعُد ذلك عني !

ثم مضيتُ ؛ فوالله ما انصرفتُ حتى وردَ على المنصور الخبرُ بانتقاض أمرِ الموصل ، وانتشار الأكراد بها ؛ فقال المنصور : ويحكم ؟ مَنْ لها ؟ - وكان المسيبُ ^(١) بن زهير عند المنصور . وكان صديقاً لخالد - فقال : عندي - والله - مَنْ يكفيكه ، وأنا أعلمُ أنك ستلقاني بما أكره ، ولكني لا أدعُ على حالٍ نُصَحَّكَ ! فقال المنصور : ويحك ! قل ، فلستُ أردُّ عليك . قال : يا أمير المؤمنين ، ما ترميها بمثل خالد ! فقال المنصور : ويحك ! وتراه يصلحُ لنا بعد ما آتيناه به ؟ قال : نعم يا أمير المؤمنين ، وأنا زعيمه بذلك ، والضامن عليه .

فتبسم المنصورُ ، وقال : صدقت . والله ما لها غيره ، فايحضر غداً ! فأحضر ، فصَفَحَ عما بقى عليه ، وعقد له .

قال يحيى : فررنا والله بالزاجر واللواء بين يدي ، فلما رآني قال : أنا ها هنا أنتظرك منذ غدوة .

فتبسمتُ إليه وقلتُ : امض ، فمضى معي ، ودفعتُ إليه خمسة آلاف الدرهم !

(١) كان المسيب بن زهير على شرطة المنصور والمهدي العباسيين ، وتوفى ببغداد سنة ١٧٥ هـ .

٥٦ - علم المأمون وسعة معارفه *

قال جعفر بن محمد الأنماطي :

لما دخل المأمون^(١) بغداد ، وقرَّ بها قرَّارُه ، أمر أن يَدْخُل عليه من الفقهاء والمتكلمين وأهل العلم جماعةٌ يختارهم لمجالسته ومحادثته ، وكان يقعد في صدرِ نهاره على بُبُودٍ في الشتاء وعلى حصيرٍ في الصيف ، ليس معها شيء من سائر الفرُش ، ويقعد للمظالم في كل جمعة مرتين ، لا يمتنعُ منه أحد .

واختيرَ له من الفقهاء لمجالسته مائةُ رجل ، فما زال يختارهم طبقةً بعد طبقة حتى حصلَ منهم عشرة ، كان منهم أحمدُ بن أبي دُواد ، وبشرُ المريسي ، وكنتُ أحدَهم .

فتغديَّنا يوماً عنده ، فظننتُ أنه وضعَ على المائدةِ أكثرَ من ثلثمائةِ لَوْنٍ ، فكلما وُضِعَ لونٌ نظرَ المأمونُ إليه ، فقال : هذا يصلحُ لكذا ، وهذا نافعٌ لكذا ؛ فمن كان منكم صاحبَ بلغمٍ ورطوبةٍ فليجتنب هذا ، ومن كان صاحبَ صفراءٍ فليأكل من هذا ، ومن غلبتْ عليه السَّوداءُ فليأكل من هذا ، ومن أحبَّ الزيادةَ في لحمه فليأكل من هذا ، ومن كان قصدهُ قِلَّةَ الغداءِ فليقتصرْ على هذا .

فوالله إن زالت تلك حاله في كل لونٍ يقدِّم ، حتى رُفِعَتِ الموائد .

فقال له يحيى بن أكرم : يا أمير المؤمنين ؛ إن خُصُّنا في الطب كنتَ جالينوس

* عصر المأمون : ١ - : ٣٦٠ .

(١) هو عبد الله المأمون بن هارون الرشيد ، من أعظم خلفاء بني العباس وعلماهم وحكائهم ، كان وافر الخلق ، عظيم الحلم ، محباً للعلم ، مؤثراً للحكمة ، توفي سنة ٢١٨ هـ .

في معرفته ! أوفى النجوم كنت هرْمِس في حسابهِ ! أو الفقه كنت عليّ بن أبي طالب في علمهِ ! أو ذَكَرْنا السخاء فأنت فوق حاتم في جوده ! أو ذَكَرْنا صدق الحديث كنت أبا ذَرٍّ في صدقِ لهجَتِهِ ! أو الكرم ، كنت كعب بن مامة في إثارة على نفسه !

فسرّ بذلك الكلام ، وقال : يا أبا محمد ؛ إن الإنسان إنما فضّل على غيره من الهوامّ بفعله وعقله وتمييزه ، ولولا ذلك لم يكن لحمٌ أطيبَ من لحم ، ولا دمٌ أطيبَ من دم !

٥٧ — وفود الفارابي على سيف الدولة *

نزل أبو نصر الفارابي ^(١) بدمشق ، ودخل على سيف الدولة ^(٢) بن حِندان ، وهو إذ ذاك سلطانها ، ووقف بين يديه ؛ فقال له سيفُ الدولة : اجلس ! قال : أَجْلِسُ حيث أنا أو حيث أنتَ ؟ فقال : حيث أنت . فتخطى رقابَ الناس حتى انتهى إلى مُسند ^(٣) سيفِ الدولة ، وزاحمه فيه ، حتى أخرجه عنه .

وكان على رأس سيف الدولة ممالكٌ ؛ وله معهم لسانٌ خاص يسأرون به ؛ فقال لهم بذلك اللسان : إن هذا الشيخ قد أساء الأدب ؛ وإنى سأثله عن أشياء ، إن لم يعرفها فاخرجوا به !

فقال له أبو نصر بتلك اللغة : أيها الأمير ؛ اصبر ؛ فإن الأمور بعواقبها . فعجب سيفُ الدولة منه ، وعظمُ عنده .

ثم أخذ يتكلم مع العلماء والحاضرين في كل فن ، فلم يزل كلامه يعلو وكلامهم يسفل ، حتى صمتوا ، وبقي يتكلم وحده .

ثم أخذوا يكتبون ما يقول ؛ فصرفهم سيفُ الدولة ، وخلا به ، فقال له :

* ثمرات الأوراق للحموي : ٩٧

(١) نشأ الفارابي بالشام واشتغل فيها ، وكان فيلسوفا كاملا ، بارعا في كل فن ، وألف كتباً كثيرة في مواضع لم يسبقه إليها أحد ، توفي سنة ٣٣٩ هـ . (٢) سيف الدولة : هو علي بن عبد الله ، صاحب التنبئ وممدوحه . وهو أول من ملك حلب من بني حِندان ، توفي سنة ٣٥٦ هـ . (٣) كل شيء أسندت إليه شيئا فهو مسند بالضم ؛ وكذلك ما يسند إليه يسمى مسندا بكسر الميم .

هل لك في أن تأكل؟ قال : لا ؛ قال : فهل لك أن تشرب ؟ قال : لا . فقال :
هل تسمع ؟ قال : نعم .

فأمر سيفُ الدولة بإحضار القِيَّان ، فحضر كلُّ ماهر في الصَّنعة ، فخطَّ الجميع ،
فقال له سيفُ الدولة : هل تحسنُ هذه الصنعة ؟ قال : نعم .

ثم أخرج من وسطه خريطة ^(١) ففتحها ، فأخرج منها عيداناً ورَّكبها ، ثم
لعب بها ؛ فضحك كلُّ من في المجلس ؛ ثم فكَّها ورَّكبها تركيباً آخر ؛ فبكى
كلُّ من في المجلس ؛ ثم فكَّها وغير تركيبها ، فنام كلُّ من في المجلس ، فتركهم
نياماً وخرج !

(١) الخريطة : مثل الكيس تكون من الخرق والأدم تشد على ما فيها بالمرأ .

البَابُ الرَّابِعُ

في القصص التي يُرى بها ما كانوا يتغنّون به من
المكازم والمفاخر ، وما كانوا يتذممون به من المناقص
والمعرّات ، سواء أكان ذلك فيما يتعلق بكل منهم في
نفسه أم فيما يتصل بالأقرين من ذويه ، أم فيما يضم
أهل قبيلته ؛ أم فيما يشمل الناس جميعا .

٥٨ - سبق السيفُ العزَلُ*

كان للنعمان بن ثواب العبدى بنون ثلاثة : سعد وسعيد وساعدة ، وكان ذا شرف وحكمة ، يوصى بنيه ، ويحملهم على أدبه .

أما ابنه سعد فكان شجاعاً بطلاً من شياطين العرب ، لم تفتنه طلبته قط ، ولم يفرّ عن قرن .

وأما سعيد فكان يُشبه أباه في شرفه وسودده .

وأما ساعدة فكان صاحب شراب وندامى^(١) وإخوان .

فلما رأى الشيخُ حال بنيه دعا سعداً - وكان صاحب حرب - فقال : يا بُنى ، إن الصارمَ ينبؤ ، والجوادَ يكبو ، والأثرُ يعفو ، فإذا شهدت حرباً ، فرأيتَ نارها تستعر ، وبطلها يخطر ، وبحرها يزخر ، وضعيفها يُنصر ، وجبانها يحسر ، فأقلل المسكَّ والانتظار ، فإن الفرار غيرُ عار إذا لم تكن طالب ثار ، وإياك أن تكون صيد رماحها ، ونطيحَ نطاحها .

وقال لابنه سعيد - وكان جواداً - : يا بُنى ؛ لا يبخل الجواد ، فابذل الطارفَ والتلاد^(٢) ، وأقللِ التلاح^(٣) ، تذكّر عند السماح ، وابلُ إخوانك ، فإنّ وفيهم قليل ، واصنع المعروفَ عند مُحتمله .

* الأمثال : ١ - ٦٤ .

(١) جمع فدمان ، وهو النديم الذى يرافقك ويشاركك (٢) الطارف من المال : المستحدث وهو ضد التلاد (٣) التلاحى : التقاتم .

وقال لابنه ساعدة - وكان صاحبَ شراب - يا بُنَيَّ ، إن كثرةَ الشراب تفسدُ القلب ، وتقللُ الكسبَ ؛ فأبصرَ نديمك ، واحمِ حريمك ، وأعِن غريمك ، واعلم أن الظمأَ القامح^(١) خيرٌ من الرّىِّ الفاضح ، وعليك بالقصدِ فإنَّ فيه بلاغاً .

ثم إن أباهم النعمان بن ثواب توفي ، فقال ابنه سعيدٌ - وكان جواداً سيّداً :
لَا خُذَنَّ بوصيةَ أبى ، وَلَا بُلُوَنَّ إخوانى وثِقَاتى .

فعمد إلى كبش فذبحه ، ثم وضعه في ناحية من خبائه وغشاه ثوباً ، ثم دعا بعض ثِقَاتِه ، فقال : يا فلان ، إن أخاك من وفى لك بعهدِهِ ، وحاطك بِرِفْدِهِ ، ونصرَكَ بِوُدِهِ . قال : صدقت ! فهل حَدَّثَ أمرٌ ؟ قال : نعم ! إني قتلْتُ فلاناً - وهو الذى تراه في ناحية الخُبَاء - ولا بدَّ من التعاون عليه ، حتى يُوارى ! فما عندك ؟

قال : يا لَهَا سَوْءَةٌ وقعتَ فيها ! قال : فإنى أريدُ أن تُعِيننى عليه حتى أُغَيِّبَهُ ! قال : لستُ لك في هذا بصاحب ! وتركه وخرج . فبعث إلى آخرَ من ثِقَلَتِهِ ، فأخبره بذلك ، وسأله معونته فردَّ عليه مثل ذلك ! حتى بعث إلى عدد منهم ، كُلُّهُمْ يردُّ عليه مثلَ جوابِ الأول .

ثم بعثَ إلى رجلٍ من إخوانه يقال له خُزَيْم بن نَوْفَل ، فلما أتاه ، قال له : يا خُزَيْم ، مالى عندك ؟ قال : ما يَسْرُكُ ، وما ذاك ؟ قال : إني قتلْتُ فلاناً ، وهو

(١) الظمأُ القامح : الشديد ، والمعنى : العطش الشاق خير من رى يفضح صاحبه (اللسان ، مادة قح) .

الذى تراه مُسَجَّى ! قال : أيسرُ خطب ! فتريدُ ماذا ؟ قال : أريد أن تُعيننى حتى أغيبه ! قال : هانَ ما فزعتَ فيه إلى أخيك !

وكان غلامٌ لسعيد قائماً بينهما ، فقال خُزيم : هل اطلعَ على هذا الأمر أحدٌ غير غلامك هذا ؟ قال : لا ! قال : انظر ما تقول ! قال : ما قلت إلا حقاً . فأهوى خُزيم إلى غلامه ، فضربه بالسيف فقتله ، وقال : ليس عبدٌ بأخٍ^(١) لك .

فارتاع سعيد ، وفزع لقتل غلامه ، وقال : ويحك ! ما صنعت ! وجعل يلومه . فقال خُزيم : إن أخاك من وآسأك^(١) !

قال سعيد : فإنى أردتُ تجربتك ! ثم كشفَ له عن الكبش ، وخبره بما لقي من إخوانه وثقاته ، وما ردّوا به عليه ، فقال خُزيم : سَبَقَ^(١) السيفُ العذل^(٢) !

(١) ذُبحَت أمثالا (٢) العذل : اللوم ، ويضرب لما قد فات .

٥٩ — إِيثارُ ابْنِ مَأمَةِ الإِيادِي *

خرج كعب^(١) بن مَأمَةِ الإِيادِي في قَفَلٍ^(٢) معهم رجلٌ من بني النَّمْرِ بن قاسط ، وكان ذلك في حرِّ الصيف ، فضلوا وشحَّ ماؤهم ، فكانوا يَتَصَافَتُونَ^(٣) الماء — وذلك أن يُطَرَّحَ في القعب^(٤) حَصَاةٌ ، ثم يُصَبَّ فيه من الماء بِقَدَرٍ ما يَفْعَرُ الحِصَاةُ ؛ فيشرب كلُّ واحدٍ منهم قَدَرًا ما يشربُ الآخر .

ولما نزلوا للشُّرب ، ودَارَ القعب بينهم ، حتى انتهى إلى كعب ، رأى الرجلَ النَّمْرِيَّ يُحَدِّثُ النَّظَرَ إليه ، فأثَره بمائه على نفسه ، وقال للساقي : اسق أخاك النَّمْرِيَّ ، فشرب النَّمْرِيَّ نصيبَ كعب من الماء ذلك اليوم !

ثم نزلوا من الغد منزلهم الآخر ، فتصافنوا بقيةَ ما معهم ؛ فنظر إليه كَنظَرَهُ أَمْسَ وقال كعب كقولهِ أَمْسَ ، وارتحل القوم ، وقالوا : يا كعب ، ارتحل ، فلم يكن له قوة للنهوض ، وكانوا قد قربوا من الماء ، فقالوا له : رِدْ يا كعبُ ، إنك وارد ، فعجز عن الجواب . ولما أيسوا^(٥) منه خيموا عليه بثوبٍ يمنعه من السبع أن يأكله وتركوه مكانه ، فأت ونجا رفيقهُ !

* بلوغ الأرب : ١ - ٨١ ، المحاسن والمساوي : ٢٠٥ - طبعة ليزج ، الأمثال : ١ - ١٦٧ .
(١) هو كعب بن مَأمَةِ بن عمر بن ثعلبة الإِيادِي ، الذي يضرب المثل ببجوده ، وكان أبوه ملكًا لإِياد
(٢) القفل (بفتح الفاء) : اسم جمع القافل ، أي راجع (٣) تصافنوا الماء : اقتسموه بالخصم
(٤) القعب : القدح يروى الرجل (٥) يئسوا .

٦٠ — وفاء السمّوئل *

لما أراد امرؤ القيس المضيّ إلى قيصر ملك الروم ، أودع عند السمّوئل ^(١) دروعا وسلاحا وأمتعة ، تساوى جملة كثيرة ؛ فلما مات امرؤ القيس أرسل ملك كندة يطلب الدروع والأسلحة المودعة عند السمّوئل ، فقال السمّوئل : لا أدفعها إلا إلى مستحقّها ، وأبى أن يدفع إليه منها شيئا ؛ فعاوده ، فأبى ؛ وقال : لا أغدر بدمتي ، ولا أخون أمانتي ، ولا أترك الوفاء الواجب عليّ .

فقصده ذلك الملك من كندة بعسكره ، فدخل السمّوئل في حصنه ^(٢) ، وامتنع به ، فحاصره ذلك الملك . وكان ولد السمّوئل خارج الحصن ، فظفر به الملك ، وأخذه أسيرا ، ثم طاف حول الحصن ، وصاح بالسمّوئل ، فأشرف عليه من أعلى الحصن ، فلما رآه قال له : إن ولدك قد أمرته ، وهو ذا معي ، فإن سلمت إلى الدروع والسلاح رحلت عنك ، وسلمت إليك ولدك ، وإن امتنعت من ذلك ذبحت ولدك وأنت تنظر ! فاختر أيهما شئت .

* المستطرف : ١ - ٢٠١ ، الغرر : ١٩ ، بلوغ الأرب : ١ - ١٣٦

(١) هو السمّوئل بن غريش بن عاديّ شاعر جاهليّ حكيم أشعر شعره لامبته التي مطلعها :
إذا المرء لم يدنس من اللؤم عرضه فكل رداء يرتديه جميل
ويضرب المثل بوفائه . توفي نحو سنة ٦٥ ق . هـ . (٢) هذا الحصن يسمى الأبلق الفرد ، وقد بناه أبوه بنياء وفيه يقول السمّوئل :

لنا جبل يحتله من نجيده	منيع يرد الطرف وهو كليل
هو الأبلق الفرد الذي شاع ذكره	يعز علي من رامه ويطول
رسا أصله تحت الثرى وسما به	إلى النجم فرع لا ينال طويل

فقال له السموءل : ما كنت لأخفِرَ ذِمَامِي ^(١) ، وأبطل وفائي ؛ فاصنع ما شئت ! فذبح ولده ، وهو ينظر . ثم لما عجز عن الحصن رجع خائباً ، واحتسب السموءلُ ذُبِحَ ولده ، وصبر محافظاً على وفائه ؛ فلما جاء الموسم وحضر ورثته امرئ القيس ، سلم إليهم الدروع والسلاح ، ورأى حفظَ ذِمَامِهِ ، ورعايةَ وفائه أحبَّ إليه من حياة ولده وبقائه ! وقال في ذلك :

وفيتُ بأدرُعِ الكِنْدِيِّ إني إذا ما خُـاَنَ أقوامٌ وفيتُ

٦١ — لا حُرَّ بَوَادِي عَوْفٍ *

لما مات لَيْثُ بن مالك أخذت بنو عبس فرسه وسلبه ^(٢) ثم مالوا إلى خبيثاته فأخذوا أهله ، وسلبوا امرأته مُخَامَةَ بنتَ عَوْفِ بن مُحَلِّم ، وكان الذي أصابها عمرو بن قارب وذؤاب بن أسماء ؛ فسألها مروان ^(٣) القُرَظُ بن زُبَاع : من أنت ؟ فقالت : أنا مُخَامَةُ بنت عوف بن محلم ، فانتزعها من عمرو وذؤاب ، لأنه كان رئيسَ القوم ، وقال لها : غطّي وجهك ، والله لا ينظر إليه عربيٌّ حتى أردّك إلى أبيك ، وضمّها إلى أهله ! حتى إذا دخل الشهرُ الحرام أحسنَ كُسوتها وأخدمها وأكرمها وحملها إلى عُكَاظ .

فلما انتهى بها إلى منازل بني شَيْبَانَ قال لها : هل تعرفين منازل قومك و منزل

* الأمثال : ٢ - ٢٩٩ ، بلوغ الأرب : ١ - ١٢٥

(١) أخفر النمة : إذا لم يف بالمهد (٢) السلب : ما يأخذه أحد القرين في الحرب من قرنه مما يكون معه وعليه من سلاح ودابة (٣) سمي مروان القرظ : لأنه كان يغزو اليمن وهي منابت القرظ ، ويضرب به المثل في العز ، فيقال : أعز من مروان القرظ .

أبيك ؟ فقالت : هذه منازلُ قومي ، وهذه قُبَّةُ أبي ! قال : فانطلقى إلى أبيك ؛ فانطلقت فخبَّرت بصنيع مروان .

ثم إن مروان غزا بكر بن وائل فقصوا أثرَ جيشه ؛ فأسره رجلٌ منهم ، وهو لا يعرفه ، فأتى به أمه ، فلما دخل عليها قالت له أمه : إنك لتختالُ بأسيرك كأنك جئتَ بمروان القرظ ! فقال لها : وما ترَ تجين من مروان ؟ قالت : عِظَمَ فِدائِهِ . قال : وكم ترَ تجين من فِدائِهِ ؟ قالت : مائةَ بَعير ! قال مروان : ذلك لكِ على أن تؤدِينى إلى حُماعة بنت عوف بن محم !

فَمَضَتْ به إلى عوف^(١) بن محم ، فبعث إليه عمرو ابن هند أن يأتِيه به . وكان عمرو وَجَدَ^(٢) على مروان فى أمر ، فَآلَى أَلَّا يَمْفُو عَنْهُ حَتَّى يَضَعَ يَدَهُ فِي يَدِهِ ؛ فَقَالَ عوف - حين جاءه الرسول : قد أجارته ابنتى ! وليس إليه سبيل ، فقال عمرو بن هند : قد آليتُ أَلَّا أَعْفُو عَنْهُ أَوْ يَضَعَ يَدَهُ فِي يَدِي . قال عوف : يضع يَدَهُ فِي يَدِكَ على أن تكون يدي بينهما ! فأجابه عمرو ابن هند إلى ذلك .

فجاء عوف بمروان فأدخله عليه ، فوضع يده فى يده ، ووضع يده بينهما ، فعفا عنه . وقال عمرو : لا حرَّ بوادى^(٣) عوف .

(١) من أشرف العرب فى الجاهلية ، كان مطاعا فى قومه ، قويا فى عصبيته ، وكانت تضرب له قبة فى عكاظ ، توفى نحو سنة ٤٥ ق . هـ . (٢) وجد : غضب . (٣) أى لاسيد به يناوئه .

٦٢ — مروة حاتم*

كان عَبْدُ قَيْسِ بْنِ خَفَافِ الْبَرْجِيِّ أَتَى حَاتِمَ طِيٍّ^(١) فِي دِمَاءِ حَمَلِهَا عَنْ قَوْمِهِ ، فَأَسْلَمُوهُ فِيهَا ، وَعَجَزَ عَنْهَا ؛ فَقَالَ : وَاللَّهِ لَا تَبْنَى مِنْ يَحْمِلُهَا عَنِي ، وَكَانَ شَرِيفًا شَاعِرًا شُجَاعًا .

فَلَمَّا قَدِمَ عَلَيْهِ قَالَ : إِنَّهُ وَقَعْتُ بَيْنِي وَبَيْنَ قَوْمِي دِمَاءَ فَتَوَا كَلُّوْهَا^(٢) ، وَإِنِّي حَمَلْتُهَا فِي مَالِي وَأَهْلِي ، فَقَدِمْتُ مَالِي وَأَخْرَجْتُ أَهْلِي ، وَكُنْتُ أُمْلَى ، فَإِنْ تَحَمَّلْتَهَا فَرُبَّ حَقٍّ قَدْ قَضَيْتَهُ ، وَهَمٍّ قَدْ كَفَيْتَهُ ، وَإِنْ حَالَ دُونَ ذَلِكَ حَائِلٌ لَمْ أَذْمُ يَوْمَكَ ، وَلَمْ أَبْأَسْ مِنْ غَدِكَ ، ثُمَّ أَنْشَأَ يَقُولُ :

حَمَلْتُ دِمَاءَ الْبَرَّاجِمِ جَمَّةً	فَجِئْتُكَ لَمَّا أَسْلَعْتَنِي الْبَرَّاجِمُ ^(٣)
وَقَالُوا سَفَاهًا : لِمَ حَمَلْتَ دِمَاءَنَا	فَقُلْتُ لَهُمْ : يَكْفِي الْجَمَالَةَ حَاتِمُ
مَتَى آتَاهُ فِيهَا يَقْلُ إِلَى مَرُحَبًا	وَأَهْلًا وَسَهْلًا أَخْطَأْتُكَ الْأَشَائِمُ ^(٤)
فِيحْمِلُهَا عَنِي ، وَإِنْ شَتُّ زَادَنِي	زِيَادَةً مَنْ حَلَّتْ عَلَيْهِ الْمَكَارِمُ
يَعِيشُ النَّدَى مَا عَاشَ حَاتِمُ طِيٍّ	فَإِنْ مَاتَ قَامَتْ لِلِسَخَاءِ مَا تَمُ
يُنَادِينَ مَاتَ الْجُودُ مَعَكَ فَلَا تَرَى	مُجْبِيًا لَهُ مَا حَامَ فِي الْجَوِّ حَاتِمُ
وَقَالَ رَجَالٌ : أَنَهَبَ الْعَامَ مَالَهُ	فَقُلْتُ لَهُمْ : إِنِّي بِذَلِكَ عَالِمُ

* الْأَغَانِي : ٨ — ٢٤٦ ، ذِيلُ الْأُمَالِي : ٢٢ ، السَّمْتُ : ١٢

(١) هُوَ حَاتِمُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَعْدِ الطَّائِيٍّ مِنْ أَشْهُرِ أَجْوَادِ الْعَرَبِ فِي الْجَاهِلِيَّةِ ، مَاتَ نَحْوَ سَنَةِ ٤٥ ق . هـ (٢) تَوَاكَلُوا : اَتَكَلَّ بِضَعْفٍ عَلَى بَعْضٍ (٣) أَسْلَمَهُ : خَذَلَهُ ، وَالْبَرَّاجِمُ : قَوْمٌ مِنْ أَوْلَادِ حَنْظَلَةَ بْنِ مَالِكٍ (٤) الْأَشَائِمُ : ضِدُّ الْيَأْمَنِ .

ولكنه يُعْطَى مِنْ أَمْوَالٍ طَيِّبَةٍ إِذَا جَلَّفَ ^(١) الْمَالَ الْحَقُوقُ الْوِازِمُ
 فَيُعْطَى الَّتِي فِيهَا الْغَنَى وَكَأَنَّهُ لَتَصْغِيرُهُ تِلْكَ الْعَطِيَّةَ جَارِمٌ ^(٢)
 بِذَلِكَ أَوْصَاهُ عَدِيٌّ وَحْشَرَجٌ وَسَعْدٌ وَعَبَدَ اللَّهُ تِلْكَ الْقِمَاقِمَ ^(٣)
 فَقَالَ لَهُ حَاتِمٌ: إِنِّي كُنْتُ لِأَحِبُّ أَنْ يَأْتِيَنِي مِثْلُكَ مِنْ قَوْمِكَ، هَذَا مِنْ بَاغِي ^(٤)
 مِنَ الْغَارَةِ عَلَى بَنِي تَمِيمٍ فَخُذْهُ وَافِرًا ؛ فَإِنْ وَفَى بِالْحِمَالَةِ ، وَإِلَّا أَكْمَلْتُهَا لَكَ ، وَهُوَ
 مَائِثًا بَعِيرٌ سَوَى نَيْبِهَا وَفِصَالُهَا ، مَعَ أَنِّي لَا أَحِبُّ أَنْ تَوْبَسَ ^(٥) قَوْمُكَ بِأَمْوَالِهِمْ .
 فَضَحِكَ أَبُو جُبَيْلٍ ، وَقَالَ : أَيْ بَعِيرٍ دَفَعْتَهُ إِلَيَّ ، وَلَيْسَ ذَنْبُهُ فِي يَدِ صَاحِبِهِ
 فَأَنْتَ مِنْهُ بَرِيءٌ ، فَدَفَعَهَا إِلَيْهِ وَزَادَهُ مَائَةً بَعِيرٍ ، فَأَخَذَهَا وَانْصَرَفَ رَاجِعًا إِلَى قَوْمِهِ ؛
 فَقَالَ حَاتِمٌ فِي ذَلِكَ :

أَتَانِي الْبُرْجُمِيُّ أَبُو جُبَيْلٍ لَهْمٌ فِي حِمَالَتِهِ طَوِيلٍ
 فَقُلْتُ لَهُ : خُذِ الْمِرْبَاعَ مِنْهَا فَإِنِّي لَسْتُ أَرْضَى بِالْقَلِيلِ
 عَلَى حَالٍ وَلَا عَوْدَتُ نَفْسِي عَلَى عِلَاتِهَا عِلَلُ الْبَخِيلِ
 فَخُذْهَا إِنَّمَا مَائِثًا بَعِيرٍ سَوَى النَّابِ الرَّذِيَّةِ ^(٦) وَالْفَصِيلِ ^(٧)
 فَلَا مَنْ عَلَيْكَ بِهَا ، فَإِنِّي رَأَيْتُ الْمَنَّانَ يُزِيرِي بِالْجَمِيلِ
 فَآبَ الْبُرْجُمِيُّ وَمَا عَلَيْهِ مِنْ أَعْبَاءِ الْحِمَالَةِ مِنْ قَتِيلِ
 يَجْرُ الذَّلِيلُ يَنْفُضُ ^(٨) مَذْرَوِيهِ خَفِيفَ الظَّهْرِ مِنْ حِمْلٍ ثَقِيلٍ !

(١) جلف : ذهب به واستأمله (٢) جارم : مذنب (٣) القماقم : جمع ققام وهو السيد العظيم ، وهؤلاء الذين وردوا في البيت هم أجداد حاتم (٤) المرباع : ما يأخذه الرئيس من الفريضة خاصة دون أصحابها وهو ربع الفريضة (٥) توبس : تروع (٦) الرذية : الهزيلة الضعيفة (٧) الفصيل : ولد الناقة إذا فصل عن أمه (٨) قال في القاموس : جاء ينفض مذكروه : باغياً متهدداً ، والمذكرون : ناحيتا الرأس مثل الفودين ، ثم استعير للمنكبين والإيتين والطرفين

٦٣ - مأوية تتحدث عن كرم حاتم*

قالت مأوية امرأة حاتم :

أصابنا سنة اقشعرت لها الأرض ، واغبر أفق السماء ، وراحت الإبل
حذبا حذابير^(١) ، وضنت المراضع على أولادها ، فسا تبض^(٢) بقطرة ،
وحلقت^(٣) السنة المال ، وأيقنا بالهلاك . فوالله إنا لنى ليلة صئبر^(٤) ، بعيدة
ما بين الطرفين ، إذ تضاعى^(٥) صبيتنا جوعاً : عبد الله ، وعدى ، وسفانة . فقام
حاتم إلى الصبيين ، وقت أنا إلى الصبية . وأقبل يعلنى بالحديث ؛ فعرفت
ما يريد ، فتناومت .

فلما تهورت^(٦) النجوم ، إذا شىء قد رفع كمر البيت^(٧) ثم عاد . فقال
حاتم : من هذا ؟ قالت : جارتك فلانة ، أتيتك من عند صبية يتعاونون غواء
الذئاب ، فما وجدت مؤولا إلا عليك يا أبا عدى . فقال : أعجلهم ، فقد
أشبعك الله وإياهم !

فأقبلت المرأة تحمل اثنين ، ويمشى بجانبها أربعة ، كأنها نعمة حولها
رئالها^(٨) .

فقام حاتم إلى فرسه فوجأ^(٩) كلبته بمذية فخر ، ثم كشطه عن جلده ، ودفع

* العقد الفريد : ١ - ١٠٨ ، أمثال الميداني : ١ - ١٢٣ .

(١) الحذب : جمع أحذب وهو صفة للجمال عند الجوع ، والحداير : جمع حداير وهي الناقة الضامرة
(٢) تبض : تسيل قليلا قليلا (٣) أى أهلكته واستأصلته كما تستأصل موسى الشعر (٤) صبر :
باردة (٥) تضاعوا : تضاعوا (٦) تهورت : انحدرت إلى الغرب (٧) الكسر : الشقة
السفلى من الحباء (٨) الرئال : أولاد النعام . (٩) وجأ : طعن

(م ١١ قصص - أول)

المدينة إلى المرأة ، فقال لها : شأنك ! فاجتمعنا على اللحم نَشْوَى ونأكل . ثم جعل
يمشي في الحى يأتهم بيتاً بيتاً ، فيقول : هُبُّوا أيُّها القوم ، عليكم بالنار ! فاجتمعوا
والتَفَعَ في ثوبه ، وجلس في ناحية ينظر إلينا . فوالله إن ذَاقَ منه مُزْعَةً^(١) ، وإنه
أحوجُ إليه منا ! فأصبحنا وما على ظَهْرِ الأرض من الفرس إلا عَظْمٌ وحافر ؛
فانشأ حاتم يقول :

مهلاً نَوَارُ^(٢) أَقْلَى اللومِ والمذلاً ولا تَقُولِي لشيءٍ فَاتَ : ما فعلاً
ولا تَقُولِي لِمَالٍ كُنْتُ مُهْلِكُهُ مهلاً وإن كُنْتُ أُعْطِيَ الْإِنْسَ وَالْحَبْلَ^(٣)
يرى البخيلُ سَبِيلَ الْمَالِ واحدةً إنَّ الْجَوَادَ يَرَى فِي مَالِهِ سُبُلًا

(١) المَزْعَةُ : القطعة من اللحم ، وإن نافية ، بمعنى ما .

(٢) هى امرأة حاتم . (٣) الحبل : الجن .

٦٤ — بين حاتم وماوية*

لما تزوج حاتم ماوية ، وكانت من أحسن النساء ؛ لبثت عنده زمناً ؛ ثم إن ابن عم له - يقال له مالك - قال لماوية :

ما تصنعين بحاتم ؟ فوالله لئن وجدَ شيئاً لِيَتَلَفَنَّهُ ، ولئن لم يجدْ لِيَتَسَكَّلَنَّهُ ، ولئن مات لِيَتَرَكََنَّ وَلَدَةً عِيَالاً على قومه ؛ طَلَّقَ حاتماً وأنا أَتَزَوَّجُ بك ، فأنا خيرٌ لكِ منه وأكثرُ مالاً ، وأنا أُمسِكُ عليكِ وعلى ولدك . فقالت ماوية : صدقت ، إنه كذلك ، فلم يزل بها حتى طلقت حاتماً .

وكانت النساءُ أو بعضهنَّ يطلِّقنَ الرجالَ في الجاهلية ، وكان طلاقهنَّ أنهنَّ يحوِّلنَّ أبوابَ بيوتهنَّ ، إن كان البابُ إلى المشرقِ جعلنَّه إلى المغربِ ؛ وإن كان البابُ قبلَ المينِ جعلنَّه قبلَ الشامِ ؛ فإذا رأى ذلك الرجلُ علم أنها قد طَلَّقَتْه .

فأتى حاتمٌ فوجدها قد حوَّلتْ بابَ الخباءِ ، فقال لابنه : يا عدى ، ما ترى أمك ؟ ما عدا عليها ؟ قال : لا أدري ! غير أنها غيَّرتْ بابَ الخباءِ - وكأنَّه لم يَلْحَنَ^(١) لِمَا قال ؛ فدعاه فهبَّط به بطنَ واد .

وجاء قومٌ فنزلوا على بابِ الخباءِ ، كما كانوا ينزلون فتوافى خمسون رجلاً ، فضاقت بهم ماوية ذرعاً ؛ فقالت لجاريتهما : اذهبي إلى مالك ، فقولِي له : إن أضيافاً لحاتم قد نزلوا بنا وهم خمسون رجلاً ، فأرْسِلِ إلينا بنابٍ نقرهم ولَبَنٍ نَغْبِقُهُمْ^(٢) .

* ذيل الأملال : ١٥٣ .

(١) لم يلحن : لم يفتن . (٢) الغبوق : الشرب بالعشي ، وغبقه : سقاه إياه في هذا الوقت .

وقالت لجارتها : انظري إلى جبينه وفيه ، فإن شافهك بالمعروف فاقبلي منه ؛ وإن ضرب بلحيته ^(١) على زوره ؛ فارجمي ودعيه .

فلما أتت مالكا وجدته متوسدا وطبا ^(٢) من لبن ، فأيقظته وأبلغته الرسالة ؛ وقالت : إنما هي الليلة حتى يعلم الناس مكانك ؛ فأدخل يده في رأسه ، وضرب بلحيته على زوره ، وقال لها : أقرئي عليها السلام ، وقولي لها : هذا الذي أمرتك أن تطلقي حاتما من أجله ، فما عندي من كبيرة قد تركت العمل ، وما كنت لأنحر صفيّة ^(٣) غزيرة بشحم كلالها ، وما عندي لبن يكفي أضياف حاتم !

فرجعت الجارية فأخبرتها بما رأت منه ، وأعلمتها بمقالته ؛ فقالت لها : ويحك ! ائتي حاتما فقولى له : إن أضيافك قد نزلوا الليلة بنا ، ولم يعلموا بمكانك ، فأرسل إلينا بناب ننحرها ونقرم ، وبلبن نسقم ، فإنما هي الليلة حتى يعرفوا مكانك .

فأتت الجارية حاتما فصرخت به . فقال حاتم : لبيك قريبا دعوت ! فقالت : إن ماوية تقرأ عليك السلام ؛ وتقول لك : إن أضيافك قد نزلوا بنا الليلة ، فأرسل إليهم بناب ننحرها لهم ولبن نسقم . فقال : نعم وأبى ! ثم قام إلى الإبل فأطلق ثنيتين ^(٤) من عقاليهما ، ثم صاح بهما حتى أتى الخباء ، فضرب عراقيبهما ^(٥) ، فطفت ماوية تصبح وتقول : هذا الذي طلقك فيه ! ترك ولدك وليس لهم شيء !

(١) اللحي : منبت اللحية ، وما لحيان . (٢) الوطب : سقاء اللبن ، وهو من جلد .
(٣) الصفيّة : الناقة الغزيرة . (٤) الثنية : الناقة الطاعنة في السادسة . (٥) العرقوب من الدابة في رجلها بمنزلة الركبة في يدها .

٦٥ — مروءة ووفاء *

خرج النعمان^(١) بن المنذر يوماً يتصيد على فرسه اليعموم^(٢) ، فأجراه على أثر غير^(٣) ؛ فذهب به الفرس في الأرض ، ولم يقدر عليه ، وانفرد عن أصحابه ، وأخذته السماء^(٤) ؛ فطلب ملجأ يلجأ إليه ، فدفع إلى بناء ، فإذا فيه رجل من طيِّ يقال له حنظلة ، ومعه امرأة له ؛ فقال لها : هل من مأوى ؟ فقال حنظلة : نعم ! وخرج إليه ، فأترله ، ولم يكن للطائي غير شاة ، وهو لا يعرف النعمان ؛ فقال لامرأته : أرى رجلاً ذا هيئة ، وما أخلفه أن يكون شريفاً خطيراً ، فما الحيلة ؟ قالت : عندي شيء من طحين كنت أدخرته ، فأذبح الشاة لأتخذ من الطحين خبز ملة^(٥) .

وأخرجت المرأة الدقيق ، فخبزت منه ، وقام الطائي إلى شاته فاحتلبها ، ثم ذبحها ؛ فأتخذ من لحمها مرقاة مضيئة^(٦) ، وأطعمه من لحمها ، وسقاه من لبنها ، واحتال حتى وجدله شرباً فسقاه ، وجعل يحدّثه بقية ليلته .

فلما أصبح النعمان لبس ثيابه ، وركب فرسه ، ثم قال : يا أخا طيِّ ؛ اطلب ثوابك ، أنا الملك النعمان ! قال : أفعل إن شاء الله .

* أمثال الميداني : ١ - ١٤٦ ، المستطرف : ١ - ١٩٩ ، الأغاني : ١٩ - ٨٨ ، معجم البلدان : ٦ - ٢٨٥ ، المحاسن والأضداد : ٥٨ ، بلوغ الأرب : ١ - ١٢٧ ، المحاسن والمساوي : ١١٧ ، طبعة ليزج .

(١) من ملوك الحيرة ، تولى الملك بعد عمرو بن هند ، ويكنى أبا قابوس ، وهو ممدوح النابغة الذبياني ، وحسان بن ثابت ، وحاتم الطائي ؛ ومات نحو سنة ٨ ق . هـ (٢) اليعموم : الأسود وهو اسم فرس كان للنعمان (٣) العير : الحمار الوحشي (٤) المطر (٥) الملة : الرماد الحار . وخبز الملة : ما يصنع فيها . (٦) المضيئة : أن يطبخ اللحم باللبن البحت الصريح حتى ينضج اللحم وتختل المضيئة .

ثم لحق الخيل ، فمضى نحو الحيرة ، ومكث الطائي بعد ذلك زماناً حتى أصابته نكبة وجهد ، وساءت حاله ؛ فقالت له امرأته : لو أتيت الملك لأحسن إليك ؟ فأقبل حتى انتهى إلى الحيرة ، فوافق يوم بُوس النعمان ، فإذا هو واقف في خيله في السلاح .

فلما نظر إليه النعمان عرفه ، وساءه مكانه ، فوقف الطائي — المنزول به — بين يدي النعمان ، فقال له : أنت الطائي المنزول به ؟ قال : نعم . قال : أفلا جئت في غير هذا اليوم ! قال : أبيت اللعن ! وما كان علي بهذا اليوم ؟ قال : والله لو سَنَح لي في هذا اليوم قابوس ^(١) لم أجد بداً من قتله ، فاطلب حاجتك من الدنيا ، وسل ما بدا لك فإنك مقتول ! قال : أبيت اللعن ! وما أصنع بالدنيا بعد نفسي ؟ قال النعمان : إنه لا سبيل إليها . قال : فإن كان لا بد فأجّلني حتى أَلِمَّ بأهلي ، فأوصي إليهم ، وأهبيّ حالهم ، ثم انصرف إليك . قال النعمان : فأقم لي كفيلاً بموافاتك . فالتفت الطائي إلى شريك ^(٢) بن عمرو ، وهو واقف بجانب النعمان ، فقال له :

يَا شَرِيكَ يَا بَنَ عَمْرٍو هَلْ مِنَ الْمَوْتِ مَحَالَةٌ ^(٣)
يَا أَخَا كُلِّ مُصْأَبٍ يَا أَخَا مَنْ لَا أَخَا لَهُ
يَا أَخَا النِّعَمَانِ فُكِّ السَّيِّئِ قَدْ أَتَى لَهُ

فأبى شريك أن يتكفل به ؛ فوثب إليه رجل من كلب يقال له قواد بن أجدع ، فقال للنعمان : أبيت اللعن ! هو علي ! قال النعمان : أفعلت ؟ قال : نعم ! فضمنه إياه ، ثم أمر للطائي بخمسمائة ناقة ؛ فمضى الطائي إلى أهله ، وقد جعل الأجل

(١) قابوس : ابن النعمان (٢) كان شريك هذا رديف النعمان ، يجلس عن يمينه ويشرب بعده ويحمله إذا غزا . (٣) حيلة .

حولاً من يومه ذلك إلى مثل ذلك اليوم من قابل ، فلما حال عليه الحول ،
وبقى من الأجل يوم ، قال النعمان لقراد : ما أراك إلا هالكا غداً ،
فقال قراد :

فإن يك صدرُ هذا اليوم ولّى فإن غداً لناظره قريبُ
فلما أصبح النعمان ركب في خيله ورَجَلِه ^(١) مُتَسَلِّحاً كما كان يفعل حتى أتى
الفرَّيين ^(٢) فوقف بينهما ؛ وأخرج معه قراداً ، وأمر بقتله ، فقال له وزراؤه :
ليس لك أن تقتله حتى يستوفى يومه ، فتركه ؛ وكان النعمان يشتهي أن يقتل قراداً
لُفِلَتِ الطائى من القتل ؛ فما كادت الشمسُ تَجِبُ ^(٣) وقرادُ قائم على النطع ^(٤) ،
والسيفُ إلى جنبه حتى أقبلت امرأته وهى تقول :

أيا عينُ بكى لى قرادَ بنَ أجدعا رهيناً لقتلٍ لا رهيناً مُودَّعاً
فبينما هم كذلك إذ رُفِعَ لهم شخص من بعيد ، وقد أمر النعمانُ بقتل قراد ،
فقال له : ليس لك أن تقتله حتى يأتيتك الشخص فتعلم من هو ؟ فكفَّ حتى انتهى
إليه الرجل ، فإذا هو الطائى !

فلما نظر إليه النعمان شقَّ عليه مجيئه ، فقال له : ما حَلَّكَ على الرجوع بعد
إفلاتك من القتل ؟ قال : الوفاء ، قال : وما دعاكَ إلى الوفاء ؟ قال : دينى . قال
النعمان : وما دينُك ؟ قال : النصرانية . قال النعمان : فاعْرِضْها علىّ ، فعرضها عليه ؛
فتنصَّرَ النعمان وأهلُ الحيرة أجمعون ، وترك القتل منذ ذلك اليوم ؛ وأبطل تلك

(١) الخيل . الفرسان ، والرجل اسم جمع للراجل ، وهو مالا ظهر له في سفره يركبه .
(٢) الفرَّيان : مثنى غرى ، بناءً ان طويلان ، يقال هما قبر مالك وعقيل نديمى جذيمة الأبرش
وسميا بذلك ، لأن النعمان بن المنذر كان يغريهما بدم من يقتله يوم يؤسه (٣) تجب الشمس : تغيب
(٤) النطع : بساط من جلد .

السُّنَّة ، وأمر بهدم الغريَّين ، وعفا عن قُرَاد والطَّائِي ؛ وقال : والله ما أَدْرِي أَيُّهُمَا
أَوْفَى وَأَكْرَم ؛ أَهَذَا الَّذِي نَجَا مِنَ الْقَتْلِ فَعَاد ، أَمْ هَذَا الَّذِي ضَمِنَهُ ؟ وَاللَّهِ لَا أَكُونُ
أَلَامَ الثَّلَاثَةِ ؛ فَأَنْشَأُ الطَّائِي يَقُول :

مَا كُنْتُ أَخْلِفُ ظَنَّهُ بَعْدَ الَّذِي أَسْدَى إِلَى مِنَ الْفَعَالِ ^(١) الْخَالِي
وَلَقَدْ دَعَنْتِي لِلْخِلَافِ ضَلَّالَتِي فَأَيُّتُ غَيْرَ تَمْجِيدِي وَفَعَالِي !

٦٦ - مَكْرَمَةٌ *

حدث عمرو بن العلاء فقال :

جلس النعمانُ بن المنذر وعليه حُلَّةٌ مرصَّعةٌ بالدرِّ ، لم يرَ مثلها قبل ذلك اليوم .
وأذِنَ للعرب في الدخول عليه ، وكان فيهم أوسُ بن حارثة ^(١) ، فجعلت العرب تنظرُ
إلى الحُلَّةِ ، وكلُّهم يقول لصاحبه : ما رأيتُ مثلَ هذه الحُلَّةِ قطَّ ، ولا سمعتُ أن
أحدًا من الملوك قدَّرَ على مثلها - وأوسُ بن حارثة مُطَّرِقٌ لا ينظرُ إليها - فقال له
النعمان : ما أرى كلَّ مَنْ دخلَ عليَّ إلا استَحَسَّنَ هذه الحُلَّةَ ، وتحدَّثَ مع صاحبه
في أمرها إلا أنت ؛ ما رأيتُك استحسنتها ولا نظرتَها .

قال أوس : أسعد الله الملك ! إنما تُستَحَسَّنُ الحُلَّةُ إذا كانت في يد التاجر ، وأما
إذا كانت على الملك ، وأشرق فيها وجهه فنظري مقصور عليه لا عليها فاسترجح عقله .
فلما عزموا على الانصراف قال لهم النعمان : اجتمعوا إلي في غد فإني مُلبِسٌ
هذه الحُلَّةَ لسيد العرب منكم ، فانصرف العربُ عنه ، وكلُّهم يزعم أنه لا بس الحُلَّةُ .
فلما أصبحوا تزينوا بأفخر الملابس وتقلدوا بأحسن السيوف ، وركبوا أجودَ
الخيال ، وحضروا إلى النعمان ؛ وتأخر عنه أوسُ بن حارثة ؛ فقال له أصحابه :
مالك لا تَقْدُو مع الناس إلى مجلس الملك ، فلعلك تكونُ صاحبَ الحُلَّةِ . فقال
أوس : إن كنتُ سيد قومي فما أنا بسيد العرب عند نفسي ، وإن حضرتُ ولم
أخذها انصرفتُ منقوصاً ، وإن كنتُ المطلوبَ لها فسيُعرَفُ مكاني ، فأمسكوا عنه .

* المختار من نواذر الأخبار - مخطوط .

(١) أوس بن حارثة : من أجداد العرب في الجاهلية ، بنو بطن من بني مزينة ، وهم إحدى
قبيلتي الأوس والخزرج ، أصلهم من اليمن ، ونزلوا يثرب وجاء الإسلام وهم بها .

ونظر النعمانُ في وُجوهِ القوم ، فلم يرَ أَوْسَ بنَ حارثة ؛ فاستدعى بعضَ خاصته ، وقال : اذهب لتعرفَ خبرَ أَوْس ، ففضى رسولُ النعمان ، واستخبر بعضَ أصحابه ؛ فأخبره بمقاتلته ، فعاد إلى النعمان ، فأخبره بذلك ، فبعث النعمانُ إليه رسولاً ، وقال : احضُرْ آمناً مما خِفْتَ عليه ، فحضر أَوْسُ بثيابه التي حضر بها بالأمس ، وكانت العربُ قد استبشرت بتأخره خوفاً من أن يكون هو الآخذُ للحُلَّة .

فلما حضر وأخذ مجلسه ، قال له النعمان : إني لم أركَ غيَرتَ ثيابَكَ في يومِكَ ؛ فالبس هذه الحِلَّةَ لتتجملَ بها ، ثم خلَعَهَا وألبسه إياها . فاشتدَّ ذلك على العرب وحسدوه ؛ وقالوا : لا حيلةَ لنا فيها ؛ إلا أن نرغبَ إلى الشعراء أن يهجوهُ بقبيح الفعل ؛ فإنه لا يخفِضُ رفعتَهُ إلا الشعر . فجمعوا فيما بينهم خمساً مائة ناقة ، وأتوا بها إلى رجلٍ يقال له جرّول ^(١) ، وقالوا له : خذ هذه ، واهجُ لنا أَوْسَ بنَ حارثة .

وكان جرّول يومئذ أشعرَ العرب وأقواهم هجاء ؛ فقال لهم : يا قوم ؛ كيف أهجو رجلاً حَسِيْباً لا يُنسَكَرُ بيته ، كريماً لا ينقطع عطاؤه ، فيصلاً ^(٢) لا يُطعنُ على رأيه ، شجاعاً لا يُضامُ نزيله ، محسناً لا أرى في بيتي شيئاً إلا من فضله !

فسمع بذلك بشر بن أبي خازم — وكان شاعراً — فرغب في البذل ؛ وأخذ الإبل وهجاء ، وذكر أمه سَعْدَى . فسمع أَوْسُ بذلك ؛ فوجه في طلبه ، فهرب وترك الإبل ؛ فأتوا بها إلى أَوْسَ بنَ حارثة ، فأخذها وشدَّ في طلبه ؛ وجعل بشر بن أبي خازم يطوف في أحياء العرب يلتمس عزيراً يحيره على أَوْس ، وكل من قصده يقول : قد أجرتُكَ إلا من أَوْسَ بنَ حارثة ، فإني لا أقدر أن أُجيرَ عليه — وكان أَوْسُ قد بثَّ عليه العيون ؛ فرآه بعضُ من كان يرصده ، فقبض عليه ، وأتى به إلى أَوْس ، فلما مثَّلَ بين يديه قال له : ويلك ! أتذكر أمي وليس في عصرنا مثلاً ؟ قال : قد كان

(١) هو الخطيئة . (٢) فيصل : حاكم .

ذلك أيها الأمير ؟ فقال : والله لأقتلنك قتلةً تهما بها سُعدى - يعنى أمه .
ثم دخل أوس إلى أمه سُعدى ، وقال : قد أتيتك بالشاعر الذى هجأك . وقد
آليت لأقتلنه قِتْلَةً تَحْيِينُهَا ! قالت : يا بنى ؛ أو خيرٌ من ذلك ! قال : وما هو ؟
قالت : إنه لم يَجِدْ ناصراً منك ، ولا مُجيراً عليك ، وإنا قوم لا نرى فى اصطناع
المعروف من بأس ، فبحقِّ عليك إلا أطلقته ، ورددت عليه إبله ، وأعطيته من مالك
مثل ذلك ، ومن مالى مثله ، وأرجعه إلى أهله سالماً ؛ فإنهم أيسوا ^(١) منه !
فخرج له أوس ، وقال : ماتقول أنى فاعل بك ؟ قال : تَقْتُلْنى لا محالة ! قال :
أففسح ذلك ؟ قال : نعم ؟ قال : إن سُعدى التى هجوتها قد أشارت بكذا وكذا ،
وأمر بحلِّ كِتَافِهِ ^(٢) ، وقال له : انصرف إلى أهلك سالماً ، وخذ ما أمرتُ لك به !
فرفع بِشْرَ يده إلى السماء وقال : اللهم أنت الشاهد على ألا أعود إلى شعرٍ
إلا أن يكون مدحاً فى أوس بن حارثة .

(١) يسوا ، (٢) الكتاف : هو حل يشد به .

٦٧ — أَجَارَهُ مِنَ الْمَوْتِ ! *

أَنَّى الْأَعْشَى الْأَسْوَدَ الْعَنْسَى ^(١) وَقَدْ امْتَدَّحَهُ فَاسْتَبَطَّأَ جَانِزَتَهُ . فَقَالَ الْأَسْوَدُ :
لَيْسَ عِنْدَنَا عَيْنٌ ، وَلَكِنْ نُعْطِيكَ عَرَضًا ، فَأَعْطَاهُ بِخُمْسِمِائَةِ مِثْقَالِ دُهْنًا ، وَبِخُمْسِمِائَةِ
حُنْثَلًا وَعَنْبَرًا .

فَلَمَّا مَرَّ بِيِلَادِ بْنِ عَامِرٍ خَافَهُمْ عَلَى مَآمَعِهِ ، فَأَتَى عَلَقَمَةَ ^(٢) بِنَ عُلَاثَةَ فَقَالَ لَهُ :
أَجِرْنِي ؛ فَقَالَ : قَدْ أَجَرْتُكَ . قَالَ : مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ ؟ قَالَ : نَعَمْ ! قَالَ : وَمِنَ الْمَوْتِ ؟
قَالَ : لَا !

فَأَتَى عَامِرَ بْنَ الطَّفَيْلِ ، فَقَالَ : أَجِرْنِي ؛ قَالَ : قَدْ أَجَرْتُكَ . قَالَ : مِنَ الْجِنِّ
وَالْإِنْسِ ؟ قَالَ : نَعَمْ ! قَالَ : وَمِنَ الْمَوْتِ ؟ قَالَ : نَعَمْ ! قَالَ : وَكَيْفَ تُجِيرُنِي مِنَ الْمَوْتِ !
قَالَ : إِنْ مِتَّ وَأَنْتَ فِي جِوَارِي بَعَثْتُ إِلَى أَهْلِكَ الدِّيَةَ . فَقَالَ : الْآنَ عَلِمْتُ أَنَّكَ
أَجَرْتَنِي مِنَ الْمَوْتِ . ثُمَّ مَدَحَ عَامِرًا وَهَجَا عَلَقَمَةَ ؛ فَقَالَ عَلَقَمَةُ : لَوْ عَلِمْتُ الَّذِي أَرَادَ
كَفْتُ أَعْطَيْتُهُ إِيَّاهُ !

* الْأَعْشَى : ٩ - ١٢٠ .

(١) الْأَسْوَدُ الْعَنْسَى : هُوَ عِبْهَلَةُ بْنُ كَعْبٍ بْنِ غَوْثٍ ، خَرَجَ بَعْدَ حِجَّةِ الْوَدَاعِ فِي عَامَةِ مَذْحِجٍ ،
وَادْعَى النُّبُوَّةَ وَكَانَ كَاهِنًا قَتَلَهُ فَيْرُوزُ وَدَاذُويَه وَقَيْسُ غَبْلَةَ . وَالْأَعْشَى : هُوَ مَيْمُونُ بْنُ قَيْسٍ مِنْ
شُعْرَاءِ الطَّبَقَةِ الْأُولَى فِي الْجَاهِلِيَّةِ ، عَاشَ عُمُرًا طَوِيلًا ، وَأَدْرَكَ الْإِسْلَامَ وَلَمْ يُسْلَمْ ، وَمَاتَ فِي الْيَمَامَةِ
سَنَةَ ٥٧ هـ .

(٢) عَلَقَمَةُ بِنْتُ عُلَاثَةَ : وَالِدَةٌ مِنَ الصَّحَابَةِ ، كَانَتْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ مِنْ أَشْرَافِ قَوْمِهِ وَكَانَ كَرِيمًا ، تَوَفَّى
نَحْوَ سَنَةِ ٢٠ هـ .

٦٨ — يزيد بن عبد المدان عند الحارث بن جفنة *

قدم يزيد^(١) بن عبد المدان وعمرؤ بن معد يكر ومكشوح المرادي على ابن جفنة^(٢) زواراً ، وعنده وجوه قيس : ملأعب الأسنة ، ويزيد بن عمرو ، ودريد بن الصبة . فقال ابن جفنة ليزيد بن عبد المدان : ماذا كان يقول الديان^(٣) إذا أصبح ؟ فقال : كان يقول : آمنت بالذي رفع هذه (يعني السماء) ، ووضع هذه (يعني الأرض) وشق هذه (يعني أصابعه) ، ثم يخر ساجداً ؛ فإذا رفع رأسه قال :

إِنْ تَغْفِرَ اللَّهُمَّ تَغْفِرْ جَمًّا وَأَيَّ عَبْدٍ لَكَ مَا أَلَمَّا

فقال ابن جفنة : إن هذا الذودين ، ثم مال على القيسييين وقال : ألا تحدثوني عن هذه الرياح : الجنوب ، والشمال ، والدبور ، والصبا ، والنكباء ؛ لم سميت بهذه الأسماء ؛ فإنه قد أعيانى علمها ؟ فقال القوم : هذه أسماء وجدنا العرب عليها لا نعلم غير هذا ! فضحك يزيد . ثم قال لابن حفنة : ياخير الفتيان ، ما كنت أحسب أن هذا يسقط علمه عن هؤلاء ، وهم أهل الوبر ! إن العرب لضرب أبياتها في القبلة مطلع الشمس لتذفينهم في الشتاء ، وتزول عنهم في الصيف ؛ فما هب من

* الأغاني : ١٠ - ١٣٩ ، مذهب الأغاني : ١ - ٥٧ .

(١) كان يزيد سيد مذبح شاعرا من أشرف الين وشجعانها ، وفد على بني جفنة - أمراء بادية الشام ، وعاد إلى الين فأقام بنجران إلى أن كان يوم الكلاب الثاني فقتل فيه نحو سنة ٨ ق. هـ .

(٢) كان بنو جفنة يقيمون بالشام ملوكا عليه وعلى ما يليه من بادية العرب ولكنهم كانوا عمالا للوك الروم ، وظلوا حتى انقاد آخر ملوكهم جبلة بن الايمم إلى الإسلام في عهد عمر بن الخطاب .

(٣) الديان : جد يزيد .

الرياح عن يمين البيت فهي الجنوب ، وما هبّ عن شماله فهي الشمال ، وما هبّ من أمامه فهي الصّبا ، وما هبّ من خلفه فهي الدّبور ، وما استدار من الرياح بين هذه الجهات فهي النّكباء ...

فقال ابنُ جفنة : إن هذا لِلْعِلْمِ يا ابن عبد المدان !

وأقبل ابنُ جَفَنَةَ على القيسيين يسألهم عن النعمان بن المنذر ، فعابوه وصغروه ، فنظر ابنُ جفنة إلى يزيد وقال له : ما تقولُ يا ابن عبد المدان ؟ فقال : ياخير الفتيان ، ليس صغيراً من منعك العراق ، وشرِّكك في الشام ، وقيل له : أبيت اللعن ! وقيل لك : ياخير الفتيان ! وألّنى أباه مَلِكاً كما أَلْفَيْتَ أَباك ملكاً ؛ فلا يسرُّك مَنْ يغرُّك ، فإنّ هؤلاء لو سألم عنك النعمان لقالوا فيك مثل ما قالوا فيه ، وإيمُ الله ! ما فيهم رجلٌ إلا ونعمةُ النعمان عنده عظيمة ...

فغضب عامرُ بن مالك وقال : يا ابن الدّيان ، أما والله لنحتلبن بها دماً ! فضحك يزيد وقال : ما لهم والله جرأةُ بنى الحارث ، ولا فتك مُراد ، ولا بأس زُيّد ، ولا مفارُ طيئ ، وما هم ونحن - ياخير الفتيان - بسواء ؛ ما قتلنا أسيراً قط ، ولا اشتبهنا حرّةً قط ، ولا بكينا قتيلاً نُبئ به ، وإن هؤلاء ليعجزون عن ثأرهم حتى يُقتل السّميُّ بالسّميِّ والجار بالجار ... ثم قال :

تمالّى على النعمان قومٌ إليهم	موارِدُهُ في ملكه ومصادِرُهُ
على غير ذنب كان منه إليهم	سوى أنه جادت عليهم مَوَاطِرُهُ
فباعدهم من كل شرٍّ يخافه	وقرّبتهم من كل خير يبادره
فظنوا ، وأعراضُ النون كثيرةٌ ،	بأن الذي قالوا من الأمر ضائرُهُ
فلم ينقصوه بالذي قيلَ شعرةٌ	ولا فلّلت أنيابه وأظافره

وَالْحَارِثُ الْجَفْنِيُّ أَعْلَمُ بِالَّذِي يَبُوءُ بِهِ النِّعْمَانُ إِنْ حَفَّ ^(١) طَائِرُهُ
فِيَا حَارِ كَمْ فِيهِمْ لِنِعْمَانٍ نِعْمَةٌ مِنْ الْفَضْلِ وَالنَّ الَّذِي أَنَا ذَا كِرِهِ
ذُنُوبًا عَفَا عَنْهَا ، وَمَالًا أَفَادَهُ ، وَعَظْمًا كَسِيرًا قَوْمَتَهُ جَوَابِرُهُ
وَلَوْ سَالَ عَنْكَ الْعَائِبِينَ ابْنُ مَنْذَرٍ لَقَالُوا لَهُ الْقَوْلَ الَّذِي لَا يُحَازِرُهُ
فَلَمَّا سَمِعَ ابْنُ جَفْنَةَ هَذَا الْقَوْلَ عَظَّمَ يَزِيدُ فِي عَيْنِهِ ، وَأَجْلَسَهُ مَعَهُ عَلَى سُرِيرِهِ ،
وَسَقَاهُ بِيَدِهِ ، وَأَعْطَاهُ عَطِيَّةً لَمْ يُعْطِهَا أَحَدًا مِنْ وَفْدٍ عَلَيْهِ قَطْ ؛ وَلَمَّا قَرَّبَ يَزِيدُ
رُكَاثَهُ لِيَرْتَحِلَ سَمِعَ صَوْتًا إِلَى جَانِبِهِ وَإِذَا هُوَ بِرَجُلٍ يَقُولُ :

أَمَّا مِنْ شَفِيعٍ مِنَ الزَّائِرِينَ يُحِبُّ التَّنَا زَنْدُهُ ثَاقِبُ
يَرِيدُ ابْنُ جَفْنَةَ إِكْرَامَهُ وَقَدْ يَمْسَحُ الضَّرَّةَ ^(٢) الْحَالِبُ
فَيَنْقَذَنِي مِنْ أَظْلَافِهِرِهِ وَإِلَّا فَإِنِّي غَدًا ذَاهِبُ
فَقَدْ قَلْتُ يَوْمًا عَلَى كَرْبَةٍ وَفِي الشَّرْبِ فِي يَثْرَبٍ غَالِبُ
أَلَا لَيْتَ غَسَانَ فِي مَلَكِهَا كَلْحَمٍ وَقَدْ يَخْطِئُ الشَّارِبُ
وَمَا فِي ابْنِ جَفْنَةَ مِنْ سُبَّةٍ وَقَدْ خَفَّ حَمَلًا بِهَا الْغَارِبُ
كَأَنِّي قَرِيبٌ مِنَ الْأَبْعَدِينَ وَفِي الْحَلْقِ مِنِّي شَجِي نَاشِبُ

فَقَالَ يَزِيدُ : عَلَى بِالرَّجُلِ ، فَأَتَى بِهِ ، فَقَالَ : مَا خَطْبُكَ ! أَنْتَ تَقُولُ هَذَا
الشَّعْرُ ! قَالَ : بَلْ قَالَه رَجُلٌ مِنْ جُذَامِ جَفَاهُ ابْنُ جَفْنَةَ ، وَكَانَتْ لَهُ عِنْدَ النِّعْمَانِ
مَنْزِلَةٌ ، فَشَرِبَ ، فَقَالَ لَهُ عَلَى شَرَابِهِ شَيْئًا أَنْكَرَهُ عَلَيْهِ ابْنُ جَفْنَةَ ، فَحَبَسَهُ ، وَهُوَ
مُخْرِجُهُ غَدًا فَقَاتَلَهُ . فَقَالَ يَزِيدُ : أَنَا أُغِيثُكَ ، فَقَالَ لَهُ : وَمَنْ أَنْتَ حَتَّى أَعْرِفَكَ ؟ فَقَالَ :

(١) حف : طار . (٢) الضرة : الضرع

أنا يزيدُ بن عبد المدان ؛ فقال : أنت لها وأبيك ! قال : أجل ؟ فقد كفيتك أمره ، فلا يسمعَنَّ أحدٌ تنسِدُ هذا الشعر .

وغدا يزيدُ على ابن جفنة ليودعه ، فقال له : حيَّاكَ الله يا ابن الديان ، حاجتُك ! قال : تلحق قضاة بالشام ، وتؤثر من أذاك من وفود مذحج ، وتهبُّ الجذامى الذى لا شفيع له إلا كرمك . قال : قد فعلتُ ، أما أنى حبسته لأهبه لسيِّد ناحيتك وكنتَ ذلك السيد ، ووهبه له ، فاحتمله يزيدُ معه !

٦٩ - إغانة*

جاور^(١) رجلان من هَوَازِن في بَنِي مُرَّة بن عوف ، وكان قد أصابا دماً في قومهما . ثم إن قَيْس بن عاصم المَنْقَرِي^(٢) أغار على بَنِي مُرَّة ، فأصاب واحداً منهما في عِدَّة أسارى كانوا عندهم ، ففدى كلَّ قومٍ أسيرَه من قيس بن عاصم ، وتركوا الهوازني ، فاستغاث أخوه بوجوه بنى مرة : سنان بن أبي حارثة ، والحارث بن عوف ، والحارث بن ظالم ، وهاشم بن حرملة ، والحصين بن الحجام ، فلم يغيثوه .

فركب إلى موسم عكاظ ، فأتى منازل مَذْحِج ليلاً ، ونادى :

دعوتُ سناناً وابنَ عوفٍ وحارثاً وعاليتُ دَعْوَى بالحُصَيْنِ وهاشم
أعيزهمُ في كلِّ يومٍ وليلةٍ بتركِ أسيرٍ عند قيس بن عاصم
حليفهم الأدنى ، وجارُ بيوتهمُ ومن كانَ عما سرهم غيرَ نائم
فصموا ، وأحداثُ الزمان كثيرة وكَم في بَنِي العَلَّاتِ^(٣) من مُتَصَّامٍ !
فيا ليت شعري مَنْ لإطلاقِ غَلَمَةٍ ومن ذا الذي يُحْطَى به في المواسم !
فسمع صوتاً من الوادي ينادي بهذه الأبيات :

ألا أيُّ هذا الذي لم يُحِبْ عليكِ بحَيِّ يَحْلِي الكَرْبُ

* مذهب الأغاني : ٥ - ٦٠

(١) جاوره مجاورة وجواراً : صار جاره (٢) منقر : بطن من تميم ، وقيس بن عاصم : كان سيد تميم ، ولما وفد على النبي صلى الله عليه وسلم بسط له رداءه وقال : هذا سيد الوير ، ولما توفى قال فيه الشاعر :

وما كان قيس هلكه هلك واحد ولكنه بنيان قوم تهتما

(٣) بنو الفلات : هم بنو رجل واحد من أمهات شتى .

عليك بذا الحى من مذحج فإنهم للرّضا والفضب
فنادِ يزيدَ بن عبد المدان ، وقيساً ، وعمرو بن معد يكرب
يفكوا أخاك بأموالهم وأقلل بمنّهم فى العرب !
أولاك الرءوسُ فلا تعدّهم ومن يجعل الرأسَ مثلَ الذنب !
فاتّبع الصوتَ فلم يرَ أحداً ! ففدا على المكشوح قيس بن عبد يغوث المرادى
فأخبره خبره ، فقال له : والله إن قيس بن عاصم ما قارضته معروفاً قط ، ولا هولى
بجارٍ ، ولكن اشترى أخاك منه وعلى الثمن ، ولا يمنعك غلاؤه .

ثم أتى عمرو بن معد يكرب فقال له عمرو : هل بدأت بأحدٍ قبلى ؟ فقال :
نعم ، بقيس بن عبد يغوث ، قال : عليك بمنّ بدأت به ، فتركه وأتى بزيد بن
عبد المدان فأخبره بقصته ، فقال له يزيد : مرحبا بك وأهلاً ، أبعثُ إلى قيس بن
عاصم ، فإن هو وهب لى أخاك شكرته وإلاّ أغرتُ عليه حتى يتّقينى بأخيك ، فإن
نلتها وإلاّ دفعتُ إليك كلّ أسيرٍ من بنى تميم بنجران ، فاشتريتَ به أخاك !
فقال : هذا الرضا . فأرسل يزيد إلى قيس بن عاصم بهذه الأبيات :

يا قيسُ أُرْسِلُ أسيراً من بنى جُشم^(١) إلى بَكلٍ الذى تَأْتِي به جازِي
لا تَأْمَنِ الدهرَ أنْ تشجى بفُصّته فاخترْ لنفسك إحدَى وإعزّازِي
فافكك أخاً منقرٍ عنه ، وقلْ حسناً فسيما بسُئلتَ وعقبه بإنجازِي

وبعثَ بالأبيات رسولا إلى قيس بن عاصم ، فأنشده إياها ، ثم قال له : يا أبا
على : إن يزيد بن عبد المدان يقرأ عليك السلام ، ويقول لك : « إن المعروف
قُرُوض ، ومع اليوم غد ، فأطلق لى هذا الجُشمى » ، فقد استعان بأشراف بنى مرة ،

(١) جشم : بطن من هوازن .

وبعمر بن معد يكرب ، وبمكشوح المزّادى ، فلم يُصَبْ عندهم حاجته ، فاستجار بى ،
ولو أرسلت إلى فى جميع أسارى مضر لقضيتُ حاجتك » .

فقال قيس بن عاصم لِمَنْ حَضَرَهُ من بنى تميم : هذا رسولُ يزيدَ بن عبد المّدان
سيد مذحج وابن سيّدها ، ومن لا يزال له فيكم يد ، وهذه فرصة لكم فأترونها ؟
قالوا : نرى أن نغلبه عليه ونحكم فيه شططاً ، فإنه لن يخذله أبداً ولو أتى ثمنه على
ماله . فقال قيس : بئسما رأيتم ! أما تخافون سِجالَ الحروب ، ودولَ الأيام ، ومجازاة
القروض !

فلما أبوا عليه قال : بيعوني . فأغلوهُ عليه ، فتركه فى أيديهم - وكان أسيراً
فى يد رجل من بنى سعد ^(١) - وبعث إلى يزيد فأعلمه بما جرى ، وأن
الأسير لو كان فى يده أو يد منقر لأخذه وبعث به ؛ ولكنه فى يد رجل من
بنى سعد .

فأرسل يزيد إلى السّعدى : أن سيرَ إلى بأسيرك ولك فيه حكمك ، فأتى
السعدى يزيد ، فقال له : احتكم ، فقال : مائة ناقة ورعاؤها ، فقال له يزيد :
إنك لقصيرُ الهمة ، قريبُ الغنى ، جاهلٌ بأخطار بنى الحارث ! أما والله لقد
غَبَنْتُكَ يا أخا بنى سعد ! ولقد كنتُ أخاف أن يأتى ثمنه على جل أموالنا ؛
ولكنكم يا بنى تميم قوم قصارُ الهمم . وأعطاه ما احتكم ؛ فجاوره الأسير وأخوه
حتى ماتا بنجران .

(١) سعد : بطن من تميم .

٧٠ - ارحموا عزيزاً ذل*

وَجَّهَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى طَيْئٍ فَرِيقًا مِنْ جُنْدِهِ ، يَقْدُمُهُمْ عَلَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامَ ، فَفَزَعَ عَدِيٌّ^(١) بَنَ حَاتِمَ الطَّائِي - وَكَانَ مِنْ أَشَدِّ النَّاسِ عِدَاءً لِرَسُولِ اللَّهِ - إِلَى الشَّامِ فَصَبَّحَ عَلَىٰ الْقَوْمِ ، وَاسْتَأْذَنَ خِيْلَهُمْ وَنَعَمَهُمْ وَرَجَالَهُمْ وَنِسَاءَهُمْ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ .

فَلَمَّا عَرَضَ عَلَيْهِ الْأَسْرَى نَهَضَتْ مِنْ بَيْنِ الْقَوْمِ سَفَانَةُ بِنْتُ حَاتِمٍ ؛ فَقَالَتْ : يَا مُحَمَّدُ ؛ هَلَكَ الْوَالِدُ ، وَغَابَ الْوَالِدُ ، فَإِنْ رَأَيْتَ أَنْ تُنْجِلِي عَنِّي ، وَلَا تُشْمِتَ بِي أَحْيَاءَ الْعَرَبِ ! فَإِنْ أَبِي كَانَ سَيِّدَ قَوْمِهِ ، يَفْكُ الْعَانِي^(٢) ، وَيَقْتُلُ الْجَانِي ، وَيَحْفَظُ الْجَارَ ، وَيَحْمِي الدَّمَارَ ، وَيُفَرِّجُ عَنِ الْمَكْرُوبِ ، وَيُطْعِمُ الطَّعَامَ ، وَيَفْشِي السَّلَامَ ، وَيَحْمِلُ الْكَلَّ^(٣) ، وَبَعِينَ عَلَى نَوَائِبِ الدَّهْرِ ، وَمَا أَنَا أَحَدٌ فِي حَاجَةٍ فَرَدَّه خَائِبًا ؛ أَنَا بِنْتُ حَاتِمِ الطَّائِي !

فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : يَا جَارِيَةُ ؛ هَذِهِ صِفَاتُ الْمُؤْمِنِينَ حَقًّا ، لَوْ كَانَ أَبُوكَ مُسْلِمًا لَتَرَحَّمْنَا عَلَيْهِ خَلَّوْا عَنْهَا ؛ فَإِنْ أَبَاهَا كَانَ يَحِبُّ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ .

ثُمَّ قَالَ : « ارحموا عزيزاً ذل ، وغنيا افتقر ، وعالمًا ضاع بين جهال » .
وَامْتَنَ عَلَيْهَا بِقَوْمِهَا فَأَطْلَقَهُمْ تَكْرِيمًا لَهَا !

فَاسْتَأْذَنَتْهُ فِي الدَّعَاءِ لَهُ ؛ فَأَذِنَ لَهَا ، وَقَالَ لِأَصْحَابِهِ : اسْمَعُوا وَعُودُوا . فَقَالَتْ : أَصَابَ

* الْأَغَانِي : ١٦ - ٩٣ ، لِسَانُ الْعِيُون : ٢ - ٢٨٥ ، غُرَرُ الْخَصَائِصِ : ١٢ .

(١) عَدِيٌّ بَنَ حَاتِمٍ : صَحَابِيٌّ مِنَ الْأَجْوَادِ الْعُقَلَاءِ كَانَ رَئِيسَ قَوْمِهِ فِي الْجَاهِلِيَّةِ وَالْإِسْلَامِ ، وَكَانَ إِسْلَامُهُ سَنَةَ ٩ هـ ، وَشَهِدَ فَتْحَ الْعِرَاقِ ، وَالْجَمَلِ ، وَصَفِينَ ، وَالتَّهْرَوَانَ مَعَ عَلِيٍّ .

(٢) الْعَانِي : الْأَسِيرُ (٣) الْكَلَّ : الْعَائِلُ وَالْيَتِيمُ

الله ببرِّكَ موافقته ، ولا جعلَ لك إلى لثيمِ حاجة ، ولا سلبَ نعمةً عن كريمِ قومٍ .
إلا جعلَكَ سبباً في ردِّها عليه .

فلما أطلقَهَا رجعتْ إلى أخيها عدى وهو بدوْمَة الجندل . فقالت له : يا أخى ؛
إيتِ هذا الرجل قبل أن تَعْلَقَكَ حبالُهُ ، فإنى قد رأيتْ هَدياً ورأياً سيغلبُ أهلَ
الغلبة ؛ ورأيتُ خِصالاً تعجبنى : رأيتُهُ يحبُّ الفقيرَ ؛ ويفكُّ الأسيرَ ؛ ويرحمُ
الضعيفَ ، ويعرفُ قَدْرَ الكبيرِ ؛ وما رأيتُ أجودَ ولا أكرمَ منه ، فإن يكن
نبيّاً فلاسابق فضله ، وإن يكن مَلِكاً فلن تزالَ في عزٍّ ملكه . فقدم عدى إلى
رسول الله صلى الله عليه وسلم فأسلم ، وأسلمت سَفَانَةٌ !

٧١ - زعيم العجم وعمر بن الخطاب*

لما أتى بالهزمزان أسيراً إلى عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، قيل له :
يا أمير المؤمنين ؛ هذا زعيمُ العجم ، وصاحبُ رُستم^(١) ؛ فقال له عمر رضى
الله عنه :

أعرضُ عليك الإسلامَ نصْحاً لك في عاجلك وآجلك . فقال : إنما أعتقداً أنا
عليه ، ولا أرغبُ في الإسلام رهبةً . فدعا عمرُ بالسيف ؛ فلما همّ بقتله ، قال :
يا أمير المؤمنين ، شربةٌ من ماءٍ هي أفضلُ من قتلى على الظلما ؛ فأمر له بشربة من
ماء ، فلما أخذها الهزمزان قال : يا أمير المؤمنين ، أنا آمنٌ حتى أشربها ؟ قال :
نعم ؛ فرمى بها ، وقال . الوفاء - يا أمير المؤمنين - نورٌ أبلغ ! قال : صدقت ! لك
التوقفُ عنك ، والنظرُ فيك ، ارفعوا عنه السيف !

فقال : يا أمير المؤمنين ، الآن أشهدُ أن لا إلهَ إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله ،
وما جاء به حقٌّ من عنده . فقال عمر : أسلمتَ خيرَ إسلام ، فما أخرك ؟ قال :
كرِهتُ أن يُظنَّ بى أنى إنما أسلمتُ خوفاً من السيفِ ، فقال عمر : ألا إن لأهل
فارسَ عقولا استحقوا بها ما كانوا فيه من الملك ، ثم أمر بيرةً وإكرامه !

* نهاية الأرب : ٦ - ٧٧ :

(١) رستم : كان من أعظم رجال فارس ، وفائد جيوش وقعة القادسية التى انتصر فيها المسلمون
أيام عمر بن الخطاب ، وقتل رستم فى هذه الموقعة .

٧٢ — أبو سُفْيَانٍ عِنْدَ هِرَقْلَ *

قال أبو سُفْيَانٍ ^(١) بن حَرْب :

كُنَّا قَوْمًا تَجَارًا ، وَكَانَتِ الْحَرْبُ بَيْنَنَا وَبَيْنَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَدْ حَصَرْتَنَا حَتَّى نَهَكْتُ أَمْوَالَنَا . فَلَمَّا كَانَتِ الْهَدَنَةُ - هُدْنَةُ الْحُدَيْبِيَّةِ - بَيْنَنَا وَبَيْنَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، خَرَجْتُ فِي نَفَرٍ مِنْ قُرَيْشٍ إِلَى الشَّامِ ، وَكَانَ وَجْهُ مَتَجَرَّنَا مِنْهُ غَزَاةٌ ، فَقَدِمْنَاهَا حِينَ ظَهَرَ هِرَقْلٌ عَلَى مَنْ كَانَ بِأَرْضِهِ مِنَ الْفَرَسِ ، فَأَخْرَجَهُمْ مِنْهَا ، وَانْتَزَعَ مِنْهُمْ صَلَيبَهُ الْأَعْظَمَ ، وَكَانُوا قَدْ اسْتَلْبَوْهُ إِيَّاهُ .

فَلَمَّا بَلَغَهُ ذَلِكَ مِنْهُمْ وَبَلَغَهُ أَنْ صَلَيبَهُ قَدْ اسْتُنْقِذَ مِنْهُمْ ، وَكَانَتْ خِصْمُ مَنْزِلِهِ ، خَرَجَ مِنْهَا يَمْشِي عَلَى قَدَمَيْهِ شُكْرًا لِلَّهِ حِينَ رَدَّ عَلَيْهِ مَارِدًا ، لِيَصِلَّ فِي بَيْتِ الْمَقْدِسِ ، تَبَسُّطَ لَهُ الْبُسْطُ وَتُلَقَّى عَلَيْهَا الرِّيَاحِينَ .

فَلَمَّا انْتَهَى إِلَى إِيلِيَاءَ فَقَضَى فِيهَا صَلَاتَهُ ، وَكَانَ مَعَهُ بَطَارِقَتُهُ وَأَشْرَافُ الرُّومِ ، أَصْبَحَ ذَاتَ غُدْوَةٍ مَهْمُومًا يَقْلُبُ طَرَفَهُ إِلَى السَّمَاءِ . فَقَالَ لَهُ بَطَارِقَتُهُ : وَاللَّهِ لَكَأَنَّكَ أَصْبَحْتَ الْغَدَاةَ مَهْمُومًا .

فَقَالَ : أَجَل ! رَأَيْتُ الْبَارِحَةَ أَنَّ مُلُوكَ الْخِلْتَانِ ظَاهِرَ . فَقَالُوا : أَيُّهَا الْمَلِكُ ، مَا نَعْلَمُ أُمَّةً تَحْتَنِي إِلَّا الْيَهُودَ ، وَهُمْ فِي سُلْطَانِكَ وَتَحْتَ يَدِكَ ، فَابْعَثْ إِلَى كُلِّ مَنْ

* الْأَغَانِي : ٦ - ٣٤٥ .

(١) هُوَ صَخْرُ بْنُ حَرْبٍ ، مِنْ سَادَاتِ قُرَيْشٍ فِي الْجَاهِلِيَّةِ ، كَانَ مِنْ رُؤَسَاءِ الْمُشْرِكِينَ يَوْمَ الْأَحْزَابِ وَيَوْمَ أُحُدٍ ، وَأَسْلَمَ يَوْمَ فَتْحِ مَكَّةَ سَنَةَ ٨ هـ . وَتَوَفَّى سَنَةَ ٣١ هـ .

لك عليه سلطان في بلادك فمَرّه فليضرب أعناقَ مَنْ تحت يدك منهم من يهود ،
واستريح من هذا الهم .

فوالله إنهم لنفي ذلك من رأيهم يدبرونه إذا أتاه رسولُ صاحب بُصْرَى ^(١)
برجل من العرب يقوده - وكانت الملوك تتهادى الأخبارَ بينهم - فقال : أيها الملك ؛
إن هذا رجلٌ من العرب من أهل الشَّاء والإبل يحدث عن أمر حدث فأسأله .
فلما انتهى به إلى هرقل رسولُ صاحب بُصْرَى ؛ قال هرقل لمن جاء به : سلّه
عن هذا الحديث الذي كان يبليده ، فسأله ، فقال : خرج بين أظهرنا رجلٌ يزعم أنه
نبيٌ ، وقد اتبعه ناسٌ فصدّقوه وخالفه آخرون ، وقد كانت بينهم ملاحِمٌ في
مواطنٍ كثيرةٍ وتركتهم على ذلك !

فلما أخبره الخبر قال : جرّدوه ؛ فإذا هو مختونٌ . فقال : هذا والله النبي الذي
رأيتُ ، لا ما تقولون ؛ أعطوه ثيابه وينطلق ، ثم دعا صاحبَ شُرطته فقال له :
أقلب الشام ظهراً لبطن حتى تأتيني برجل من قوم هذا الرجل .

فإنّا لبغزةٌ إذ هجم علينا صاحبُ شُرطته فقال : أنتم من قوم الحجاز ؟ قلنا :
نعم ، قال : انطلقوا إلى الملك ، فانطلقوا بنا . فلما اتهمنا إليه قال : أنتم من رهطِ هذا
الرجل الذي بالحجاز ؟ قلنا : نعم . قال : فأياكم أمْسُ به رجلاً ؟ قال أبو سفيان :
قلت : أنا ، قال : ادنُ ، ثم أقعدني بين يديه وأقعد أصحابي خلفي ، وقال لهم : إني
سأسأله ، فإن كذب فردّوا عليه .

قال : فوالله لقد علمتُ أن لو كذبتُ ما ردّوا عليّ ، ولكنني كنتُ امرأً
سيداً أنبرّم من الكذب ، وعرفتُ أن أبسرَ ما في ذلك إن أنا كذبتُهُ أن يحفظوه
عليّ ؛ ثم يحدثوا به عني ، فلم أكذبه .

وقال : أخبرني عن هذا الرجل الذي خرج بين أظهركم يدّعي ما يدّعي . فجعلتُ
أزهد له شأنه وأصغر له أمره ، وأقول له : أيها الملك ، ما يهتك من شأنه ! إن أمره
دون ما يبلغك . فجعل لا يلتفت إلى ذلك مني . ثم قال : أنبئني فيما أسألك عنه من
شأنه . قلت : سل عما بدا لك .

قال : كيف نسبُهُ فيكم ؟ قلتُ : محضٌ ، هو أو سَطَنًا ^(١) نسبًا . قال : أخبرني ،
هل كان أحدٌ من أهل بيته يقول ما يقول فهو ينسبُهُ به ؟ قلت : لا . قال : هل
كان له فيكم مُلكٌ فسلبتموه إياه ، فجاء بهذا الحديث ليردوا عليه مُلكه ؟ قلت :
لا . قال : أخبرني عن أتباعه منكم من هم ؟ قلت : الضعفاء والمساكين والأحداثُ
من الغلمان والنساء ، فأما ذَوُو الأَسنان من الأشراف من قومه فلم يتبعه منهم أحد .
قال : فأخبرني عمن يتبعه أيحبه ويكرمه ، أم يَقلبه ^(٢) ويفارقه ؟ قلت : قلما يتبعه
أحد فيفارقه . قال : فأخبرني كيف الحربُ بينكم وبينه ؟ قلتُ : سجال يُدال علينا
ونُدالُ عليه ^(٣) .

قال : فأخبرني هل يَغدر ؛ فلم أجد شيئاً اغتمز فيه غيرَها ؛ فقلت : لا ، ونحن منه
في مُدة ^(٤) ولا تأمنُ غدره . قال : فوالله ما التفت إليها مني .

ثم كرّرَ الحديث فقال : سألتك عن نسبهِ فيكم ؛ فرمعتَ أنه محض من أوسطكم
نسباً فكذلك يأخذُ الله النبيَّ لا يأخذه إلا من أوسط قومه نسباً ، وسألتك : هل
كان أحد من أهل بيته يقول مثل قوله فهو ينسبُهُ به ؟ فرمعتَ أن لا . وسألتك : هل
كان له مُلكٌ فيكم فسلبتموه إياه فجاء بهذا الحديث يطلب مُلكه ؟ فرمعتَ أن لا .
وسألتك عن أتباعه ، فرمعتَ أنهم الضعفاء والأحداثُ والمساكين والنساء ، وكذلك

(١) أي خيرنا وأفضلنا نسباً (٢) يَبغضه (٣) يدال علينا ونُدال عليه : أي تَغلب مرة
وبغلبنا أخرى (٤) في مُدة : يعني بها مُدة صلح الحديبية .

أَتَبَاعُ الْأَنْبِيَاءِ فِي كُلِّ زَمَانٍ . وَسَأَلْتُكَ عَمَّنْ يَتَّبِعُهُ أَحِبُّهُ وَيَلْزَمُهُ أَمْ يَقْلِبُهُ وَيَفَارِقُهُ ؟
فَرَزَعْتَ أَنَّهُ لَا يَتَّبِعُهُ أَحَدٌ فَيَفَارِقُهُ ، فَكَذَلِكَ حِلَاوَةُ الْإِيمَانِ لَا تَدْخُلُ قَلْبَ رَجُلٍ
فَتَخْرُجَ مِنْهُ .

وسألتك عن الحرب بينكم وبينه ، فرزعت أنها سَجَالٌ تَدَاوَنَ عَلَيْهِ وَيُدَالُ
عَلَيْكُمْ ، وَكَذَلِكَ حَرْبُ الْأَنْبِيَاءِ ، وَلَمْ تَكُنْ الْعَاقِبَةُ . وَسَأَلْتُكَ : هَلْ يَغْدِرُ ؟ فَرَزَعْتَ
أَنْ لَا : فَإِنَّ كُنْتَ صَدَقْتَنِي عَنْهُ فَلْيَغْلِبَنَّ عَلَى مَانَحَتِ قَدَمَيَّ هَاتَيْنِ ، وَلَوْ دِدْتُ
أَنِّي عِنْدَهُ فَأَغْسِلُ قَدَمِيهِ ! انْطَلِقْ لَشَأْنِكَ .

فَقَعْتُ مِنْ عِنْدِهِ وَأَنَا أَضْرِبُ بِأَحَدِي يَدَيَّ عَلَى الْأُخْرَى وَأَقُولُ : يَا لِعِبَادِ اللَّهِ !
اَقْدَأْمِرْ^(١) أَمْرُ ابْنِ أَبِي كَبْشَةَ^(٢) ! أَصْبَحْتُ مُلُوكُ بَنِي الْأَصْفَرِ^(٣) يَهَابُونَهُ فِي
مُلْكِهِمْ وَسُلْطَانِهِمْ !

(١) أمر : عظم (٢) أبو كبشة : رجل من خزاعة خالف قريشاً في عبادة الأوثان ، وعبد
الشعري العبور ، فسمي المشركون الذي صلى الله عليه وسلم ابن أبي كبشة لخلافه لإيائهم إلى عبادة الله
تعالى ، تشبيهاً له بأبي كبشة الذي خالفهم إلى عبادة الشعري (٣) بنو الأصفر : لقب ملوك الروم

٧٣ - إسلام أبي ذر*

قال أبو ذر^(١) : كنت رجلاً من غِفَار ، فبلغنا أن رجلاً قد خرج بمكة يزعم أنه نبي ، فقلت لأخي : انطلق إلى هذا الرجل وكلمه ، واثنى بخبره ؛ فانطلق فلقيه ، ثم رجع ، فقلت : ما عندك ؟ فقال : والله لقد رأيت رجلاً يأمر بالخير ، وينهى عن الشر ؛ فقلت له : كم تشفني من الخير !

فأخذت جِراباً وعَصاً ، ثم أقبلت إلى مكة ؛ فجعلت لا أعْرِفه ، وأكره أن أسأل عنه ، وأشرب من ماء زمزم ، وأكون في المسجد ؛ فمرّ بي عليّ ، فقال : كأنّ الرجل غريب ؟ قلت : نعم ! فانطلق إلى المنزل وانطلقت معه لا يسألني عن شيء ولا أخبره .

فلما أصبحت غدوت إلى المسجد لأسأل عنه ، وليس أحدٌ يخبرني عنه بشيء ؛ فمرّ بي عليّ ، فقال : أما أنّ للرجل أن يعرف منزله بعد ؟ قلت : لا ، قال : انطلق معي ، ثم قال : ما أمرُك ؟ وما أقدمك هذه البلدة ؟ فقلت : إن كنتم عليّ أخبرتك ! قال : فإني أفعل . قلت له : بلغنا أنه خرج هاهنا رجل يزعم أنه نبي ، فأرسلت أخي ليكلّمه ، فرجع ولم يشفني من الخير ، فأردت أن ألقاه . فقال : أما إنك قد رُشدت ، هذا وجهي إليه فاتّبعني ، ادخل ؛ حيث أدخل ؛

* الزبيدي : ٢ - ٥٤ .

(١) هو من غفار ، وهي قبيلة من كنانة ، وأسلم أبو ذر بمكة ولم يشهد بدرأ ولا أحدأ ولا الحندق ، لأنه حين أسلم رجع إلى بلاد قومه ، حتى مضت هذه الشاهد ثم قدم المدينة على رسوالة صلى الله عليه وسلم ، ومات بالبزدة سنة ٣٢ هـ .

فإني إن رأيتُ أحداً أخافه عليك قتُ إلى الحائط كَأني أُصلح نَعلي ،
وامضِ أنت .

فمضى ومضيتُ معه حتى دخل ، ودخلت معه على النبي صلى الله عليه وسلم ،
فقلت له : اعرض عليَّ الإسلام ، فعرضه ، فأسلتُ مكاني ، فقال لي : يا أبا ذرٍّ ،
اكتُم هذه الأمر ، وارجعْ إلى بلدك ، فإذا بلغك ظُهُورُنا فأقبل . فقلت : والذي
بعثك بالحق لأضُرَّخَنَّ به بين أظهرهم .

فجاء إلى المسجد ، وقرِئ فيه ، فقال : يامعشرَ قريش ؛ إني أشهد أن لا إله
إلا الله وأشهد أن محمداً عبدهُ ورسوله . فقالوا : قوموا إلى هذا الصابي^(١) ، فقاموا
فضرِبَتْ لأُموت ، فأدركني العباس ، فأكبَّ عليَّ ، ثم أقبلَ عليهم ، فقال :
ويلكم ! تقتلون رجلاً من غِفَّارٍ ومَتَجِرٍ كم وممرئٍ كم على غِفَّار ! فأقلعوا عني .
فلما أن أصبحتُ في الغد رجعتُ فقلت مثلَ ما قلتُ بالأمس . فقالوا : قوموا
إلى هذا الصابي ، فصنِّعْ بي مثلُ ما صنِّع بالأمس ! وأدركني العباس فأكبَّ
عليَّ ، وقال مثلَ مَقَالَتهِ بالأمس !

(١) صاباً : خرج من دين إلى دين .

٧٤ — جُودُ عُثْمَانَ بْنِ عَفَانَ*

أصاب الناسَ قَحْطٌ في خِلَافَةِ أَبِي بَكْرٍ ، فلما اشتدَّ بهم الأمرُ جاءوا إلى أبي بكرٍ وقالوا يا خليفةَ رسولِ الله ، إن السماءَ لم تمطرْ ، والأرضَ لم تنبتْ ، وقد تَوَقَّعُ الناسُ الهلاكَ ؛ فما نَصْنَعُ ؟ فقال لهم : انصرفوا واصبروا ، فإنِّي أرجو الله ألا تُمْسُوا حتى يُفَرِّجَ اللهُ عنكم .

فلما كان في آخرِ النهارِ وردَ الخبرُ بأنَ عُثْمَانَ بْنَ عَفَانَ جاءت من الشام . فلما جاءت خرج الناسُ يتلقَّونها ، فإذا هي أَلْفُ بَعِيرٍ مُوسَّقَةٍ بُرًّا وَزَيْتًا وَزَبِيدًا ، فَأَنَاخت بيابَ عُثْمَانَ^(١) ، فلما جعلها في داره جاء التجَّارُ ، فقال لهم : ماتريدون ؟ قالوا : إنك لتعلم ما نريدُ ! بَعْنَا مِنْ هَذَا الَّذِي وَصَلَ إِلَيْكَ ، فَإِنَّكَ تعلمُ ضرورةَ الناسِ إليه ! قال : حُبًّا وَكَرَامَةً . كم تَرْبِحُونَنِي^(٢) على شرائي ؟ قالوا : الدرهم درهمين . قال أعطيتُ زيادةً على هذا . قالوا : أربعة . قال : أعطيتُ زيادةً على هذا . قالوا : خمسة . قال : أعطيتُ أَكْثَرَ مِنْ هَذَا . قالوا : يَا أَبَا عَمْرٍو ، مابقي في المدينةِ تِجَارَةٌ غَيْرُنَا وَمَا سَبَقْنَا إِلَيْكَ أَحَدٌ ، فَمِنْ ذَا الَّذِي أَعْطَاكَ ؟ قال : إِنْ اللهُ أَعْطَانِي بِكُلِّ دَرَاهِمٍ عَشْرَةَ . أَعْنَدُكُمْ زِيَادَةً ؟ قالوا : لَا . قال : فَإِنِّي أَشْهَدُ اللهُ أَنِّي جَعَلْتُ مَا حَمَلْتُ هَذِهِ الْعَبِيرُ صَدَقَةً لِّلَّهِ عَلَى الْمَسَاكِينِ وَفُقَرَاءِ الْمُسْلِمِينَ .

* غَرَزُ الْخِصَائِصِ : ١٥٣ .

(١) عُثْمَانُ بْنُ عَفَانَ : ثالثُ خُلَفَاءِ الْمُسْلِمِينَ ، وَكَانَ غَنِيًّا لَمْ يَبْغِلْ بِمَالِهِ فِي سَبِيلِ الْإِسْلَامِ وَالْمُسْلِمِينَ . وَانْتَهَتْ خِلَافَتُهُ بِقَتْلِهِ سَنَةَ ٣٥ هـ (٢) أَرْبَحُهُ عَلَى سِلْعَتِهِ : أَعْطَاهُ رِبْحًا .

٧٥ - لبید والولید بن عُبَّة*

كان لبید^(١) بن ربيعة جواداً شريعاً في الجاهلية والإسلام ، وكان قد آلى في الجاهلية أن يُطعم ماهبت الصَّبَا . ثم أدام ذلك في إسلامه ، وكانت له جَفَنَتَانِ يَفْدُو بهما ويُرْوِح في كل يوم على مسجد قومه فيطعمهم ، ونزل لبید الكوفة ، وأميرها الوليد بن عُبَّة ، فبينما هو يخطبُ الناسَ إذ ذهبَت الصَّبَا ، فقال الوليد في خطبته على المنبر : قد علمتُم حالَ أخيكُم أبي عَقِيل ، وما جعل على نفسه : أن يُطعم ماهبت الصَّبَا ، وهذا يومٌ من أيامه . وقد هَبَّت ريحها ، فأعينوه ، وأنا أول من قَعَلَ .

ثم انصرف الوليد ، فبعث إليه بمائةٍ من الجزر ، وبهذه الأبيات :

أرى الجزارَ يَشْحَذُ شَفَرَتَيْهِ إذا هَبَّت رياحُ أبي عَقِيل
أشْمُ الأنفِ أَصِيدُ^(٢) عامري طويلُ الباعِ كالسيفِ الصَّقِيلِ
وفى ابنُ الجَعْفَرِ بما نَوَاه على العَلاتِ^(٣) والمالِ القَلِيلِ
بَنَحَرَ السُّكُومِ^(٤) إذ سَحَبَتْ إِلَيْهِ ذيولُ صَبَا تَجاذِبُ بالأُصِيلِ

فلما وصلت الهديةُ إلى لبید شكره ، وقال : إني تركتُ الشعر منذ قرأت القرآن ؛ ثم قال لابنته : أجيبيه ، فلعمري لقد عشتُ دهرًا وما أعيأ بجواب شاعر ، فقالت :

إذا هَبَّت رياحُ أبي عَقِيل دعونا عند هَبَّتِها الوليدَا

* الجهرة : ٣٩ ، المستطرف : ٢ - ٥٠ ، الأغاني ١٤ - ٩٣ ، بلوغ الأرب : ٣ - ٩٢ .
(١) لبید بن ربيعة العامري : أحد أشراف الشعراء المجيدين والقواد الفرسان المعمرين وهو من أصحاب الملققات لما ظهر الإسلام أسلم وحسن إسلامه ، ومات سنة ٤١ هـ (٢) الأصيد : رافم رأسه كبراً (٣) على العلات : على كل حال (٤) السكوم : القطعة من الإبل .

أَشْمَ الْأَنْفِ أُصَيْدَ عَبْشِيًّا^(١) أَعَانَ عَلَى مُرُوءَتِهِ لَيْيِدًا
بَأْمَالِ الْهَضَابِ^(٢) كَانَ رَكْبًا عَلَيْهِمَا مِنْ بَنِي حَامٍ قُعُودًا
أَبَا وَهْبٍ جَزَاكَ اللَّهُ خَيْرًا نَحْرُنَا هَا وَأَطْعَمْنَا الْوُقُودَا
فَعُدْ ، إِنْ الْكَرِيمَ لَهُ مَعَادٌ وَظَنِّي بِابْنِ أَرْوَى أَنْ يَعُودَا
فَقَالَ لَيْدٌ : أَجَبْتِ وَأَحْسَنْتِ ، لَوْلَا أَنْكِ سَأَلْتِ فِي شَعْرِكَ . قَالَتْ : إِنَّهُ أَمِيرٌ
وَلَيْسَ بِسُوقَةٍ ، وَلَا بِأَسَ بَسْوَالِهِ ، وَلَوْ كَانَ غَيْرَهُ مَسْأَلُنَاهُ ! قَالَ : أَجَلْ ، إِنَّهُ عَلَى
مَا ذَكَرْتِ ، وَأَنْتِ يَا بَنِيَّةُ فِي هَذَا أَشْعَرُ !

(١) نسبة إلى عبد شمس (٢) الهضاب : جمع هضبة ، وهي ما ارتفع من الأرض ، والمعنى :
أعان بجبال ضخام أمثال الهضام لضخامتها ، وقد شبهت أستمها بقوم سود قاعدين عليها ،
وهم بنو حام أي السودان .

٧٦ — الخطيئة والزبرقان بن بدر*

قديم الزُّبرقانُ على عمرٍ في سنةٍ مُجدبةٍ ، ليؤدىَ صدقاتِ قومه ، فلقبَه الخطيئةُ بقرقرى^(١) ، ومعه ابناه أوسٌ وسودةٌ وبناته وامراته ، فقال له الزُّبرقان — وقد عرفه ولم يعرفه الخطيئة — أين تريد ؟ قال : العراق ، فقد حطمتنا هذه السنة ، قال : وتصنعُ ماذا ؟ قال : ودِدْتُ أن أصادفَ بها رجلاً يكفيني مئونةَ عيالي ، وأُصفيه مدحجى أبداً .

فقال له الزُّبرقان : قد أصبته ، فهل لك فيه يؤسّمك لبناً وتمراً ، ويجاورك أحسنَ جوارٍ وأكرمهُ ؟ فقال له الخطيئة : هذا وأبيك العيشُ ، وما كنتُ أرجو هذا كله . قال : فقد أصبته . قال : عند مَنْ ؟ قال : عندى . قال : ومن أنت ؟ قال : الزُّبرقانُ بن بدر^(٢) . قال : وأين محلّك ؟ قال : اركبْ هذه الإبل ، واستقبلْ مَطْلَعَ الشمس ، وسلْ عن القمر حتى تأتى منزلى .

ثم كتب إلى أمه — وكان اسمها أم شدرة : أن أحسنى إليه ، وأكثرى له من التمر واللبن . وكان الخطيئةُ دميماً ، لا تأخذُ العينُ ، ومعه عيالٌ كذلك ؛ فلما رأت أم شدرة حاله هان عليها وقصّرتْ به^(٣) .

* الأغاني : ٢ - ١٨٠ ، نهاية الأرب : ٣ - ٢٩٧ ، ذيل زهر الآداب : ٢٢٧ ، ابن أبي الحديد : ٣ - ١٠٣ ، الكامل : ١ - ٣٤٨ ، ٣٥٤

(١) قرقرى : أرض باليمامة فيها قرى وزروع كثيرة ونخيل (٢) الزبرقان : البدر ، وسمى به الحصين بن بدر لحسنه ، وكان رسول الله قد استعمل الزبرقان على صدقات قومه وأقره أبو بكر . وتوفى أيام معاوية سنة ٤٥ هـ (٣) قصرت به : لم تكرمه ولم تبلغ ما يرضيه .

ونظر بغيض^(١) وبنو أنف الناقة إلى ما تصنع به أم شذرة ، فأرسلوا إليه :
 أن ائتنا ؛ فأبى عليهم وقال : إن من شأن النساء التقصير والفَقْلَة ، ولست بالذي
 أحلُّ على صاحبها ذنبها ؛ فلما ألح عليه بنو أنف الناقة قال لهم : لستُ بحاملٍ على
 الرجل ذنبَ غيره ، فإن تُرِكَتُ وجُفِيتُ تحولتُ إليكم ، فأطمعوه ووعدوه
 وعداً عظيماً .

فلما لم يجبهم دَسُّوا إلى هُنيدة زوجة الزبرقان : أن الزبرقان إنما يريد أن يتزوج
 ابنته مُليكة - وكانت جميلةً كاملة - فظهرت من المرأة للحطيئة جَفَوَةٌ ، وهي في
 ذلك تُدَارِيه . ثم أرادوا النُجْمَةَ^(٢) ، فقالت له أم شذرة : قد حضرت النجعة ،
 فاركب أنت وأهلك هذا الظهر إلى مكان كذا وكذا ، ثم اِرْذُدْهُ إلينا حتى
 نلتحقَكَ ، فإنه لا يَسْعُنَا جميعاً . فأرسل إليها : بل تقدِّمِي أنتِ فأنتِ أحقُّ بذلك ،
 ففعلت .

وتناقلت عن رده إليه ، وتركته يومين أو ثلاثة ، وألح بنو أنف الناقة عليه ،
 وقالوا له : قد تُرِكَتَ بمضيعة ، فلما ألحوا عليه أجابهم ، فقال : أما الآن فنعم !
 أنا صائر معكم ؛ وتحمل معهم . فضربوا له قَبَّةً ، وربطوا بكل طُئْبٍ من
 أطناها جُلَّةً^(٣) هَجَرِيَّةً ، وأراحوا^(٤) عليه إبلهم ، وأكثروا له من التمر واللبن ،
 وأعطوه لقاحاً^(٥) وكُسوةً .

فلما قدِمَ الزبرقان سأل عنه ، فأخبر بقصته ، فركب فرسه ، وأخذ رُفْحَهُ ،

(١) كان بغيض وبنو أنف الناقة ينازعون الزبرقان الشرف ، وكانوا أشرف من الزبرقان ؛ إلا
 أنه قد كان استعلاهم بنفسه (٢) النجعة : طلب الكلاء في موضعه (٣) الجلة : وعاء يتخذ من
 الخوص يوضع فيه التمر يكثر فيه (٤) لإراحة الإبل : ردها في العشي (٥) اللقاح : جمع لقوح
 وهي الناقة الحلوب .

وسار حتى وقف على نادى القرينيين ، فقال : رُدُّوا عَنِّي جَارِي ! فقالوا : ما هو لك بجارٍ ، وقد اطرحتَه وضيَّعْتَه ، فألَمَ^(١) أن يكونَ بينَ الحَيِّينَ حربٌ ؛ فحَضَرَهُمْ أَهْلُ الْحِجَابِ من قومهم ، ولاُمُوا بَغِيضًا وقالوا : ارددْ على الرجلِ جَارَه ، فقال : لستُ مُخْرِجَه وقد أُوَيْتِه ، وهو رجلٌ حرٌّ مالِكٌ لِأَمْرِهِ ، فخيروه ، فإن اختارني لم أُخْرِجْهُ ، وإن اختاره لم أُكْرِهْهُ .

فخَيَّرُوا الحَظِيثَةَ ، فاخْتَارَ بَغِيضًا ورَهَطَه ، فجاء الزُّبْرَقَانُ ووقَفَ عليه ، وقال له : يا أبا مُلَيْكَةَ ؛ أَفَارَقْتَ جَوَارِي عَنْ سُخْطٍ وَذَمٍّ ؟ قال : لا ؛ فانصرفت وتركة . وجعل الحَظِيثَةُ يمدحُ القُرَيْنِيَّينَ من غير أن يَهْجُوَ الزُّبْرَقَانَ ، وهم يَحْضُونَهُ على ذلك ويَحْضُونَهُ فَيَأْبَى ويقول : لا ذَنْبَ لِلرَّجُلِ عِنْدِي ، حتى أَرْسَلَ الزُّبْرَقَانُ إِلَى رَجُلٍ مِنَ النَّمِرِ بنِ قَاسِطٍ فَهَجَا بَغِيضًا ؛ فقال :

أرى إبلِي بِجَوْفِ الْمَاءِ حَلَّتْ	وَأَعْوَزَهَا بِهِ الْمَاءُ الرَّوَاهُ ^(٢)
وَقَدْ وَرَدَتْ مِيَاهَ بَنِي قُرَيْبٍ	فَمَا وَصَلُوا الْقَرَابَةَ مُذْ أَسَاءُوا
تُحَلَّلًا ^(٣) يَوْمَ وَرَدِ النَّاسِ إِبِلِي	وَتَصْدُرُ وَهِيَ مُخْنَقَةٌ ^(٤) ظِلْمَاءُ
أَلَمْ أَكُ جَارَ شِمَاسِ بْنِ لَأْيٍ	فَأَسْلَمَتْنِي وَقَدْ نَزَلَ الْبَلَاءُ
فَقُلْتُ : تَحْوَلِي يَا أُمُّ بَكْرِ	إِلَى حَيْثُ الْمَكَارِمُ وَالْعَلَاءُ
وَجَدْنَا بَيْتَ بَهْدَلَةَ بْنِ عَوْفٍ	تَعَالَى سَمْكُهُ وَدَحَا الْفَنَاءُ ^(٥)
وَمَا أَضْحَى لِسِمَاسِ بْنِ لَأْيٍ	قَدِيمٌ فِي الْفَعَالِ ^(٦) وَلَا رَبَّاهُ ^(٧)
سِوَى أَنْ الْحَظِيثَةَ قَالَ قَوْلًا	فَهَذَا مِنْ مَقَالَتِهِ جَزَاءُ

(١) أَلَمَ : قَرِبَ (٢) الرَّوَاهُ : السَّكْبَرُ الْمُرَوَّى (٣) تَحَلَّلًا : تَمَنَّى (٤) مُخْنَقَةٌ : ضَامِرَةٌ
(٥) دَحَا الْفَنَاءُ : عَظُمَ وَاتَّسَعَ (٦) الْفَعَالُ : اسْمٌ لِلْفِعْلِ الْحَسَنِ مِنَ الْجُودِ وَالْكَرَمِ وَنَحْوِهِ
(٧) الرَّبَّاءُ : الطَّوْلُ وَالنَّتَّةُ وَالْفَضْلُ .

فحينئذ قال الخطيئةُ يهجو الزُّبرقان ، ويناضِلُ عن بَفيضٍ - قصيدتهُ التي يقولُ فيها :

والله ما معشرٌ لامُوا امرأً جُنُباً ^(١)	في آل لَأَيِّ بنِ شَمَّاسٍ بِأُكْيَاسٍ ^(٢)
ما كان ذنبُ بَفيضٍ ، لا أبا لكم ،	في بائسٍ جاءَ يَحْدُو آخرَ النَّاسِ
لقد مَرَّيْتُكُمْ ^(٣) لو أنْ دَرَّيْتُكُمْ ^(٤)	يوماً يَجِيءُ بها مَسْجِي وإِسَاسِي ^(٥)
وقد مدحتكم عداً لِأَزِيدَكم	كَيْما يَكُونُ لَكُمْ مَتَجِي ^(٦) وإِمْرَاسِي ^(٧)
لما بدا لي منكم غَيْبُ أنْفُسِكُم	ولم يكن لِجِرَاحِي فيكمُ آسِي
أَزَمْتُ يَاساً مُبِيناً من نَوَالِكُم	ولن تَرى طَارِداً لِلْحَرِّ كَالْيَاسِ
ما كان ذنبُ بَفيضٍ أنْ رَأَى رجلاً	ذا فاقَةٍ حلَّ في مُسْتَوْعِرٍ شَاسِي ^(٨)
جاراً لِقَوْمٍ أَطَالُوا هُونَ مَنْزِلِهِ	وَعَادَرُوهُ مَقِيماً بَيْنَ أَرْمَاسٍ ^(٩)
مَلَوْا قِرَاهَ وَهَرَّتَهُ ^(١٠) كَلَابُهُمُ	وَجَرَّحُوهُ بِأَنْيَابٍ وَأَضْرَاسِ
دَعِ المَكَارِمَ لا تَرَحَّلْ لُبْغِيَّتِهَا	وَأَقْعُدْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الطَّاعِمُ ^(١١) الْكَاسِي ^(١٢)
مَنْ يَفْعَلُ الْخَيْرَ لا يَمْدَمُ جَوَازِيَهُ	لا يَذْهَبُ الْعَرَفُ بَيْنَ اللَّهِ وَالنَّاسِ
ما كان ذنبي أنْ فُلْتُ مَعَاوِلَكُم	من آل لَأَيِّ صَفَاةً ^(١٣) أَصْلُهَا رَاسِي

(١) الجنب : القريب (٢) جمع كيس : اللبيب الفطن ، والمراد بالمعشر الزُّبرقان ورهطه (٣) مَرَّيْتُ : الناقة يمرُّ بها : مسح ضرعها ، المراد مداراتهم ومدحهم ليدروا عليه بالعطاء (٤) دَرَّيْتُ : الدرة : اللبن (٥) الإِسَاس : أن تدعو الناقة باسمها وتلاطفها لتدر (٦) المتح : أن يقف الرجل فوق البئر ليجذب الدلو (٧) الإِمْرَاس : وضع جبل البئر في البكرة بعد أن أنزلق منها (٨) المستوعر : المكان الوعر ، والشاسي : المكان الغليظ المرتفع (٩) الرمس : القبر ، وجمعه أرماس . والهون : المذلة : أي تركوه كاليت (١٠) هَرَّتَهُ : الكلاب نبحت . وهو كناية عن أنه كان غريباً بينهم (١١) الطاعم : المظوم . والكاسي : المكسو . (١٢) الصفاة : الحجر الصلد الضخم .

قَدْ نَاضُلُوكَ فَسَلُّوا مِنْ كُنَاثِهِمْ مَجْدًا تَلِيدًا وَنَبَلًا غَيْرَ أَنْكَاسٍ ^(١)
 فَاسْتَعْدَى عَلَيْهِ الزَّبْرَقَانُ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ ، فَرَفَعَهُ عُمَرُ إِلَيْهِ وَاسْتَنْشَدَهُ فَأَنْشَدَهُ ،
 فَقَالَ عُمَرُ : مَا أَسْمَعُ هَجَاءَ وَلَكِنِّهَا مَعَانِيَةٌ . فَقَالَ الزَّبْرَقَانُ : أَوْ تَبْلُغُ مَرُوءَتِي إِلَّا
 أَنْ آكُلَ وَأَلْبَسَ ! فَقَالَ عُمَرُ : عَلَى بَحْسَانٍ ، فَجِئْ بِهِ ، فَسَأَلَهُ ، فَقَالَ : أَتُرَاهُ هَجَاءً ؟
 قَالَ : نَعَمْ وَسَلِّحْ عَلَيْهِ ! فَخَبَسَهُ عُمَرُ ، فَقَالَ فِي الْحَبْسِ :

أَعُوذُ بِمَجْدِكَ إِنِّي أَمْرُؤٌ سَقَتْنِي الْأَعَادِي إِلَيْكَ السَّجَالَا ^(٢)
 فَإِنَّكَ خَيْرٌ مِنَ الزَّبْرَقَانِ أَشَدُّ نَكَالًا وَأَرْجَى نَوَالًا
 تَحَنَّنْ عَلَيَّ هَذَاكَ الْمَلِيقُ فَإِنْ لِكُلِّ مَقَامٍ مَقَالًا
 وَلَا تَأْخُذْنِي بِقَوْلِ الْوُشَاةِ فَإِنَّ لِكُلِّ زَمَانٍ رِجَالًا
 فَإِنْ كَانَ مَا زَعَمُوا صَادِقًا فَسَيَقْتُ إِلَيْكَ نِسَائِي رِجَالًا ^(٣)
 حَوَاسِرَ لَا يَشْتَكِينُ الْوَجَا ^(٤) يُخَفِّضُنَ آلًا ^(٥) وَيَرْفَعُنَ آلَا
 فَلَمْ يَلْتَفِتْ عُمَرُ إِلَيْهِ ، حَتَّى قَالَ :
 مَاذَا تَقُولُ لِأَفْرَاحٍ بِذِي مَرَجٍ ^(٦) زُغْبِ الْحَوَاصِلِ لَا مَاءَ وَلَا شَجَرٍ
 أَلْقَيْتَ كَاسِبَهُمْ فِي قَعْرِ مُظْلِمَةٍ فَاعْفِرْ عَلَيْكَ سَلَامُ اللَّهِ يَا عَمْرُؤُ
 أَنْتَ الْإِمَامُ الَّذِي مِنْ بَعْدِ صَاحِبِهِ أَلْقَتْ إِلَيْكَ مَقَالِيدَ النَّهْيِ الْبَشْرُ
 لَمْ يُوَثِّرْوكَ بِهَا إِذْ قَدَّمَوكَ لَهَا لَكِنْ لَا نَفْسَهُمْ كَانَتْ بِكَ الْأَثَرُ ^(٧)

(١) أنكاس : جمع نكس ، وهو أضعف السهام . ومعنى البيت : إن العرب كانوا إذا أسروا
 أسيراً خيروه بين التخلية ، وجز الناصية ، والأسر ، فإن اختار جز الناصية جزوها له ، وخلوا
 سبيله ، ثم جعلوا ذلك الشعر في كنانهم ، فإذا افتخروا أخرجوه وأروهم مفاخرهم .
 (٢) السجالات : جمع سجل ، وهو الدلو العظيمة مملوءة (٣) جمع رجلة ، أي راجلة .
 (٤) الوجا : الحفا ، وقيل شدته (٥) الآل : عمد الحيمة (٦) ذو مرخ : واد بالحجاز .
 (٧) الأثر : واحدها أثر ، ومعناها الاستثثار والمكرمة .

فأمنن على صبية بالرمل مسكنهم بين الأباطح تفشاهم بها القرر^(١)
 أهلى فداؤك كم يبنى وبينهم من عرض دأوية^(٢) نعى بها الخبر
 فبكى عمر حين قال : « ماذا تقول لأفراخ بذي مرخ » . فقال عمرو بن
 العاص : ما أظلت الخضراء ؛ ولا أقلت الغبراء أعدل من رجل يبكى على تركه
 الخطيئة ! فقال عمر : على بالكبرى ، فأتى به ؛ فجلس عليه ، ثم قال : أشيروا على
 فى الشاعر فإنه يقول الهجر ؛ وينسب بالحرم ، ويمدح الناس ويذمهم بغير ما فيهم .
 ما أراى إلا قاطعاً لسانه ؛ ثم قال : على بالطست ، فأتى بها^(٣) . ثم قال : على
 بالمخصف^(٤) ، على بالسكين ، لا ؛ بل على بالموسى فهو أوحى^(٥) إفصح الخطيئة
 وقال : إنى والله يأمر المؤمنين قد هجوت أبى وأمى وامراتى ونفسى ، فتبسم عمر ،
 ثم قال : ما الذى قلت ؟ قال : قلت لأبى وأمى :

ولقد رأيتك فى النساء فسؤتنى وأبأ بينك فساءنى فى المجلس
 وقلت لأبى خاصة :

فبئس الشيخ أنت لدى تميم وبئس الشيخ أنت لدى المعالى
 وقلت لأمى خاصة :

تنحى واجلسى منى بعيداً أراح الله منك العالمينا !
 أغرب^(٦) بالآ إذا استودعت سرّاً وكانوا^(٧) على المتحدثينا ؟
 حياتك ما علمت حياة سوء وموتك قد يسر الصالحينا

(١) القرر : جمع قررة ، وهى البرد (٢) الدأوية : الفلاة الواسعة (٣) الطست مؤنث ،
 وقد تذكر (٤) المخصف : مخز الإسكانى (٥) أوحى : أسرع .
 (٦) أصل الغريال : ما غربل به ، وهو يريد أنها لا تحفظ سرّاً (٧) الكانون : الثقليل الوخم
 من الناس ، وقيل : الكانون الذى يجلس حتى يتحصى الأخبار والأحداث .

وقلت لامرأتى :

أطوِّف ما أطوِّفُ ثم آوى إلى بيتٍ قَعِيدَتُهُ لَكَاعٌ^(١)
وقلت لنفسى :

أَبَتِ شَفَتَايَ الْيَوْمَ إِلَّا تَكَلَّمَا بِسَوْءٍ ! فَمَا أُدْرِى لِمَنْ أَنَا قَائِلُهُ
أَرْنِى لِي وَجْهًا شَوَّهَ اللَّهُ خَلْقَهُ فَقُبِّحَ مِنْ وَجْهِهِ وَقُبِّحَ حَامِلُهُ
فَقَالُوا : لَا يَعُودُ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، وَأَشَارُوا إِلَيْهِ أَنْ قُلْ لَا أَعُودُ ، فَقَالَ : لَا أَعُودُ
يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ . فَقَالَ لَهُ : النَّجَاءُ ! ثُمَّ قَالَ لَهُ عُمَرُ : يَا حُطَيْثَةَ ، كَأَنِّى بِكَ عِنْدَ فِتْنَى
مِنْ قَرِيشٍ ، قَدْ بَسَطَ لَكَ نُمُرُقَةً^(٢) ، وَكَسَرَ لَكَ أُخْرَى وَقَالَ : غَنَّنَا يَا حُطَيْثَةَ ،
فَطَفَّقَتْ تَغْنِيهِ بِأَعْرَاضِ النَّاسِ^(٣) !

قَالَ ابْنُ أَسْلَمَ : فَمَا انْقَضَتْ الدُّنْيَا حَتَّى رَأَيْتُ الحُطَيْثَةَ عِنْدَ عُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ قَدْ
بَسَطَ لَهُ نُمُرُقَةً ، وَكَسَرَ لَهُ أُخْرَى وَقَالَ : غَنَّنَا يَا حُطَيْثَةَ ، فَجَعَلَ يَغْنِيهِ ، فَقُلْتُ لَهُ :
يَا حُطَيْثَةُ ، أَتَذْكُرُ قَوْلَ عُمَرَ ؟ فَفَزِعَ وَقَالَ : يَرْحَمُ اللَّهُ ذَلِكَ الْمَرْءَ ، أَمَا إِنَّهُ لَوْ كَانَ
حَيًّا مَا فَعَلْتُ !

(١) اللُكَاعُ : الأُمة اللثيمة (٢) النمرقة : الوسادة (٣) يروى أن عمر رضى الله عنه لما أطلق
الحطيثة أراد أن يؤكد عليه الحجة فاشترى منه أعراض المسلمين جميعاً بثلاثة آلاف درهم ، فقال
الحطيثة فى ذلك

وَأَخَذْتُ أَطْرَافَ الْكَلَامِ فَلَمْ تَدَعْ شَتْمًا يَضُرُّ وَلَا مَدِيحًا يَنْفَعُ
وَمَنْعَتْنِى عَرْضَ اللَّثِيمِ فَلَمْ يَخْفَ ذِى وَأَصْبَحَ آمِنًا لَا يَفْزَعُ

٧٧- قدوم الحطيثة على عتبة بن النحاس*

بيننا سعيد بن العاص يُعَشِّي الناس بالمدينة ، والناس يُخرجون أولاً أولاً ؛
 إذ نُظِرَ على بساطه إلى رجل قبيح المنظر ، رث الهيئة ، جالس مع أصحاب سمره ؛
 فذهب الشرطُ يقيّمونه ؛ فأبى أن يقوم ، وحانت من سعيد التفاتة ؛ فقال : دَعُوا
 الرجل ، فتركوه ، وخاضوا في أحاديث العرب وأشعارها ملياً ، فقال لهم الحطيثة^(١) :
 والله ما أصبتم جيد الشعر ، ولا شاعر العرب ، فقال له سعيد : أتعرف من ذلك
 شيئاً ؟ قال ، نعم ، قال : فمن أشعر العرب ؟ قال الذي يقول :
 لَا أَعْدُ الْإِفْتَارَ عُدْمًا وَلَكِنْ فَقَدْ مَن رَزَيْتَهُ الْإِعْدَامُ
 وأنشد القصيدة حتى أتى عليها .

فقال له : مَنْ يقولها ؟ قال : أبو ذؤاد الإيادي ، قال : ثم مَنْ ؟

قال : الذي يقول :

أَفْلَحَ^(٢) بما شئتَ فقد يُدْرِكُ بِالْجَهْلِ وقد يُخْدَعُ^(٣) الأريبُ
 ثم أنشدها حتى فرغ منها ؛ قال : وَمَنْ يقولها ؟ قال : عبيد بن الأبرص ، قال :
 ثم مَنْ ؟ قال : لحسبك بي عند رغبةٍ أو رهبةٍ إذا رفعتُ إحدى رجلي على
 الأخرى ، ثم عَوَيْتُ في إثر القوافي عواءَ الفصيل الصّادي ؛ قال : ومن أنت ؟

* الأغاني : ٢ - ١٦٨

(١) الحطيثة : هو أبو مليكة جرويل بن أوس بن مالك العبسي ، أحد المهاجرين والمداحين
 المجيدين ، عاش مدة في الجاهلية وجاء الإسلام فأسلم ، ومات سنة ٥٩ هـ (٢) أفلح : من الفلاح
 وهو البقاء ، أي عشت بما شئت من عقل وحق ، فقد يرزق الأحق ، ويحرم العاقل (٣) رجل
 مخدع : خدع مراراً .

قال : الخطيئة ، فرحّب به سعيد ، ثم قال : أسأتَ بِكُتْمَانَا نَفْسَكَ منذ الليلة ، ووصله وكساه .

ومضى لوجهه إلى عُتَيْبَةَ بنِ النَّهَاسِ العِجْلِيّ فسأله ، فقال له : ما أنا على عمل فأعظيك منه ، ولا في مالى فضلٌ عن قومي ، قال له : فلا عليك ! وانصرف . فقال له بعضُ قومه : لقد عرّضْنَا ونَفَسَكَ للشر ! قال : وكيف ؟ قالوا : هذا الخطيئة ، وهو هاجينا أخبرَ هجاء ، فقال : ردّوه ، فردوه إليه ، فقال له : لِمَ كَتَمْتَنَا نَفْسَكَ ؟ كأنك تطلبُ العِلَلَ علينا ؟ اجلس فلك عندنا ما يسرُّك ، فجلس ، فقال له مَنْ أشعر الناس ؟ قال الذى يقول :

وَمَنْ يَجْعَلِ المَعْرُوفَ مِنْ دُونِ عِرْضِهِ ^(١) يَفِرْهُ ^(٢) وَمَنْ لَا يَتَّقِ الشُّتْمَ يُشْتَمِ
فقال عُتَيْبَةُ : إن هذا من مقدّمات أفاعيك ، ثم قال لو كيّله : اذهب معه إلى السوق فلا يطلبُ شيئاً إلا اشتريته له . فجعل يعرض عليه الخبزَ ورقيق الثياب فلا يريدها ، ويؤمى إلى الكرايبس ^(٣) والأكسيّة الغلاظ ، فيشتريها له ، حتى قضى أَرَبَهُ ^(٤) ، ثم مضى .

فلما جلس عُتَيْبَةُ فى نادى قومه أقبلَ الخطيئة ، فلما رآه عُتَيْبَةُ قال : هذا مقامُ العائذِ بك يا أبا مُليكة من خيرك وشرك ، قال : قد كنتُ قلتُ بيتين ، فاسمعهما :
ثم أنشأ يقول :

سُئِلْتَ فلم تبخل ولم تعطِ طائلاً فسيانٍ لا ذمٌ عليك ولا حمدُ
وأنت امرؤٌ لا الجودُ منك سجيةٌ فتعطى ، وقد يُعَدَى على النائلِ الوُجْدُ ^(٥)
ثم ركضَ فرسه ، فذهب !

(١) يفره : يتمه ولا ينقصه ، والبيت لزهير بن أبى سلمى (٢) الكرايبس : ثياب القطن
(٣) الأرب : الحاجة .
(٤) يعدى : يعين ، والنائل : ما نلت من معروف لإنسان . والوجد : البسار والسعة .
(٥) يعدى : يعين ، والنائل : ما نلت من معروف لإنسان . والوجد : البسار والسعة .

٨٨ — فقير عند سعيد بن العاص *

قديم سعيد^(١) بن العاص الكوفة عاملاً عليها ؛ فكانت له موائدُ يَفْشَاهَا
الأشرافُ والقرءاء ؛ فكان فيمن يَفْشَى موائدَه رجلٌ من القرءاء فقير ؛ فقالت له
امراته يوماً : وَيْحَكَ ! إنه يبلغنا عن أميرنا هذا كرمٌ وجود ؛ فاذْكُرْ له بعضَ
مانحنُ فيه !

فتعشَّى عنده ذات ليلة ، فلما انصرف الناسُ ثبت الرجل ، فقال له سعيد : إني
قد أرى جلوسَكَ ، وما جلستَ إلّا أولك حاجة ، فاذكرها - رحمك الله ! فتعقد
الرجل وتلعثم . فقال سعيد لغلسانه : تنحّوا ، ثم قال له - رحمك الله - لم يَبْقَ
إلا أنا وأنت ، فاذْكُرْ حاجتك ، فتعقد أيضاً وتعصّي ، فنفخ سعيدُ المصباح
فأطْفَأَهُ ، ثم قال له : رحمك الله - إنك لست ترى وَجْهِي ، فاذكُرْ حاجتك ! قال :
أصلح الله الأمير ، أصابتنا حاجة فأحببتُ ذِكْرَها لك . قال له : إذا أصبحتَ فأتني
فلاناً وكيلى !

فلما أصبح لقي الوكيلَ ، فقال له : إن الأمير قد أمرني بشيء ؛ فهل جئتَ
بِمَنْ يحمل ؟ قال : لا والله ما عندي مَنْ يَحْمِلُ ! ورجع إلى امرأته ، وجعل يَعْذِلُها
ويلومُها . وقال لها : إن وكيلى قال : جئتَ بِمَنْ يَحْمِلُ ؟ وما هي إلا قَوْصَرَةٌ^(٢)
من تمر ، أو قفيزٌ من بُر ، ولو كانت دراهم أو دنائير أعطانيها بيده ! قالت :

* عين الأدب والسياسة : ١٩٠

(١) سعيد بن العاص : أحد أجواد العرب وكرماهم ، كان يأتيه الرجل يسأله فلا يكون
عنده ، فيقول : ما عندي ولكن اكتب على به ، فيكتب عليه كتاباً ثم يدفع له بعد ذلك ، توفي
سنة ٥٩ هـ .

(٢) القوصرة : وعاء يوضع فيه التمر .

وَيَحْكُ ! مَا كَانَ مِنْ شَيْءٍ فَقَوَّيْنَا بِهِ . فَكَثَّ أَيَّامًا ، ثُمَّ لَقِيَهِ الْوَكِيلُ ، فَقَالَ لَهُ :
وَيَحْكُ ! أَيْنَ تَكُونُ ؟ أَخْبَرْتُ الْأَمِيرَ أَنَّهُ لَيْسَ عِنْدَكَ مَنْ يَحْمِلُ ؛ فَأَمَرَنِي أَنْ أَوْجِهَ
مَعَكَ مَنْ يَحْمِلُ .

فَوَجَّهَ مَعَهُ بِثَلَاثَةِ مِنَ السُّودَانِ يَحْمِلُ كُلُّ وَاحِدٍ بَذْرَةً عَلَى عَاتِقِهِ ، حَتَّى
أَوْرَدَهَا مَنْزِلَهُ .

فَأَطْلَقَ وَكَّاءَ^(١) بَذْرَةَ مِنْهَا ، وَوَهَبَ لَهُمْ مِنْهَا دُرَيْهَمَاتٍ ، وَقَالَ : انصَرَفُوا !
قَالُوا : إِلَى أَيْنَ ؟ مَا سَجَلُ لَهُ مَمْلُوكٌ قَطُّ هَدِيَّةً ؛ فَرَجَعَ فِي مَلِكِهِ !

(١) الْوَكَّاءُ : الرِّبَاطُ .

٧٩ — قصر سعيد بن العاص *

لما حضرت سعيد بن العاص الوفاة وهو في قصره قال له ابنه عمرو : لو نزلت إلى المدينة ! فقال : يا بني ؛ إن قومي لن يَضِنُّوا عليَّ بأن يحملوني على رقابهم ساعة من نهار ! وإذا أنا ميتٌ فأَذْنِهم ^(١) ، فإذا واريثني فانطلق إلى معاوية فأنعني له ، وانظر في ديني ، واعلم أنه سيعرض عليك قضاءه فلا تفعل ، واعرض عليه قصرى هذا ؛ فإنى إنما اتخذته نزهة وليس بمال .

فلما مات آذَن الناس به ؛ فحملوه من قصره حتى دُفِنَ بالبيع ^(٢) ، ورَوَّاحلُ عمرو بن سعيد مُنَاخَةً ، فعزَّاه الناسُ على قبره وودَّعوه ؛ وكان هو أول من نَعَاه إلى معاوية ، فتوجَّع له وترحَّم عليه ؛ ثم قال : هل ترك ديناً ؟ قال : نعم ! ثلثمائة ألف ، قال : هي عليَّ ! قال : قد غنَّ ذلك ، وأمرني ألا أقبله منك ، وأن أعرض عليك بعضَ ماله فتبتاعه ؛ فيكون قضاء دينه منه . قال : فأعرض عليَّ . قال : قصره ، قال : قد أخذته بدينه . قال : هو لك على أن تحمِلَهَا إلى المدينة وتجعلها بالوافية ^(٣) قال :- نعم ؛ فحملها له إلى المدينة ، وفرَّقها في غُرَمائه ، وكان أَكْثَرُهَا عِدَاتٍ ^(٤) .

فأتاه شاب من قريش بصكٍّ فيه عشرون ألف درهم بشهادة سعيد على نفسه ، وشهادة مولى له عليه ؛ فأرسل إلى المولى فأقرَّاه الصك ؛ فلما قرأه بكى ، وقال :

* الأغاني : ١ - ٣٢

(١) آذَنهم : أعلمهم (٢) البيع : مقبرة أهل المدينة (٣) الدرهم الوافي : درهم وأربعة دوانق ، والدانق : سدس الدرهم (٤) عِدَات : عطايا وعدَّ بها .

نعم ، هذا خطُّه ! وهذه شهادتي عليه ! فقال له عمرو : من أين يكونُ لهذا الفتى عليه عشرون ألف درهم ، وإنما هو صُغُلوك من صعاليك قريش ؟ قال : أخبرك عنه : مرَّ سعيد بعد عزله ، فاعترض له هذا الفتى ، ومشى معه ، حتى صار إلى منزله ، فوقف له سعيد ، فقال : ألك حاجةٌ ؟ قال : لا ، إلا أنى رأيتك تمشى وحدك ؛ فأحببتُ أن أصل جناحك . فقال لى : انتنى بصحيفة ما ، فأتيتُ بهذه ، فكتب على نفسه هذا الدَّين ، وقال له : إنك لن تصادفَ عندنا شيئاً ؛ فخذُ هذا فإذا أنا ناشيء فأتينا !

فقال عمرو : لاجرم ! والله لا يأخذها إلا بالوافية ، أعطه إياها ، فدفع إليه
عشرين ألف درهم !

٨٠ — معاوية وسعيد بن العاص ! *

مرض سعيد بن العاص وهو بالشام ، فعادَهُ معاوية ، ومعه شُرَحْبِيل بن السمط ومسلم بن عقبة المرثى ، ويزيد بن شجرة الزهري ؛ فلما نظر سعيدَ معاوية وثبَ عن صدرِ مجلسه ، إعظاماً له . فقال له معاوية : أقسمتُ عليك أبا عثمان ألا تتحركَ فقد ضَعُفْتُ بالعله ، فسقط ، فتبادر معاوية نحوه حتى حنَّ عليه ؛ وأخذ بيده ، فأقعده على فراشه ، وقعد معه ، وجعل يسأله عن علته ومفامه وغذائه ، ويصفُ له ما ينبغي أن يتوقاه ، وأطال القعود معه .

فلما خرج التفتَ إلى شُرَحْبِيل بن السمط ؛ ويزيد بن شجرة ، فقال : هل رأيتما خللاً في مال أبي عثمان ؟ فقالا : ما رأينا شيئاً ننكره ؛ فقال لمسلم بن عقبة : ما تقول ؟ قال رأيْتُ ! قال : وما ذاك ؟ قال : رأيْتُ على حشمه ^(١) ومواليه ثياباً وَسَخَةً ، ورأيْتُ صحنَ داره غير مكنوس ، ورأيْتُ التجار يخاصمون قهرَ مانه ^(٢) ! قال : صدقت ! كل ذلك قدرأيته .

فوجه إليه مع مسلم بثلاثمائة ألف ؛ ، فسبق رسوله يبشره بها ؛ ويخبره بما كان ؛ فغضب ؛ سعيد ، وقال للرسول : إن صاحبك ظنَّ أنه أحسن فأساء ، وتأوَّل فأخطأ ؛ فأما وسخُ ثياب الحشم فمن كثرة حركتهم اتسخت ثيابهم ، وأما كنسُ الدار

* العقد الفريد : ١ - ١٥٠

(١) الحشم : خدم الرجل .

(٢) القهرمان : هو كالحازن والوكيل المافظ لما تحت يده ، القائم بأمر الرجل .

فليست أخلاقنا أخلاق من جعل داره مرآته ، وزينته لبسته ^(١) ، ومعروفة عطره ،
ثم لا يبالي بمن مات هزالا من ذى لُحمة ^(٢) أو حرمة ، وأما منازعة التجار قهر ماني
فمن كثرة حوائجه وبيعه وشرائه لم يجد بدا من أن يكون ظلماً أو مظلوماً . وأما
المال الذى أمر به أمير المؤمنين فقد قبلناه ، وأمرنا لصاحبك منه بمائة ألف !
ولشر حبل بمثلها ، وليزيد بمثلها ! وفى سعة الله وبسط يد أمير المؤمنين
ما عليه معولنا !

فركب مسلم بن عقبة إلى معاوية فأعلمه بذلك ، فقال : صدق ابن عمى فيما قال ،
وأخطأت فيما اتهمت إليه ، فاجعل نصيبك من المال لروح بن زباع عقوبة لك ،
فإنه من جنى جناية عوقب بمثلها ، كما أنه من فعل خيراً كوفى عليه !

٨١ — كرم معاوية*

قال معاوية يوماً لعقيل^(١) بن أبي طالب : هل من حاجة فأقضيها لك ؟ قال : نعم ، جارية عُرِضَتْ عَلَى وَاَبَى أَصْحَابُهَا أَنْ يَبْيَعُوهَا إِلَّا بِأَرْبَعِينَ أَلْفًا ! فَأَحَبَّ معاوية أَنْ يَمَازِحَهُ ، فَقَالَ : وَمَا تَصْنَعُ بِجَارِيَةٍ قِيمَتَهَا أَرْبَعُونَ أَلْفًا ، وَأَنْتَ أَعْمَى تَجْزِي بِجَارِيَةٍ قِيمَتَهَا خَمْسُونَ دِرْهَمًا ؟

قال : أَرْجُو أَنْ تَلِدَ لِي غَلَامًا إِذَا أَغْضَبْتَهُ يَضْرِبُ عُنُقَكَ بِالسَّيْفِ ! فَضَحِكَ معاوية ، وَقَالَ : مَا زَحَفْنَاكَ يَا أَبَا يَزِيدَ ! وَأَمْرٌ فَاذْبَحِيهِ لَهَ الْجَارِيَةُ ؟ وَوَلَدَتْ لَهُ مُسْلِمًا .

فلما أَتَتْ عَلَى مُسْلِمٍ ثَمَانِي عَشْرَةَ سَنَةً ، وَقَدْ مَاتَ عَقِيلُ أَبُوهُ ، قَالَ لِمَعَاوِيَةَ : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ؛ إِنْ لِي أَرْضًا بِمَكَانٍ كَذَا مِنَ الْمَدِينَةِ ، وَإِنِّي أُعْطِيتُ بِهَا مِائَةَ أَلْفٍ ، وَقَدْ أَحْبَبْتُ أَنْ أَيْبَعَكَ إِيَّاهَا ؛ فَادْفَعْ إِلَيَّ ثَمَنَهَا ، فَأَمْرٌ مَعَاوِيَةَ بِقَبْضِ الْأَرْضِ ، وَدَفْعِ الثَّمَنِ إِلَيْهِ .

فَبَلَغَ ذَلِكَ الْحُسَيْنَ بْنَ عَلِيٍّ ؛ فَكَتَبَ إِلَى مَعَاوِيَةَ : أَمَا بَعْدَ ! فَإِنَّكَ غَرَرْتَ غَلَامًا مِنْ بَنِي هَاشِمٍ ، فَابْتِغَيْتَ مِنْهُ أَرْضًا لَا يَمْلِكُهَا ، فَاقْبِضْ مِنَ الْغَلَامِ مَا دَفَعْتَهُ ، وَارْدُدْ إِلَيْنَا أَرْضَنَا .

فَبَعَثَ مَعَاوِيَةُ إِلَى مُسْلِمٍ ؛ فَأَخْبَرَهُ بِذَلِكَ ، وَأَقْرَأَهُ كِتَابَ الْحُسَيْنِ ، وَقَالَ :

* ابن أبي الحديد : ٣ - ٨٢ .

(١) هو أخو علي بن أبي طالب ، أُسِرَ يَوْمَ بَدْرٍ ، فَقَدَاهُ الْعَبَّاسُ بِأَرْبَعَةِ آلَافِ دِرْهَمٍ . وَأَسْلَمَ عَقِيلٌ وَلِحَقٍّ بِمَعَاوِيَةَ وَتَرَكَ أَخَاهُ عَلِيًّا ، وَمَاتَ بَعْدَ مَا عَمِيَ سَنَةَ ٦٠ هـ .

ارْزُدْ عَلَيْنَا مَالَنَا ، وَخُذْ أَرْضَكَ ؛ فَإِنَّكَ بَعْتَ مَا لَا تَمْلِكُ ! فقال مسلم : دون ذلك
أن أضربَ رأسَكَ بالسيف ! فاستلقى معاويةُ ضاحكاً يَضْرِبُ برجليه ، ثم قال :
يَا بُنَيَّ ؛ هذا والله كلامٌ قاله لى أبوك حين ابتعتُ له أُمَّكَ !
ثم كتب إلى الحسين : إني قد رددتُ عليكم الأرض ، وسوّغتُ مسلماً
ما أَخَذَ .

فقال الحسين : أَيُّتُمْ يَا آلَ أَبِي سُفْيَانَ إِلَّا كَرَمًا !

٨٢ — معاوية يَغْفُو*

لما استعمل معاوية زياداً على العراق كتب إليه : أما بعد فانظر عبدَ الله^(١) ابن هاشم بن عُتْبَةَ ، فشدَّ يده إلى عنقه ، ثم ابعثْ به إلى .
فحمله زيادٌ من البصرة مُقَيِّداً مَغلولاً إلى دِمَشق ، فأدْخَلَ على معاوية ،
وعنده عَمْرُو بن العاص ؛ فقال معاوية لعمرُو : هل تعرفُ هذا ؟ قال : لا ! قال :
هذا الذى يقولُ أبوه^(٢) يومَ صِفِّين :

إِنِّى شَرِيتُ^(٣) النَّفْسَ لَمَّا اعْتَلَا وَأَكْثَرَ اللَّوَمَ وَمَا أَقْلَا
أَعْوَرَ يَبْنِى أَهْلَهُ^(٤) مَحَلًّا قَدْ عَالَجَ الْحَيَاةَ حَتَّى مَلَا
لَا بُدَّ أَنْ يَفْلَ^(٥) أَوْ يَفْلَا يَتْلُهمُ بِذِي الْكُؤُوبِ^(٦) تَلَا
* لَا خَيْرَ عِنْدِي فِي كَرِيمٍ وَلِي *

فقال عمرو متمثلاً :

وَقَدْ يَنْبُتُ الْمَرْعَى عَلَى دِمَنِ^(٧) الثَّرَى وَتَبْقَى حَزَازَاتُ النَّفُوسِ كَمَا هِيََا
دُونِكَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ! الضَّبَّ^(٨) الضَّبَّ ! فَاشْخُبْ أَوْ دَاجِهِ عَلَى أَسْبَاجِهِ^(٩) ،

* المسعودى : ٢ - ٥٧

- (١) كانت في نفس معاوية من يوم صِفِّين لُحْنٌ على هاشم بن عتبة وولده عبد الله بن هاشم .
(٢) جاء عمار بن ياسر إلى هاشم بن عتبة - وكان هاشم أعور - فقال : يا هاشم ؛ أعوراً وجنباً ؟
أركب ، فركب ومضى معه وهو يرتجز : لِمَ شَرِيتُ النَّفْسَ
(٣) شَرِيتُ النَّفْسَ : بعتها في سبيل الله ، لما اعتل : لما رماني بعمار بالجبن .
(٤) يَبْنِى أَهْلَهُ : أى محل أهله ومصيرهم وهم الذين استشهدوا قبله . (٥) يَفْلَ : يهزم .
(٦) تَلَا : صرعه . وذو الكؤوب : الرمح (٧) الدمن : جمع دمنة وهى ناعسة سوداء من أنار الدار
(٨) الضب : يضرب بخداعه المثل ، فيقال : أخدع من ضب (٩) الأوداج : عروق في العنق ،
وشخبت أوداج القتل دماً : جرى دمها ، والأسباج : جمع سبجة وهى من القميص بليقته .
(١٤ - قصص - أول)

فلا تردّه إلى العراق ؛ فإنه لا يصبر على النِّفاق ، وهم أهل غَدْرٍ وشقاق ، وإن له
هوَى سَيُودِيهِ ، ورأياً سَيُطْفِيهِ ، وبِطْأَةً سَتُقَوِّيهِ ؛ وجزاء سيئة سيئة مثلها !
فقال عبد الله : يا عمرو ؛ إن أُقْتَلَ فرجلٌ أُسْلِمَهُ قَوْمُهُ وأدَرَ كهُ يَوْمُهُ ؛ أَفَلَا
كان هذا منك إِذْ تَحِيدُ عن القتال ، ونحن ندعوك إلى النَّزال ! فقال عمرو : أما والله
لقد وقعت ، ولأحسبك مُنْقَلَبًا من مَحَالِبِ أمير المؤمنين !
فقال عبد الله : أما والله يابن العاص ؛ إنك لَبَطَرٌ في الرَّخاء ، جَبَانٌ عند اللِّقاء ،
عَشُومٌ إِذَا وَلَّيْتَ ، هَيَّابٌ إِذَا لَقِيتَ ؛ أَفَلَا كان هذا منك إِذْ غَمَرَكَ أَقْوَامٌ لَمْ
يُعْتَفُوا صِغَارًا ، وَلَمْ يُمِزَّ قُؤَا كِبَارًا ، لَمْ أَيْدِ شِدَادَ ، وَأَلْسَنَةُ حَدَادَ ...
فقال عمرو : أما والله لقد رأيتُ أَبَاكَ يَوْمَئِذٍ تَخْفِقُ أَحْشَاؤُهُ ، وَتَبْقُ^(١)
أَمْعَاؤُهُ ! ...

فقال عبد الله : يا عمرو ؛ إنا قد بَلَوْنَاكَ ومَقَالَتِكَ ؛ فوجدنا لسانَكَ كذُوبًا
غادرًا ، خلوتَ بِأَقْوَامٍ لا يعرفونكَ ، وجُنْدٍ لا يَسْأَمُونَكَ ؛ وَلَوْ رُمْتَ المنطقَ في غير
أهل الشام لَجَحَظَ^(٢) إِلَيْهِ عَقْلُكَ ، وَلَتَا جَلَجَلَ لِسَانُكَ ، وَلَا ضُطْرِبَ فِخْذَاكَ اضْطِرَابَ
الْقَعُودِ الَّذِي أَثْقَلَهُ حِمْلُهُ !

فقال معاوية : إِيهًا عَنكُمَا ؛ وأمر بإطلاق عَبدِ الله ! فقال عمرو لمعاوية :
أَمَرْتُكَ أَمْرًا حَازِمًا فَصَصَيْتَنِي وكان من التوفيق قتلُ ابنِ هاشم
أليسَ أبوه ، يَا معاويةُ ، الَّذِي أعانَ عَلِيًّا يَوْمَ حَزِّ الْعَلَاصِمِ^(٣)
فَلَمْ يَنْشِنِي حَتَّى جَرَّتْ مِنْ دِمَائِنَا بِصَفِّينَ أَمْثَالُ الْبُحُورِ الْخَضَارِمِ^(٤)

(١) تبق : تخرج ، بقى التبت بقوقاً : طلع .

(٢) جحظت العين : إذا برزت مقلتها ، والمراد اضطراب عقلك وتمرده ، ولم يسلس لك قياد
التفكير (٣) النلصة : رأس الخلقوم ، والجمع غلاصم . (٤) الحضرم : البحر العظيم ،
وبقيت الباء في « ينثي » للضرورة

وهذا ابنه ، والمزمه يُشبههُ سِنَخَه
فقال عبدُ الله يحبيه :

مُعَاوِيَ إِنْ الْمَرْءَ عَمَرَأَ أَبَتْ لَهُ
يَرَى لَكَ قَتْلِي يَا بَنَ هَنْدٍ ، وَإِنَّمَا
عَلَى أَنَّهُمْ لَا يَقْتُلُونَ أَسِيرَهُمْ
وَقَدْ كَانَ مِنَّا يَوْمَ صِفِّينَ نَعْرَةٌ ^(٢)
قَضَى مَا انْقَضَى مِنْهَا وَلَيْسَ الَّذِي مَضَى
فَإِنْ تَعَفُّ عَنِّي تَعَفُّ عَنْ ذِي قُرَابَةٍ
فقال معاوية :

أَرَى الْعَفْوَ عَنْ عَلِيٍّ قَرِيشَ وَسِيلَةً
وَلَسْتُ أَرَى قَتْلَ الْعُدَاةِ ابْنِ هَاشِمٍ
بَلِ الْعَفْوُ عَنْهُ بَعْدَ مَا بَانَ جُرْمُهُ
فَكَانَ أَبُوهُ يَوْمَ صِفِّينَ بَجْرَةً
إِلَى اللَّهِ فِي الْيَوْمِ الْعَصِيبُ الْقَمَاطِرُ ^(٤)
يَادْرَاكَ تَأْرَى فِي لَوْيٍ وَعَامِرٍ
وَزَلْتُ بِهِ إِحْدَى الْجُدُودِ الْعَوَاتِرِ
عَلَيْنَا فَأَرَدْتُهُ رِمَاحُ نَهَابِرٍ ^(٥)

(١) قرع سنه : حرقه ندماً ، أى سحقه حتى سمع له صريف ، وسكن الفعل للضرورة .
والسنخ : الأصل من كل شيء . (٢) نعر القوم : هاجوا واجتمعوا في الحرب .
(٣) وكان عبد الله بن هاشم من أقرباء معاوية .
(٤) يوم قاطر : شديد (٥) النهابر : المهالك .

٨٣ — الوفي !*

كان أبو بلال^(١) مِرْدَاس بن حُدَيْرَ تعظّمه الخوارج ، وكان مجتهداً كثيراً الصواب في لفظه ، فلقبه غَيَّلَان بن خَرَشَةَ الضَّبِّي ؛ فقال : يا أبا بلال ؛ إني سمعتُ الأميرَ^(٢) البارحة يذكر البُلْجَاءَ^(٣) ، وأحسبها ستؤخذ ، فمضى إليها مرداس ، فقال لها : إن الله قد وسّع على المؤمنين في التَّقِيَةِ^(٤) فاستترى ، فإن هذا المسرفَ على نفسه الجبارَ العنيد قد ذكركَ ! قالت : إن يأخذني فهو أشقى بي ! فأما أنا فما أحبُّ أن يُعَنَّتَ^(٥) إنسانٌ بسببي !

فوجه إليها عبيدُ الله بن زياد ، فأثى بها ، ففطع يديها ورجليها ؛ ورمى بها في السوق ، فمرَّ مِرْدَاس ، والناسُ مجتمعون ، فقال : ما هذا ؟ فقالوا : البُلْجَاءُ ! فمرّج عليها ، فنظر ، ثم عضَّ على لحيته ، وقال لنفسه : لَهْذِه أَطِيبُ نفساً منك يا مرداس !

ثم إن عبيد الله تتبع الخوارج فحبسهم ، وحبس مرادساً ؛ فرأى صاحبُ السجن شدةَ اجتِهاده ، وحلاوةَ منطِقِهِ ، فقال له : إني أرى لك مذهباً حسناً ، وإني لأحبُّ أن أوليكَ معروفاً ! أفرايت إن تركتكَ تنصرفُ ليلاً إلى بيتك

* رغبة الأمل : ٧ - ١٨٧ ، السكامل : ٢ - ١٥٤

(١) من عظام الإباضية وأحد الخطباء الأبطال ، سجنه عبيد الله في الكوفة ، ونجا من السجن وجمع من قاتل عبيد الله فنشب قتال في يوم الجمعة وتوادخ الفريقان إلى ما بعد الصلاة فأحاط بهم جيش عبيد الله وهم في صلاتهم فقتلهم عن آخرهم ، وحملوا رأس مرداس إلى ابن زياد سنة ٦١ هـ .

(٢) هو عبيد الله بن زياد أمير البصرة ، ولاه معاوية عليها سنة ٥٥ هـ ، وكان شديداً على الخوارج

(٣) البلجاء : هي امرأة من بني حرام وكانت من مجتهدات الخوارج (٤) التقية : حفظ النفس بما يستتاع من المكروه (٥) عنته : ألزمه ما يصعب عليه أدائه .

أَتَدْلِجُ^(١) إِلَى؟ قال : نعم ! فكان يفعلُ ذلكُ به ! ولجَّ عبيدُ الله في حبْسِ الخوارج وقتلهم ، فكلَّم في بعض الخوارج ، فلجَّ وأبى ، وقال : أقمعُ النفاقَ قبل أن يَنجُمَ^(٢) ، لَكَلَامُ هَؤُلَاءِ أَسْرَعُ إِلَى الْقُلُوبِ مِنَ النَّارِ إِلَى الْيَرَاعِ^(٣) !

فلما كان ذات يوم قَتَلَ رجلٌ من الخوارج رجلاً من الشَّرِطِ ، فقال ابنُ زياد : ما أدرى ما أصنعُ بهؤلاء ! كلما أَمَرْتُ رجلاً بِقَتْلِ رجلٍ منهم فَتَكُوا بِقَاتِلِهِ ، لَا قَتْلَ مَنْ فِي حَبْسِي مِنْهُمْ .

فأَخْرَجَ السَّجَّانُ مِرْدَاساً إِلَى مَنْزِلِهِ كَمَا كَانَ يَفْعَلُ ، وَأَتَى مِرْدَاساً الْخَبِيرَ ، فَلَمَّا كَانَ السَّحَرُ تَهَيَّأَ لِلْخُرُوجِ ، فَقَالَ لَهُ أَهْلُهُ : اتَّقِ اللَّهَ فِي نَفْسِكَ ، فَإِنَّكَ إِنْ رَجَعْتَ قُتِلْتَ ! فَقَالَ : إِنِّي مَا كُنْتُ لِأَلْتَقِيَ اللَّهَ غَادِراً ! فَرَجَعَ إِلَى السَّجَّانِ ، فَقَالَ لَهُ : أَمَّا عَلِمْتَ مَا عَزَمَ عَلَيْهِ صَاحِبُكَ ؟ قَالَ : عَلِمْتُ . فَقَالَ : أَعَلِمْتَ وَرَجَعْتَ ! قَالَ : نَعَمْ وَلَمْ يَكُنْ جَزَاؤُكَ مَعَ إِحْسَانِكَ أَنْ تَعَاقَبَ بِسَبْيِي !

وَأَصْبَحَ عُبيدُ اللَّهِ يَقْتُلُ الْخَوَارِجَ ، ثُمَّ دَعَا بِمِرْدَاسٍ ، فَلَمَّا حَضَرَ وَثَبَ السَّجَّانُ ؛ فَقَبِلَ قَدَمَهُ ؛ ثُمَّ قَالَ : هَبْ لِي هَذَا ، وَقِصَّ عَلَيْهِ قِصَّتَهُ ، فَوَهَبَهُ لَهُ !

(١) ادلج : سار آخر الليل ، وأدلج : سار من أول الليل (٢) ينجم : يظهر (٣) اليراع : جمع يراعة ، وهى القصة .

٨٤ — أَسْخَى مِنَ الْبَحْرِ إِذَا زَخَرَ *

حبس معاوية عن الحسين^(١) بن عليّ صَلَاتِهِ ، حتى ضاقت عليه حاله ، فقيل له : لو وَجَّهْتَ إلى ابنِ عمك عُبيدِ الله بنِ العباس ، فإنه قدِمَ بنحوٍ من ألف ألف درهم !

فقال الحسينُ : وأين تقعُ ألفُ ألفٍ من عُبيدِ الله ، فوالله لهُوَ أجودُ من الريح إذا عَصَفَ ، وأسخى من البحر إذا زَخَرَ ؛ ثم وجهَ إليه مع رسولِهِ بكتاب ، ذكرَ فيه حبسَ معاوية صَلَاتِهِ عنه وضيقَ حاله ؛ وأنه يحتاجُ إلى مائة ألف درهم . فلما قرأ عُبيدُ الله كتابه - وكان من أرقِّ الناس قلباً ؛ وألينهم عِطفاً^(٢) - انهملت عيناهُ ، ثم قال : ويلك يا معاوية مما اجترحتَ يدَاك من الإثم حين أصبحتَ لَيِّنَ المهاد ، رفيعَ العِماد ؛ والحسينُ يشكو ضيقَ الحال ، وكثرةَ العيال !

ثم قال لقهْرَ مانه^(٣) : احمل إلى الحسينِ نصفَ ما أملكه من فضةٍ وذهب وثوب ودابةٍ ! وأخبره أنى شاطرته مالى ، فإن أَقْنَعَهُ ذلك وإلا فارّج وأحِلَّ إليه الشَّطْرُ^(٤) الآخر . فقال له القيمُّ : فهذه المؤنُّ التى عليك من أين تقومُ بها ؟ قال : إذا بَلَّغْنَا ذلك دَلَلْتُكَ على أمرٍ تُقيم به حالُك .

فلما أتى الرسولُ برسالته إلى الحسينِ ، قال : إنا لله ! تحمَلْتُ والله على ابنِ عمى ، وما حسبتُهُ يتَّسعُ لنا بهذا كله ، فأخذ الشَّطْرَ من ماله ؛ وهو أولُ مَنْ فعل ذلك فى الإسلام .

* خزائن الأدب : ٣ - ٢٥٧ ، الطبعة الأميرية .

(١) هو الحسين بن علي بن أبي طالب رضى الله عنه ، ولد بالمدينة ، ونشأ فى بيت النبوة ، وقتل بكر بلا سنة ٦١ هـ . (٢) أصل العطف : الجانب (٣) القهرمان : كالحازن والوكيل الحافظ لما تحت يده ، والقائم بأمور الرجل بلغة الفرس (٤) الشطر : النصف .

٨٥ — يَجُودُ عَلَى مِقْدَارِ نَفْسِهِ*

خرج عبيد الله ^(١) بن العباس مرة من المدينة يريد معاوية في الشام ، فأصابته سماء ؛ فنظر إلى نُؤَيْرَةَ ^(٢) عن يمينه ، فقال لعلامه : **مِلْ بِنَا إِلَيْهَا .**
فلما أتياها إذا شيخ ذو هيئة رثة ، فقال له : **أَنِخْ ؛ انزل ، حُيِّتَ ! ودخل إلى منزله ، فقال لامرأته : هَيِّئِي شَاتَكَ أَقْضِي بِهَا ذِمَامَ ^(٣) هذا الرجل ، فقد تَوَسَّمتُ فيه الخير ؛ فإن يكن من مُضَرِّ فهو من بنى عبد المطلب ، وإن يكن من اليمين فهو من بنى آكلِ المُرَارِ ^(٤) .** فقالت له : **قد عرفتَ حالَ صِنِّيَتِي ، وأنَّ معيشتهم منها ؛ وأخافُ الموتَ عليهم إن فقدوها ؛ فقال : موتهُم أحبُّ إلىَّ من اللؤم ^(٥) ، ثم قبض على الشاة ؛ فأخذ الشَّفْرَةَ ، وأنشد :**

قَرِيبَتِي ^(٦) لَا تُوقِظِي بَنِيَّه إِنْ يُوقِظُوا يَنْسَجِبُوا عَلَيْهِ
وَيَنْزَعُوا الشَّفْرَةَ مِنْ يَدِيَّه أَبْغِضْ هَذَا أَنْ يُرَى لَدِيَّه

ثم ذبحها وكشط جلدها ، وقطعها أرباعاً ، وقذفها في القِدرِ حتى إذا استوت ثَرَدَ ^(٧) في جَفَنَةٍ ؛ فعشَّاهم ثم غَدَّاهم .

وأراد عبيد الله الرحيل ، فقال لعلامه : **ارْزَمْ لِلشَّيْخِ مَامَعَكَ مِنْ نَفَقَةٍ ، فقال : ذَبْحُ لَكَ الشاة فَكَافِيَتْهُ بِشْمِنْ عَشْرَةِ أَمْثَالِهَا ؛ وهو لَا يَعْرِفُكَ ! فقال : وَيَحْكُ !**

* خزانة الأدب : ٣ - ٥٩٣ ، الطبعة الأميرية .

- (١) عبيد الله بن العباس : كان مشهوراً بالجلود ، معدوداً من الأجواد ، وهو أول من فطر جيرانه في رمضان ، وأول من وضع موائده في الطرق ، توفي سنة ٨٧ هـ (٢) تصغير نار (٣) الذمام : الحرمة (٤) آكل المُرَار : جد امرئ القيس . وبنو آكل المُرَار : هم ملوك اليمن (٥) اللؤم : البخل (٦) القريبة : ذات القرابة (٧) يبرد الحيز ، أى فته .

إن هذا لم يكن يملكُ من الدنيا غيرَ هذه الشاة ، فجاءَ لنا بها ، وإن كان لا يعرفُنا
فأنا أعرفُ نفسى ، ارمِ بها إليه ، فرماها إليه ، فكانتُ خمسمائة دينار !
ثم ارتحلَ عبيدُ الله ، فأتى معاوية ، فقضى حاجته ، ثم أقبلَ راجعاً إلى المدينة ،
حتى إذا قربَ من ذلك الشيخ قال لسلامه : ملُ بنا ننظره فى أىِّ حالة هو ،
فاتبها إليه ، فإذا برجلٍ سرى عنده دُخانٌ عال ، ورمادٌ كثير ، وإبلٌ وغنم ؛
ففرح بذلك ، وقال له الشيخُ : انزل بالرحب والسعة ! فقال له عبيدُ الله :
أتعرفنى ؟ فقال : لا ، والله ، فمن أنت ؟ فقال : أنا تزيتُك ليلةً كذا وكذا ، فقام
إليه فقبلَ رأسه ويديه ورجليه ، وقال : قد قلتُ أحياناً ؛ أسمعُها منى ؟ فقال :
هاتِ ، فأنشد :

توسمته^(١) لما رأيتُ مهابةً عليه وقلتُ : المرء من آل هاشم
وإلا فمن آل المرار فإنهم ملوكٌ عظامٌ من كرامٍ أعظم
فقمْتُ إلى عَنزٍ بقيَّةٍ أعزٍ لأذبحها فعلَ امرىءٍ غيرِ نادِمٍ
فمعوَضنى عنها غِنائى ولم تكنِ تُساوى^(٢) عَنزى غيرِ خمسِ دراهمٍ
فقلتُ لأهلٍ فى الخلاءِ^(٣) وصِيتى : أحقَّ أرى أم تلك أحلامٌ نائمٍ !
فضحك عبيدُ الله ، وقال : أعطيتنا أكثرَ مما أخذتَ منا ، يا غلام ، أعطِه مثلها !
وبلغتُ فَعَلتَه معاوية فقال : لله درُّ عبيدِ الله ، من أى بيضة خرج ! وفى أى
عُشٍّ دَرَج !

(١) توسمته : نفرسته (٢) تساوى : بوضع الضمة على الياء للضرورة (٣) الخلاء : الفضاء .

٨٦ — من حِيل الكُرماء *

أهدى معاوية إلى عُبيد الله بن العباس حُللاً كثيرة ، ومِسْكَاً وآنيةً من ذهبٍ وفِضَّة ، ووجهها إليه مع حاجيه ؛ فلما وَضَعَهَا بين يديه نظر إلى الحاجب وهو يُطِيلُ النَّظَرَ فيها - فقال : هل في نفسك منها شيء ؟ قال : نعم ، والله إنَّ في نفسي منها ما كان في نفس يعقوب من يوسف !

فضحك عُبيد الله وقال : فشانك بها ؛ فهي لك ! قال : جُعِلْتُ فُداك ! أنا أخاف أن يبلغ ذلك معاوية ؛ فيغضبَ لذلك . قال : فاختمها بخاتمك ، وادفعها إلى الخازن ، وهو يحملها إليك ليلاً . فقال الحاجب : والله إنَّ هذه الحيلةَ في الكرماء أكثرُ من الكرم ؛ وَلَوَدِدْتُ أَنِّي لَا أَمُوتُ حتَّى أراك مكانه - يعني معاوية . فظنَّ عُبيدُ الله أنها مَكِيدَةٌ منه ؛ فقال : دَعْ هذا الكلام ؛ إنَّا من قومٍ نَفِي بما عَقَدْنَا ، ولا نَنَقُضُ ما أَكَدْنَا !

٨٧ — يَدُّ عِنْدَ عُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ الْعَبَّاسِ *

أتى رجلٌ عبیدَ الله بن العباس ^(١) - وهو بفناء دارِه فقال : يا بنَ العباس ؛
إن لی عندك يدأ وقد احتجتُ إليها ؛ فصعَّد فيه بصره وصوَّبَه ، فلم يعرفه . ثم قال
له : ما يدُك عندنا ؟ قال : رأيتُك واقفاً زمزم وغلأمك يمتَحُ ^(٢) لك من مائها ،
والشمسُ قد صهرتُك ، فظللْتُك بطرفِ كسائي حتى شربت !

قال : إني لأذكرُ ذلك ، وإنه يتردَّدُ في خاطري وفِكرى ! ثم قال لقيمه :
ما عندك ؟ قال : مائتا دينار وعشرةُ آلاف درهم . قال : ادفعها إليه ، وما أراها تنفي
بحقِّ يدهِ عندنا !

قال له الرجل : والله لو لم يكن لإسماعيلَ ولدٌ غيرُك لكان فيه ما كفاه ،
فكيف وقد ولدَ سيِّدَ الأولين والآخرين محمداً صلى الله عليه وسلم ، ثم شفعَ بك
وبأييك !

* خزائن الأدب : ٣ - ٢٥٦ ، الطبعة الأميرية .

(١) في عبید الله يقول شاعر المدينة :

وفي السنة الشهباء أطعمت حامضاً وحلواً ولحماً تامكاً ومزماً
وأنت ربيع للبناتى وعصمة إذا الحبل من جو السماء تطلعا
أبوک أبو الفضل الذى كان رحمة وغنياً ونوراً للخلائق أجماً
التامک : تمک السنام : اکثر . المزع : مزع اللحم : فرقه . الحبل : الجذب .
(٢) متح الماء : نزعہ .

٨٨ - لو بدأت بي*

خرج الحسن والحسين وعبدُ الله بن جعفر حُجَّاجًا ، فقَاتَهُمُ أَثْقَالُهُمُ^(١) ؛ فجَاعُوا وعَطَشُوا ؛ ففَرَّوْا بِمَجُوزٍ فِي خِباءٍ لَهَا ؛ فقال أَحَدُهُم : هل مِنْ شَرَابٍ ؟ قالت : نعم . فَأَنَاحُوا إِلَيْهَا ، وَلَيْسَ لَهَا إِلَّا سُوءِيَّةٌ^(٢) . فقالت : احلبوها فاشربوا لبنها ، ففعلوا .

فقالوا : هل مِنْ طَعَامٍ ؟ قالت : لا ؛ إِلَّا هَذِهِ الشَّاةُ فَلْيَذْبَحْهَا أَحَدُكُمْ حَتَّى أَهْبِيَّ لَكُمْ مَا تَأْكُلُونَ !

فقام إِلَيْهَا أَحَدُهُم فذَبَحَهَا وَكَشَطَهَا^(٣) ، ثُمَّ هَيَّأَ لَهُمْ طَعَامًا فَأَكَلُوا ، وَأَقَامُوا حَتَّى أَبْرَدُوا^(٤) .

فَلَمَّا ارْتَحَلُوا قالوا : نَحْنُ نَفَرٌ مِنْ قَرِيشٍ نَرِيدُ هَذَا الْوَجْهَ ؛ فَإِذَا رَجَعْنَا سَالِمِينَ ، فَأَتَيْتُ بَنِي إِسْرَافِيلَ صَانِعُونَ إِلَيْكَ خَيْرًا ! وَارْتَحَلُوا .

وَأَقْبَلَ زَوْجُهَا ، فَأَخْبَرْتُهُ بِخَيْرِ الْقَوْمِ وَالشَّاةِ ، فَغَضِبَ وَقَالَ : وَيْحَكَ ! تَذْبَحِينَ شَاةً لِقَوْمٍ لَا أَعْرِفُهُمْ ، ثُمَّ تَقُولِينَ : نَفَرٌ مِنْ قَرِيشٍ !

ثُمَّ بَعْدَ مَدَّةٍ أَلْجَأَتْهُمَا الْحَاجَةُ إِلَى دُخُولِ الْمَدِينَةِ فَدَخَلَاهَا ، وَجَعَلَا يَلْتَقِطَانِ الْبَقَرَ وَيَعِيشَانِ بِشَمْنِهِ ؛ فَمَرَّتِ الْعَجُوزُ بِبَعْضِ سِكَكِ الْمَدِينَةِ ، فَإِذَا الْحَسَنُ بْنُ عَلِيٍّ وَقَفَّ بِبَابِ دَارِهِ ، فَعَرَفَ الْعَجُوزَ ، فَبَعَثَتْ إِلَيْهَا غَلَامَهُ ، فَدَعَا بِهَا ، فَقَالَ لَهَا :

* ثمرات الأوراق للحموي : ٢٤

(١) جمع ثقل : وهو التناع (٢) شاة صغيرة (٣) يريد : سلخها (٤) أبردوا : دخلوا في آخر النهار .

يا أمة^(١) الله ، أتعرفيني ؟ قالت : لا ! قال : أنا ضيفُكِ بالأمس يوم كذا وكذا !
قالت : بأبي أنت وأمي !

ثم اشترى لها من شياه الصدقة ألف شاة ، وأمر لها بألف درهم ، وبعث بها
مع غلامه إلى الحسين ، فأمر لها بمثل ذلك ، وبعث بها مع غلامه إلى عبد الله بن
جعفر ، فقال لها : بكم وصلّك الحسن والحسين ؟ قالت : بألفي درهم ، وألفي شاة .
فقال لها . لو بدأتِ بي لأتعبتُهما في العطاء ! أعطوها عطيتَهما .
فرجعت العجوزُ إلى زوجها بأربعة آلاف درهم ، وأربعة آلاف شاة !

(١) أصل الأمة المملوكة .

٨٩ — اختبار الأجواد*

تمارى ثلاثة في أجواد الإسلام ، فقال رجل : أسخى الناس في عصرنا هذا عبدُ الله بن جعفر بن أبي طالب . وقال آخر : أسخى الناس عرابة^(١) الأوسى . وقال ثالث : بل قيس بن سعد^(٢) بن عبادة . وأكثروا الجِدال في ذلك ، وعَلَا ضجيجهم وهم بِفناء الكعبة .

فقال لهم رجل : قد أَكْثَرْتُمُ الجِدال في ذلك ، فما عليكم أن يَمْضَى كُلُّ واحد منكم إلى صاحبه يسأله ، حتى ننظرَ ما يُعْطيه ، ونحكم على العِيان ؟
فقامَ صاحبُ عبد الله إليه ، فصادفه قد وضعَ رجلَه في غَرْزٍ^(٣) ناقته يريد ضَيْعَةً له ، فقال : يا بنَ عمِّ رسولِ الله ! قال : قل ماتشاء . قال : أنا ابن سبيلٍ ومنقطع به ، فأخرجَ رجلَه من غَرْزِ الناقة ، وقال له : ضَعُ رجلك ، واستَوِ على الراحلة ؛ وخذْ ما في الحقيقة ، واحتفظ بالسيف ، فإنه من سيوف على بن أبي طالب رضى الله عنه !

لجاء بالناقة ، والحقيقة فيها مطارف^(٤) خَزٌّ ، وأربعة آلاف دينار ، وأعظمها وأجلُّها السيف !

ومضى صاحب قيس بن سعد بن عبادة ، فصادفه نائماً ، فقالت الجارية :

* غرر الخصاص : ١٥٥ ، ثمرات الأوراق للحدوى : ١ - ١٠٢

(١) عرابة الأوسى : من سادات المدينة الأجواد المشهورين أدرك حياة النبي صلى الله عليه وسلم وأسلم صغيراً ، وتوفي بالمدينة سنة ٦٠ هـ (٢) كان من دهاة العرب وذوى رأى الصائب ، وكان شريف قومه غير مدافم ، وعاش إلى أيام معاوية ، ومات سنة ٥٨ هـ .

(٣) الغرز : ركاب الرجل (٤) المطرف من الثياب : ما جعل في طرفه علان .

هو نائم ، فما حاجتُك إليه ؟ قال : ابن سبيل ومنقطع به ، قالت : حاجتُك أهون من إيقاظه ! هذا كيسٌ فيه سبعمائة دينار ، واللهُ يعلمُ أن مافي دار قيس غيره ، خذه ؛ وامنضِ إلى معَاطِنِ^(١) الإبل ، إلى أموالِ^(٢) لنا بعلامتنا فخذُ راحلةً من رواحله ، وما يصلحها وعبدًا ، وامنضِ لشأنك !

ولما انتبه قيس من رقدته أخبرته بما صنعتُ فأعْتَقَهَا .

ومضى صاحبُ عَرَابَةِ الأوسى إليه ؛ فألقاه قد خرج من منزله يريدُ الصلاة وهو يمشي على عَبدَيْنِ ، وقد كُفَّ بصرُهُ ، فقال : يا عَرَابَةَ ، ابنُ سبيل ومنقطع به ، فخلّى العَبْدَيْنِ ، ووصَفَقَ يَمُنَّاهُ على يُسرَاهُ ، وقال : أواه ! أواه ! ما تركت الحقوقَ لِعَرَابَةِ مالا ، ولكن خذْها - يعني العبدَيْنِ - قال : ما كنتُ بالذي أقصُ جناحيك . قال : إن لم تأخذْها فهما حرَّان ، فإن شئتَ تأخذ ، وإن شئتَ تَعْتِقْ ، وأقبلَ يلتمسُ الحائطَ ، راجعًا إلى منزله .

فأخذها صاحبُها ، وجاء بهما إلى رفاقه ؛ فقالوا : إن هؤلاء الثلاثة أجودُ عصرهم ، إلا أن عَرَابَةَ^(٣) أكثرهم جوداً لأنه أعطى جهده ،

(١) المعاطن : جمع معطن ، وهو مبرك الإبل (٢) أموال : تريد الإبل ، وأكثر ما يطلق المال عند العرب على الإبل ، لأنها كانت أكثر أموالهم (٣) وفي عَرَابَةِ الأوسى يقول الشماخ المرى : رأيت عَرَابَةَ الأوسى يسمو إلى الخيرات منقطع القرين إذا ماراية رفعت لمجد تلقاها عَرَابَةَ باليمين

٩٠ - إن هذا لأَسْحَى مِنِي*

خرج عبدُ الله^(١) بنُ جعفر إلى ضَيْقَةٍ له فنزل على نخيل قومٍ ؛ فيها غلامٌ أسودٌ يقومُ عليها ، فأَتى بثلاثة أقراص^(٢) ، فدخل كلبٌ فذنا منه ، فرمى إليه بقرصٍ فأكله ، ثم رمى إليه بالثاني والثالث فأكلهما ، وعبدُ الله ينظر إليه ، فقال : يا غلام ، كم قوتك كلَّ يوم ؟ قال : ما رأيت ! قال : فلم آثرت الكلب ؟ قال : لأنَّ أرضنا ليست بأرضٍ كلاب ، وإخاله قد جاء من مسافةٍ بعيدةٍ جائعاً ، فكَرِهْتُ رَدَّهُ !

قال : فما كنت صانعاً اليوم ؟ قال : أطوى^(٣) يومي هذا ! فقال عبدُ الله ابن جعفر : والله إنَّ هذا لأَسْحَى مِنِي فاشتري النخل والعبد ، وأعتقه وَوَهَبَ ذلك له !

* المستطرف : ٢ - ٣٦ .

(١) انظر صفحة ٢٤ . (٢) القرس كالرغيف ، ويقال : ترد أيضاً . (٣) أطوى : لا آكل شيئاً

٩١ — إِنَّا نُنْزِلُ الضَّيْفَ وَلَا نَرْحَلُهُ*

خرج داودُ بن سلمٍ إلى حرب بن خالد ، فلما قَدِمَ عليه قام غِلْمَانُهُ إلى مَتَاعِهِ ، فَأَدْخَلُوهُ وَحَطَّوْا عَنْ رَاحِلَتِهِ ، فلما دخل أنشده :

وَلَمَّا دُفِعْتُ لِأَبْوَابِهِمْ وَلَا قَيْتُ حَرْبًا لَقَيْتُ النَّجَاحَا
وَجَدْنَاهُ يَحْمَدُهُ الْمُعْتَفُونَ^(١) وَيَأْتِي عَلَى الْعُسْرِ إِلَّا سَبَاحَا
وَيُفْشُونَ حَتَّى تَرَى كَلْبَهُمْ يَهَابُ الْهَرِيرَ^(٢) وَيَنْدَى الثُّبَاحَا

فأمرَ له بجوائز كثيرة ، ثم استأذنه في الانصراف ، فأذن له ، وأعطاه ألف دينار .

فلما خرج من عنده ، وغلمانُه جلوس ، لم يَقُمْ إليه أحدٌ منهم ولم يُعِنِّهِ ، فظنَّ أنَّ حَرْبًا سَاخَطَ عَلَيْهِ ، فرجع إليه وقال : أَوَاجِدُ^(٣) أَنْتَ عَلَيَّ ؟ قال : لا ، وَلَيْمَ ذَلِكَ ؟ فَأَخْبَرَهُ خَيْرَ الْغِلْمَانِ ، قال : ارجع إليهم فَسَلِّمُهُمْ .

فرجع إليهم فسألهم ، فقالوا : إِنَّا نُنْزِلُ الضَّيْفَ وَلَا نَرْحَلُهُ !

فلما قدم المدينة سمع الغاصريُّ بمحدثه ، فأتاه ، فقال : إِنِّي أَحَبُّ أَنْ أَسْمَعَ هَذَا الْحَدِيثَ مِنْكَ ، فحدثه ، فقال : وَاللَّهِ إِنْ فَعَلَ الْغِلْمَانُ أَحْسَنُ مِنْ شَعْرِكَ !

* الأماي : ١ - ٢٤٢ ، ونرحله : نحمّله على الرحيل .

(١) المعتنى : كل طالب فضل أو رزق (٢) الهرير : صوت الكلب دون النباح . (٣) أوجد : أغضب .

٩٢ — الأخطل محبوس في كنيسة *

قال إسحاق بن عبد الله : قدمت الشام وأنا شابٌ مع أبي ، فكنت أطوفُ في كنائسها ومساجدها ، فدخلتُ كنيسة دمشق ، وإذا الأخطل ^(١) فيها محبوسٌ ، فجعلتُ أنظرُ إليه . فسأل عني فأخبرَ بنسبي ؛ فقال : يا بُني ؛ إنك لرجلٌ شريف ، وإني أسألك حاجةً . فقلت : حاجتك مقضية . قال : إن القسَّ حبسني ها هنا فتكلمهُ ليخلى عني .

فأتيتُ القسَّ فانتسبتُ له ، فرحب وعظم ، ثم قلت : إن لي إليك حاجةً . قال : وما حاجتك ؟ قلت : الأخطل مُخْلِ عنه . قال : أعيدُك بالله من هذا ! مثلك لا يتكلم فيه ؛ فاسقٌ يشتمُ أعراضَ الناس ويهجوهم ! فلم أزل أطلبُ إليه حتى مضى معي متكئاً على عصاه ، فوقف عليه ورفع عصاه ، وقال : يا عدو الله ! أتعوذُ تشتمُ الناس وتهجوهم وتقذِفُ المحصنات ! وهو يقول : لست بعائد ولا أفيل ، ويستخذى له .

فقلت له : يا أبا مالك ، الناسُ يهابونك ، والخليفةُ يُكرمُك ، وقدرُك في الناس قدرُك ، وأنت تخضعُ لهذا وتستخذى له ! فجعل يقول لي : إنه الدين ! أنه الدين !

* الأغاني : ٨ - ٢٠٩ .

(١) هو أبو مالك غياث الأخطل بن غوث التغلبي النصراني شاعر الأمويين ، نشأ في قومه تغلب بأرض الجزيرة ينتصر لهم على مضر عامة ، وقيس خاصة ، ولما كان متصلاً بالخلفاء وبحروب قومه مع قيس صار يجيد مدح الملوك ووصف المعارك وكذلك الخمر لمعاقرته إياها ، وكان أخطر الشعراء لدى الأمويين ، اتخذه شاعرهم ، ومات سنة ٨٥ هـ .

(١٥ قصص - أول)

٩٣ — عمارة الفقيه وعبد الملك بن مروان *

قال عمارة الفقيه :

كنتُ أجالسُ عبدَ الملك بن مروان ^(١) كثيراً في ظل الكعبة ، فيينا أنا معه إذ قال لي : يا عمارة ، إن تَعِشْ قليلاً فستَرى الأعناقَ إلى مائِلَةٍ والآمالَ نحوى ساميةً ، وإذا كان ذلك فلا عليكَ أن تجعلني لرجائك باباً ولأملكِ ذريعةً ^(٢) ، فوالله إن فعلتَ لأملأنَّ يديك غبطةً ، ولأَكسونكَ نعمةً سابقةً .

ثم إن عبدَ الملك سار إلى دمشق ، وصارت إليه الخلافة ، فخرجتُ إليه زائراً ، واستأذنتُ فأذنَ لي ، ودخلتُ فسلمتُ عليه ، فلما انقضى سلامي ، قال : مرحباً بأخي ؛ ونادى أحدَ غلمانِه ، فقال : بوَّئهُ ^(٣) داراً ، وأحسِنْ مهاده ، ونزَّهه ، وآثره على خاصتي .

ففعل ، وأقمتُ عنده عشرين ليلةً أحضرُ غداه وعشاءه ؛ فلما أردتُ الانصرافَ والأوبةَ إلى أهلي أمرَ لي بعشرين ألف دينار ومائتي ألف درهم ، ومائة ناقةٍ بريقمها وكسوتهم ، وقال لي : أتراني يا عمارة ملأتُ يديك غبطةً ؟

فقلت : يا سبحان الله ، يا أمير المؤمنين ؛ وإنك لذكرٌ لذلك ؟ قال : نعم ! والله لا خيرَ فيمن ينسى ما وعدَ به ويذكر ما أوعد ^(٤) . كم لهذا الأمر يا عمارة ؟

* غرر الحقائق : ١٥٨ .

(١) من أعظم الخلفاء ودهاتهم ، نشأ في المدينة واستعمله معاوية عليها ، وانحفلت إليه الخلافة سنة ٦٥ هـ ، وتوفي بدمشق سنة ٨٦ . (٢) سبياً . (٣) بوَّئهُ : أنزله (٤) الوعد في الخير والإيصاد في الشر .

قلت : والله لكأنه بالأمس ، وله دهرٌ يا أمير المؤمنين ! قال : فوالله ما كان ذلك
عن خبرٍ سمعناه ، ولا حديثٍ كتبناه ، ولا أثرٍ رويناه ؛ غير أنى عقلتُ فى الحدّاثَةِ
أشياء رجوتُ أن يرفعَ اللهُ بها درجتى ، وينشرَ بها ذِكرى .

قلت : وما هى يا أمير المؤمنين ؟ قال : كنت لا أُشارى ، ولا أمارى ^(١) ،
ولا أهتك سترًا ستره اللهُ دُونى ، ولا أرتكبُ محرماً حظره اللهُ على ، ولا
حسدتُ ، ولا بغيتُ ؛ وكنتُ من قومى واسطة القلادة ، وكنتُ أكرمُ جليسى
وإن كان ذمياً ، وأرفعُ قدرَ الأديب ، وأكرمُ ذا الثقة ، وأدارى السفیه ،
وأرحمُ الضعيف ، فبذلك رفعَ اللهُ قدرى ! ياعمارة ؛ خذْ أهبةَ السفر ؛ وامض
راشداً !

(١) المِشاراة : للملاحاة ، أو لا يشارر من الشر فقلبت لإحدى الرأىين ياء ، المِماراة : المخاصمة
فى الشئ ، لى فيه منفعة . أو لا يمارى : أى لا يدفع ذا الحق عن حقه .

٩٤ — بين الحجاج الثقفي ويزيد بن المهلب*

أخذ الحجاج^(١) يزيد بن المهلب ، وعذّبه وقصده ، واستأصل موجوده وسجنه ، فتوصل يزيد بحسن تطفه ، ودخل فيما جعله الله نجاة من تلقه ، وأرغب السجن ، واستماله إليه ، وهرب هو والسجان ؛ وقصد الشام إلى سليمان بن عبد الملك بن مروان - وكان الخليفة في ذلك الوقت الوليد بن عبد الملك .

فلما وصل يزيد بن المهلب إلى سليمان بن عبد الملك أكرمه وأحسن إليه ، وأقامه عنده ؛ فكتب الحجاج إلى الوليد يعلمه أن يزيد هرب من السجن ، وهو عند سليمان بن عبد الملك أخى أمير المؤمنين وولى عهد المسلمين ؛ وأمير المؤمنين أشمل رأياً .

فكتب الوليد إلى أخيه سليمان بذلك ، فكتب سليمان إلى أخيه : يا أمير المؤمنين ؛ إنى إنما أجرت يزيد بن المهلب لأنه هو وأبوه وإخوته من صنائعنا قديماً وحديثاً ، ولم أجر عدواً لأمير المؤمنين ؛ وقد كان الحجاج قصده وعذّبه ، وأغرمه^(٢) أربعة آلاف ألف درهم ظمناً ، ثم طالبه بعدها بثلاثة آلاف ألف درهم ، وقد سار هذا الرجل إلى مستجيراً فأجرتة ، وأنا أغرم عنه ثلاثة آلاف ألف درهم ؛ فإن رأى أمير المؤمنين ألا يخريني في ضيق فعل ، فإنه أهل الفضل والكرم .

* العقد الفرید : الملك السعيد ١٠٢ ، تاريخ الطبری : ٨ - ٧٣ ، ثمرات الأوراق : ٢٠٨ ، وفيات الأعيان : ٢ - ٢٧٠

(١) الحجاج بن يوسف بن أبي عقيل الثقفي ولد سنة ٤١ هـ ونشأ بالطائف . واتصل بعبد الملك ابن مروان ولم يزل يرق إلى أن ولى العراق والشرق ، وطار ذكره ، وعظم سلطانه . وهلك بواسط سنة ٩٥ هـ (٢) أغرمه : غرمه .

فكتب إليه الوليدُ : « لا والله ، لا أوْمنه حتى تبعثَ به إلى في وثاق ^(١) » .
فكتب إليه سليمان : ولئن أنا بعثتُ به إليك لأُجِئنَّ معه ؛ فأنشدك الله ألا تفضحني ولا تُخْفِرني . فكتب إليه الوليد : والله لئن جئتني لا أوْمنه .

فقال يزيدُ : ابغثي إليه ؛ فوالله ما أحبُّ أن أوقع بينك وبينه عداوةً وحرَبًا ،
ابعث إليه بي ، وأرسل معي ابنك ، واكتب إليه بالطفِ ما قدرتَ عليه .

فأحضر سليمانُ ولده أيوبَ فقيده ، ودعا بيزيدَ فقيده ، ثم شدَّ قيدَ هذا إلى
قيدِ هذا بسلسلة ، وغلَّهما بغلَّين ^(٢) ، وحملهما إلى الوليد ، وكتب إليه : « أما
بعد يا أمير المؤمنين ، فإني قد وَجَّهْتُ إليك يزيدَ وابنَ أخيك أيوبَ بنَ سليمان ،
ولقد هَمَمْتُ أن أكون ثالثهما ، فإن هَمَمْتَ يا أمير المؤمنين بقتلِ يزيد ، فبِالله
عليك ابدأ بأَيُوبَ من قبله ، ثم اجعل يزيدَ ثانيًا ، واجعلني إذا شئتَ ثالثًا ،
والسلام » .

فلما دخلَ يزيدُ بنُ المهلبِ وأَيُوبُ بنَ سليمان عليه في سلسلة واحدة أطْرَقَ
استحياءً ، وقال : لقد أسأنا إلى سليمان إذ بلغنا به هذا المبلغ ...

فأراد يزيدُ أن يتكلمَ ويحتجَّ عن نفسه ، فقال له الوليد : ما نحتاجُ إلى كلام ؛
فقد قبلنا عذرك ، وعلمنا ظلمَ الحجاج ؛ ثم أحضر حدَّادًا ، وأزال عنهما الحديد ،
وأحسن إليهما ، ووصلَ أيُوبَ ابنَ أخيه بثلاثين ألفَ درهم ، ووصلَ يزيدَ ابنَ
المهلبِ بعشرين ألفَ درهم ؛ وردَّهما إلى سليمان ، وكتبَ كتابًا إلى الحجاج يقول
له : لا سبيلَ لك على يزيدَ بنِ المهلب ، فإياك أن تعاوِدَني فيه بعد اليوم .

فسار يزيدُ إلى سليمان بن عبد الملك بن مروان في أعلى المراتب ، وأفضل المنازل .

(١) الوثاق : ما يشد به (٢) الغل : جامعة توضع في العنق أو في اليد .

٩٥- زُفَر بن الحارث يُخبر خالد بن عتّاب*

استعمل الحجاجُ خالدَ بن عتّاب على الرّى ، وكانت أمه أمّ ولد ؛ فكتب إليه الحجاج يسبُّ أمّه ، ويقول : أنت الذى هربتَ عن أبيك حتى قُتل - وقد كان حلف ألا يسبُّ أحدُ أمّه إلا أجابه كائناً من كان .

فكتب إليه خالد : كتبتَ إلى تشتمُ أمى ، وتزعمُ أنى فررتُ عن أبى حتى قُتل ؛ ولعمرى لقد فررتُ عنه ، ولكن بعد أن قُتل ، وحين لم أجدلى مقاتلاً . ولكن أخبرنى عنك يالئيم حين فررتَ أنت وأبوك يوم الحرّة ^(١) على جملٍ ثقال ^(٢) ، أيكما كان أمامَ صاحبه .

فقرأ الحجاج الكتاب وقال : صدق !

أنا الذى فررتُ يوم الحرّة ثم ثنيتُ كَرّةً بفرّة
والشيخُ لا يفرُّ إلا مرّة

ثم طلبه ففرَّ إلى الشام ، وسلم بيتَ المال ، ولم يأخذ منه شيئاً .

وكتب الحجاج إلى عبد الملك بما كان منه . وقدم خالد الشام ، فسأل عن خاصة عبد الملك فقيل له : رَوْح بن زِنْبَاع . فأتاه حين طلعت الشمس ، فقال : إني جئتُك مستجيراً . فقال : إننى أجزتُك إلا أن تكونَ خالداً . قال : فإني

* الأغانى : ١٦ - ٤٠ .

(١) كانت وقعة الحرّة أيام يزيد . وهى موضع بظاهر المدينة ، وقعت فى ذى الحجة من سنة ٦٢هـ :

(٢) الثقال : البطيء من الإبل .

خالدٌ . فتغيّر ، وقال : أُنشدُك الله إلا خرجتَ عني ، فإنني لا آمنُ عبدَ الملك !
فقال : أنظِرني ^(١) حتى تغربَ الشمس . فجعل رَوح يُراعيها حتى خرج خالد !
فأتى زُفر بن الحارث الكلابي ، فقال : إني جئتُك مستجيراً . قال : قد
أجرتك . قال : أنا خالد بن عتّاب . قال : وإن كنتَ خالداً .

فلما أصبح دعا ابنين له ؛ فتهاذى بينهما - وقد أَسَنَّ - فدخل على عبد الملك
وقد أذِن للناس ؛ فلما رآه دعا له بكرسى ، فجعل عند فراشه . فجلس ، ثم قال :
يا أمير المؤمنين ؛ إني قد أجرتُ عليك رجلاً فأجره . قال : قد أجرتهُ إلا أن يكون
خالداً . قال : فهو خالد . قال : لا ولا كرامة !

فقال زفر لابنَيْهِ : أنهضاني . فلما ولى قال : يا عبد الملك ؛ أما والله لو كنتَ
تعلم أن يدي تُطبق حَمْل القناة لأجرتَ من أجرتُ ! فضحك ، وقال :
قد أجرناه .

وأرسل إلى خالد بألفي درهم .

٩٦ - اخْتَكِمُوا وَأَكْثِرُوا *

استعمل الوليد^(١) بن عبد الملك عُثْمَانَ بن حِيَّانَ الرَّمِّيَّ على المدينة ، وأمره بالغِلْظَةِ على أهل الظَّنَّةِ^(٢) ، فلما استُخْلِفَ سليمان بن عبد الملك أخذه بألف درهم ، فاجتمعت القَيْسِيَّةُ في ذلك ، فَتَحَمَّلُوا شَطْرَهَا^(٣) ، وضاقوا ذَرْعاً بالشَّطْرَ الثَّانِي ، ووافق ذلك استعمال سليمان يزيد بن المهلب على العراق ، فقال عمر بن هُبَيْرَةَ : عليكم يزيد بن المهلب ، فما لها أحدٌ غيره .

فتحمَّلَ إلى يزيد عمر بن هبيرة ، والقعقاع بن حبيب ، والهذيل بن زفر بن الحارث ، وسار معهم عثمان ؛ فاستأذن لهم يَحْيَى حَاجِبُهُ ؛ فخرج يزيد إلى الرُّوَّاقِ^(٤) فقرب ورَّحَبَ ، ثم دعا بالغداء ، فَأَتَوْا بطعام ما أنْكَرُوا منه أَكْثَرُ مما عرفوا .

فلما تَفَدَّوْا تكلم عثمان بن حيان - وكان لَسِنًا مُنَوَّهًا - فقال : زادك الله في توفيقك أيها الأمير ؛ إن الوليدَ وجَّهني إلى المدينة عاملاً عليها ، وأمرني بالغِلْظَةِ على أهل الظَّنَّةِ ، وإن سليمان أغرمني^(٥) غُرْمًا - والله - ما يَسَعُهُ مَالِي ، ولا تَحْمِلُهُ طَائِقَتِي ؛ فَأَتَيْنَاكَ لتَحْمِلَ من هذا المال ما خفَّ عليك ، وما بقي - والله - ثَقِيلٌ عَلَيَّ .

ثم تكلم كلٌّ منهم بما حَضَرَهُ ؛ فقال يزيد بن المهلب : مرحباً بكم وأهلاً ، إنَّ خَيْرَ المال ما قُضِيَ فيه الحقوق ، وَحِلَّتْ به المغَارِمُ ؛ وإِنَّمَا لي من المال

* العقد الفريد : ١ - ١٥٤ .

(١) الوليد بن عبد الملك : من ملوك الدولة الأموية ولي الخلافة سنة ٨٦ هـ ، وكانت وفاته بدير مران سنة ٩٦ هـ . (٢) التهمة . (٣) الشطر : النصف . (٤) الرواق : سقف في مقدم البيت أو الفسطاط . (٥) أغرمني : غرمني .

ما فَضَّلَ عن إخواني ، وإيمُ الله لو علمتُ أن أحداً أَمَلًا بِمَاجَتِكُمْ مِنِّي لَهَدَيْتُكُمْ
إِلَيْهِ ! فَاحْتَكِمُوا وَأَكْثِرُوا !

فَقَالَ عُمَانُ بن حَيَّانَ : النصف - أَصْلَحَ اللهُ الأَمِيرَ . قَالَ : نَعَمْ وَكَرَامَةٌ !
اغْدُرُوا عَلَى مَالِكُمْ فَخُذُوهُ ؛ فَشَكَرُوا لَهُ ، وَقَامُوا فَخَرَجُوا .

فَلَمَّا صَارُوا عَلَى بَابِ السَّرَادِقِ ، قَالَ عَمْرُ بن هُبَيْرَةَ : قَبِّحَ اللهُ رَأْيَكُمْ ، وَاللهُ
مَا يُبَالِي يَزِيدُ ؛ أَنْصَفَهَا تَحَمَّلَ أَمَ كُلِّهَا ؛ فَمَنْ لَكُمْ بِالنِّصْفِ الْبَاقِي ؟

قَالَ الْقَوْمُ : هَذَا وَاللهُ الرَّءْيُ ! وَسَمِعَ يَزِيدُ مُنَاجَاتَهُمْ ؛ فَقَالَ لِحَاجِبِهِ : انْظُرْ
يَا يَحْيَى ، إِنْ كَانَ بَقِيَ عَلَى الْقَوْمِ شَيْءٌ فَلْيَرْجِعُوا !

فَرَجَعُوا إِلَيْهِ ، وَقَالُوا : أَقْبَلْنَا ! قَالَ : قَدْ فَعَلْتُ ! قَالُوا : فَإِنْ رَأَيْتَ أَنْ تَحْمِلَهَا
كُلَّهَا ؛ فَأَنْتَ أَهْلُهَا ، وَإِنْ أَيْتَ فَمَا لَهَا أَحَدٌ غَيْرُكَ ! قَالَ : قَدْ فَعَلْتُ .

وَعَدَا يَزِيدُ بن الْمُهَلَّبِ إِلَى سُلَيْمَانَ ، فَقَالَ : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ؛ أَتَانِي عُمَانُ بن
حَيَّانَ وَأَصْحَابُهُ . قَالَ : أَمْسَكَ فِي الْمَالِ ؟ قَالَ : نَعَمْ . قَالَ سُلَيْمَانُ : وَاللهُ لَا أَخُذَنَّهُ
مِنْهُمْ ! قَالَ يَزِيدُ : إِنْ قَدْ حَمَلْتُهُ ! قَالَ : فَأَدِّهِ ! قَالَ يَزِيدُ : وَاللهُ مَا حَمَلْتُهُ إِلَّا لِأَوْدِيهِ .

ثُمَّ قَالَ : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ؛ إِنْ هَذِهِ الْحِمَالَةُ ^(١) وَإِنْ عَظُمَ خَطْبُهَا ، فَجَعَدُهَا
وَاللهُ أَعْظَمُ مِنْهَا ، ثُمَّ غَدَا يَزِيدُ بِالْمَالِ عَلَى الْخَزَّانِ فَدَفَعَهُ إِلَيْهِمْ .

فَدَخَلُوا عَلَى سُلَيْمَانَ فَأَخْبَرُوهُ بِقَبْضِ الْمَالِ ؛ فَقَالَ : وَفَتْ يَمِينَ سُلَيْمَانَ ؛ احْمِلُوا
إِلَى أَبِي خَالِدٍ مَالَهُ .

(١) الحِمَالَةُ : الْفَرَسُ يَحْمِلُ عَلَى الْقَوْمِ .

٩٧ — أنت أخو الندى وحليفه *

قال بعضُ مَشِيخَةِ قَرِيش :

أَذِنَ الْوَلِيدُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ يَوْمًا لِلنَّاسِ ، فَدَخَلُوا عَلَيْهِ ، وَأَذِنَ لِلشَّعْرَاءِ ؛ فَكَانَ
أَوَّلَ مَنْ بَدَرَ بَيْنَ يَدَيْهِ عُوَيْفٌ ^(١) الْقَوَافِي الْفَزَارِيُّ فَاسْتَأْذَنَهُ فِي الْإِنْشَادِ ، فَقَالَ :
مَا بَقِيَتْ لِي بَعْدَ مَا قُلْتَ لِأَخِي بَنِي زُهْرَةَ ؟ قَالَ : وَمَا قُلْتَ لَهُ مَعَ مَا قُلْتَ
لَأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ؟ قَالَ : أَلَسْتَ الَّذِي تَقُولُ :

يَا طَلْحُ أَنْتَ أَخُو النَّدَى وَحَلِيفُهُ إِنَّ النَّدَى مِنْ بَعْدِ طَلْحَةَ مَا تَا
إِنَّ الْفَعَالَ ^(٢) إِلَيْكَ أَطْلَقَ رَحْلَهُ فَبَحِثْ بُتَّ مِنَ الْمَنَازِلِ بَاتَا
أَلَسْتَ الَّذِي تَقُولُ :

إِذَا مَا جَاءَ يَوْمُكَ يَا بَنَ عَوْفٍ فَلَا مَطَرَتْ عَلَى الْأَرْضِ السَّمَاءُ
تَسَاقَى النَّاسُ بِعِدِّكَ يَا بَنَ عَوْفٍ ذَرِيعَ ^(٣) الْمَوْتِ لَيْسَ لَهُ شِفَاءُ
أَلَمْ تَقُمْ عَلَيْنَا السَّاعَةُ يَوْمَ قَامَتْ عَلَيْهِ ؟ لَا وَاللَّهِ لَا أَسْمَعُ مِنْكَ شَيْئًا ، وَلَا
أَنْفَعُكَ بِنَافَعَةٍ أَبَدًا . أَخْرَجُوهُ عَنِّي !

فَلَمَّا أَخْرَجَ قَالَ لَهُ الْقُرَشِيُّونَ وَالشَّامِيُّونَ : وَمَا الَّذِي أَعْطَاكَ طَلْحَةَ ^(٤) حِينَ
اسْتَخْرَجَ هَذَا مِنْكَ ؟ قَالَ : أَمَّا وَاللَّهِ لَقَدْ أَعْطَانِي غَيْرُهُ أَكْثَرَ مِنْ عَطِيَّتِهِ ، وَلَكِنْ

* الْأَغَانِي : ١٧ - ١٠٨ .

(١) هُوَ عُوَيْفُ بْنُ مَعَاوِيَةَ مِنْ قَيْسِ عَيْلَانَ ، كَانَ شَاعِرًا مَقْلًا مِنْ شُعْرَاءِ الدَّوْلَةِ الْأُمَوِيَّةِ وَبَيْتُهُ
كَانَ أَحَدَ الْبُيُوتَاتِ الْمَقْدَمَةِ الْفَاخِرَةِ فِي الْعَرَبِ (٢) الْفَعَالُ : الْفَعْلُ الْحَسَنُ ، أَوِ الْكَرَمُ (٣) مَوْتٌ
فَرِيمٌ : سَرِيمٌ .

(٤) هُوَ طَلْحَةُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَوْفٍ مِنْ بَنِي زُهْرَةَ أَحَدِ الْأَجْوَادِ الْمَقْدَمِينَ ، كَانَتْ عَادَتُهُ إِذَا
أَصَابَ مَا لَا أَنْ يَفْتَحَ بَابَهُ لِيَقْشَاهُ أَصْحَابُهُ وَالنَّاسُ يَقْطَعُونَ وَيَجِيزُونَ حَتَّى يَنْفَضَّ مَعَانِدُهُ فَيُفْلِقَ الْبَابَ فَلَا يَقْصِدُهُ
أَحَدٌ ، تَوَفَّى سَنَةَ ٩٧ هـ .

لا والله ما أعطاني أحد قط أحلى في قلبي ، ولا أبقي شكراً ، ولا أجدر ألا أنساها
من عطيته ! قالوا : وما أعطاك ؟ قال :

قَدِمْتُ المدينة ومعى بُضِيعَةٌ^(١) لى ، لا تبلغ عشرة دنانير ، أريد أن أبتاعَ
قَمُوداً من قِعْدَانِ الصَّدَاقَةِ . فإذا برجل فى صحنِ الشُّوقِ على طِنْفِسَةٍ قد طُرِحَتْ له ،
وإذا الناسُ حوله ، وإذا بين يديه إبلٌ ؛ فظننتُ أنه عاملُ السوقِ ، فسلمت عليه
فَأَثْبَتْنِي^(٢) وجهلتهُ ؟ فقلتُ : رَحِمَكَ اللهُ ! هل أنتَ مُعِينِي على قَمُودٍ من هذه
القِعْدَانِ تَبْتَاعُهُ لى ؟ فقال : نعم ! أو مَعَكَ ثَمَنُهُ ؟ فقلت : نعم !

فَأَهْوَى بيده إلىَّ فَأَعْطَيْتُهُ بُضِيعَتِي ؛ فَرَفَعَ طِنْفِسَتَهُ وَأَلْقَاهَا تَحْتَهَا ، وَمَكَثَ
طَوِيلًا ، ثُمَّ قَتُّ إِلَيْهِ فَقُلْتُ : رَحِمَكَ اللهُ ! انْظُرْ فى حاجَتِي . فقال : ما منعنى منك
إلا النسيان ، أَمَعَكَ حَبْلٌ ؟ قلت : نعم . قال : أَفَرَجُوا ، فَأَفَرَجُوا عَنْهُ حَتَّى اسْتَقْبَلَ
الْإِبِلَ الَّتِى بَيْنَ يَدَيْهِ ، فَقَالَ : اقْرَأْ هَذِهِ وَهَذِهِ وَهَذِهِ ، فَمَا بَرَحْتُ حَتَّى أَمَرَ لى
بِثَلَاثِينَ بَكْرَةً ، أَذْنَى بَكْرَةٍ مِنْهَا خَيْرٌ مِنْ بَضَاعَتِي ! ثُمَّ رَفَعَ طِنْفِسَتَهُ فَقَالَ : وَشَأْنُكَ
بِبِضَاعَتِكَ فَاسْتَعِنْ بِهَا عَلَى مَنْ تَرْجِعُ عَلَيْهِ .

فقلتُ : رَحِمَكَ اللهُ ! أَتَدْرِي مَا تَقُولُ ؟ فَمَا بَقِيَ أَحَدٌ عَنْدهُ إِلَّا سَهْرَنِي وَشَتْمَنِي !
ثُمَّ بَعَثَ مَعِيَ نَفْرًا فَأَطْرَدَوْهَا^(٣) حَتَّى أَطْلَعُوها مِنْ رَأْسِ الثَّنِيَةِ ، فَوَاللهِ لَا أَنْسَاهُ
مَا دُمْتُ حَيًّا أَبَدًا .

(١) البضاعة : القطعة من المال الذى يتجر فيه ، والبضيمة تصغيرها

(٢) أَثْبَتْنِي : عرَفْنِي حق المعرفة .

(٣) أَطْرَدْتُ الْإِبِلَ : أَيْ أَمَرْتُ بِطَرْدِهَا ، وَطَرَدَ الْإِبِلَ : ضَمَّهَا مِنْ نَوَاحِيهَا .

٩٨ — ما كذبَ مذشُدُّ عليه إزارُهُ*

خرج عمر^(١) بن عبد العزيز مع سليمان يريدُ الصَّائفةَ ، فالتقى غلمانهُ
وغلمانُ سليمان على الماء فاقتتلوا ، ف ضربَ غلمانُ عمر غلمانَ سليمان ؛ فشكَّوا ذلك
إلى سليمان ، فأرسل إلى عمر فقال له : ضربَ غلمانُك غلمانى . قال : ما علمتُ .
فقال له سليمان : كذبتَ ! قال : ما كذبتُ مذشُدُّ على إزارى ، وعلمتُ أن
الكذبَ يضرُّ أهله ؛ وإن فى الأرض عن مجلسك هذا لَسَمَةٌ .

فتجهَّزَ يريدُ مصرَ ، فبلغ ذلك سليمان ، فشقَّ عليه ؛ فدخلتُ فيما بينهما مَعمَةً لهما ،
فقال لهما سليمان : قولى له : يدخل على ولا يعاتبنى ، فدخل عليه عمر ، فاعتذر إليه
سليمان ، وقال له : يا أبا حفص ؛ ما اغتَمَمْتُ بأمر ، ولا أكر بنى هم إلا خطرتُ
فيه على بالى ، فأقام !

* سيرة عمر بن عبد العزيز : ٢٣

(١) عمر بن عبد العزيز : الخليفة الصالح ، ولد بالمدينة ، ونشأ بها وولى إمارتها للوليد ، وولى الخلافة
سنة ٩٩ هـ ، وأخبره فى عدله وحسن سياسته كثيرة ، توفى سنة ١٠١ هـ .

٩٩ — أعطيكِ مالى إن شئتِ *

لما وَلِيَ عمرُ بن عبد العزيز أُمَّةً له إلى فاطمة امرأته ؛ فقالت : إني أريدُ كلامَ أميرِ المؤمنين . قالت لها : اجلسى حتى يفرُغ ؛ فجلست ، فإذا بغلامٍ قد أتى فأخذَ سراجاً . فقالت لها فاطمة : إن كنتِ تريدينه فالآن ، فإنه إذا كان فى حوائجِ العامة كتب على الشمع ، وإذا صار فى حاجةٍ نفسه دعا بسرّاجه .

فقامت فدخلت عليه فإذا بين يديه أقراصٌ وشىءٌ من ملح وزيت وهو يتعشى ، فقالت : يا أمير المؤمنين ؛ أتيتُ لحاجةٍ لى ، ثم رأيتُ أن أبدأ بك قبل حاجتى ! قال : وما ذاك يا عمة ؟ قالت : لو اتخذتَ لك طعاماً ألين من هذا ؟ قال : ليس عندى يا عمة ، ولو كان عندى لفعلتُ ! قالت : يا أمير المؤمنين ، كان عمُّك عبدُ الملك يُجرى على كذا وكذا ، ثم كان أخوك الوليدُ فزادى ؛ ثم كان أخوك سليمان فزادنى ، ثم ولّيت أنت فقطعتَه عنى .

قال : يا عمة ؛ إن عمّى عبدُ الملك ، وأخى الوليد ، وأخى سليمان كانوا يعطونك من مالِ المسلمين ، وليس ذلك المَالُ لى فأعطيكه ؛ ولكنى أعطيكِ مالى إن شئتُ ! قالت : وما ذاك يا أمير المؤمنين ؟ قال : عطائى مائتا دينار ؛ فهل لك فيه ؟ قالت : وما يبلغ منى عطاؤك ؟ قال : فلستُ أملكُ غيره يا عمة ؛ فانصرفت عنه !

١٠٠ — الشمعة والسراج *

وفد على عمر بن عبد العزيز برید^(١) من بعض الآفاق ، فأتته إلى باب عمر ليلاً ؛ فقرع الباب ، فخرج إليه البواب ، فقال : أَعْلِمُ أمير المؤمنين أنَّ بالباب رسولاً من فلان عامله ؛ فدخل فأعلم عمر . وقد كان أراد أن ينلم — فقعده ، وقال : ائذنْ له !

فدخل الرسول فدعا عمرُ بِشَمْعَةٍ غليظةٍ فَأَجَّجَتْ ناراً ، وأجلس الرسول ، وجلس عمر ، فسأله عن حال أهل البلد ومن بها من المسلمين وأهل العهد ، وكيف سيرة العامل ؟ وكيف الأسعار ؟ وكيف أبناء المهاجرين والأنصار ، وأبناء السبيل والفقراء ؟ وهل أعطى كل ذي حق حقه ؟ وهل له شاكٍ ؟ وهل ظلم أحداً ؟

فأنبأه بجميع ما علم من أمر تلك المملكة ، يسأله فيُخفى^(٢) السؤال ، حتى إذا فرغ عمر من مسأله قال له : يا أمير المؤمنين ، كيف حالك في نفسك وبدنك ؟ وكيف عيالك وجميع أهل بيتك ومن تُعفى بشأنه ؟ فنفع عمر الشمعة فأطفأها بنفخته ، وقال : يا غلام ، علىَّ بسراج ، فأنى بقتيلة لا تكاد تضيء ، فقال : سل عما أحببت ، فسأله عن حاله ، فأخبره عن حال ولده وأهل بيته .

فعجب البريدُ للشمعة وإطفائه إياها ، وقال : يا أمير المؤمنين ، رأيتك فعلتَ أمراً ما رأيتك فعلتَ مثله ! قال : وما هو ؟ قال : إطفائك الشمعة عند مسألتى إياك

* سيرة عمر بن عبد العزيز : ١٦١

(١) رسول . (٢) أحق سؤاله : رده .

عن حالك وشأنك . فقال : يا عبد الله ، إن الشمعة التي رأيتني أطفأتها من مال الله ومال المسلمين ، وكنت أسألك عن حوائجهم وأمرهم ، فكانت تلك الشمعة تقدر بين يديّ فيما يصلحهم ، وهي لهم . فلما صرت لشأني وأمر عيالي ونفسي أطفأت نار المسلمين !

١٠١ — حديث عمر بن عبد العزيز مع ابنه عبد الملك حين احتضر*

كان عبد الملك بن عمر بن عبد العزيز من أحب الناس إلى أبيه ، فرض فاشتد مرضه ، فأخبر أبوه بذلك ، فاتاه فوقف عليه ، وقال : يا بني ! كيف تجدك ؟ قال : أجدني صالحاً - وكتبته مابه كراهة أن يفقه - قال : يا بني ، اصدقني عن نفسك ، فإن أحب الأمور إلىّ فيك لموضع القضاء . قال : أجدني يا بنت أموت ! فوّلّى عمر إلى قبلته ، فبينما هو في صلاته إذ مات عبد الملك ، فاتاه مزاحم ، فقال : يا أمير المؤمنين ؛ توفّي عبد الملك ، فخرّ مغشياً عليه .

فلما دُفن عبد الملك قال مزاحم - وكان قد عهد إليه إذا رأى منه أمرين مختلفين أن يخبره بذلك : يا أمير المؤمنين ، رأيت منك عجباً ، أتيت عبد الملك فسألته عن حاله فكتمك مابه فقلت له : يا بني ، اصدقني عن نفسك ، فإن أحب الأمور إلىّ فيك لموضع القضاء ؛ فأخبرك أنه يموت . فلما مات خررت مغشياً عليك . قال : قد كان ذلك يا مزاحم ! فقد علمت أن ملك الموت قد دخل إلى منزلي ؛ فأخذ بضعة مني ، فراعني ذلك فأصابني ماقد رأيت !

١٠٢ — عِفَّة جَرِير^(١) وفجور الفرزدق*

قديم الفرزدق^(٢) على عمر بن عبد العزيز، وهو على المدينة وإليها من قبل الوليد بن عبد الملك، فأنزله عمر منزلاً قريباً منه وأكرمه، وأحسن ضيافته، ثم إنّه بلغه عنه أنه صاحب فجور، فبعث إليه عمر بالطّاف مع جارية له، وقال: اغسلي رأسه وألطفيه جهدي^(٣) - وأراد اختبارَه بذلك ليعلم حاله.

فأنته الجارية، وفعلت ما أمرها به مولاها، ثم قالت له: أما تريد أن تفسل رأسك؟ قال: بلى، فقرّبت إليه الفسل^(٤)، ثم ذهبت لتفسل رأسه، فأقبل عليها، وذلك بعين عمر، وهو يتطلع عليه من خوخة^(٥) له.

ولما خرجت الجارية إلى عمر بعث إليه: أن اخرج عن المدينة، ولئن أخذتك فيها - مادام لي سلطان - لأعاقبك، ونفاه عن المدينة.

فلما خرج وصار على راحلته قال: قاتل الله ابن المراغة^(٦) كأنه كان ينظر إلى حيث يقول:

وكنّت إذا نزلت بدار قوم رحلت بخزية^(٧) وتركت عارا

* تقاطع جرير والفرزدق: ١ - ٣٩٧، طبع ليدن.

(١) جرير بن عطية الخطفي: أحد خول الشعراء الإسلاميين، ولد باليمامة، ونشأ بالبادية وفيها قال الشعر ونبع فيه، ولما عظم أمره اتصل بالحجاج ومدحه، ثم اتصل بعبد الملك بن مروان، وعذ من مداح بني أمية. مات سنة ١١٠ هـ. (٢) الفرزدق هو أبو فراس همام بن غالب، نشأ بالبصرة وأخذ أبوه برواية الشعر ونظمه فرواه ونبع فيه، وتعرف بولادة البصرة ومدحهم وهجائهم، ثم رحل إلى خلفاء بني أمية بالشام ومدحهم ونال جوائزهم. مات سنة ١١٠ هـ.

(٣) الجهد: الطاقة (٤) الفسل: ما يفسل به الرأس (٥) الخوخة: كوة في الجدار تؤدى الضوء (٦) ابن المراغة: هو جرير. (٧) الخزية: البلية

ثم قدم جريرٌ على عُمرَ فأنزله في منزل الفرزدق ، وبعث إليه بتلك الجارية
بمعينها ، وأمرها أن تفعلَ بجرير ما فعلتَ بالفرزدق ؛ فألطفتهُ ، وفعلتُ به مثل
ما فعلتُ بالفرزدق ، وقالت له : قُمْ أَيُّهَا الشَّيْخُ ، فَاغْسِلْ رَأْسَكَ ، وَقَالَ لَهَا :
تَنَحَّيْ عَنِّي ، قَالَتْ لَهَا الْجَارِيَةُ : سُبْحَانَ اللَّهِ ! إِنَّمَا بَعَثَنِي سَيِّدِي لِأَخْدُمَكَ ، فَقَالَ :
لَا حَاجَةَ لِي فِي خِدْمَتِكَ ، ثُمَّ أَخْرَجَهَا مِنَ الْحِجْرَةِ ، وَأَغْلَقَ الْبَابَ عَلَيْهِ وَأَنْزَرَ ،
فَغَسَلَ رَأْسَهُ ، وَعَمَرَ يَنْظُرُ إِلَيْهِ مِنْ حِينَ بَعَثَ بِالْجَارِيَةِ إِلَى أَنْ خَرَجَتْ مِنْ عِنْدِهِ .
فلما راح ^(١) أَهْلُ الْمَدِينَةِ مِنْ مَنَازِلِهِمْ إِلَى عَمَرٍ حَدَّثَهُمْ بِفِعْلِ الْفَرَزْدَقِ وَجَرِيرٍ ،
وَمَا كَانَ مِنْ أَمْرِهِمَا ، ثُمَّ قَالَ : عَجِبْتُ لِقَوْمٍ يَفْضَلُونَ الْفَرَزْدَقَ عَلَى جَرِيرٍ مَعَ عَفَّةٍ
جَرِيرٍ وَفُجُورِ الْفَرَزْدَقِ ، وَقَلَّةٍ وَرَعَةٍ وَخَوْفِهِ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ !

١٠٣ — خالد القسريّ وزِيَاد بن عبيد الله *

قال زياد بن عبيد الله : أتيتُ الشام، فبينما أنا يوماً على باب هشام بن عبد الملك إذ خرج عليّ رجلٌ من عنده ، فقال لي : ممن أنت يا فتى ؟ قلتُ : يمان ! قال : فمن أنت ؟ قلت : زياد بن عبيد الله بن عبد اللّدان ، قال : فتبسّم وقال : قم إلى ناحية العسكر ، فقل لأصحابي : ترحّلوا ؛ فإن أمير المؤمنين قد رضِيَ عني ، وأمرني بالمسير .

قلتُ : مَنْ أنت يرحمك الله ؟ قال : خالد ^(١) بن عبد الله القسريّ ، ثم قال : ومُرهم يا فتى أن يعطوك مِنديلَ ثيابي وبرذوني الأصفر . قال : فلما جُزْتُ قليلاً ناداني ، فقال : يا فتى ؛ وإن سمعتَ بي قد وليتُ العراق يوماً، فالحقْ بي .

قال : فذهبتُ إليهم ، فقلتُ لهم : إن الأميرَ قد أرسلني إليكم بأن أمير المؤمنين قد رضِيَ عنه ، وأمره بالمسير ؛ فجعل هذا يحتَضِنُنِي ، وهذا يقبّلُ رأسي ؛ فلما رأيتُ ذلك منهم قلتُ : وقد أمرني أن تعطوني مِنديلَ ثيابه وبرذونه الأصفر قالوا : إي والله وكرامة ؛ فأعطوني منديلَ ثيابه وبرذونه الأصفر ؛ فما أمسى بالعسكر أحدٌ أجدُ ثياباً ولا مركباً مني .

فلم ألبث إلا يسيراً حتى قيل : قد ولي خالدُ العراق ؛ فركبني من ذلك هم ؛ فقال لي عَرِيف ^(٢) لنا : مالي أراك مهموماً ؟ قلت : قد وُلّي خالد كذا وكذا ، وقد

* الطبريّ : ٨ - ١٨١ .

(١) كان خالد القسريّ أمير العراق من قبل هشام بن عبد الملك الأموي وولي قبل ذلك مكة ، وكان معدوداً من خطباء العرب المشهورين بالفصاحة والبلاغة ، جواداً كثير العطاء ، وتوفي سنة ١٢٠ هـ مقتولاً ودفن بالحيرة .

(٢) العريف : رئيس القوم .

أصبتُ هاهنا رزيقًا عشتُ به ، وأخشى أن أذهبَ فيتغيرَ عليّ ، فيفوتني هذا وذاك ،
فلستُ أدري كيف أصنع ؟ فقال لي : هل لك في خَصَلَةٍ ؟ قلتُ : وما هي ؟ قال :
توكلني بأرزاقك وتخرجُ ؛ فإن أصبتَ ما تحبُّ فلي أرزاقك ؛ وإلا رجعتَ فدفعتمُها
إليك . فقلت : نعم ، وخرجت .

فلما قدِمْتُ الكوفة لبستُ من صالح ثيابي ؛ وأذنَ للناس فتركهم حتى أخذوا
مجالسهم ، ثم دخلتُ ، فقامتُ بالباب ، فسلمتُ ودعوتُ وأُثِيتُ ، فرفع رأسه
فقال : أحسنت ! بالرحب والسعة ، فما رجعتُ إلى منزلي حتى أصبتُ ستمائة دينار
بين نقدٍ وعَرْض .

ثم كنتُ أختَلِفُ إليه ؛ فقال لي يوماً : هل تكتبُ يا زياد ؟ قلتُ : أقرأُ
ولا أكتبُ ، أصلحَ اللهُ الأمير ! ف ضربَ بيده على جبينه ، وقال : إنا لله وإنا إليه
راجعون ! سقط منك تسعةُ أعشار ما كنتُ أريده منك ، وبقي لك واحدةٌ فيها غنى الدهر .
قلت : أيها الأمير ، هل في تلك الواحدة ثمنُ غلام ؟ قال : وماذا حينئذ ؟
قلتُ : تشتري غلاماً كاتباً تبعث به إليّ فيعلمني . قال : هيات ! كبرتَ عن ذلك !
قلت : كلا ؛ فاشتري غلاماً كاتباً حاسباً بستين ديناراً ، فبعث به إليّ فأُكِّيتُ
على الكتاب ، وجعلت لا آتيه إلا ليلاً ، فما مضت إلا خمس عشرة ليلة حتى
كتبتُ ما شئتُ وقرأتُ ما شئتُ !

قال : فإني عنده ليلة إذ قال : ما أدري هل أنجحتَ من ذلك شيئاً ؟ قلتُ :
نعم ، أكتبُ ما شئتُ وأقرأُ ما شئتُ ! قال : إني أراك ظفرتَ منه بشيء يسير فأعجبك .
قلت : كلا .

فقال : اقرأ هذا الطومار ^(١) ، فقرأتُ ما بين طرفيه فإذا هو من عامله على

الرى ، فقال : اخرج فقد وليتك عمله !

(١) الطومار : الصحيفة .

١٠٤ — الفقر خصم لجوج *

ركب خالد^(١) في يومٍ شديدٍ البردِ كثيرَ الغيمِ ، فتعرَّضَ له رجلٌ في الطريقِ ؛ فقال له : ناشدْتُكَ اللهَ إلا ضربتَ عنقِي ! فقال له : أ كُفِّرْتُ بعدَ إيمانٍ ؟ قال : لا ؛ قال : أَفَتَرَغَبُ عن طاعةِ الرحمنِ ؟ قال : لا ؛ قال : أَفَقَتَلْتَ نفساً ؟ قال : لا . قال : فما سبَّبُ ذلكَ ؟ قال : لِي خصمٌ لَجُوجٌ قد عَلَّقَ بِي ، وَلَزِمَنِي وقهرَنِي . قال : مَنْ هو ؟ قال : الفقرُ ! قال : فكم يكفيكِ لِدَفْعِهِ ؟ قال : أربعةَ آلافِ درهمٍ ، قال : إني مُمِدُّكَ بأربعةَ آلافِ درهمٍ .

ثم قال خالد : يا غلام ، اذْفَعْ له أربعةَ آلافِ درهمٍ ، والتفتَ وقال : هل رِبِيحٌ أحدٌ من التجارِ كَرِبِحِي اليومِ ؟ قالوا : وكيف ذلكَ ؟ قال : عَزَمْتُ على أن أعطِيَ هذا الرجلَ ثلاثينَ ألفَ درهمٍ ، فلما طلبَ أربعةَ آلافِ درهمٍ وفَرَ على ستةَ وعشرينَ ألفَ درهمٍ .

فلما سمعَ الرجلُ ذلكَ منه قال : حاشاك وأعيذك بالله أن تَرِبِحَ على مُؤمِّلِكَ . فقال : يا غلام ؛ أَعْطِيهِ ثلاثينَ ألفاً ، ثم قال للرجل : اقْبِضِ المالَ ؛ واذْهَبْ آمناً إلى خَصَمِكَ ، ومتى رَجَعَ يُعَارِضُكَ فاستَنْجِدْ بنا عليه !

* المختار من نوادر الأخبار — مخطوط .

(١) هو خالد بن عبد الله القسري .

١٠٥ - يشتكى الفقر *

أتى رجلٌ إلى علي بن سليمان ، فقال له : بالذى أسبغَ عليك هذه النعم - من غير شفيع كان لك إليه تفضلاً منه عليك - إِلَّا أَنْصَفْتَنِي مِنْ خَصْمِي ، وَأَخَذْتَ الْحَقَّ مِنْهُ ، فَإِنَّهُ ظَلَمْتُ غَشُومًا ، لَا يَسْتَحْيِي مِنْ كَبِيرٍ ، وَلَا يَلْتَفِتُ إِلَى صَغِيرٍ ! فقال له : أَعْلِمْنِي مَنْ هُوَ ؟ فَإِنْ يَنْصِفُكَ ، وَإِلَّا أَخَذْتُ الَّذِي فِيهِ عَيْنَاهُ ! مَنْ هُوَ ؟ فقال : الفقر ، فَأُطْرَقَ إِلَى الْأَرْضِ مَلِيًّا ، يَنْكُتُ^(١) الْأَرْضَ بِإِصْبَعِهِ ، ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ ، فَأَمَرَ لَهُ بِعَشْرَةِ آلَافٍ دِينَارٍ ، فَأَخَذَهَا وَمَضَى ، فَلَمَّا سَارَ خَارِجًا قَالَ : رُدُّوهُ .

فلما مثل بين يديه قال : ياذا الرجل ، سَأَلْتُكَ بِاللَّهِ - مَتَى أَتَاكَ خَصْمُكَ مَتَمَسِّقًا - إِلَّا أَتَيْتَ إِلَيْنَا مَتَطَلِّمًا .

* عين الأدب والسياسة : ١٨٦ .

(١) النكت : أن تضرب الأرض بقضيب فيؤثر فيها .

١٠٦ — حَدَّثَنِي عَنْ أَغْرَبَ مَا مَرَّ بِكَ *

لَمَّا أَفْضَتْ الْخِلَافَةُ إِلَى بَنِي الْعَبَّاسِ اخْتَفَى جَمِيعُ رِجَالِ بَنِي أُمَيَّةٍ - وَكَانَ مِنْهُمْ إِبْرَاهِيمُ بْنُ سُلَيْمَانَ - فَشَفَعَ لَهُ عِنْدَ السَّفَّاحِ ^(١) بَعْضُ خَوَاصِهِ . فَأَعْطَاهُ الْأَمَانَ ، ثُمَّ أَحْلَاهُ مَجْلِسَهُ ، وَأَكْرَمَ مَثْوَاهُ .

وَقَالَ لَهُ السَّفَّاحُ ذَاتَ يَوْمٍ : يَا إِبْرَاهِيمَ ، حَدَّثَنِي عَنْ أَغْرَبَ مَا مَرَّ بِكَ أَيَّامَ اخْتِفَاؤِكَ .

فَقَالَ : كُنْتُ مَخْتَفِيًّا فِي الْحَيْرَةِ بِمَنْزِلٍ مُشْرِفٍ عَلَى الصَّحْرَاءِ ، فَبَيْنَمَا كُنْتُ يَوْمًا عَلَى ظَهْرِ ذَلِكَ الْبَيْتِ أَبْصَرْتُ أَعْلَامًا سَوْدَاءَ قَدْ خَرَجَتْ مِنَ الْكُوفَةِ تُرِيدُ الْحَيْرَةَ ، فَأَوْجَسْتُ مِنْهَا خِيفَةً إِذْ حَسَبْتُهَا نَقْصِدُنِي .

فَخَرَجْتُ مُسْرِعًا مِنَ الدَّارِ مُتَنَكِّرًا ، حَتَّى أَتَيْتُ الْكُوفَةَ ، وَأَنَا لَا أَعْرِفُ مَنْ أَخْتَفَى عِنْدَهُ ، فَبَقِيتُ مُتَحِيرًا فِي أَمْرِي ، فَنَظَرْتُ وَإِذَا أَنَا بِيَابٍ كَبِيرٍ فَدَخَلْتُهُ ، فَرَأَيْتُ فِي الرَّحْبَةِ ^(٢) رَجُلًا وَسِيمًا ^(٣) لَطِيفَ الْهَيْئَةِ ، نَظِيفَ الْبِزَةِ ^(٤) ، فَقَالَ لِي : مَنْ أَنْتَ ؟ وَمَا حَاجَتُكَ ؟ قُلْتُ : رَجُلٌ خَائِفٌ عَلَى دَمِهِ ، جَاءَ يَسْتَجِيرُ بِكَ .

فَادْخَلَنِي مَنْزِلَهُ ، وَوَارَانِي فِي حُجْرَةٍ تَلِي حُجْرَةَ حُرْمِهِ ^(٥) . فَأَقَمْتُ عِنْدَهُ ، وَلِي كُلُّ مَا أَحَبُّ مِنْ طَعَامٍ وَشَرَابٍ وَلِبَاسٍ ، وَهُوَ لَا يَسْأَلُنِي عَنْ شَيْءٍ مِنْ حَالِي ، إِلَّا أَنَّهُ كَانَ يَرْكَبُ فِي كُلِّ يَوْمٍ مِنَ الْفَجْرِ ، وَلَا يَرْجِعُ إِلَّا قُبِيلَ الظَّهْرِ .

* بحر الآداب : ٣ - ٥٢ .

(١) اسمه عبد الله بن محمد ، أول خلفاء الدولة العباسية ، بويغ له بالخلافة جهراً في الكوفة سنة ١٣٢ هـ ، وتوفي بالأنبار سنة ١٣٦ هـ . (٢) الرحبة : الساحة . (٣) وسيماً : حسن الوجه . (٤) البزة : الثياب . (٥) حرمة : نسائه .

فقلتُ له يوماً : أراك تُدَمِّنُ ^(١) الركوبَ ، ففيمَ ذلك ؟ قال لى : إن إبراهيمَ ابنَ سليمان بن عبد الملك قَتَلَ أبى ، وقد بَلَغَنِى أَنَّهُ مَخْتَفٍ فى الحِيرةِ ، فأنا أطلبُهُ لعلى أَجدُهُ وأُدرِكَ منه ثأرى . فلما سمعتُ ذلك - يا أمير المؤمنين - عَظُمَ خوفى ، وضاقَتِ الدنيا فى عيني ، وقلت : إني سَقَتُ نفسى إلى حَتَفِي .

ثم سألتُ الرجلَ عن اسمه واسمِ أبيه ، فأخبرنى عن ذلك ؛ فعلمتُ أَنَّ كلامَهُ حقٌّ ؛ فقلتُ له : يا هذا ؛ إنه قد وَجَبَ علىَّ حقك ، وجزاءُ لمعروفك لى أريدُ أن أدلَّكَ على ضالَّتِكَ .

فقال : وأينَ هو ؟ قلت : أنا بُغَيْتُكَ إبراهيمَ بنَ سليمان ، فَخُذْ بِثأركِ . فتبسَمَ ، وقال : هل أَضْجَرُكَ ^(٢) الاختفاءُ والبعدُ عن دارك وأهلك فأَحْبَبْتَ الموتَ ؟ قلت : لا والله ! ولكنى أقول لك الحق ، وإني قتلْتُ أباك فى يوم كذا من أَجل كذا وكذا .

فلما سمعَ الرجلُ كلامى هذا ، وعلمَ صِدْقَ تَغْيِيرِ لَوْنِهِ واجمَرَتْ عَيْنَاهُ ؛ ثم فَكَّرَ طويلاً ، والتفتْ إلىَّ ، وقال . أَمَّا أَنْتَ فسوف تَلْقَى أبى عند حاكمٍ عادلٍ فيأخذُ بِثأره منك ، وأما أنا فلا أَخْفُرُ ذمتى ^(٣) ، ولكنى أَرُغِبُ أَنْ تَبْعِدَ عَنى فَإِنى لستُ آمِنُ عليك من نفسى . ثم إنه قَدَّمَ لى ألفَ دينار ، فأبَيْتُ أَخْذَهَا ، وانصرفتُ عَنْهُ .

فهذه الحادثةُ أَغْرَبُ ما مرَّ بى ، وهذا الرجلُ هو أَكْرَمُ مَنْ رَأَيْتُهُ ، وسمعتُ عَنْهُ بَعْدَكَ يا أمير المؤمنين .

(١) تدمن : تديم (٢) أضجرك : أتعبك (٣) لا أخفر ذمتى : لا ألتص عهدى معك ولا أغدر بك بعد أن أمنتك .

١٠٧ — المنصور وأهله *

قال أحمد بن إسماعيل :

كان أبي ومشايخُ أهلي يجلسون مع أبي جعفر المنصور ^(١) ، وكان أحداً منّا يجلسون دونَ ذلك ، وكان يتفقّد من أمورنا ما كان يتفقّده من أمور ولده ، حتى يستقرى ^(٢) أحدنا ، ويسأله ما بلغ من القرآن ، وكُنّا نصِلُ الفداء ^(٣) والعشي ^(٤) فنجلسُ في مجلسه ، حتى يخرج إلينا .

وإنّا صِرْنَا في مجلسه ذات يومٍ كمادتنا ، فجلسنا ننتظرُ خروجهُ ، وأفاض أبي وعمومتى في استبْطائه واستِثْثاره عليهم ، فأطْنَبُوا في ذلك ، وكان الموكلُ بالباب - سليم الأسود - يرفع الستر إذا جاء ، فحانت من سليم غفلة ، وجاء أبو جعفر وهو يتسمعُ عليهم ، ففهم ما هم فيه ، ووثبَ سليم ليرفعَ السّتر ، فأمسك بيده ومنعه من رفعه حتى استوعب سمعه جميعَ ما كانوا فيه .

فلما انقضى كلامهم أمرَ بِرَفْعِ الستر ودخل ، فقاموا له كَنَحْوِ ما كانوا يفعلون ، فقال : ما هذا ؟ إنما ينبغي أن تفعلوا هذا بحضرةِ العامة ، لتشدُّوا بذلك سُلْطانكم ، فأما مجالسُ الخلوة فنحن فيها إخوة .

ثم أمرهم بالجلوس ، وأقبلَ عليهم ، وقال : يا عمومتى ، ويا إخوتي ، قد سمعتُ ما كنتم فيه ، وقولكم : استأثر علينا ، ولعمري لقد كان ذلك ، وما استثنائي عليكم إلّا لكم ، وإشفاقاً من ذهاب سلطانكم ، وزوال أموالكم ، وإنما أبكي

* غرر الخصائص : ١٦٧

(١) انظر صفحة ١١٠ . (٢) استقرى : تتبع (٣) الفداء : ما بين صلاة الفجر إلى طلوع الشمس (٤) العشي من صلاة المغرب إلى الغتمة .

لكم رِقَّةٌ عليكم ، فكأْتى بالرجل منكم ومن أبنائكم ، أو من أبناء أبنائكم بين يَدَي الرجل من وَلَدَي أو وَلَدٍ ولدى ، ينتسبُ له فلا يعرفهُ ، بل لعله يبلغ على بن عبد الله بن العباس ، فذهبوا ليتكلموا ، فقال : أقسمتُ عليكم لما سكتُم ، أفيضوا بنا فى غير هذا الحديث .

قال أحمد : وضرب الدهرُ ضَرْبَانَهُ^(١) ، وماتَ المنصور ، وَوَلَّى المهديّ ومات ، وَوَلَّى الهادي ثم مات ، وولى الرشيد ، وخرج إلى الرقَّة ، وَنَالَتْنَا جَفْوَةً ، وَلَزِمْنِي دَيْنٌ فخرجتُ إليه ، فكان أول ما لقيتُ موكباً عظيماً ، فقلت : ما هذا ؟ فقيل لى : هذا وَلِيّاً العهد : الأَمِينُ والمأمون .

فترجَّلتُ وسلَّمتُ عليهما ، فقالا : مَنْ أَنْتَ ؟ قلت : أحمد بن إسماعيل بن على بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب ، وبكيتُ ، فاتمى الخبرُ من ساعتيهِ إلى الرشيد ، فلم أصلْ إلى منزلى حتى لَقِيتُ رسولهُ يدعونى .

فلَمَّا دخلتُ عليه ، قال لى : مِمَّ بَكيتَ ؟ قلت : يا أمير المؤمنين ، كان من القصة كَيْتَ وكيت ، وسُئِلْتُ إليه خبرَ المنصور ، فبكيتُ إذ كنتُ المبتلى بذلك دون من حضره ، فقال لى : هما ابنا أخيك ، وهى عَوْرَةٌ فاستُرْها ، ولن تُسألَ عن نَسَبِكَ بعد اليوم ، ما أقدمك ؟ قلت : دينٌ لَزِمْنِي . قال : وكم هو ؟ قلت : عشرون ألفَ دينار . فقال : يا غلامُ ، احملها إليه الساعة ، واجعل معها خمسة آلاف دينار لحِفْظِهِ الحديثَ عن المنصور . هل من حاجةٍ لك غير ذلك ؟ قلت : أودَّعُ أمير المؤمنين ، وانصرفت .

(١) ضرب الدهر ضربانه ومن ضربانه : مر ، وذهب بعضه .

١٠٨ — هذا بُغْيَةُ أمير المؤمنين*

أهدر أمير المؤمنين المنصور دَمَ رجلٍ ، كان يسعى بفسادِ دَوْلته مع الخوارج ، من أهل الكوفة . وجعل لمن دلَّ عليه ، أو جاء به مائة ألف درهم . ثم إنَّ الرجلَ ظهرَ في بغداد ، فبينما هو يمشي مُخْتَفِياً في بعض نواحيها ، إذ بَصُرَ به رجلٌ من أهل الكوفة ، فعرفه ؛ فأخذ بمجامع ثيابه ، وقال : هذ بُغْيَةُ أمير المؤمنين .

فبينما الرجلُ على هذه الحال إذ سمع وقعَ حوافر الخيل ، فالتفت فإذا معن ابن زائدة^(١) ، فاستغاث به ؛ وقال : أجزني أبارك الله ! فالتفت معنٌ إلى الرجل المتعلِّق به ، وقال له : ماشأنك وهذا ؟ فقال : إنه بُغْيَةُ أمير المؤمنين الذي أهدر دَمه وجعل لمن دلَّ عليه مائة ألف درهم . فقال : دَعُهُ . وقال لعلامه : انزل عن دابَّتكَ ، واحمل الرجلَ عليها .

فصاح الرجلُ المتعلِّقُ به وصرخ واستجار بالناس ، وقال : أَيْحَالُ بَيْنِي وَبَيْن بُغْيَةَ أمير المؤمنين ؟ فقال له معن : اذهب فقل لأَمِيرِ المؤمنين ، وأخبره أنه عندي .

فانطلق الرجلُ إلى المنصور وأخبره ، فأمر المنصور بإحضار معن في الساعة ؛ فلما وصل أمرُ المنصور إلى معن دعا جميعَ أهل بيته ومواليه وأولاده وأقاربه وحاشيته ، وجميعَ مَنْ يلوذُ به ؛ وقال لهم : أقسم عليكم ألاَّ يصلَ إلى هذا الرجل مكروه أبداً ؛ وفيكم عين تطرف .

* ذيل ثمرات الأوراق للحموي : ١٦٧ ، غرر الخصاص : ١٧

(١) كان معن بن زائدة جواداً شجاعاً ، جزيل العطاء ، كثير المروف ممدحا مقصوداً ، وكان في أيام بني أمية متنقلاً في الولايات ومنقطعاً إلى يزيد بن عمر بن هبيرة الفزاري ، فلما كانت أيام المنصور اتصل به بعد أحداث ، وصار من خواصه ، وتوفي سنة ١٥٨ هـ .

ثم إنه سار إلى المنصور ؛ فدخل وسلم عليه ، فلم يردّ عليه المنصورُ السلام ، ثم قال له : يا مَعْن ؛ ألتجَرُّ أعلَى ؟ قال : نعم ، يا أمير المؤمنين ! فقال المنصور : ونعم أيضاً ! وقد اشتدَّ غضبه . فقال مَعْن : يا أمير المؤمنين ؛ كم من مرة تقدّم في دولتكم بلائى ، وحُسْنُ غَنائى ^(١) ؟ وكَم من مرة خاطرتُ بدعى ؟ أمّا رأيتُمونى أهلاً لأنْ يُوهَبَ لى رجلٌ واحدٌ استجارَ بى بين الناس ، يوهمه أنى عبدٌ من عبيد أمير المؤمنين ، وكذلك أنا ! فمرّ بما شئت ، وهأنذا بين يديك !

فأطرق المنصورُ ساعة ، ثم رفع رأسه ، وقد سَكَنَ ما به من الغضبِ ، وقال له : قد أجزّناه لك يا مَعْن . فقال له مَعْن : إنْ رأى أمير المؤمنين أن يجمعَ بين الأجرَيْنِ فأمر له بصلّة أحياء وأغناه .

فقال المنصورُ : قد أمرنا له بخمسين ألف درهم . فقال مَعْن : يا أمير المؤمنين ؛ إن صلّات الخلفاء على قَدَرِ جِنَايات الرعية ، وإن ذنبَ الرجل عظيم ، فأجزّل له صِلته . قالى : قد أمرنا له بمائة ألف درهم . فقال له مَعْن : عَجِّلْها يا أمير المؤمنين ، فإن خيرَ البرِّ عاجله ، فأمر بتعجيلها ؛ فحملها وانصرف ؛ وأتى منزله ؛ وقال : للرجل : يارجل ؛ خذْ صلتك والحقْ بأهلك ؛ وإياك ومخالفة الخلفاء فى أمورهم بعد هذه .

١٠٩ — معن بن زائدة والأسود*

قال معن بن زائدة : لما هربت^(١) من المنصور خرجت من باب حرب ، بعد أن أقت في الشمس أياماً ، وخففت لحيتي وعارضت ، ولبست جبة صوف غليظة ، وركبت جملاً ، وخرجت عليه لأمضي إلى البادية ، فتبعني أسود متقلد سيفاً ، حتى إذا غبت عن الحرس ، قبض على خطام^(٢) الجمل فأناخه ، وقبض على قلتي : ما شأنك ؟ فقال : أنت بُنية أمير المؤمنين ! قلتي له : ومن أنا حتى يطلبني أمير المؤمنين ؟ فقال : معن بن زائدة . قلتي : يا هذا ، اتق الله ! وأين أنا من معن ؟ فقال : دَع هذا عنك ، فأنا والله أعرف بك . قلتي له : فإن كانت القصة كما تقول ، فهذا جوهر حملته معي بأضعاف ما بذله المنصور لمن جاءه بي ، فخذ ولا تسفك دمي .

فقال : هايت ، فأخرجته إليه ، فنظر إليه ساعة ؛ وقال : صدقت في قيمته ، ولست قابله حتى أسألك عن شيء ، فإن صدقتني أطلقْتُكَ ؛ قلتي : قل ، فقال : إن الناس وصفوك بالجلود ، فأخبرني : هل وهبت قط ممالك كله ؟ قلت : لا ، قال : فنصفه ؟ قلت : لا ، قال : فقلته ؟ قلت : لا ؛ حتى بلغ العشر ، فاستحييت ، وقلت :

* نهاية الأرب : ٣ - ١١ ، عصر المأمون ٢ - ١٩٧ .

(١) كان سبب غضب المنصور أن معن كان منقطعاً إلى يزيد بن عمر بن هبيرة في عهد بني أمية ، فلما كان عهد المنصور وجرى القتال بين المنصور ويزيد انضم معن إلى يزيد وأبلى بلاء حسناً حتى قتل يزيد ، فهرب معن وطلبه المنصور ثم عفا عنه بعد ذلك .
(٢) خطام الجمل : كل جبل يعلق في حلق البعير ثم يعقد على أنفه .

أظنّ أني قد فعلتُ هذا ! فقال : ماذاك بعظيم ! أنا والله راجل^(١) ورزقي من أبي جعفر عشرون درهماً ، وهذا الجوهر قيمته ألف دينار ، وقد وهبته لك ، ووهبتُك لنفسك ، ولجودك الماثور بين الناس ! ولتعلم أنّ في الدنيا من هو أجود منك ، فلا تعجبك نفسك ، ولتُحقر بعد هذا كلّ شيء تفعله ، ولا تتوقف عن مكرمة ، ثم رمى بالعدل إلىّ ، وخلي خطامَ الجمل وانصرف .

فقلت : يا هذا ! قد فصّحتني ، ولسفك دمي أهونُ عليّ مما فعلت ، فخذْ ما دفعته إليك ، فإنني عنه في غنى ؛ فضحك ، ثم قال : أردت أن تكذبني في مقامى هذا ! فوالله لا آخذه ، ولا آخذ لمروف ممناً أبداً ، ومضى .

فوالله لقد طلبته بعد أن أمنتُ ، وبذلتُ لمن يبيّ به ما شاء ، فما عرفتُ له خبراً ، وكأن الأرض ابتلعتة .

١١٠ — عقيد المجد والجود *

كان لمَعْن زائدة شاعرٌ يَفْشى مجلسه في كل يوم ، فانقطع عنه أياماً ، فلما دخل عليه قال : ما أبطأك ؟ قال : ولدت لى مولود ! قال : فما سميته ؟ قال : سميتُ معنًا بمعن ، ثم قلت له : هذا سميَّ عقيد المجد والجود ^(١) قال : يا غلام ؛ أعطه ألفَ دينار ، وقل بيتًا آخر ؛ فقال : سما بجودك جودُ الناس كلُّهم فصار جودك محرابَ الأجَاويد ^(٢) قال : يا غلام ؛ أعطه ألفَ دينار ، وقل بيتًا آخر ، فقال : أنت الجوادُ ومنك الجودُ أوله فإن فقدتَ فاجودُ بموجودٍ قال : يا غلام ، أعطه ألفَ دينار ، وقل بيتًا آخر ، فقال : من نور وجهك تضحى الأرض مُشرقَةً ومن بنانك يجرى الماء في العودِ قال : يا غلام ، أعطه ألفَ دينار ، وقل بيتًا آخر ، فقال الغلام : لا تقل شيئًا بعد ذلك ، والله لم يبق في بيت المال إلا ما أخذتَ ، ثم انصرف .

* المختار من نوادر الأخبار — مخطوط .

(١) هو سمي فلان : إذا وافق اسمه اسم فلان ، وعقيد المجد : معاقده ، أى ملازمه .

(٢) جمع جواد .

١١١ — مثلك يصطنع*

طلب المنصورُ معنَ بن زائدةَ زمنًا ، وما زال مستترًا حتى كان يوم الهاشمية^(١) فلما وثب القومُ على المنصور ، وكادوا يفلونه ، وثب معنٌ وهو مُتَلَمِّمٌ ، فانتضى سيفه وقاتل ، فأبلى بلاءَ حسنًا ، وذبح^(٢) القومَ عنه حتى نجا .

ثم جاء والمنصور رَاكِبٌ بغلةً ، ولجامُها بيد الربيع ، فقال له : تنح فإني أحقُّ بالجام منك في هذا الوقت وأعظمُ فيه غناءً ، فقال له المنصور : صدق ، فادفعه إليه ! فأخذه ، ولم يزلُ حتى انكشفت تلك الحال .

فقال له المنصور : مر أنت ؟ لله أبوك ! قال : أنا طليقتك يا أمير المؤمنين ؛ معن بن زائدة ! قال قد أمنتك الله على نفسك ومالك ، ومثلك يصطنع . ثم أخذ معه ، وخلع عليه وحباه وزينته ، ثم دعا به يوماً فقال له : إني قد أملتُك لأمرٍ فكيف تكونُ فيه ؟ قال : كما يحبُّ أميرُ المؤمنين . قال : وليتُك اليمينُ فابسطِ السيفَ فيهم حتى ينقضَ حلفَ ربيعة واليمين ، وابلغ من ذلك ما يجبُ أمير المؤمنين .

* المذهب : ٩ - ٨٨ .

(١) الهاشمية : مدينة بناها السفاح بالقرب من الكوفة سنة ١٣٤ هـ . وفيها حبس المنصور عبد الله بن حسن بن علي بن أبي طالب ومن كان معه من أهل بيته .
(٢) ذبح عنه : منع ودفع .

١١٢ - نعمة عدوك قِلَادَةٌ في عُنُقِ*

أرسل المنصورُ إلى شيخٍ من أهل الشام - وكان من بَطَانَةِ^(١) هشام بن عبد الملك بن مروان - فسأله عن تدبير هشام في حروبه مع الخوارج ، فوصف الشيخُ له ما دبّر ، فقال : فعل - رحمه الله - كذا ، وصنع - رحمه الله - كذا ! فقال المنصور : قُمْ عليك لعنةُ الله ! تطأُ بساطي وتترحم على عدوي ! فقام الرجلُ ، وقال - وهو مولٍ : إن نعمةَ عدوك قِلَادَةٌ في عُنُقِ لا ينزعها إلا غَاسِل . فقال له المنصور : ارجع يا شيخ ، فرجع ، فقال : أشهدُ أنك حرٌّ شريف ، ارجع إلى حديثك . فعاد الشيخُ إلى حديثه ، حتى إذا فرغ دعا له بمال ، فأخذه ، وقال : والله يا أميرَ المؤمنين ، مالى إليه حاجة ، ولقد مات عني من كَيْفَتُ في ذكره ، فما أحوجني إلى الوقوفِ على بابِ أحدٍ بعده ، ولولا جلالَةُ أمير المؤمنين وإيثاري طاعته ما لبستُ نعمةَ أحدٍ بعده .

فقال المنصور : إذا شئتَ ، لله أنت ! فلو لم تكن لقومك لكنتَ أبقيتَ لهم مُجَدًّا مُحَلِّدًا وعِزًّا باقِيًا .

* المحاسن والمساوي : ١١٩ ، (طبع ليزج) .

(١) بَطَانَةُ الرجل : خاصته .

١١٣ — جود عبد الواحد بن سليمان *

قال عبد الله بن إبراهيم الجمحي : قلت لابن^(١) هرمة : أتمدح عبد الواحد
ابن سليمان بشعرٍ ممدّحت به غيره فتقول فيه هذا البيت :
وجدنا غالباً كانت جناحاً وكان أبوك قادمة^(٢) الجناح
ثم تقول فيها :

أعبد الواحد الميمون إني أغص حذار سُخْطك بالقراح^(٣)
فبأى شيء استوجب ذلك منك ؟ فقال : إني أخبرك بالقصة لتعذرني :
أصابني أزمةٌ بالمدينة ، فاستنهضتني بنتُ عمي للخروج ؛ فقلت لها : ويحك !
إنه ليس عندي ما يقيّني . فقالت : أنا أنهضك بما أمكنني ، وكانت عندي ناب^(٤)
لي ، فنهضتُ عليها نهجاً^(٥) النوم ، ونوذي السمار ، وليس من منزل أنزله إلا قال
الناس : ابن هرمة ! حتى دفعتُ إلى دمشق .

فأويتُ إلى مسجد عبد الواحد في جوف الليل ، فجلستُ فيه أنتظره إلى أن
برزغ الفجر ، فإذا الباب ينفلق عن رجلٍ كأنه البدر ، فدنا فأذن ، ثم صلى ركعتين ؛
وتأملتُه فإذا هو عبد الواحد ، فقمْتُ فدنوتُ منه وسلتُ عليه ؛ فقال لي :
أبو إسحق ! أهلاً ومرحباً ؛ فقلتُ : لبيك ، بأبي أنت وأمي ! وحيّاك الله بالسلام

* الأغاني : ٦ - ١٠٧ .

(١) اسمه إبراهيم بن علي : شاعر قال عنه الأصمعي : إنه أحد من ختم به الشعر وكان مدمناً
للشرب مفرماً به ، وهو من سكان المدينة ، توفي سنة ١٠٥ هـ (٢) القوادم : أريم أو عشر
ريشات في مقدم الجناح ، الواحدة قادمة (٣) القراح : الماء لا يخالطه شيء (٤) الناب :
انفاة المستنة (٥) نهج النوام : نوقظهم ، وهو من الأضداد .

(١٧ قصص - أول)

وقرّ بك من رضوانه ؟ فقال : أما آن لك أن تزورنا ؟ فقد طال العهد ، واشتدّ الشوق ، فما وراءك ؟ قلت : لا تسلى - بأبى أنت وأمى - فإن الدهر قد أخنى على ؛ فما وجدتُ مُستغاثاً غيرك ؟ فقال : لا ترع^(١) ؛ فقد ورّدت على ماتحِبُّ إن شاء الله . فوالله إني لأخاطبُه ، فإذا بثلاثة فتية قد خرجوا كأنهم الأشطان^(٢) ، فسلموا عليه ، فاستدنى الأكبر منهم فهمس إليه بشيء دوني ودون أخويه ، فضى إلى البيت ثم رجع ، فجلس إليه فكلّمه بشيء دوني ثم ولى ، فلم يلبث أن رجع ومعه عَبْدٌ ضابط^(٣) ، يحمل عبثاً من الثياب حتى ضرب به بين يدي^(٤) ، ثم همس إليه ثانية فعاد ، وإذا به قد رجع ومعه مثل ذلك ، فضرب به بين يدي .

فقال لى عبد الواحد : اذنُ يا أبا إسحاق ؛ فإنى أعلم أنك لم تصرّ إلينا حتى تفارق صدّعك ؛ فخذ هذا وارجع إلى عيالك ، فوالله ماسلنا لك هذا إلا من أشدّاق عيالنا ، ودفع إلى ألف دينار ، وقال لى : قم فارحل فأغث من وراءك . فقممت إلى الباب ، فلما نظرتُ إلى ناقتي ضيقتُ ؛ فقال لى : تعال ، ما أرى هذه مُبَلِّغتك . يا غلام ؛ قدّم له جلاً . فوالله لقد كنتُ بالجل أشدّ سروراً منى بكلِّ ما نلتُه ؛ فهل تلومنى أن أغص حِذارَ سُخطِ هذا بالقراح ! والله ما أنشدته ليلتشدّ بيتاً واحداً .

(١) لا ترع : لا تخف ولا تفرع (٢) الأشطان : جيم شطن ، وهو الحبل الطويل م
(٣) ضابط : قوى شديد (٤) رى به .

١١٤ — أبو حنيفة يرفع الجوار *

كان لأبي حنيفة ^(١) جارٌ بالكوفة يُعْنَى في عُرفته ، ويسمى أبو حنيفة غناءه فيعجبه ، وكان كثيراً ما يُعْنَى :

أضاعوني وأىّ فتي أضاعوا ليوم كريه وسداد ^(٢) تفرّ
فلقيه العسس ^(٣) ليلة فأخذوه وجسّس .

فقد أبو حنيفة صوته تلك الليلة ، فسأل عنه من غدي فأخبره ؛ فدعا بسواده وطوّيلته ^(٤) فلبسهما ، وركب إلى عيسى بن موسى ، فقال له : إن لي جاراً أخذه عسسك البارحة فحبّس ، وما علمتُ منه إلا خيراً . فقال عيسى : سلّموا إلى أبي حنيفة كلّ من أخذ العسس البارحة ؛ فأطلقوا جميعاً ؛ فلما خرج الفتى دعا به أبو حنيفة وقال له ميرّاً : ألسنت كنت تعني يافتي كل ليلة :

* أضاعوني وأىّ فتي أضاعوا *

فبلى أضعفك ؟ قال : لا والله ، ولكن أحسنت وتكرّمت ، أحسن الله جزاءك . قال : فعذّ إلى ما كنت تعني ، فإنني كنت آنسُ به ، ولم أربه بأساً ، قال : أفعل !

(*) الأغاني : ١ - ٤١٤ .

(١) هو النعمان بن ثابت من موالى تيم الله بن ثعلبة ، دعاه ابن هبيرة للقضاء فأبى ومات بقتل
سنة ١٥٠ هـ (٢) سداد الثغر : سده بالخيول والرجال (٣) العسس : جمع عاس وهو الذي
يطرف بالليل يحرس الناس ويكشف أهل الرية (٤) الطويلة : القلنسوة العالية المدعمة بيمين
وكان السواد شعاراً لبني العباس .

١٥٥ — يُرَبِّي الله الصدقات *

قال سوار : انصرفت يوماً من دار المهدي ^(١) ، فلما دخلت منزلي دعوتُ
بالطعام فلم تقبلهُ نفسي ، فأمرتُ به فرُفِعَ ، ودخلتُ وقتَ القائلة فلم يأخذني نومٌ ،
فنهضتُ وأمرتُ ببغلة لي فأسْرِجَتِ وأحضرتُ ، فركبتها .

فلما خرجتُ استقبلني وكيلٌ لي ، ومعه مالٌ ، فقلت : ما هذا ؟ فقال : ألفا درهم
جَبَيْتُهَا من مُسْتَعْلَكٍ الجديد . قلت : أمسكها معك واتبعني .

فخلَّيتُ رأسَ البغلة حتى عبرتَ الجسرَ ، ثم سرتُ حتى انتهيتُ إلى الصبراء ،
ثم رجعتُ إلى باب الأنبار ، فانهيتُ إلى باب دار لطيف ، عليه شجرةٌ ، وعلى الباب
خادمٌ ، فوقفتُ وقد عطشتُ : فقلتُ للخادم : عندك ماءٌ تَسْقِينِيهِ ؟ قال : نعم ! وقام ،
فأخرج قُلَّةً نظيفة طيبة الرائحة ، عليها منديلٌ ، فناولني فشربتُ ، وحضر وقتُ
العصر فدخلتُ مسجداً ، فصلَّيتُ فيه .

فلما قضيتُ صلاتي إذا أنا بأعمى يتلمس الطريق ، فقلت : ما تريد يا هذا ؟ قال :
إياك أريد ! قلت : وما حاجتكُ ، فجاء حتى قعد إلى وقال : شممتُ منك رائحةً طيبةً ،
فظننتُ أنك من أهل النعم ، فأردتُ أن ألقى إليك شيئاً . فقلت : قل . قال :
تري بابَ هذا القصر ؟ قلت : نعم ، قال : هذا قصرٌ كان لأبي فباعه ، وخرج إلى
خراسان وخرجتُ معه ، فزالَتِ عنه النعم التي كُفِّتَ فيها ، وعميتُ ، فقدمتُ هذه

* المقعد الفريد للملك السعيد : ١٢٣ .

(١) هو محمد بن عبد الله ، ولى بعد وفاة أبيه سنة ١٥٨ هـ ، وكان محمود السيرة محباً إلى الزراعة
بواداً . توفي سنة ١٦٩ هـ .

المدينة ؛ فأتيتُ صاحبَ هذه الدار لأسأله شيئاً يَصِلُنِي به وأتوصل به إلى سَوَّار ؛ فإنه كان صديقاً لأبي . قلت : ومن أبوك ؟ قال : فلان ابن فلان ؛

قال : فإذا هو كان أصدق الناس لي ، فقلت له : يا هذا ؛ فإن الله تعالى قد أتاك بسَوَّار ؛ ومنعه النوم ، والطعام والقرار حتى جاء به فأقعد بين يديك . ثم دعوت الوكيل ، فأخذت الدراهم منه ، فدفعْتُها إليه ؛ وقلت له : إذا كان غَدٌ فصرْ إلى منزلي ؛ ثم مضيتُ فقلت : ما أَحدَثُ أمير المؤمنين المهدي بشيء أظرف من هذا . فأتيتُهُ فاستأذنتُ عليه فأذن لي ، فلما دخلتُ عليه حَدَّثَنِي ، فأعجبهُ ، ثم أمرني بالنفي دينار ، وقال : اذفعها إلى الأعمى . فتهضتُ ، فقال : اجلس ، أعليك دين ؟ قلت : نعم ! قال : كم دينك ؟ قلت : خمسون ألف درهم ! فأمسك ، وجعل يحادثني ساعة ، وقال : امضِ إلى منزلك . وإذا بخادم معه خمسون ألفاً ، وقال : يقول لك أمير المؤمنين : اقضِ بها دينك ؛ فقبضتُ ذلك منه .

فلما كان من الغد أبطأ على الأعمى ، وأتاني رسولُ المهدي يدعوني ، فحِثُّهُ ، فقال : فكرتُ البارحة في أمرك ، فقلت : يقضى دينه ، ثم يحتاجُ إلى القرض أيضاً ، فأمرت لك بخمسين ألف درهم أخرى . فقبضتها ، ثم انصرفت ! فجاءني الأعمى ، فدفعْتُ إليه الألفين ، وقلت له : قد رزقَ الله تعالى بكرمه - بإسداء المعروف إليك - بأضعاف ذلك ، ثم أعطيتُهُ شيئاً آخر من مالي ، وجهزته وانصرفت .

١١٦ - العِرق دَساس*

قال عثمان بن سليمان :

خرجتُ في نَفَرٍ من هُذيل من أهل البصرة ، نريد باديةً في أمرٍ طَرَقَهُمْ ،
وكان مسيرُنا ثلاثاً ، فنزلنا في الليلة الأولى على حَيٍّ من بني مازن ، فقصدنا بيتاً
رَحْباً فإذا ببابه رجلٌ وامرأةٌ ، وهما صاحبا البيت ، فسلمنا فردت المرأةُ السلام ،
وحيت ، وأظهرت بِشراً وبشاشةً ، وأعرض الرجل وأظهر تَبَرُّماً وتضجُّراً .

فقالَت لنا المرأةُ : انزلوا بالرَّحْب والسَّعة ، فقال الرجل : ما عندنا موضعٌ لنزولكم ،
فقالَت المرأةُ : سبحان الله ! تقولُ هذا لِضَيْفَانٍ^(١) قد حلُّوا بنا ، ووجب حقُّهم
علينا ؟ ! انزلوا بآرك الله فيكم ؛ فظهر منا انقباضٌ ونفور لما سمعنا من بعلِّها ، فقامت :
لا يُحْسِنُكُمْ^(٢) ما سمعتم منه ! فإن له فيما أبداه من ذلك عذراً !

وأمرت أتباعها فأخذوا بنا وأنزلونا ، وانطلق بعلُّها كالْحَا^(٣) وجهه كالمنضب ؛

فكثر منه تمجُّبنا ، إذ لا نعرفُ ذلك من أخلاق العرب !

وَبِتْنًا ليلتنا خير مبيت ، ما تركت المرأةُ كرامةً إلا أكرمَتنا بها .

وأصبحنا فأخذنا الطريق حتى أمسينا في حَيٍّ آخر ، فقصدنا بيتاً ضَخماً ، فإذا
ببابه رجلٌ وامرأةٌ ؛ وهما صاحبا البيت ، فسلمنا فردت الرجلُ السلام ، وحيّاً وأظهر
بشاشةً وبِشراً . وأعرضت المرأةُ ، وأظهرت تَبَرُّماً بنا وكرهه لمكاننا .

فقال لنا الرجل : انزلوا بالرَّحْب والسَّعة . فقامت المرأةُ : وكيف تُنزلهم

(*) المتقى من أخبار الأصمعي : ٢٨

(١) جمع ضيف . (٢) أحشمه : أخجله وأغضبه . (٣) كالح : عابس .

وما عندنا ما يُصلِحهم ؟ فقال الرجل : سبحان الله ! تقولين هذا لضيغان قد حلّوا بنا ؟
ووجب حقّهم علينا ! انزلوا بارك الله فيكم ، فإنّ عندنا الذي يُصلِحكم !
فظهر منا انقباضٌ شديدٌ لما سمعنا من زوجته ، فقال : لا يُخْشِئْكُمْ ما سمعتمُ
من هذه المرأة ؛ فإن لها فيما أبدته من ذلك عذراً ! وأمر أتباعه فأحدقوا بنا وأنزلونا ،
ودخلت المرأة البيتَ مُفْضِبةً ، فأطلنا المناجاة فيما بيننا ، نعجبُ من الأول وزوجته ،
ومن هذا وزوجته ونقول : مافى جميع العرب كذلك البيت ، ولا كذا البيت !
ولو لم تُنفِدْ في وجهنا هذا إلا ما شاهدنا من هذا الأمر لكان ذلك فائدةً تُؤثّر
وتُدْكر . وصاحبُ البيت يتأمّلنا ويُصْنِئُ إلينا .

ثم أقبلَ علينا ، فقال : من أين خرجتم ؟ قلنا : من البصرة . قال : ومتى
فارقتموها ؟ قلنا : غداة أمس . قال : فيمنَ بتم البارحة ؟ قلنا : بينى فلان . فقال :
وفى منزل من ؟ قلنا : فى منزل رجل يقال له فلان . قال : فإني رأيتكم تتحدّثون
بينكم حديثاً تكثرّون منه التعجب ، فما ذاك .

قلنا : إذَنْ والله نخبرك : إنه كان من الأمر كذا وكان كذا ، فقال :
قد ظننتُ ذاك ، أفلا أخبركم بما هو أعجبُ مما تتعجبون منه ؟ قلنا : بلى ! قال :
اعلموا - حيّاكم الله - أن تلك المرأة التى بتم ببيتها أختى لأبى وأمى ، وأن ذلك
الرجل أخو زوجتى هذه لأبيها وأمها ، والذى رأيتم من جماعتنا خلقٌ جيلنا عليه ،
لا تكلفَ فيه !

قلنا : الحمد لله الذى جَبَلَكَ على أخلاق الكرماء من الرجال !

١١٧- إِنَّ بَعْدَ الْمُسْرِ يَسْرًا*

قال إسحاق بن إبراهيم الموصلي :

لما دخل الرشيد^(١) البصرة حاجاً كنتُ معه ، فقال لي جعفر^(٢) بن يحيى يوماً : يا أبا محمد ، وصفت لي جاريةً مغنّيةً حسناء تُبَاع ، وذكروا أن مولاهم تمتنع عن عرضها إلا في داره ، وقد عزمْتُ أن أركب متخفياً فأراها ، أفنساعدني؟ فقلت : السمع والطاعة .

فلما كان في نصف النهار حضر النخاس^(٣) فأعلم بحضوره ، فخرج جعفر بعمامة وطيلسان ونعل عربية ، وأمرني فلبستُ مثله ، وركبنا حمارين قد أُسرجا لنا بسروج التجار ، وركب النخاس معنا ، وتخللنا الطريق ، حتى أتينا داراً ذات باب يدلُّ على نعمة قديمة .

فقرع النخاسُ الباب ، وإذا شابٌ حسنُ الوجه عليه آثارُ ضرٍّ بادٍ ، وعليه قميص ، ففتح وقال : انزلوا يا سادة . فدخلنا ، وإذا بدھليز^(٤) ، ودارقوراء^(٥) خربة ، فأخرج لنا الرجلُ قطعةً من حصير كبير خلَّق ، ففرشها لنا ، فجلسنا عليها ، وقال له النخاس : أحضر لنا الجارية ؛ فقد حضر المشتري .

(*) الفرج بعد الشدة : ٢-١٧٣ .

(١) انظر صفحة ١١٠ (٢) كان جعفر من علو القدر ، ونفاذ الأمر وبعد المهمة وعظم المحل وجلالة المنزلة عند هارون الرشيد بحال انفراد بها ، وكان سمح الأخلاق طلق الوجه ظاهر البشر ، جواداً سخياً معطاء ، فصيحاً لساناً بليغاً ، قتله الرشيد في خبر مشهور سنة ١٨٧ هـ (٣) النخاس : يباع الرقيق والدواب . (٤) الدھليز : ما بين الباب والدار (٥) القوراء : الواسعة .

فدخل البيت ، وإذا بجارية قد خرجت في القميص الغليظ الذى كان على الفتى بعينه ؛ وهى فيه مع خشوته كأنها فى الجلى والحلل الحُسن وجهها ؛ وفى يدها عود ، فأمرها جعفر بالفناء فجسسته ، وضربت ضرباً حسناً ، واندفعت تغنى غناء جيلاً . ثم غلبها البكاء حتى منعها الفناء ؛ وسمعنا من البيت نحيب الفتى ؛ وقامت الجارية تتعزُّز فى قميصها حتى دخلت البيت ، فارتفعت لها ضجة بالبكاء والشهيق ؛ ثم خفتا حتى ظننا أنهما قد ماتا ؛ وهمننا بالانصراف ، فإذا بالفتى قد خرج ، وعليه ذلك القميص بعينه ؛ فقال : أيها القوم ، اعذرونى فيما أفعله وأقوله . فقال له جعفر : قل ؛ فقال : أشهد الله وأشهدكم أن هذه الجارية حرة لوجه الله تعالى ، وأسألكم أن تزوجونى بها !

فتحير جعفر أسفاً على الجارية ، ثم خاطبها ، فقال : أترغين أن أزوجك من مولاك ؟ قالت : نعم . فزوجه بها .

وأقبل جعفر على الفتى فقال : يا هذا ، ما حملك على ما فعلت ؟ فقال : أنا فلان ابن فلان ، وكان أبى من وجوه هذا البلد ومياسيره ، وهذا يعرف ذلك - وأشار إلى النخاس - وأنه أسلمنى إلى المكتب^(١) . وكانت لأُمى صبية وسنها قريب من سنِّى - وهى جاريتى هذه - وكانت معى فى المكتب تتعلم ما أعلم ، وتنصرف معى ، فكبرت ؛ ثم علمت الفناء ؛ فكنت أتعلم منها .

ثم خطبني وجوه أهل البصرة لبناتهم ؛ فخيرنى أبى ، فأظهرت له الزهد فى التزويج ، ونشأت متوفراً على الأدب ، متقلباً فى نعمة أبى ، غير متعرض لما يتعرض له الأحداث ، ورغبة أهل البلد تزداد فى ، وعندما أن عفتى لصلاح . وما كانت

إِلَّا لِأَنْسَى بِالْجَارِيَةِ ؛ وَأَنْ رَغَبْتِي لَا تَتَعَدَّاهَا . وَبَلَغْتَ الْجَارِيَةَ فِي الْفَنَاءِ مَا قَدْ سَمِعْتُمُوهُ ، فَزِمْتُ أُمِّي عَلَى بَيْعِهَا ، وَهِيَ لَا تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي مِنْهَا ، فَأَحْسَسْتُ بِالْمَوْتِ ، وَاضْطَرَرْتُ إِلَى أَنْ صَدَقْتُ أُمِّي بِمَا نَفْسِي ، فَحَدَّثْتُ أَبِي ؛ فَأَجْمَعَ رَأْيُهُمَا عَلَى أَنْ وَهَبَا الْجَارِيَةَ لِي ، وَجَهَزَاهَا كَمَا يَجْهَزُ أَهْلُ الْبَيْتَاتِ ^(١) بَنَاتِهِنَّ ، وَجُلِّيتُ عَلَى وَجْهِ الْعُرْسِ الْحَسَنِ . فَنَعِمْتُ مَعَهَا دَهْرًا ، ثُمَّ مَاتَ أَبِي فَلَمْ أَحْسَنْ أَنْ أَرْبَّ ^(٢) نِعْمَتَهُ ، فَأَسَاءْتُ تَدْيِيرَهَا ، وَأَسْرَعْتُ فِي الْأَكْلِ وَالشَّرْبِ وَغَيْرِهَا مِنَ الْمَتَاعِ ، إِلَى أَنْ تَلَفْتُ النِّعْمَةَ ، وَأَفْضَيْتُ الْحَالَ إِلَى مَا تَرَوْنَ ، فَأَنَا عَلَى هَذَا مِنْذُ سَنِينَ !

فَلَمَّا كَانَ هَذَا الْوَقْتُ بَلَغَنِي دُخُولُ الْخَلِيفَةِ وَوَزِيرِهِ وَأَكْثَرِ أَهْلِ مَمْلَكَتِهِ بِالْبَصْرَةِ ، فَقُلْتُ لَهَا : يَا أُخْتِي ، إِنَّ شَبَابَكَ يَبْلَى ، وَعَمْرُكَ فِي الدُّنْيَا يَنْقُضُ ، وَوَاللَّهِ مَا فِي نَفْسِي رَغْبَةٌ فِي بَيْعِكَ ؛ فَإِنِّي أَعْلَمُ أَنِّي تَالَفْتُ مَتَى فَارَقْتُكَ ، وَلَكِنِّي أُؤَثِّرُ تَلْنِي مَعَ وَصُولِكَ إِلَى نِعْمَةٍ وَرِفَاقِيَةِ ، فَدَعَيْتَنِي أَعْرِضُكَ ، فَلَعَلَّهُ يَشْتَرِيكَ بَعْضُ هَؤُلَاءِ الْمَيَاسِيرِ ^(٣) ، فَتَكُونِي مَعَهُ فِي رَغْدٍ مِنَ الْعَيْشِ ، فَإِنْ مِتُّ بَعْدَكَ فَتِلْكَ أُمْنِيَّتِي ؛ وَيَكُونُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنَّا تَخْلَصُ مِنَ الشَّقَاءِ ، وَإِنْ حَكَّمَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَيَّ بِالْبَقَاءِ صَبَرْتُ لِفَضْلِ اللَّهِ ، وَاضْطَرَبْتُ فِي مَعَاشِي بِشَمْنِكَ .

فَبَسَكْتُ مِنْ ذَلِكَ وَقُلْتُ : ثُمَّ قَالَتْ : افْعَلْ ، فَخَرَجْتُ إِلَى هَذَا النِّخَاسِ وَأَطْلَعْتُهُ عَلَى أَمْرِي ، وَقَدْ كَانَ يَسْمَعُ غِنَاهَا فِي أَيَّامِ نِعْمَتِي ، وَعَرَفَ حَالَهَا وَحَالِي ، وَأَخَذَ أَنِّي لَا أَعْرِضُهَا أَبَدًا إِلَّا عِنْدِي ، فَإِنَّهَا وَاللَّهِ مَا تَسَلَّقْتُ عَتَبَةَ هَذِهِ الدَّارِ قَطْ ،

(١) الْبَيْتَاتُ : جَمْعُ بَيْتٍ ، وَهُوَ جَمْعُ بَيْتٍ . (٢) أَزِيدُهَا وَأَصْلَحُهَا (٣) مَيَاسِيرُ : جَمْعُ مُوسِرٍ وَهُوَ الْفَقِيرُ .

وأردت بذلك أن يراها المشتري وحده ، ولا تمتنح بسوق ولا دخول إلى بيوت الناس ؛ وإنه لم يكن لها ما تلبسه إلا قميص هذا ، وهو مشترك بيننا ، ألبسه إذا خرجت لابتياح القوت وتتشح هي بإزارها ، فإذا جئت إلى البيت ألبستها إياه واتشحت أنا بالإزار .

فلما جئنا خرجت ففنت ، فلحقني من البكاء والقلق أمرٌ عظيم ، ودخلت إلي وقالت لي : يا هذا ، ما أعجب أمرك ! أنت مللتني وآثرت فراق ، وتبكي هذا البكاء على ! فقلت : يا هذه ، والله لفراق نفسي أسهل على من فراقك ، وإنما أردت أن تتخلصي من هذا الشقاء . فقالت : والله يامولاي ، لو تملك منك ما تملكته منى ما بعثك أبداً ، وأموت جوعاً ، فيكون الموت هو الذى يفرق بيننا .

فقلت : لا عليك ! أتريدن أن تعلمي صدق قولى ؟ قالت : نعم ، قلت : هل لك أن أخرج الساعة إلى المشتري ، فأعتيق بين يديه وأتزوجك ، ثم أصير معك على ما نحن عليه إلى أن يأتى الله بفرج أو موت وراحة ؟ فقالت : إن كنت صادقاً فافعل هذا ، فما أريد غيرك . فخرجت إليكم ، وكان منى ما علمتم ، فاعذرونى .

قال إسحاق : فقال جعفر : أنت معذور ونهض ، فهضت معه والنخاس ، فلما قدّمت الحير لركب دنوت منه فقلت : يا سبحان الله ! مثلك فى جودك ترى هذه الفاقة ، ولا تنهز الفرصة فيها ! والله لقد تقطع قلبى على الفتى . فقال : ويحك ! وقلبي والله ! ولكن غيظ من فوت الجارية منعنى من التكرم عليه . فقلت : فأين الرغبة فى الثواب ! فقال : صدقت والله !

ثم التفت إلى النخاس فقال له : كم كان الخادم سلمٌ إليك عند ركوبنا لثمنها ؟
قال : ثلاثة آلاف دينار ، قال : فأين هي ؟ قال : مع غلامي ، فقال لي والنخاس :
خذها واذهبها إلى الفتى ، وقولا له : يسكنسى ويركب ويحيثنى لأحسن إليه
وأستخدمه .

فرجعتُ إلى الفتى وأنا أبكى ، فقلتُ له : قد عجل الله عزّ وجل لك بالفرج ؛
إن الذى خرج من عندك هو الأمير جعفر بن يحيى البرمكى ، وقد أمر لك بهذا ،
وهو يقول لك : كذا وكذا ... فصعق حتى قلتُ : قد تلفت ! ثم أفاق فأقبل يدعو
ويشكرنى ، فركبتُ فلحقت بجعفر ، فأخبرته ، فحمد الله عزّ وجل على ما وقفه له ،
وعاد إلى داره وأنا معه .

فلما كان العشاء جئنا إلى الرشيد ، فأخذ يسألُ جعفرًا عن حاله في يومه ، وهو
يخبره بالأمور السلطانية ، ثم قصّ عليه حديث الفتى والجارية ، فقال له الرشيد :
فما علمت ؟ فأخبره ، فاستصاب^(١) رأيه وقال : وقع له برزقٍ سلطاني في رسم
أرباب النعم ، في كل شهر كذا وكذا ، واعمل بعد ذلك ما شئت .

فلما كان من الغد جاءني الفتى راكبًا بثيابٍ حسنة ، وهيئة جميلة ، فإذا هو
أحلى الناس كلامًا ، وأتمهم أدبًا ؛ فحملته معي إلى جعفر ، وأوصلته إلى مجلسه ، فأسر
بتسهيل وصوله إليه وخلطه بمحاشيته ، ووقع له عن الخليفة بما كان رسمه له ، وعن
نفسه بشيء آخر .

وشاع حديثه بالبصرة وفي أهل العسكر ، فلم يبق فيهما متظرف إلا أهدى
إليه شيئًا جليلا ، فما خرجنا من البصرة إلا وهو ربُّ نعمةٍ صالحة !

(١) استصابه : استصوبه .

١١٨ — لا أسأل سواك ولو سفتُ التراب*

ركب محمد بن إبراهيم الإمام دَيْنٌ ، فركب إلى الفضل^(١) بن يحيى ، ومعه حُقَّة^(٢) فيها جوهر ؛ فقال له : قَصْرْتُ بنا غَلَاتنا ، وأَغْلَلْ أمرنا خَلِيفَتُنَا ، وتَزَايَدْتَ مَثَوْنَتُنَا ، وَلِزِمْنَا دَيْنٌ احْتَجْنَا لَأَدَائِهِ إلى ألف درهم ؛ فَكَرِهْتُ بَذْلَ وَجْهِ لِلتَّجَارِ وَإِذَالَةَ^(٣) عِرْضِي بَيْنَهُمْ ، وَلَكِ مَنْ يَعْطِيكَ مِنْهُمْ ، وَمَعِيَ رَهْنٌ ثِقَةٌ بِذَلِكَ ، فَإِنْ رَأَيْتَ أَنْ تَأْمُرَ بَعْضَهُمْ بِقَبْضِهِ ، وَتَحْمِلَ الْمَالَ إِلَيْنَا !

فَدَعَا الْفَضْلُ بِالْحُقَّةِ ، فَرَأَى مَا فِيهَا ، وَخَتَمَهَا بِخَاتَمِ مُحَمَّدِ بْنِ إِبْرَاهِيمَ ، ثُمَّ قَالَ لَهُ : نُبْجَحُ الْحَاجَةَ أَنْ تَقِيمَ عِنْدَنَا الْيَوْمَ . فَقَالَ لَهُ : إِنْ فِي الْمَقَامِ عَلَى مَشَقَّةٍ ؛ فَقَالَ : مَا يَسْقُ عَلَيْكَ مِنْ ذَلِكَ ؟ إِنْ رَأَيْتَ أَنْ تَلْبَسَ شَيْئًا مِنْ ثِيَابِنَا دَعَوْتُ بِهِ ، وَإِلَّا أَمَرْتُ بِإِحْضَارِ ثِيَابٍ مِنْ مَنْزِلِكَ . فَأَقَامَ ، وَنَهَضَ الْفَضْلُ ، وَدَعَا بَوَكِيلَهُ ، وَأَمَرَهُ أَنْ يَحْمِلَ الْمَالَ وَيُسَلِّمَهُ إِلَى خَادِمِ مُحَمَّدِ بْنِ إِبْرَاهِيمَ ، وَيُسَلِّمَهُ الْحُقَّةَ نَبْمًا فِيهَا مِنَ الْجَوْهَرِ بِخَاتَمِهِ ، وَيَأْخُذَ خَطَّهُ بِذَلِكَ . فَفَعَلَ الْوَكِيلُ ؛ وَأَقَامَ مُحَمَّدٌ عِنْدَهُ إِلَى الْمَغْرَبِ ، وَلَيْسَ عِنْدَهُ شَيْءٌ مِنَ الْخَبَرِ .

ثُمَّ انْصَرَفَ إِلَى مَنْزِلِهِ فَرَأَى الْمَالَ ، وَأَحْضَرَ لَهُ الْخَادِمُ الْحُقَّةَ ؛ فَدَعَا عَلَى الْفَضْلِ لِيَشْكُرَهُ ؛ فَوَجَدَهُ قَدْ سَبَقَهُ بِالرُّكُوبِ إِلَى دَارِ الرَّشِيدِ ؛ فَوَقَفَ مُنْتَظِرًا ، فَقِيلَ لَهُ : قَدْ خَرَجَ مِنَ الْبَابِ الْآخَرِ قَاصِدًا مَنْزِلَهُ . فَانْصَرَفَ عَنْهُ .

* الوزراء والكتاب : ١٩٦ .

(١) هو الفضل بن يحيى بن خالد بن برمك ، وكان من أكثر البرامكة كرمًا وجودًا ، وله في ذلك الأخبار السائرة ، ولأه الرشيدي الوزارة قبل أخيه جعفر ، ثم نقلها منه إلى جعفر وقلده بعمل في خراسان . ومات بعد نكبة البرامكة في السجن سنة ١٩٢ . (٢) الحقة : وعاء من خشب . (٣) ذال الشيء : هان .

ولما وصل إلى منزله وجد أن الفضل قد وجه إليه ألف ألف درهم آخر ،
فندبا عليه وشكره وأطال ؛ فأعلمه أنه بات ليلته وقد طالت عليه غمًا بما شكاه ،
إلى أن لقي الرشيد ، فأعلمه حاله ؛ فأمره بالتقدير له ، ولم يزل يُبمّا كِسُهُ^(١) إلى أن تقرر
الأمر له على ألف ألف درهم ، وأنه ذكر أنه لم يصلك بمثلها قط ، ولا زادك
على عشرين ألف درهم ؛ فشكرته وسألته أن يكتب بها صَكًّا^(٢) بخطه ، ويعلمني
الرسول .

فقال له محمد : صدق أمير المؤمنين ، إنه لم يصلني قط بأكثر من عشرين
ألف ، وهذا إنما تهيأ بك ، ولك ، وعلى يدك ، وما أقدر على شيء أقضي به
حقك ، ولا على شكر أجازي به معروفك ، غير أنه « على وعلى » ؛ وحلف أيمانًا
موكدة - إن وقفت على باب أحد سواك ، ولا سألته حاجة أبدًا ، ولو سففت
التراب !

فكان لا يركبُ إلى غير الفضل إلى أن حدث من أمر البرامكة ما حدث ،
فكان لا يركبُ إلى غير دار الخليفة ، ويعودُ إلى منزله ، فعُتِبَ بعد تقضى
أيامهم في ترك إتيان الفضل بن الربيع ، فقال : والله لو عرتُ ألف عام ، ثم
مَصَصْتُ الثَّمَادَ^(٣) ، ما وقفتُ بباب أحدٍ بعد الفضل بن يحيى ، ولا سألتُه حاجة
حتى ألقى الله عز وجل !

ولم يزل على ذلك حتى مات .

(١) تماكسا في اليم : تشاحا (٢) الصك : الكتاب (٣) الثماد : الماء القليل .

١١٩ - تيه وكرم*

قيل للفضل بن يحيى البرمكي : ما أحسنَ كرمك لولا تيهُ فيك ! فقال : تعلمتُ الكرمَ والتَّيّهَ من عُمارَةَ^(١) بن حمزة ! فقيل له : وكيف ذلك ؟ فقال : كان أبي عاملاً على بعض كُور^(٢) بلاد فارس ، فأنكسرت عليه جُمْلَةٌ مستكثرة ، فحُجِّلَ إلى بغداد ، وطولَبَ بالمال ؛ فدفعَ جميعَ ما يملكه ، وبقيت عليه ثلاثةُ آلاف ألف درهم لا يعرف لها وجهاً ، والطلبُ عليه حثيث ، فبقى حائرًا في أمره .

وكانت بينه وبين عُمارَةَ بن حمزة منافرةً ومواحشة ؛ لكنه علم أنه ما يقدر على مساعدته إلا هو ، فقال لي يوماً وأنا صبيّ : امض إلى عُمارَةَ وسَلِّ عليه عني ، وعرفه الضرورةَ التي قد صيرنا إليها ، واطلب منه هذا المبلغَ على سبيل القرض ، إلى أن يسهل الله تعالى باليسر . فقلت له : أنت تعلم ما بينكما ، فكيف أمضي إلى عدوك بهذه الرسالة وأنا أعلم أنه لو قدرَ على إتلافك لأتلفك ؟ فقال : لا بدَّ أن تمضيَ إليه ، لعلَّ الله يسخره ويوقع في قلبه الرحمة !

قال الفضل : فلم تمكني مُعاودته ، وخرجتُ وأنا أقدمُ رجلاً وأؤخرُ أخرى ، حتى أتيتُ داره ، واستأذنتُ في الدخول عليه ؛ فأذن لي ، فلما دخلتُ وجدته في صدرِ إيوانه^(٣) ، متكئاً على مفارش وثيرة ، وقد غلّف شعر رأسه ولحيته بالمسك ، ووجَّهه إلى الحائط - وكان من شدة تيهه لا يقعدُ إلا كذلك - فوقفت أسفل

(*) وفيات الأعيان : ٢ - ٤١٠ .

(١) انظر صفحة ١٤٤ (٢) الكورة : المدينة ، جمعها

(٣) الإيوان : الصفة .

الإيوان ، وسلمت عليه ، فلم يردّ السلام ، فسلمتُ عليه عن أبي ، وقصصتُ عليه
القصة ، فسكت ساعة ثم قال : حتى ننظر !

فخرجتُ من عنده نادماً على نقل خطاي إليه ، وموقناً بالحرمان ، عاتباً
على أبي أن كلفني إذلال نفسي بمالا فائدة فيه ، وعزمتُ على ألا أعود إليه
غيظاً منه .

فغبتُ عنه ساعة ، ثم جئته وقد سكن ما عندي . فلما وصلتُ إلى الباب
وجدتُ بغالاً محملاً ؛ فقلتُ : ما هذه ؟ فقيل : إن عمارَةَ قد سَيرَ المال ؛ فدخلتُ
على أبي ، ولم أخبره بشيء مما جرى لي معه كي لا أكدر إحسانه عليه .

فسكننا قليلاً ، وعاد أبي إلى الولاية ، وحصلتُ له أموالٌ كثيرة ؛ فدفع إليّ
ذلك المبلغ وقال : احمله إليه . فجئتُ به ؛ ودخلتُ عليه فوجدته على الهيئة الأولى ؛
فسلمتُ عليه فلم يردّ ، فسلمتُ عليه عن أبي وشكرتُ إحسانه ، وعرفته بوصول
المال ؛ فقال لي بمرَدٍّ ^(١) : ويحك ! أقسطاراً ^(٢) كنتُ لأبيك ؟ أخرج عني ،
لا بارك الله فيك ؛ وهولك ! فخرجتُ ورددتُ المال إلى أبي ، وعَجَبْنَا من
حاله !!

(١) المرَد : الغضب . (٢) القسطار : الصيرفي .

١٢٠ - لكل جديد لذة *

قال مُخَارِق :

غدوتُ يوماً على إبراهيم بن ميمون الموصلي ، وكان يومَ دَجْنٍ ^(١) طَيِّبٍ ،
فأصبتُ بين يديه قُدُوراً تَفَرَّغَ ^(٢) ، وأباريق تَزَهَرُ ^(٣) وهو كالمهموم ، فسألته
عن حاله ؛ فقال : لى ضَيِّعة ، وإلى جانبها ضَيِّعة يبلغُ ثمنُها مائتي ألف درهم ، وإن
دخلتها يدُ غيبي أفسدت على ضيعتي ؛ وما أقول إنَّ ثمنها ليس يمكنني ، ولكن
لستُ أسمعُ بإخراج كلِّ مافي يدي .

قال : فأمسكتُ عنه واستتممتُ يومى عنده ، وغدوتُ على يحيى بن خالد
فلقيتُهُ ، فسألني عن خبري في أمس ، فخبرتُه الخبر فأضحكه .

فانصرفتُ إلى إبراهيم لأعرِّفه الخبر ، فوجدتُ للمال قد سبق إليه ، فقلتُ له :
اشترِ الآن الضيعة ؛ فقال : لكل جديد لذة ، وهذا مالٌ جديد ، ولستُ أحبُّ
إخراجَه !!

قال : فحدثتُ جعفرأ بالخبر كله فأضحكه ، وبعثُ بالمال إليه . فصرتُ إليه ،
فقلتُ له : اشترِ الضيعة الآن ، فقال : العَجَلَةُ من عمل الشيطان ، دعني أَسْتَمْتِعَ
بِهَذَا المال مدَّة .

وصرتُ إلى الفضل بن يحيى ، فحدثتُهُ ، فابتاع الضيعة ، ووزنَ ثمنها ، ووجهَ إليه
بمثل الثمن ، ووجهَ إليه بالصَّك !! .

(*) الوزراء والكتاب : ٢١٤ .

(١) الدجن : لإلباس القيم الأرض ، وإمطار السماء ، والمطر الكثير (٢) الفراغة : صوت
القمر إذا غلت . (٣) زهر السراج والقمر والوجه : تلاماً .

(١٨ - قصص - أول)

١٢١ — جُودُ البرامكة*

قال مُخَارِق :

أَذِنَ لَنَا أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ الرَّشِيدُ أَنْ نُقِيمَ فِي مَنَازِلِنَا ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ، وَأَعْلَمَنَا أَنَّهُ مُسْتَعْمَلٌ فِيهَا ؛ فَضَى الْجُلَسَاءُ أَجْمَعُونَ إِلَى مَنَازِلِهِمْ ، وَأَصْبَحَتِ السَّمَاءُ مُنْعِمَةً تَطِشُ^(١) طِشًّا خَفِيفًا ، فَقُلْتُ : وَاللَّهِ لَا ذَهَبَ إِلَّا إِلَى أَسَازَى إِبْرَاهِيمَ^(٢) فَأَعْرَفَ خَبْرَهُ ثُمَّ أَعُودَ .

فَأَمَرْتُ مَنْ عِنْدِي أَنْ يَسُوءُوا بِجَلَسَاءِ لَنَا إِلَى وَقْتِ رَجُوعِي ؛ فَجِئْتُ إِلَى إِبْرَاهِيمَ الْمُوصَلِيِّ ، فَإِذَا الْبَابُ مُفْتَوِّحٌ ، وَالِدَّهْلِيزُ قَدْ كُنِسَ ، وَالْبُؤَابُ قَاعِدٌ ؛ فَقُلْتُ : مَا خَبْرُ أَسَازَى ؟ فَقَالَ : ادْخُلْ ، فَدَخَلْتُ فَإِذَا هُوَ جَالِسٌ فِي رِوَاقٍ لَهُ ، وَبَيْنَ يَدَيْهِ قُدُورٌ تُغْرِغُ^(٣) ، وَأَبَارِيقُ تَزْهَرُ ، وَالسَّتَّارَةُ مَنْصُوبَةٌ وَالْجُوَارِيُّ خَلْفَهَا .

فَدَخَلْتُ أَتَرْتَمُ بِيَعُضِ الْأَصْوَاتِ ، وَقُلْتُ لَهُ : مَا بَالُ السَّتَّارَةِ لَسْتُ أَسْمَعُ مِنْ وَرَائِهَا صَوْتًا ؟ فَقَالَ : اقْعُدْ ، وَيَمَحُكْ ! إِنِّي أَصْبَحْتُ عَلَى الَّذِي ظَنَنْتَ ، فَاتَانِي خَبْرُ ضَيْعَةٍ تَجَاوَرُنِي ، قَدْ وَاللَّهِ طَلَبْتُهَا زَمَانًا وَتَمَنَّيْتُهَا فَلَمْ أُمْلِكْهَا ؛ وَقَدْ أُعْطِيَ بِهَا صَاحِبُهَا مِائَةُ أَلْفِ دَرَاهِمٍ . فَقُلْتُ : وَمَا يَمْنَعُكَ مِنْهَا ؟ فَوَاللَّهِ لَقَدْ أَعْطَاكَ اللَّهُ أَضْعَافَ هَذَا الْمَالِ وَأَكْثَرَ ؛ قَالَ : صَدَقْتَ ، وَلَكِنْ لَسْتُ أَطِيبُ نَفْسًا أَنْ أُخْرِجُ هَذَا الْمَالَ ؛ فَقُلْتُ : فَمَنْ يُعْطِيكَ السَّاعَةَ مِائَةُ أَلْفِ دَرَاهِمٍ ؟ وَاللَّهِ مَا أَطْمَعُ فِي ذَلِكَ مِنَ الرَّشِيدِ ، فَكَيْفَ بَيْنَ دُونِهِ ! فَقَالَ ، اجْلِسْ ، خُذْ هَذَا الصَّوْتِ ، وَنَقَرْ بِقَضِيبٍ مَعَهُ عَلَى الدَّوَاةِ وَأَلْقِ عَلَى :

(*) الْأَغَانِي : ٥ - ١٧٨ .

(١) الطِّشُّ : الْهَطَرُ الضَّعِيفُ ، وَهُوَ فَوْقَ الرِّذَاذِ . (٢) إِبْرَاهِيمُ بْنُ إِسْحَاقَ الْمُوصَلِيِّ .

(٣) تَغْرِغُ : تَصُوتُ لِلْغَلِي .

نام الخليون من هم ومن سقم وبث من كثرة الأحزان لم أنتم .
يا طالب الجود والمعروف مجتهداً اعهد ليحيى حليف الجود والكرم
قال مخارق : فأخذته فأحكمته ؛ ثم قال لي : امض الساعة إلى باب الوزير
يحيى بن خالد ، فإنك تجد الناس عليه ، وتجد الباب قد فُتِح ، ولم يجلس بعد ،
فاستأذن عليه قبل أن يصل إليه أحد ، فإنه سينكر عليك مجيئك ويقول :
من أين أقبلت في هذا الوقت ؟ فخذته بقصدك إياي ، وما ألقيت إليك من
خبر الضيعة ، وأعلمه أني صنعت هذا الصوت وأعجبني ، ولم أر أحداً يستحقه
إلا فلانة جاريتته ، وأنى ألقيته عليك حتى أحكمته لتطرحه عليها ؛ فسيدعو بها ،
ويأمر بالستارة أن تُنصب ، ويوضع لها كرسي ، ويقول لك : اطرحه عليها
بمحضرتي ؛ فافعل ، وأتني بالخبر بعد ذلك .

ففعل كل شيء قاله لي إبراهيم ؛ وأخضر الجارية فألقيته عليها ، ثم قال لي : تقيم
عندنا يا أبا المهنأ أو تنصرف ؟ فقلت : أنصرف أطل الله بقاءك ، فقد علمت
ما أذن لنا فيه ؛ قال : يا غلام ؛ احمل مع أبي المهنأ عشرة آلاف درهم ، واحمل إلى
أبي إسحاق مائة ألف درهم فمن هذه الضيعة ؛ فحملت المشرة الآلاف إلى ،
وأبيت منزلي ، فقلت : أتمر يومى هذا ، وأسر من عندي ؛ ومضى الرسول
إليه بالمال .

فدخلت منزلي ، ونثرت على من عندي من الجوارى دراهم من تلك البذرة ،
وتوسدتها وأكلت وشربت وطربت وسُررت يومى كله .

فلما أصبحت قلت : والله لآتين أستاذي ولأعرفن خبره ، فأتيت فوجدت
الباب كهيئته بالأمس ، ودخلت فوجدته على مثل ما كان عليه ، فترنمت
وطربت فلم يلق ذلك بما يجب ؛ فقلت له : ما الخبر ؟ ألم يأتك المال ؟ قال : بلى ؟

فما كان خبرك أنت بالأمس ؟ فأخبرته بما وهبَ لى ، وقلت : ما يُنتظر من خلف الستارة ؟ فقال : ارفع السَّجْفَ ^(١) ، فرفتمته فإذا عشر بَدَرٍ ، فقلت : وأى شيء بقى عليك فى أمرِ الضَّيعة ؟ قال : ويحك ! ما هو والله إلا أن دخلتُ منزلى حتى شَحِحتُ عليها ، فصارتُ مثلَ ماحويتُ قديماً ؛ فقلت : سبحان الله العظيم ! فتصنعُ ماذا ؟ قال : قم حتى ألقىَ عليك صوتاً صنعتهُ ، يفوق ذلك الصوت . فقمْتُ وجلسْتُ بين يديه ، فأتنى علىَّ :

وَيَفْرَحُ بِالْمَوْلُودِ مِنْ آلِ بَرَمَكِ بُعَاةُ النَّدى وَالسَّيْفُ وَالرَّحُّ ذُو النَّصْلِ
وَتَنْبَسُطُ الْأَمَالُ فِيهِ لِفَضْلِهِ وَلَا سِوَا إِنْ كَانَ مِنْ وَلَدِ الْفَضْلِ
قال مخارق : فلما ألقى علىَّ الصوت سمعتُ ما لم أسمع مثله قط ، وصغُرُ عندى الأول فأحكمتُهُ ؛ ثم قال : انهض الساعةَ إلى الفضلِ بنِ يحيى ، فإنك تجده لم يأذنْ لأحدٍ بعدُ ؛ فاستأذِنُ عليه ، وَحدَّثُهُ بحديثنا أمس ، وما كان من أبيه إلينا وإليك ، وأعلمه أنى قد صنعتُ هذا الصوتَ وكان عندى أرفع من الصوت الذى صنعته بالأمس ، وأنى ألقىته عليك حتى أحكمته ، ووجهتُ بك قاصداً لتلقيته على فلانة جاريتته .

فصيرتُ إلى باب الفضل ، فوجدتُ الأمر على ما ذكر ، فاستأذنتُ فوصلتُ ، وسألنى : ما الخبرُ ؛ فأخبرته بخبرى فى اليوم الماضى ، وما وصل إلى وإليه من المال ؛ فقال : أخزى الله إبراهيمَ فما أبخله على نفسه ! ثم دعا خادماً ، فقال : اضرب الستارة فضرِبها ، فقال لى : ألقه . فلما غنَّيته لم أتمه حتى أقبلَ يجرُّ مطرَفَه ^(٢) ، ثم قعد على وسادة دون الستارة ؛ وقال : أحسن والله أستاذك ، وأحسنْتَ أنت يا مُخَارِق .

(١) السجف . انستر .

(٢) المطرف : الثوب فيه علان .

فلم أخرج حتى أخذته الجارية وأحكمته ؛ فسُرَّ بذلك سروراً شديداً ؛ وقال : أَقِمْ
عندى اليوم ، فقلتُ : يا سيدي ، إنما بقي لنا يومٌ واحد ، ولولا أني أحبُّ سرورك
لم أخرج من منزلي . فقال : يا غلامُ ، احمل مع أبي المهنأَ عشرين ألفَ درهم ،
واحمل إلى إبراهيم مائتي ألفَ درهم .

فانصرفتُ إلى منزلي بالمِال ، ففتحتُ بَدْرَةَ ، فنثرتُ منها على الجوارى
وشربتُ وسُررتُ أنا ومنَ عندى يومنا .

فلما أصبحتُ بَكَرْتُ إلى إبراهيم أنعرِفَ خبرَه وأعرِفَه خبري ، فوجدتهُ على
الحال التي كان عليها أوَّلاً وآخِراً ، فدخلتُ أَتَرَّيْتُمُ وَأُصَفِّقُ ، فقال لي : اذْنُ ؛
فقلتُ : ما بقي ؟ فقال : اجلس وارفع سَجْفَ هذا الباب ، فإذا عشرون بَدْرَةَ مع
تلك العشر ؛ فقلت : ما تنتظر الآن ؟ فقال : ويحك ! ما هو والله إلا أن حصلتُ
حتى جَرَّتْ مجرى ما تقدَّم . فقلت : والله ما أظنُّ أحداً نال في هذه الرتبة ما نلتَه !
فَلِمَ تبخلُ على نفسك بشيء تمنيتَه دهرًا ، وقد مَلَكَك اللهُ أضعاfe ؟ !
ثم قال : اجلس فخذ هذا الصوت ، وألقِ على صوتاً أنساني والله صوتيَّ
الأوَّلَيْنِ :

أفنى كلَّ يومٍ أنتَ صَبٌّ وليلةٍ	إلى أمِّ بكرٍ لا تفيقُ فتَقْصِرُ
أحبُّ على الهِجْرانِ أَكْثافَ بيتها	فيالكَ من بيتٍ يُحِبُّ ويُهْجَرُ
إلى جعفرَ سارتُ بنا كلُّ جَسْرَةٍ	طواها سُرَّاهَا نَحْوُهُ والتَهْجَرُ ^(١)
إلى واسِعٍ لِلْمُجْتَدِينَ فِناؤُهُ	تروح عطاياهُ عليهم وتَبْكَرُ

قال مخارق : ثم قال لي إبراهيم : هل سمعتَ مثلَ هذا ؟ فقلت : ما سمعتُ

(١) الجسرة : الناقة العظيمة . السرى : السير بالليل ، والتهجر : السير في الهاجرة ، أى في
نصف النهار عند اشتداد الحر .

قطّ مثله ، فلم يزل يردّده علىّ حتى أخذته ؛ ثم قال لى : امض إلى جعفر ، فافعلْ به كما فعلتَ بأخيه وأبيه .

قال : فضيتُ ففعلتُ مثلَ ذلك ، وخبرته ما كان منهما ؛ وعرضتُ عليه الصوتَ ، فسُرَّ به ؛ ودعا خادماً ، فأمره بضرب الستارة وأحضر الجارية ؛ وقعد على كرسى ، ثم قال : هاتِ يا مخارق . فاندفعتُ فألقيت الصوتَ عليها حتى أخذته ؛ فقال : أحسنتَ والله يا مخارق ، وأحسنَ أستاذك ، فهل لك فى المقام عندنا اليوم ؟ فقلتُ : ياسيدى ، هذا آخرُ أيامنا ، وإنما جئتُ لموقع الصوت منى حتى ألقينيه على الجارية ، فقال يا غلام : احمل معه ثلاثين ألف درهم وإلى الموصلى ثلاثمائة ألف درهم .

فصرتُ إلى منزلى بالمال ، فأقمتُ ومن معى مسرورين نشرب بقيةَ يومنا ونَطَرَبُ ، ثم بكرتُ إلى إبراهيمَ فتلقانى قائماً ، وقال لى : أحسنتَ يا مخارق ، فقلتُ : ما الخبر ؟ فقال : اجلس فجلستُ ، فقال لمنْ خلف الستارة : خذوا فيما أتم فيه ؛ ثم رفعَ السجفَ فإذا المال ، فقلتُ : ما خبرُ الضيعة ؟ فأدخل يده تحتِ مسورة ^(١) ، وهو متكى عليها ، فقال : هذا صكُّ الضيعة ! سُئِلَ عن صاحبها فوجد ببغداد ، فاشتراها منه يحيى بن خالد ، وكتب إلى : قد علمت أنك لا تسخو نفساً بشراء الضيعة من مالٍ يحصل لك ؛ ولو حيزت لك الدنيا كلها ، وقد ابتعتها لك من مالى ، ووجهتُ لك بصكِّها ؛ وهذا المال كما ترى .

ثم بكى ، وقال لى : يا مخارق ؛ إذا عاشرتَ فعاشِرْ مثل هؤلاء ، وإذا غنيتَ فغنْ مثل هؤلاء ، هذه ستمائة ألف وضيعة بمائة ألف ، وستون ألف درهم لك حصلنا ذلك أجمع ، وأنا جالسٌ فى مجلسى لم أبرح منه ، فتى يدرك مثل هؤلاء !

(١) المسورة : الوسادة من الجلد .

١٢٢ — حسن العفو*

قال محدث :

مدح شاعر أبو حاتم كاتب الديوان فلم يَصِلْهُ بشيء ؛ فأنشأ شعراً يقول فيه :

لَتُنْصِفَنِي يَا أَبَا حَاتِمٍ أَوْ لِأَصِيرَنَّ إِلَى حَاكِمٍ

فاحتفظها صاحبُ الخبر ، ورفعها إلى الرشيد^(١) ؛ فقال : صدق ! لولا أني

نائمٌ ما كانت أموري تَجْرِي على هذه السبيل ! وأمر بإخراج الجرائد من الدار

إليه ، فأول ما وَجَدَ على منصور بن زيادة عشرة آلاف ألف درهم !

فحدثَ صالح صاحبُ المصلى ، قال : دعاني الرشيد ، وهو على كرسي ، فقال :

اذهب الساعةَ فخذ منصور بن زياد بالخروج من عشرة آلاف ألف درهم ، فإن

لم يُؤَدِّها إلى المغرب فاضرب عنقه ، وجِئني برأسه ؛ وأنا نقي^(٢) من المهدي لئن

أنت دافعت عنه لأضربنَّ عنقك ! قلت : ياسيدي ، فإن أعطاني بعضها ، روقت

لي في بعضها وقتاً ؟ قال : لا !

فخرجتُ فأعلمته بالخبر ، فأسقط في يده ؛ وقال : ما أراد إلا قتلي ، لأنه يعلم

أنَّ مقدارَ مالي لا يبلغُ ما به طالبني ؛ ولكن تأذن لي أن أدخلُ بيتي فأودِّع أهلي !

فأذنت له فدخل ودخلتُ معه ، وبقيتُ واقفاً ، فبعثَ إلى أمهات أولاده وبناته

ونسأله أن يخرجنَّ إلي كما كنَّ تخرجنَّ عند موتي ، فإن هذا آخرُ أيامي ؛ ولا

سِتْرَ لكنَّ بعدى !

* الحماسن والساوى : ٤٥٣ ، طبع ليزج .

(١) انظر صفحة ١١٠ (٢) فلان نقي : دعي ، قد نقي .

فَفَرَّ جُنَإِلِيهِ مَشَقَّاتِ الْجِيُوبِ ، مَخْمَشَاتِ الْوُجُوهِ ، بَصْرَاخٍ شَدِيدٍ ؛ فَبَكَى
إِلَيْهِنَّ ، وَبَكَيْنَ إِلَيْهِ ، وَبَكَيْتُ مَعَهُنَّ ، ثُمَّ وَدَّعَهُنَّ وَخَرَجَ ، وَهُنَّ فِي أَثَرِهِ وَاضِعَاتِ
الْتَرَابِ عَلَى رُءُوسِهِنَّ .

ثُمَّ قَالَ : يَا أَبَا مُقَاتِلَ ! لَوْ أَذِنْتَ لِي فِي الْمَصِيرِ إِلَى أَبِي عَلِيٍّ يَحْيَى بْنِ خَالِدِ
الْبُرْمَكِيِّ ، فَكُنْتُ أَوْصِيهِ بِوَلَدِي وَأَهْلِي ! فَقُلْتُ : امْضِ !

وَصِرْنَا إِلَيْهِ ، وَقَدْ نَزَلَ فِي سَاعَتِهِ ، وَهُوَ عَلَى كُرْسَى يَغْسِلُ يَدَيْهِ ، فَلَمَّا تَوَسَّطْنَا
الدَّارَ جَعَلَ مَنْصُورٌ يَبْكِي وَيَمْشِي إِلَيْهِ حَتَّى دَنَا مِنْهُ ، وَهُوَ يَسْأَلُهُ عَنِ الْحَالِ ، فَيَمْنَعُهُ
الْبَكَاءَ مِنْ إِخْبَارِهِ ؛ فَقَصَصْتُ عَلَيْهِ قِصَّتَهُ ، فَقَالَ : ارْجِعْ إِلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ، وَسَلْهُ
أَنْ يَهَبَهُ لِي ! قُلْتُ : مَا إِلَى ذَلِكَ سَبِيلَ ، وَلَا يَرَانِي إِلَّا وَالْمَالُ مَعِيَ أَوْ رَأْسُ الْمَنْصُورِ ،
كَمَا أَمَرَنِي !

فَقَالَ خَادِمٌ لَهُ : أَنْتَ فُلَانَةٌ فَسَلْهَا : كَمَا أَنَّهَا مِنْ الْمَالِ ؟ فَانصَرَفَ وَرَجَعَ
فَذَكَرَ أَنَّ عِنْدَهَا خَمْسَةَ آلَافِ أَلْفِ دَرَاهِمٍ ! فَقَالَ لِي : احْمِلْهَا . وَأَبْلَغَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ
رِسَالَتِي فِي بَاقِيهَا . فَأَعْلَمْتُهُ أَنَّ لِسَبِيلِ إِلَى حَمَلِ بَعْضِهَا دُونَ بَعْضٍ ، فَأَطْرَقَ ، ثُمَّ رَفَعَ
رَأْسَهُ ، ثُمَّ قَالَ يَا غُلَامَ : أَنْتَ دَنَانِيرَ فَقُلْ لَهَا : تَبْعَثْ إِلَى بِالْجَوْهَرِ الَّذِي وَهَبَهُ لَهَا
أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ ، فَبَعَثْتُهُ إِلَيْهِ بِحَقَّةٍ ^(١) ، فَقَالَ : هَذَا جَوْهَرٌ ابْتِغَاءً لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ
بِمِائَتِي أَلْفِ دِينَارٍ ، وَهُوَ عَارِفٌ بِهِ ، وَقَدْ جَعَلْتُهُ لَهُ بِمِائَةِ أَلْفِ دِينَارٍ ، فَاحْمِلْهُ إِلَيْهِ
وَالرَّسَالَةَ ، فَأَبِيتُ !

فَوَجَّهَ إِلَى الْفَضْلِ ابْنِهِ : إِنَّكَ كُنْتَ أَعْلَمْتَنِي أَنَّكَ عَلَى ابْتِيَاعِ ضَيْعَةِ نَفِيسَةٍ ،
وَقَدْ أَصْبَبْتَهَا ، وَلَا يَوْجَدُ مِثْلُهَا فِي كُلِّ وَقْتٍ ، وَابْتِيَاعُهَا فَرَصَةٌ ، فَاحْمِلْ إِلَى مَالِهَا ،
فَعَادَ الرَّسُولُ وَمَعَهُ أَلْفُ أَلْفِ دَرَاهِمٍ !

(١) وعاء من الخشب أو العاج أو غير ذلك مما يصلح أن ينحت منه .

ووجه إلى جعفر ابنه أن يوجه إليه بألف ألف درهم ، فأنفذ إليه صكاً إلى
الجهنم^(١) بها .

فقبضت المال ، ووافيت الرشيد قبل المغرب ، وهو على حالته ينتظر رجوعه
إليه ، فأخبرته الخبر ، فلما انتهيت إلى خبر الحقة ، قال : صدق ! وقد ظننت أنه
لا يُنَجِّيه غيرهم ، أحمل هذا المال أجمع إلى أبي علي ، وارده عليه ، وأعلمه أني قد
قبلت ذلك عن منصور ، ورددته عليه ! ففعلت ذلك .

ولقيني بعد ذلك يحيى منصرفاً من الدار ، ومنصورٌ معه يسأيره ويضاحكه ،
والناس خلفه ، فقلت : والله لأنصحن هذا الشيخ الكريم ، فدخلت معه ، ودخل
المنصور ودعا بفدائه ؛ فلما نهض المنصور قلت : يا أبا علي ؛ إني والله مارجتُ إلا
لنُصْحِكَ ! وقد رأيت مكان هذا الرجل منك ؛ وكنا حين حملت المال أنهضته معي ،
فوالله ما قطع نصف الصحن من الدار حتى تمثّل بهذا البيت :

فما بقياً على تركتاني ولكن خفماً صرد^(٢) النبّال

فعارض أكرم فعلك بالأم خصلة فيه ؛ فدعاني الامتصاصُ من ذلك إلى
إخبارك ، فإني من تعلم في مودتك وطاعتك !

فأكب على الأرض ساعة ، ثم رفع رأسه ، فقال : اعذره ؛ فقد كان عقله
عزب^(٣) عنه في ذلك الوقت !

قال : فكان عذره له أحسن من إحيائه إياه .

(١) الجهنم : النقاد الخبير . (٢) صرد الرمح صرداً : فقد حده ، أي خفماً أن تصيب نبالي .

(٣) عزب : بعد .

١٢٣ - واعظ الرشيد*

قال الفضل بن الربيع^(١).

حجّ هارون الرشيد أمير المؤمنين ، فأتاني فخرجتُ مسرعاً ، فقلت : يا أمير المؤمنين ؛ لو أرسلتَ إلى لَأَتَيْتُكَ ! فقال : ويحك ! قد حَكَّ في نفسي شيء ، فانظر لي رجلاً ! فقلت : هاهنا سفيان بن عُيَيْنَةَ^(٢) ، فقال : امضِ بنا إليه ، فأتيناه ففرعتُ الباب ، فقال : مَنْ ذا ؟ فقلت : أَجِبْ أمير المؤمنين ! فخرج مسرعاً ، فقال : يا أمير المؤمنين ، لو أرسلتَ إلى لَأَتَيْتُكَ ! فقال له : خُذْ لِمَا جِئْنَاكَ لَهُ رَحِمَكَ اللَّهُ . فحَادَثَهُ ساعة ، ثم قال له عليك دَيْنٌ ؟ فقال : نعم ! فقال : يا عباسيُّ ، اقضِ دينَهُ .

فلما خرجنا قال لي : ما أَغْنَىٰ صاحبُكَ عني شيئاً . انظر لي رجلاً أسأله ! قلت : هاهنا عبد الرزاق^(٣) بن همام ! قال : امضِ بنا إليه ، فأتيناه ففرعتُ الباب فقال : مَنْ هذا ؟ قلت : أَجِبْ أمير المؤمنين ! فخرج مُسْرِعاً ، فقال : يا أمير المؤمنين ؛ لو أرسلتَ إلى لَأَتَيْتُكَ ! فقال : خُذْ لِمَا جِئْنَاكَ لَهُ ؛ فحَادَثَهُ ساعة ، ثم قال له : عليك دَيْنٌ ؟ قال : نعم ! قال : يا عباسيُّ ، اقضِ دينَهُ .

فلما خرجنا قال : ما أَغْنَىٰ صاحبُكَ عني شيئاً ، انظر لي رجلاً أسأله ! قلت : هاهنا الفضيل بن عياض^(٤) ؛ قال : امضِ بنا إليه ، فأتيناه ؛ فإذا هو قائم يصلي ،

(*) المختارات لمطالعة العربية طبع أوروبا .

(١) انظر صفحة ٥٤ . (٢) سفيان بن عيينة : حافظ ثقة ، واسع العلم كبير القدر ، قال الشافعي عنه : لولا مالك وسفيان لذهب علم الحجاز ، توفي سنة ١٩٨ هـ .

(٣) عبد الرزاق بن همام : من حفاظ الحديث الثقات ، توفي سنة ٣١١ هـ .

(٤) الفضيل بن عياض : من أكابر العباد الصالحاء ، كان ثقة في الحديث ، وتوفي سنة ١٨٧ هـ .

ويتلو آية من القرآن يردُّها ، قال : اقرع الباب فقرعتُ الباب ، فقال : مَنْ هذا ؟ قلتُ : أحبُّ أمير المؤمنين ! فقال : مالى ولأُمير المؤمنين ! فقلت : سبحانَ الله ! أما عليك طاعته ؟ فنزل وفتح الباب ، ثم ارتقى إلى الغرفة ، فأطلق السراج ، ثم التجأ إلى زاوية من زوايا البيت ، فدخلنا ، فجعلنا نجُول عليه بأيدينا ، فسبقتُ كفُّ هارون قبلى إليه .

فقال : يالها من كفٍّ ! ما أليَّها ! إن نَجَّتُ غداً من عذاب الله عز وجل ! فقلت فى نفسى : ليكلمنه الليلة بكلامٍ من قلبٍ نقيٍّ ، فقال له : خذْ لما جئتُك له - رحمك الله ! فقال له : إن عمر بن عبد العزيز لما ولى الخلافة دعا سالم بن عبد الله ومحمد بن كعب القرظى ورجاء بن حيوة ، فقال لهم : إني قد ابتليتُ بهذا البلاء ، فأشيروا علىَّ - فقدَّ الخلافة بلاء . وعددتُها أنت وأصحابك نعمةً .

فقال له سالم بن عبد الله : إن أردتَ النجاةَ من عذاب الله فصمِّ الدنيا . وليكن إفطارُك منها الموت . وقال محمد بن كعب : إن أردتَ النجاةَ من عذاب الله . فليكن كبير المؤمنين عندك أباً ، وأوسطهم عندك أخاً ، وأصغرهم عندك ولداً ؛ فوقَّ أباك ، وأكرم أخاك ، وتحنَّ على ولدك .

وقال له رجاء بن حيوة : إن أردتَ النجاةَ غداً من عذاب الله عز وجل فأحب للمسلمين ماتحبُّ لنفسك ، واكره لهم ماتكره لنفسك ، ثم مُتْ إذا شئتَ . وإني أقول لك : إني أخافُ عليك أشدَّ الخوف يوم تَزِلُّ الأقدام ، فهل معك - رحمك الله - مثل هؤلاء ، أو من يشيرُ عليك بمثل هذا ؟ فبكى هارون بكاءً شديداً ، حتى غشيَّ عليه . فقلت له : ارفُقْ بأُمير المؤمنين - رحمك الله !

فقال : يا أُمير المؤمنين ؛ بلغنى أن عاملاً لعمر بن عبد العزيز شكى إليه ،

فكتب إليه عمر : يا أخى ؛ اذكرك طولَ سهرِ أهلِ النارِ فى النارِ مع خلود الأبد ، وإياك أن يُنصَرَفَ بك من عند الله فيكون آخر العهدِ بك ، وانقطاع الرجاء منك .

قال : فلما قرأ الكتاب طوى البلاد حتى قدم على عمر بن عبد العزيز ؛ فقال له : ما أقدمك ؟ قال : خلعت قلبى بكتابك ؛ لا أعودُ إلى ولاية حتى ألقى الله عز وجل . فبكى هارون بكاءً شديداً ، ثم قال له : زدنى - رحمك الله !

فقال له : يا أمير المؤمنين ؛ إن العباس عمّ النبی جاء إليه ، فقال له : يا رسول الله ؛ أُمّرني على إمارةٍ . فقال له النبی : إن الإمارة حسرةٌ وندامة يوم القيامة ؛ فإن استطعت ألا تكون أميراً فافعل . فبكى هارون بكاءً شديداً ، ثم قال : زدنى - رحمك الله !

فقال : يا حسنَ الوجه ، أنت الذى يسألك الله عز وجل عن هذا الخلق يوم القيامة ؛ فإن أردت أن تقيَ هذا الوجهَ من النار ، فإياك أن تُصبحَ وتمسىَ وفى قلبك غشٌّ على أحدٍ من رعيّتك ، فإن النبی قال : من أصبحَ لهم غاشاً لم يرح^(١) رائحةَ الجنة . فبكى هارون ، وقال له : عليك دين ؟ قال : دينٌ لربى لم يحاسبنى عليه ؛ فالويلُ لى إن سألنى ؛ والويلُ لى إن لم ألهمْ حجّتى ، قال : إنما أعنى من دين العباد ! قال : إن ربى عز وجل لم يأمرنى بهذا ، إنما أمرنى أن أصدق وعده وأطيع أمره ، فقال : وما خلقتُ الجنَّ والإنسَ إلا ليعبدون ، ما أريدُ منهم من رزقٍ وما أريدُ أن يُطعمون ، إن الله هو الرزاقُ ذو القوة المتين .

فقال له : هذه ألفُ دينار ، خذها فأنفقها على عيالك ، وتقوَّ بها على عبادةِ

(١) يرح رائحة الجنة : أى لم يشم ريحها .

رَبِّكَ ! فقال : سبحان الله أنا أدلك على طريق النِّجاة ، وأنت تكافِئني بمثل هذا ؟ سلمك الله ووفقك ! ثم صَمَتَ فلم يكلمنا .

فخرجنا من عنده ، فلما صرنا على الباب ، قال هارون : يا عباسي ؛ إذا دللتني على رجل فدُلّني على مثل هذا ! هذا سيدُ المسلمين .

فدخلتُ عليه امرأةٌ من نِساءه ، فقالت : يا هذا ؛ قد ترى ما نحنُ فيه من ضيقِ الحال ، فلو قبلتَ هذا المالَ ففقرَ جُنابُه ، فقال لها : مَثَلِي ومثلكم كمثل قوم كان لهم بَعِيرٌ يأكلون من كِسْبِه ، فلما كَبِرَ نَحْرُوه فأكلوا لحمه .

فلما سمع هارون هذا الكلام قال : نَدْخُلُ فَعَسَى أَنْ يَقْبَلَ الْمَالُ ، فلما علم الفضيلُ خرج فجلس في السطح على باب الغرفة ، فجاء هارون فجلس إلى جنبه ، فجعل يُكَلِّمُه فلا يجيبه .

قال الفضل : فيمنا نحن كذلك إذ خرجت جاريةٌ سوداء ؛ فقالت : يا هذا ، قد آذيتَ الشيخَ منذ الليلة ؛ فانصرفَ رحِمَكَ اللهُ ! فانصرفنا !

١٢٤ — أموى عند الرشيد*

رُفِعَ إلى هارون الرشيد أن رجلاً بدمشق من بقايا بنى أمية عظيمُ المال ، كبير
الجاه ، مطاع في البلد ، له جماعة وأولاد ومماليك يركبون الخيل ، ويحملون السلاح ،
ويغزون الروم ، وأنه سمحٌ جواد ، وأنه لا يؤمن منه ، فعظم ذلك على
الرشيد .

فقال لخادمه منارة : اخرج الساعة وابدأ بالرجل فقيده وجئني به ، واجعله
في سِجْنٍ تقعد أنت في شِقِّه وهو في الآخر ، وتفقّد داره ، واحفظ ما يقوله الرجل
حرفاً بحرف .

قال منارة : فأتيت بيت الرجل ، ودخلتُ بغير إذنه ، فلما رأى القوم ذلك
سألوا بعض مَنْ معي عنى ، فلما صرتُ في صَحْنِ الدار نزلتُ ، ودخلتُ مجلساً
رأيت فيه قوماً جلوساً ، فظننتُ أن الرجلَ فيهم ، فقاموا ورحبوا بي ، فقلت :
أفيكم فلان ؟ قالوا : نحن أولاده وهو في الحمام ، فقلت : استمجلوه ، فمضى بعضهم
يستمجله ، وأنا أتفقّد الدارَ والأحوالَ والحاشية ؛ فوجدتها ماجتْ موجاً كبيراً .
فلم أزل كذلك حتى خرج الرجلُ بعد أن طال مكثه ، واستربتْ به ، واشتدَّ خوفي
وقلتي من أن يتوارى ، إلى أن رأيتُ شخصاً بزيِّ الحمام يمشي في صَحْنِ الدار ،
وحواليه جماعة كهول وأحداث وصبيان ، وهم أولاده وغلمانُه ، فعلمتُ أنه الرجل .
فجاء وسلم وسألني عن أمير المؤمنين ، واستقامة أمر حضرته ، فأخبرته بما وجب

وما قضى كلامه حتى جاءوا بأطباق فاكهة ، فقال : تقدّم يامنارة وكلّ معنا . فقلت : مالى إلى ذلك من سبيل ، فلم يعاودنى وأكل هو ومنّ معه ، ثم جاءوا بمائدة حسنة ، فقال : يامنارة ؛ ساعدنا على الأكل ، فامتنعتُ عنه ، فما عاودنى .

فلما فرغ من أكله قام إلى الصلاة فصلى وأكثّر من الدعاء والابتهال ، ثم قال لى : ما أقدمك يامنارة ؟ فأخرجتُ كتابَ أمير المؤمنين فدفعتهُ إليه ففضّه وقرأه ، ثم أمر أولاده بالانصراف ، وقال : هذا كتاب أمير المؤمنين ، ولست أقيم بعد نظرى فيه ساعة واحدة ، هاتِ قيودك يامنارة ، فدعوتُ بها وقيّدته وحملته . وسرتُ بالرجل ، وليس معه أحدٌ ، حتى صرنا بظاهر دمشق ، فابتدأ يحدثنى بانبساط حتى انتهينا إلى بستان حسن فى الغوطة ، فقال لى : أنرى هذا ؟ قلتُ : نعم ، قال : إنه لى ، وفيه من غرائب الأشجار كيت وكيت ، ثم انتهى إلى آخر ، فقال مثل ذلك ، ثم انتهى إلى مزارع حسان وقرى ، فقال مثل ذلك .

فاشدّ غيظى منه وقلتُ : ألسن تعلم أن أمير المؤمنين أهمة أمرك حتى أرسل إليك من انتزعك من بين أهلك ومالك وولدك ، وأخرجك فريداً مقيداً لاتدرى إلى ما يصيرُ إليه أمرُك ؛ ولا كيف يكون ! وأنت فارغ القلب من هذا حتى تصف ضياعك وبساتينك بعد أن جئتُك ؟

فقال لى مجيباً : إنّا لله وإنا إليه راجعون ! أخطأتُ فراستى فيك . لقد ظننتُ أنّك رجلٌ كامل العقل ، وأنت ما حلت من الخلفاء هذا الحلّ إلالمّا عرفوك بذلك ، فإذا بكلامك يشبه كلام العوام ، والله المستعان !

أمّا قولك فى أمير المؤمنين وإزعاجه وإخراجِه : إلى بابِه على صورتي هذه .

فإني على ثقة من الله عز وجل الذي بيده ناصية أمير المؤمنين، ولا يملك أمير المؤمنين لنفسه نفعا ولا ضرا إلا بإذن الله عز وجل؛ ولا ذنب لي عند أمير المؤمنين أخافه . وبعد ، إذا عرف أمير المؤمنين أمرى ، وعرف سلامتى ، وصلاح ناحيتى سرّخنى مكرّما ؛ فإن الحساد والأعداء رمّونى عنده بما ليس فىّ ، وتقوّلوا على الأقاويل ، فلا يستحل دمى ؛ وسيردّنى مكرّما ، ويقيمى ببلاده معظما مبيّلا ؛ وإن كان قد سبق فى علم الله عز وجل أنه يبدر إلىّ منه بادرة سوء ، وقد حضر أجلى ، وكان سَفَكُ دمى على يده ، فإنى أحسنُ الظنّ بالله الذى خلق ورزق ، وأحيا وأمات ، وإن الصبر والرضا والتسليم إلى من يملك الدنيا والآخرة ! وقد كنتُ أحسب أنك تعرفُ هذا فإذا عرفتُ مبلغَ فهمِكَ فإنى لا أكلّمك بكلمة واحدة حتى يفرّق بيننا أمير المؤمنين إن شاء الله تعالى !

قال مَنارة : ثم أعرض عني فما سمعتُ منه لفظةً غير التسييح أو طلب ماء أو حاجة حتى شارَفنا الكوفة .

ودخلتُ على الرشيد وقبّلتُ الأرض بين يديه ، ووقفتُ ، فقال : هات ما عندك يامنارة ، فسوّتُ الحديث من أوله إلى آخره ، فلما جئتُ على آخره قال : صدّق والله ! ما هذا الرجل إلا محسودُ النعمة مكذوبٌ عليه ، ولعمري لقد أزعجناه وآذيناها وروّعنا أهلَه ، فبادرْ بنزع قيوده واثننى به ؛ ففعلتُ وأدخلته على الرشيد .

فما هو إلا إن رآه حتى رأيتُ ماء الحياء يَجُولُ فى وَجْهِ الرشيد ، فدنا الأُموى وسلم بالخلافة ووقف ؛ فردّ عليه الرشيد ردّا جميلا ، وأمره بالجلوس فجلس ، فأقبل عليه الرشيدُ وسأله عن حاله ، ثم قال له : بلغنا عنك فضلُ هيئة وأُمورُ أحببنا معها أن نراك ، ونسمع كلامك ونُحسِنَ إليك ؛ فاذا كر حاجتك ؛ فأجاب الأُموى

جواباً جميلاً ، وشكر ودعا . ثم قال : يا أمير المؤمنين ؛ أن تردني إلى بلدي وأهلي
وولدي ، قال : نفعل ذلك ، ولكن سل ما تحتاج إليه في مصالح جاهك ومعاشك ،
فإنّ مثلك لا يخلو أن يحتاج شيئاً من هذا ، فقال : يا أمير المؤمنين ؛ عمّالك مُنصفون ،
وقد استغفيتُ بعدّهم عن مسألتى ، فأمرى مستقيمة ، وكذلك أهل بلدي بالعدل
الشامل في ظلّ أمير المؤمنين .

فقال الرشيد : انصرف محفوظاً إلى بلدك ، واكتب إلينا بأمرٍ إن عرض لك ؛
فودّعه الأمويّ وانصرّف .

قال منارة : فلمّا ولى خارجاً قال الرشيد : يا منارة ؛ احمله من وقتك وصرّ به راجعاً
كما جئت به ، حتى إذا وصلت إلى مجلسه الذي أخذته منه فدّعه وانصرف !

١٢٥ — يُوَأْسَى بَعْضَهُمْ بَعْضًا *

قال الواقدي (١) :

كان لى صديقان: أحدهما هاشمى ، وكُنَّا كنفُسٍ واحدة ؛ فنالتنى ضيقةٌ شديدة وحضر العيدُ ، فقالت امرأتى : أَمَا نحن فى أنفسنا فنصبرُ على البؤس والشدة ، وأما صديقاننا هؤلاء فقد قطعوا قلبى رحمةً لهم ؛ لأنهم يرون صبيانَ الجيران وقد تزيّنوا فى عيدهم ، وأصلحوا ثيابهم ، وهم على هذه الحال من الثياب الرثة ! فلو احتلتَ بشئ تصرفهُ فى كُنُوتهم !

فكتبتُ إلى صديقى الهاشمى أسأله التوسعةَ علىّ ، فوجّه إلى كيساً مختوماً ، ذكر أن فيه ألفَ درهم ، فما استقرَّ قرارى حتى كتب إلى الصديق الآخر يشكو مثلَ ما شكوتُ إلى صاحبى ، فوجّهتُ إليه الكيسَ بحاله ، وخرجتُ إلى المسجد ، فأقمتُ فيه ليلي مُستحياً من امرأتى .

فلما دخلتُ عليها استحسنتُ ما كان منى ، ولم تعنّفنى عليه .

فبينما أنا كذلك إذ وافى صديقى الهاشمى ومعه الكيسُ كهيئته ، فقال لى : اصْدُقْنى عما فعلته فيما وجهتُ إليك ؟ فعرفته الخبر على وجهه ، فقال : إنك وجهتَ إلىّ وما أملك على الأرض إلا ما بعثتُ به إليك ، وكتبتُ إلى صديقنا أسأله المواساةَ فوجّه إلىّ بكيسى ! فتواسينا الألف أثلاثاً !

ثم نَمَيْ الخبر إلى المأمون فدعانى ، فشرحتُ له الخبر ، فأمر لنا بسبعة آلاف دينار ؛ لكل واحد ألفا دينار ، والمرأة ألف دينار !

* السعوى : ٢ - ٣٣٦ .

(١) الواقدي : هو محمد بن عمر بن واقد من أقدم المؤرخين فى الإسلام ومن أشهرهم ، ولد بالمدينة وانتقل إلى العراق فولاه المأمون القضاء بالرصافة ، ثم ولى قضاء بغداد ، ومن كتبه « المغازى النبوية » توفى سنة ٢٠٧ هـ .

١٢٦ — وَفِي لِلْبَرَامِكَةِ *

قال عمرو بن مَسْعَدَةَ :

رُفِعَتْ قِصَّةٌ إِلَى الْمَأْمُونِ مَنْسُوبَةٌ إِلَى مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ يَمُتُ فِيهَا بِحُرْمَةٍ ،
ويزعمُ أَنَّهُ مِنْ أَهْلِ النِّعْمَةِ وَالْقَدَرِ ، وَأَنَّهُ مَوْلَى لِيَحْيَى بْنِ خَالِدٍ ، وَأَنَّهُ كَانَ ذَا ضَنْعَةٍ
وَاسِعَةٍ ، وَنِعْمَةٍ جَلِيلَةٍ ، وَأَنَّ ضِيَاعَهُ قَبِضَتْ فِيمَا قُبِضَ لِلْبَرَامِكَةِ ، وَزَالَتْ نِعْمُهُ بِحُلُولِ
النَّقْمَةِ عَلَيْهِمْ .

فَدَفَعَهَا الْمَأْمُونُ إِلَى ابْنِ خَالِدٍ ^(١) ، وَأَمَرَهُ أَنْ يَضُمَّ الرَّجُلَ إِلَى نَفْسِهِ ، وَأَنْ
يُجْرِيَ عَلَيْهِ ، وَيُحَسِّنَ إِلَيْهِ . فَفَعَلَ بِهِ ذَلِكَ ، وَصَلَحَتْ حَالُهُ ، وَصَارَ نَدِيمًا لِبْنِ أَبِي
خَالِدٍ لَا يَفَارِقُهُ .

فَتَأَخَّرَ عَنْهُ ذَاتَ يَوْمٍ لِمَوْلُودٍ وَلَدَ لَهُ ، فَبِعَثَ إِلَيْهِ فَاحْتَجَبَ عَنْهُ ، فَغَضِبَ
عَلَيْهِ ابْنُ أَبِي خَالِدٍ ، وَأَمَرَ بِجَنْسِهِ وَتَقْيِيدِهِ ، وَإِلْبَاسِهِ جُبَّةَ صُوفٍ ، فَكَثَّ كَذَلِكَ
أَيَّامًا . فَسَأَلَهُ الْمَأْمُونُ عَنْهُ ، فَقَصَّ عَلَيْهِ قِصَّتَهُ ، وَعَظَّمَ جُرْمَهُ ، وَشَكَا مَا يَرَاهُ عَلَيْهِ
مِنْ التَّيِّبِ وَالصَّلَفِ ^(٢) وَالْإِفْتِخَارِ بِالْبَرَامِكَةِ ؛ وَالشُّمُوءَ بِآبَائِهِمْ .

فَأَمَرَهُ بِإِحْضَارِهِ ؛ فَأَحْضَرَ فِي صُوفِهِ ؛ فَأَقْبَلَ عَلَيْهِ الْمَأْمُونُ بِالتَّوْبِيخِ مُصَفِّرًا

* المحاسن والمساوي : ٢٢٢ ، طبعة ليزج .

(١) هو أحمد بن أبي خالد ، استوزره المأمون بعد وفاة الفضل بن سهل وقال له : إني كنت
عزمت ألا أستوزر أحدا بعد ذي الرياستين ، وقد رأيت أن أستوزرك . فقال : يا أمير المؤمنين ،
اجعل بيني وبين الغاية منزلة يتأملها صديق فيرجوها لي ، ولا يقول عدوى قد بلغ الغاية وليس إلا
الانحطاط . فاستحسن المأمون كلامه واستوزره . وظل أثرا عنده حتى مات سنة ٢١١ هـ وصلى
عليه المأمون .

(٢) الصلف : تمدح المرء بما ليس فيه .

لِقَدْرِهِ ، مُسْفَهًا لِرَأْيِهِ ، وَعَظَمَ فِي عَيْنِهِ إِحْسَانَ ابْنِ أَبِي خَالِدٍ إِلَيْهِ ، مَعَ طَعْنٍ عَلَى الْبَرَامِكَةِ ، وَوَضَعَ مِنْهُمْ ، فَأُطْنَبَ فِي ذَلِكَ .

فَقَالَ مُحَمَّدٌ : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، لَقَدْ صَفَّرْتَ مِنَ الْبَرَامِكَةِ غَيْرَ مُصَفَّرٍ ؛ وَذَمَمْتَ مِنْهُمْ غَيْرَ مَذْمُومٍ ، وَلَقَدْ كَانُوا شِفَاءَ أَسْقَامِ دَهْرِهِمْ ، وَغِيَاثَ أَجَادِبِ^(١) عَصْرِهِمْ ، وَكَانُوا مَفْرَعًا لِلْمَلُوفِينَ ، وَمُلْجَأًا لِلْمَظْلُومِينَ ، وَإِنْ أَذِنَ لِي أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ حَدَّثْتُهِ بَعْضَ أَخْبَارِهِمْ لَيْسْتَدِلَّ بِذَلِكَ عَلَى صِدْقِ قَوْلِي فِيهِمْ ؛ وَيَقِفَ عَلَى جَمِيلِ أَخْلَاقِهِمْ ، وَمَحْمُودِ مَذَاهِبِهِمْ فِي عَصْرِهِمْ ، وَالْأَفْعَالِ الشَّرِيفَةِ وَالْأَيَادِي النَّفِيسَةِ !

قَالَ : هَاتِ ، قَالَ : لَيْسَ يَا نَصَافٍ ، مُحَدَّثٌ مُقَيَّدٌ فِي جَبَةِ صُوفٍ ! فَأَمَرَ فَأَخَذَ قَيْدَهُ . فَقَالَ : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ؛ أَلَمْ الْجَبَّةُ يَحُولُ بَيْنِي وَبَيْنَ الْحَدِيثِ ؛ فَأَمَرَ فَخَلَعَ عَلَيْهِ ، ثُمَّ قَالَ : هَاتِ حَدِيثَكَ !

قَالَ : نَعَمْ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، كَانَ وَلَائِي وَانْقِطَاعِي إِلَى الْفَضْلِ ، فَقَالَ لِي الْفَضْلُ يَوْمًا بِمُخَضَّرٍ مِنْ أَبِيهِ وَأَخِيهِ جَمْفَرٍ : وَيَحْكُ يَا مُحَمَّدُ ! إِنِّي أَحْبُّ أَنْ تَدْعُوَنِي دَعْوَةَ كَمَا يَدْعُو الصَّدِيقُ صَدِيقَهُ ، وَالْخَلِيلُ خَلِيلَهُ !

فَقُلْتُ : جُعِلْتُ فِدَاكَ ! شَأْنِي أَصْفَرُ مِنْ ذَلِكَ ؛ وَمَا لِي يَعْجِزُ عَنْهُ ، وَبَاعَى يَقْصُرُ عَنْ ذَلِكَ ، وَدَارَى تَضْيِيقُ عَنْهُ ، وَمُنْتَقَى^(٢) لَا تَقُومُ لَهُ ! قَالَ : دَعْ عَنْكَ ذَلِكَ ، فَلَا بَدَّ مِنْهُ . فَأَعَدْتُ عَلَيْهِ الْإِسْتِغْفَاءَ ، فَرَأَيْتُهُ جَادًّا فِي ذَلِكَ مُقِيمًا عَلَيْهِ ، وَسَأَلَهُ أَبُوهُ وَأَخُوهُ الْإِعْفَاءَ ، وَأَعْلَمَاهُ قُصُورَ يَدِي عَنْ بُلُوغِ مَا يَجِبُ لَهُ وَيُشَبِّهُهُ مِثْلُهُ ، فَقَالَ لَهَا : لَسْتُ بِقَاتِعٍ مِنْهُ دُونَ أَنْ يَدْعُوَنِي وَإِيَّاكَ كَمَا لَا رَابِعَ مَعْنَا !

فَأَقْبَلَ عَلَيَّ يَحْيَى ، وَقَالَ : قَدْ أَبَى أَنْ يُعْفِيَكَ ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ غَيْرُنَا فَأَقْعِدْ نَاعِلِي أَثَاثِ

(١) الْأَجَادِبُ : الْأَرَاضِي الَّتِي لَا تَبَاتُ بِهَا . (٢) الْمُنْتَقَى : الْقُوَّةُ .

بيتك فلا حِشْمَةٌ^(١) منا. وأطعمنا من طعام أهلك فنحن به راضون ؛ وعليه شاكرون.
فقلتُ : جِئْتُ فِدَاكَ ! إن كنتَ قد عرضتَ عَلَيَّ ذلكَ ، وأبيتَ إلا هَتَكِي
وفضيحتي فأرجو أن تُؤجِّلَنِي حتى أَتَاهَبَ . فقال : استأجل^(٢) لنفسك . فقلتُ :
سنة ، فقال : ويحك ، أَمَعْنَا أَمَانٌ مِنَ الْمَوْتِ إِلَى سَنَةٍ !

فقال يحيى : أفرطتَ في الأجل ؛ ولكنِّي أَحْكُمُ بينكما بما أَرَجُو أَلَا يَرُدُّهُ
أبو العباس ، وأقبله أنت أيضاً . فقلتُ : احْكُمْ وَقَّكَ اللهُ للصواب ، وتفضلْ عَلَيَّ
بالفسح في المدة . فقال : فقد حكمتُ بشهرين .

فخرجتُ مِنْ عِنْدِهِمْ ، وبدأتُ بِرَمِّ^(٣) دَارِي ، وإصلاحِ آلَتِي ، وشراءِ
مَا أَتَجَمَّلُ بِهِ مِنْ فَرَشٍ وَأَثَاثٍ وَغَيْرِ ذَلِكَ ، وهو في ذَلِكَ لَا يَزَالُ يَذْكُرُنِي ؛ وبعدَ
الأيامِ عَلَيَّ ، حتى إِذَا كَانَتِ الْجُمُعَةُ الَّتِي تَجِبُ فِيهَا الدَّعْوَةُ قَالَ لِي : يَا مُحَمَّدُ ؛ قَدْ قُرِبَ
الْوَقْتُ ، وَلَا أَحْسَبُ أَنَّهُ قَدْ بَقِيَ عَلَيْكَ إِلَّا الطَّعَامُ ؟ فقلتُ : أَجَلُ يَاسِيدِي !

فأمريتُ بِاتِّخَاذِ الطَّعَامِ عَلَى غَايَةِ مَا انْبَسَطَتْ بِهِ يَدِي وَمَقْدَرَتِي ؛ وَجَاءَنِي
رَسُولُهُ عَشِيَّةَ الْيَوْمِ الَّذِي صَبِيحَتِهِ الدَّعْوَةُ ؛ فَقَالَ لِي : إِلَى أَيْنَ بَلَغْتَ ؟ وَهَلْ تَأْذَنُ
بِالرَّكُوبِ ؟ قلتُ : نَعَمْ ، بَكْرًا . فبَكَرَ هُوَ وَيَحْيَى وَجَعْفَرُ ، وَمَعَهُمْ أَوْلَادُهُمْ
وَفَتَيَانُهُمْ .

فَلَمَّا دَخَلُوا أَقْبَلَ عَلَيَّ الْفَضْلُ ، وَقَالَ : يَا مُحَمَّدُ ؛ إِنْ أَوَّلَ مَا أَبْدَأُ بِهِ النَّظْرُ إِلَى
نَعْمَتِكَ كُلِّهَا صَغِيرِهَا وَكَبِيرِهَا ، فَقُمْ بِنَا إِلَى الدَّارِ حَتَّى أَدُورَ فِيهَا ، وَأَقِفَ عَلَيْهَا !
فَقُمْتُ مَعَهُ ، وَطَافَ فِي الْمَجْلِسِ ، ثُمَّ خَرَجَ إِلَى الْخَزَائِنِ ، وَصَارَ إِلَى الْإِصْطِبَلَاتِ ،
وَنَظَرَ إِلَى صَغِيرِ نَعْمَتِي وَكَبِيرِهَا ، ثُمَّ عَدَلَ إِلَى الْمَطْبَخِ ، فَأَمَرَ بِكَشْفِ الْقُدُورِ كُلِّهَا ،

(١) الحِشْمَةُ : الاستحياء .

(٢) استأجله : طلب منه أن يضرب له في ذلك أجلا .

(٣) رميها : إصلاحها .

وأبصر قِدرًا منها ، فأقبل على أبيه ، وقال : هذه قِدرُك التي تُعْجِبُكَ ، ولستُ أبرح دون أن تأكلَ منها ؛ فدعا برغيف فغمسه في القِدر ، وناول أباه ؛ ثم فعل ذلك بأخيه ، ودعا بخلال ، وخرج إلى الدار ، ووقف في صحنها مُسرَّحًا طرفه في فنائها وبنائها وسقوفها وأروِقَتِها . ثم أقبل على وقال : مَنْ جيرانُك ؟ قلت : جُعِلْتُ فذاك ! عن يميني فلان ابن فلان ، وعن شمالي فلان ابن فلان ، وفي ظهر داري رجلٌ كبير ، لا يفتر في بنائه ولا يُقَصِّر . فقال لي : أو تعرفه ؟ قلت : لا ، قال : ما كان ينبغي لك في قِدرِكَ ومحلِّكَ من هذه الدولة أن يجترى أحدٌ أن يشتري شيئًا في جوارك إلا بأمرِكَ ، وأن ترضى لنفسك إلا بجارٍ تعرفه !

فقلت : لم يمنعني من ذلك إلا ما كنتُ فيه من الشغل بهذه الدعوة المباركة . فقال لي : فأين الحائط الذي يتصلُ بداره ؟ فأومأتُ إليه ، فقال : علىَّ ببناء . فأُتِيَ به ، فقال : أفتحْ هاهنا بابًا ! فأقبلَ عليه أبوه ، وقال : نشدتك الله يا بني ألا تهجمَ على قومٍ لا تعرفهم ! وأقبلَ عليه أخوه بمثل ذلك ، فأبى إلا أن يفتح الباب .

فلما رأيته قد ردَّ أباه وأخاه أمسكتُ عن مسأَلته ، ففتح الباب ودخل ، وأدخلني معه ؛ فدخلتُ داراً حارِ بصرى فيها من حُسْنِها ، وانهينا إلى رواق فيه مائة مملوك في زِيٍّ واحد ، عليهم الأقبية^(١) من الديباج ؛ وإذا شيخ قد خرج فقَبِلَ يده ، فقال له : مُرَّ بنا ننظر في مرافق هذه الدار ؛ فما دخلنا مجلساً إلا رأيناه قد فُرِشَ بما لا يُحِيط به الوصف .

ثم قال للشيخ : مُرَّ بنا إلى مكانِ الدواب ، فدخلنا إصطبلًا فيه أربعائة من البغال وغيرها ، فوجدتُ ذلك الإصطبل أحسنَ بناءً من داري .

ثم خرج نحو دور النساء ، والشيخُ بين يديه ، فلما انتهى إلى الباب وقف الشيخ ، ودخل الفضل ، وأنا معه ، حتى دخلتُ بعضَ تلك الدور ، فإذا فيها مائةُ وصيفة^(١) ، قد أقبلنَ في حُلِيِّهنَّ وحُلَلِهِنَّ ، فوقفنَ بين يديه ، فقال : يا محمد ، هذه الدار أجلُّ أم دارك ! فقلت : ياسيدي ، وما أنا ؟ وما دارى ؟ هذه تصلحُ للأمير لا غيره ! فقال يا محمد ، هذه الدار بما فيها من الدوابِّ والرقيق والفرش والأواني لك ، ولك عندي زيادة .

فقلت في نفسي : يَهَبُ لك مِلْكٌ غيره ! فعَلِمَ ما في نفسي ، فقال : يا محمد ؛ إني لما سألتُك هذه الدعوة تقدمتُ إلى القَهْرمانِ بشراء هذا البراح^(٢) ، وأن يعجل الفراغ منه ومن بنائه ، وحوّلت إلى الدار ما ترى ، فبارك الله لك فيها .

وانصرف بي إلى أبيه وأخيه ، وحدثهما بما جرى ، فرأيت أخاه جعفرًا قد مَعِضَ^(٣) من ذلك ، وتغيّر وجهه تغيّرًا عَرَفْتُهُ ، ثم أقبل على أبيه يشكو الفضل ، ويقول : يَتَقَرَّدُ بمثل هذه المكreme من دوني ، فلو شاركني فيها لكانت يدًا أشكرها منه !

فقال : يا أخى ؛ بَقِيَ لك منها قُطْبُهَا^(٤) ! قال : وما هو ؟ قال : إن مولانا هذا لا يتهيأُ له ضَبْطُ هذه الدار بما فيها إلا بدخُلٍ جليل ، فأعْطِه ذلك ! فقال : فَرَجَتَ عَنِّي يا أخ ! فَرَجَ اللهُ عَنْكَ ! فدعا من وقته بصِكاك^(٥) لخمسة قُرَيَّات ، واحتمل عني خَرَاجَهُما . فخرجوا عني ، وأنا أيسر أهل زمانى .

فهل تلومنى يا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى ذِكْرِهِمْ ، والإشادة بفضلهم ؟ فقال المأمون : ذهب القومُ والله بالمسكارم ! ثم أمرَ لمحمد بمائة ألف درهم ، وتقدم إلى ابن أبي خالد بردٌ مرَّ تَبَّتِيهِ ، وتَصْيِيرُهُ في جملة خواصّه !

(١) الوصيفة : الخادم . (٢) البراح : التسع من الأرض لا زرع بها ولا شجر .

(٣) معض من الأمر - كفح : غضب . (٤) قطب الشيء : ملاكه ومداره . (٥) جمع صك .

١٢٧ أفضل الأصحاب *

كان محمد بن حُمَيد^(١) الطُّوسِي على غَدائه يوماً مع جُلُساته ، وإذا بصَيِّحَةٍ عظيمة على باب داره ، فرفع رأسه ، وقال لبعضِ غلمانِه : ما هذه الضَّجَّة ؟ مَنْ كان على الباب فليَدْخُل !

فخرج الغلام ، ثم عاد إليه ، وقال : إن فلاناً أُخِذَ وقد أُوثِقَ بالحديد ، والغلمانُ ينتظرون أمرَكَ فيه ؛ فرفع يده عن الطعام ؛ فقال رجل من جُلُساتِه . الحمد لله الذى أمكنَكَ من عدوك ، فسيُله أن تَسْقِي الأرضَ من دَمِه ؛ وأشار كلُّ من جُلُساتِه عليه بقتله عَلَى صِفَةٍ اختارها ، وهو ساكت !

ثم قال : يا غلام ؛ فُكَّ عنه وثاقه ، ويدخل إلينا مكرِّماً .

فادْخَلَ عليه رجلٌ لا دَمَ فيه ؛ فلما رآه هَشَّ إليه ، ورفع مجلسه ، وأمرَ بتجديدِ الطعام . وَبَسَطَه بالكلام ، ولَقَمَه^(٢) حتى انتهى الطعام ، ثم أمر له بِكُسُوَةٍ حسنةٍ وَصِلَةٍ ، وأمر برَدِّه إلى أهله مُكْرِّماً ، ولم يعاتبه على جُرْمٍ ولا جناية .

ثم التفت إلى جُلُساتِه ، وقال لهم : إنَّ أفضلَ الأصحاب من حضَّ الصاحبِ على المكارم ، ونهاه عن ارتكابِ المآثم ؛ وحسَّنَ لصاحبه أن يجازِيَ الإحسانَ بضعفه ، والإساءةَ بصفحه ؛ إنا إذا جازينا من أساء إلينا بمثل ما أساء فأين موقعُ الشكرِ على النعمةِ فيما أُتيَحَ من الظفر ! إنه ينبغي لمن حضر مجالسَ الملوك أن

* نهاية الأرب : ٦ - ٦٣ ، غرر الحقائق : ٢٣٩ .

(١) محمد بن حميد الطوسي : وال من قواد جيش المأمون العباسي ، استعمله على الموصل ، وكان شجاعاً ممدوحاً جواداً وقتل سنة ٢١٢ هـ . (٢) لقمه ، يريد أطعمه .

يُمْسِكَ إِلَّا عَنْ قَوْلٍ سَدِيدٍ وَأَمْرٍ رَشِيدٍ ؛ فَإِنْ ذَلِكَ أَدْوَمُ لِلنَّعْمَةِ ، وَأَجْمَعُ لِللَّافَةِ .
 إِنْ اللَّهُ تَعَالَى يَقُولُ : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا . يُصْلِحْ
 لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ ، وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ، وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا
 عَظِيمًا » (١) .

١٢٨ — مَا وَلَدَتِ الْعَرَبُ أَكْرَمَ مِنْكَ *

قال الأصمعي (٢) :

قصدتُ في بعض الأيام رجلاً كنتُ أغشاهُ لكَرَمِهِ ؛ فوجدتُ على بابه
 بواباً ؛ فنعني من الدخول إليه ؛ ثم قال : والله يا أصمعي ما أوقفني على بابه لأمنع
 مثلك إلا لرفقة حاله ، وقصور يده ؛ فكتبتُ رُقعةً فيها :

إذا كان الكريمُ له حِجَابٌ فما فضلُ الكريمِ على اللئيمِ (٣) !
 ثم قلتُ له : أوَصِلْ رُقعتي إليه ؛ ففعل وعاد بالرقعة ، وقد وقعَ على ظهرها :
 إذا كان الكريمُ قليلَ مالٍ تحجَّبَ بالحجابِ على الغريمِ
 ومع الرقعةِ صُرَّةٌ فيها خمسمائة دينار .

فقلتُ : والله لأتخفَنَ (٤) المأمونَ بهذا الخبر ؛ فلما رآني قال : من أين يا أصمعي ؟
 قلتُ : من عند رجلٍ من أكرم الأحياء حاشا أمير المؤمنين .

قال : ومن هو ؟ فدفعْتُ إليه الورقةَ والصُّرَّةَ ، وأعدتُ عليه الخبر . فلما رأى

(١) سورة الأحزاب — آية : ٧٠ ، ٧١ .

* ثمرات الأوراق للحموي : ١ - ٢٣٢ .

(٢) هو أبو سعيد عبد الملك بن قريب ، نشأ بالبصرة ، وأخذ العربية والحديث والقراءة عن
 أئمتها ، وقد اشتهر بالثقة في الرواية والتضلع من اللغة وقد الشعر ، توفي سنة ٢١٦ هـ .

(٣) اللئيم هنا : البخيل . (٤) التحفة : الطرفة .

الشُّرَّةَ قَالَ : هذا من بيتِ مالى ، ولا بدّلى من الرجل ! فقلتُ : والله يا أمير المؤمنين
إني أَسْتَحْيِي أن تُروِّعَهُ ^(١) برُسْلِكَ ، فقال لبعض خاصته : امض مع الأصمعى ؛
فإذا أراك الرجلَ ، فقل له : أجب أمير المؤمنين من غير إزعاج !
فلما حضر الرجلُ بين يدي المأمون قال له : أنت الذى وقَعْتَ لنا بالأمس ؛
وَشَكَّوْتَ رِقَّةَ الحال ، وأن الزمان قد أناخ عليك بِكُلِّكَلِهِ ^(٢) فدفعنَا إليك
هذه الشُّرَّة لتُصْلِحَ بها حالَكَ ، فقصدك الأصمعى بيتَ واحدٍ ؛ فدفعتهَا إليه !
فقال : نعم يا أمير المؤمنين ؟ والله ما كذبتُ فيما شكوتُ لأمير المؤمنين من
رِقَّةِ الحال ؛ لكنى استَحْيَيْتُ من الله تعالى أن أُعيدَ قاصِدِي إلّا كما أعادَنِي
أميرُ المؤمنين .

فقال له المأمون : لله أنت ! فما ولدت العربُ أكرمَ منك .

(١) روعه : أفزعهُ (٢) الكلكل : الصدر ، والمعنى : أنك فى ضيق وشدة .

١٢٩ — الأصمى يطلب القرى *

قال الأصمى :

سرتُ في تطوافي في العرب بجلى طيِّ ؛ فدفعتُ إلى قومٍ منهم يَحْتَلِبُونَ
اللبن ، ثم يَصِيحُونَ : الضيفَ الضيفَ ! فإن جاء مَنْ يَضِيفُهُمْ ، وإلا أراقوه ،
فلا يَذْوَ قون منه شيئا دون الضيف إلا أن يَجْهَدَهم الجوع .

ثم دَفَعْتُ إلى رجل من ولد حاتم بن عبد الله ، فسألتُه القري ، فقال : القري
والله كثير ، ولكن لا سبيلَ إليه ، فقلت : ما أحسب عندك شيئا ؛ فأمرَ بالجفآن
فأَخْرَجَتْ مُكْرَمَةً بالثريد ، عليها وَذَرُ^(١) اللحم ، وإذا هو جادٌّ في المنع ؛
فقلت : والله ما أشبهتَ أباك حيث يقول :

وأبرزُ قِدْرِي بالفناء ، قليلها يُرَى غيرَ مضمُونٍ به وكثيرها

فقال : إلا أشبههُ في هذا ؛ فقد أشبهتهُ في قوله :

أماوى إِمّا مانعٌ فَعْبُـيْن وإِمّا عطاء لا يُنْهِنُهُ^(٢) الزَّجْرُ

فأنا والله مانعٌ مَبِين . فرحلتُ عنه .

ودفعتُ إلى امرأةٍ من ولدِ ابنِ هَرَمَةَ فسألتُها القري ، فقالت : إني والله
مُرْمِلَةٌ مُسْنِتَةٌ^(٣) ، ما عندى شيء ، فقلت : أما عندك جَزُور ؟ فقالت : والله
ولا شاة ، ولا دُجاجة ، ولا بَيْضَةٌ ! فقلت : أما ابنُ هَرَمَةَ أبوك ؟ فقالت : بلى

* ذيل الأمالى : ١٠٩

(١) الوزرة من اللحم : القطعة الصغيرة لا عظم فيها .

(٢) ينهيه : يكفه .

(٣) أسنتت : أصابتها السنة ، وهى الجذب .

والله ! إني لمن صميمهم . قلت : قاتل الله أباك ما كان أكذبه حيث يقول :
لا أمتع العود^(١) بالفصال ولا أبتاع إلا قريصة الأجل
إني إذا ما البخيل آمنها باتت ضموراً مني على وجل^(٢)
ووليت ، فنادت : اربّع أيها الراكب ؛ فقله والله ذلك أقله عندنا ؛ فقلت :
إلا تكوني أو سعتنا قري ، فقد أو سعتنا جواباً !

١٣٠ — لقد أمكنك الله من الوفاء*

قال صاحب شرطة المأمون :
دخلت يوماً مجلس أمير المؤمنين ببغداد ؛ وبين يديه رجل مكبل بالحديد :
فلما رآني ؛ قال لي : يا عباس ! قلت : لبيك يا أمير المؤمنين !
قال : خذ هذا إليك ، واحتفظ به ، وبكر به إلى في غد !
فدعوت جماعة فحملوه ولم يقدر أن يتحرك ! فقلت في نفسي : مع هذه
الوصية التي أوصاني بها أمير المؤمنين من الاحتفاظ به يجب أن يكون معي في
بيتي ، فأمرتهم فتركوه في مجلس لي في داري .
ثم أخذت أسأله عن قضيته وعن حاله ، ومن أين ؟
فقال : أنا من دمشق ؛ فقلت : جرى الله دمشق وأهلها خيراً ! فمن أنت ؟

(١) العود : الحديثات التاج . (٢) ضمير البعير : أمسك جرتة في فيه ولم يجتر .

* المستطرف : ١ — ٢٤٠ ؛ العقد الفريد للذليل السعيد : ٨١

من أهلها؟ قال : وعمن تسأل؟ قلت : أتعرف فلاناً؟ قال : ومن أين تعرف ذلك الرجل ! قلت : وقعت لى معه قضية . فقال : ما كنت بالذى أعرفك خبره حتى تعرفنى قضيتك معه !

فقال : كنت مع بعض الولاة بدمشق ؛ فبنى أهلها ، وخرجوا علينا حتى إن الوالى تدلّى فى زنبيل ^(١) من قصر الحجاج ، وهرب هو وأصحابه ، وهربت فى جملة القوم .

فبينما أنا هارب فى بعض الدروب إذا بجماعة يعدّون خلفى ؛ فمازلت أعذو أمامهم ، حتى قُتُّهم ؛ فمررت بهذا الرجل الذى ذكرته لك ، وهو جالس على باب داره ؛ فقلت : أغنى أغناك الله ! قال : لا بأس عليك ! ادخل الدار ؛ فدخلت ، فقالت زوجته : ادخل تلك المقصورة ^(٢) ؛ فدخلتها ، ووقف الرجل على باب الدار فما شعرت إلا وقد دخل ، والرجال معه يقولون : هو والله عندك !

فقال : دونكم الدار ، فتشوها ؛ فتشوها حتى لم يبق سوى تلك المقصورة ، وامرأته فيها ؛ فقالوا : هو هنا ! فصاحت بهم المرأة ونهرتهم ؛ فانصرفوا .

وخرج الرجل وجلس على باب داره ساعة ، وأنا قائم أرجف ، ما تحمّلنى رجلاى من شدّة الخوف ؛ فقالت المرأة : اجلس لا بأس عليك ! فجلست فلم ألبث حتى دخل الرجل فقال : لا تخف ، قد صرف الله عنك سرهم ، وصيرت إلى الأمن والدعة .

فقلت له : جزاك الله خيراً ! ثم مازال يعاشرنى أحسن معاشرة وأجملها ، وأفردنى مكاناً فى داره ، ولم يفتر عن تفقّد أحوالى .

(١) الزنبيل : الفقة . (٢) المقصورة : الدار الواسعة المحصنة أو هى أصغر من الدار ، ولا يدخلها إلا صاحبها .

فَأَمْتُ عَنْدهُ أَرْبَعَةُ أَشْهُرٍ فِي أَرْضِ عَيْشٍ وَأَهْنَشِهِ إِلَى أَنْ سَكَنْتُ الْفَتْنَةَ
وَهَدَأْتُ وَزَالَ أَثَرُهَا ؛ فَقُلْتُ : أَنْأَذْنُ لِي فِي الْخُرُوجِ حَتَّى أَتَفَقَّدَ حَالَ غِلْمَانِي ؛
فَلَمَلِي أَقْفُ مِنْهُمْ عَلَى خَبْرٍ ! فَأَخَذَ عَلَى الْمَوَاتِيْقِ بِالرَّجُوعِ إِلَيْهِ .

فَخَرَجْتُ فَطَلَبْتُ غِلْمَانِي ؛ فَلَمْ أَرَ لَهُمْ أَثَرًا ؛ فَرَجَعْتُ إِلَيْهِ وَأَعْلَمْتُهُ الْخَبْرَ . وَهُوَ
مَعَ هَذَا كُلِّهِ لَا يَعْرِفُنِي وَلَا يَسْأَلُنِي ، وَلَا يَعْرِفُ اسْمِي ، وَلَا يَخَاطُبُنِي إِلَّا بِالْكُنْيَةِ .
ثُمَّ قَالَ : عَلَّامٌ تَعَزُّمُ ؟ فَقُلْتُ : عَزَمْتُ عَلَى التَّوَجُّهِ إِلَى بَغْدَادَ ؛ فَقَالَ : الْقَافِلَةُ
بَعْدَ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ؛ وَهَآنَذَا قَدْ أَعْلَمْتُكَ !

فَقُلْتُ لَهُ : إِنَّكَ تَفَضَّلْتَ عَلَى هَذِهِ الْمَدَّةِ ، وَلَكَ عَلَى عَهْدٍ أَلَا أَنْسَى لَكَ هَذَا
الْفَضْلَ وَلَا كَافِئَتَكَ مَا اسْتَطَعْتُ .

ثُمَّ دَعَا غِلَامًا لَهُ أَسْوَدَ ، وَقَالَ لَهُ : أَسْرِجِ الْفَرَسَ ، ثُمَّ جَهِّزْ آلَةَ السَّفَرِ ؛
فَقُلْتُ فِي نَفْسِي : مَا أَظُنُّ إِلَّا أَنَّهُ يَرِيدُ أَنْ يَخْرُجَ إِلَى ضَيْعَةٍ أَوْ نَاحِيَةٍ مِنَ النَّوَاجِي ؛
فَأَقَامُوا يَوْمَهُمْ ذَلِكَ فِي كَدٍّ وَتَعَبٍ .

وَلَمَّا حَانَ يَوْمُ خُرُوجِ الْقَافِلَةِ جَاءَنِي السَّحَرُ^(١) ، وَقَالَ لِي : قُمْ ، فَإِنَّ الْقَافِلَةَ
تَخْرُجُ السَّاعَةَ ، وَأَكْرَهُ أَنْ تَنْفَرِدَ عَنْهَا ، فَقُلْتُ فِي نَفْسِي : كَيْفَ أَصْنَعُ ، وَلَيْسَ
مَعِيَ مَا أَتَزَوَّدُ بِهِ ، وَلَا مَا أَكْتَرِي بِهِ مَرْكُوبًا^(٢) ! ثُمَّ قُمْتُ ، فَإِذَا هُوَ وَامْرَأَتُهُ
يَحْمِلَانِ أَفْخَرَ الْمَلَابِسِ ، وَخَفَيْنِ جَدِيدَيْنِ ، وَآلَةَ السَّفَرِ . ثُمَّ جَاءَنِي بِسِيفٍ وَمِنْطَقَةٍ
فَشَدَّاهُمَا فِي وَسْطِي ، ثُمَّ قَدَّمَ بَغْلًا لَحْمٍ عَلَيْهِ صَنْدُوقَيْنِ وَفَوْقَهُمَا قَرَشٌ ، وَقَدَّمَ إِلَيَّ
فَرَسًا ، وَقَالَ : ارْكَبْ ، وَهَذَا الْغِلَامُ الْأَسْوَدُ يَخْدُمُكَ ، وَيَسُوسُ مَرْكُوبَكَ .

وَأَقْبَلَ هُوَ وَامْرَأَتُهُ يَعْتَذِرَانِ إِلَيَّ مِنَ التَّقْصِيرِ فِي أَمْرِي ، وَرَكِبَ مَعِيَ يَشِيعُنِي ،
وَانْصَرَفْتُ إِلَى بَغْدَادَ وَأَنَا أَتَوَقَّعُ خَبْرَهُ ، لِأَفِيَّ بَعْدِي لَهُ فِي مَجَازَاتِهِ وَمُكَافَأَتِهِ ،

(١) السحر : قبيل الصبح . (٢) المركوب : ما يركب .

واشتغلتُ مع أمير المؤمنين ، فلم أتفرَّغْ أن أُرْسِلَ إليه من يكشفُ خبره ، فلهذا
أسألُ عنه !

فلما سمع الرجلُ الحديثَ قال : لقد أمكَّنكَ اللهُ من الوفاءِ له ، ومكافأتهِ على
فعله ومجازاتهِ على صنيعه بلا كُلفةٍ عليك ، ولا مثونةٍ تَلَزُمُكَ .

قلتُ : وكيف ذلك ؟ قال : أنا ذلك الرجل ، وإنما الضرُّ الذي أنا فيه غيرُ
عليك حالي ، وما كنتَ تعرفُهُ مِنِّي .

فما تمالكْتُ أن قمتُ وقبَلْتُ رأسه ، ثم قلتُ له : فما الذي أصرَّكَ ^(١) إلى
ما أرى ؟ فقال : هاجتْ بدمشقُ فتنَةٌ مثلُ الفتنَةِ التي كانت في أيامك ؛ فَنُسِبَتْ
إليَّ وبعثَ أميرُ المؤمنينَ بجيوش ، فأصلَحُوا البلدَ ، وأخذتُ أنا وضُرِبْتُ إلى أن
أشرفتُ على الموتِ ! وقِيْدْتُ وُبعِثَ بِي إلى أميرِ المؤمنينَ ، وأمرى عنده عظيمٌ ،
وخطبى لديه جسيمٌ ، وهو قاتلى لا تحَالَةَ !

وقد أُخْرِجْتُ من عند أهلي بلا وصِيَّةٍ ، وقد تَبِعَنِي من غِلْمَانِي من ينصرفُ
إلى أهلي بَحَبْرَى ، وهو نازلٌ عند فلان ، فإن رأيتَ أن تجعلَ من مكافأتك لِي
أن ترسلَ من يُخَصِّرُهُ حتى أوصيه بما أريد ! فإن أنتَ فعلتَ ذلك فقد جاوزتَ
حدَّ المكافأة ، وقررتَ لِي بوفاء عهدك ! قلتُ : يصنعُ اللهُ خيراً .

ثم أحضَرَ العباسُ حداداً في الليل فكَّ قيوده ، وأزال ما كان فيه من
الأنكَبالِ ^(٢) ، وأدخله حمام داره ، وألبسه من الثياب ما احتاج إليه ، ثم سيَّرَ من
أحضَرَ إليه غلامه .

فلما رآه جعلَ يبكي ويوصيه ؛ فاستدعى العباسُ نائبه ، وقال : عَلَيَّ بالأفراس
والهدايا ، ثم أمره أن يشيِّعه إلى حدِّ الأنبار !

(١) أصرَّكَ : صبرَكَ . (٢) الأنكَبال : جمع نكل . قيد الشديد .

فقال له: إن ذنبي عند أمير المؤمنين عظيمٌ، وخطبي جسيمٌ، وإن أنت احتججت بآتي هربتُ بعث في طلبي كل من على بابه، فأرد وأقتل.

فقال العباس: انج بنفسك ودعني أدبر أمري! فقال: والله لا أبرح بغداد حتى أعلم ما يكون من خبرك! فإن احتججت إلى حضوري حضرت.

فقال العباس: إن كان الأمر على ما تقول، فلتكن في موضع كذا، فإن أنا سلمت في غداة غد أعلمتكَ، وإن أنا قُتِلْتُ فقد وقَّيتُكَ بنفسى كما وقَّيتنى! ثم تفرغ العباس لنفسه، وتحنط وجهه كفنًا.

قال العباس: فلم أفرغ من صلاة الصبح إلا ورسُلُ المأمون في طلبي، وهم يقولون: هات الرجل معك وقم!

فتوجهتُ إلى دار أمير المؤمنين؛ فإذا هو جالسٌ ينتظر. فقال: أين الرجل؟ فسكتُ! فقال: ويحك! أين الرجل؟ فقلت: يا أمير المؤمنين؛ اسمع منى. فقال: لله على عهدٍ لئن ذكرت أنه هرب لأضربن عنقك! فقلت: لا والله يا أمير المؤمنين ما هرب، ولكن اسمع حديثي وحديثه، ثم شأنك وما تريد أن تفعله في أمري! قال: قل.

فقلت: يا أمير المؤمنين؛ كان من حديثي معه كيت وكيت، وقصصتُ عليه القصة جميعها، وعرفته أني أريد أن أقي له، وأكافئه على فعله معي، وقلت: أنا وسيدى ومولاي أمير المؤمنين بين أمرين: إما أن يصفح عني؛ فأكون قد وفيت وكافأت وإما أن يقتلني فأقيه نفسى، وقد تحنطت، وها هو ذا كفى يا أمير المؤمنين!

فلما سمع المأمون الحديث قال: ويحك، لا جزاك الله عن نفسك خيراً؛ إنه فعل

بك ما فعل من غير معرفة ، وتكافئه بعد المعرفة بهذا ؟ هلا عرفتني خبره ، فكنا
نكافئه عنك ، ولا نقصر في وفائك له !

فقلت : يا أمير المؤمنين ، إنه هاهنا وقد حلف ألا يبرح حتى يعرف سلامتي ،
فإن احتجت إلى حضوره حضر .

فقال المأمون : وهذه منة أعظم من الأولى ، اذهب إليه الآن ، فطيب نفسه
وسكن روعه ، واثنتي به حتى أتولي مكافأته .

فأتيتُ إليه وقلت له : ليزل خوفك ، إن أمير المؤمنين قال كذا وكذا !
فقال : الحمد لله الذي لا يحمدُ على السراء والضراء سواه ؛ ثم قام وركب ، فلما
مثَّلَ بين يدي أمير المؤمنين أقبل عليه ، وأدناه من مجلسه وحدته ، حتى حضر الغداء
فأكل معه ، وخلع عليه ، وعرض عليه أعمال دمشق ، فاستعفى ، فأمر له بصلية
وكتب إلى عامله بدمشق بالوصية به .

١٣١ إبراهيم بن المهديّ والمأمون*

قال الواقدي :

كان إبراهيم^(١) بن المهديّ قد ادّعى الخلافة لنفسه بالرّى ، وأقام مالكا لها سنةً وأحد عشر شهراً واثنى عشر يوماً ، وله أخبار كثيرة أحسنها عندى ما حكاها لى ، قال : لما دخل المأمون الرّى فى طلبى ، وجعل لمنّ أتاها بي مائة ألف درهم ، خِفْتُ على نفسى وتخيّرت فى أمرى ، فخرجتُ من دارى وقت الظهر ، وكان يوماً صائفاً ، وما أدري أين أتوجّه ، فوقفتُ فى شارعٍ غير نافيذ ، وقلت : « إِنَّا لله وإنا إليه راجعون » ! إن عدتُ على أثرى يُرتاب فى أمرى .

ثم رأيتُ فى صدر الشارع عبداً أسود قائماً على باب دار ، فتقدمتُ إليه وقلت : هل عندك موضع أقيم فيه ساعة من نهار ؟ فقال : نعم ، وفتح الباب ، فدخلتُ إلى بيت نظيف فيه بسط ووسائد جلود إلا أنها نظيفة ، ثم أغلق الباب علىّ ومضى ؛ فتوهمتُه قد سمع الجمالة^(٢) فى ، وأنه خرج ليدلّ علىّ ، فبقيت على مثل النار .

وبينما أنا كذلك إذ أقبلَ معه حمّال عليه كل ما يُحتاجُ إليه من خبز ولحم ، وقدر جديدة ، وجرة نظيفة ، وكيزان جُدُد . فخطّ عن الحمّال ، ثم التفت إلى وقال :

* مجانى الأدب : ٤ - ٢٣٦ .

(١) إبراهيم بن المهديّ بن المنصور العباسى ، أخو هارون الرشيد ، كان وافر الفضل غزير الأدب ، سخي الكف ولم ير فى أولاد الخلفاء قبله أفصح منه لساناً ، ولا أحسن منه شعراً ، مع يد طولى فى البناء ، والضرب باللاهى وحسن المناداة ، بويج بالخلافة سنة ٢٠١ هـ وتوفى بسر من رأى سنة ٢٢٤ هـ . (٢) الجمالة : الأجر يعطى على عمل خاص .

جَعَلَنِي اللَّهُ فِدَاكَ ! أنا رجل حجّام ، وأنا أعلم أنك تَتَقَدَّرُنِي ^(١) ، لما أتولاه من معيشتي ، فشأنك بما لم تقع عاياه يد .

وكان بي حاجةٌ إلى الطعام ؛ فطبختُ لنفسي قَدْرًا ما أذكرُ أني أكلتُ مثلها . ولما قضيتُ أَرَبِي ^(٢) من الطعام قال : هل لك في الشراب فإنه يُسَلِّى الهم ؟ فقلت : ما أكرهُ ذلك - رغبةً مني في مؤانسته - فأتي بقطرميز ^(٣) جديد لم تمسه يد ، وجاءني بشراب وقال : روِّقْ لنفسك . فروِّقْتُ شراباً في غاية الجودة ، وأحضرتُ لي قَدْحًا جديدًا وفاكهةً وأبقالاً مختلفةً في طُسُوتٍ فخارٍ جُدِّد .

ثم قال بعد ذلك : أتاذنُ لي - جمعتُ فداءك - أن أقعدَ ناحيةً وآتي بشرابي فأشربه سروراً بك ؟ فقلت له : افعل . ثم شربتُ وشرب ، ثم دخل إلى خزانة له فأخرج عوداً مصفحاً ، ثم قال لي : ياسيدي ! ليس من قَدْرِي أن أسألك الغناء ، ولكن قد وجبتُ على مروءتك حُرمتي ، فإن رأيتَ أن تُشرفَ عبداً لك فلك علوُ الرأي ! فقات : من أين لك أني أحسن الغناء ؟ فقال : ياسبحان الله ! مولانا أشهر من ذلك ، أنت إبراهيم بن المهدي خليفتنا بالأمس ، الذي جعل المأمونُ لمن دَلَّ عليه مائة ألف درهم .

فلما قال ذلك عَظُمَ في عيني وثبتتُ مروءته عندي ، فتناولتُ العود وأصلحتهُ وغنَّيتُ - وقد مرَّ بخاطري فراقُ أهلي وولدي :

وعسى الذي أهدى ليوسف أهله وأعرَّه في السَّجْن وهو أسيرُ
أن يستجيبَ لنا فيجمعَ شملنا واللهُ ربُّ العالمينَ قديرُ
فاستولَى عليه الطَّربُ المفرِطُ ، وطابَ عيشه كثيراً ، ومن شدةِ سروره وطربه

(١) تستقدرني . (٢) حاجتي . (٣) القطرميز : قلة كبيرة من الزجاج .

قال ياسيدى ؛ أتأذن لى أن أغنى ما سَنَحَ بخاطرى ، وإن كنتُ من غير أهل
هذه الصناعة ؟ فقلت : هذا زيادةٌ فى أدبك ومروءتك ؛ فأخذ العودَ وغنى :

شكونا إلى أحبابنا طولَ ليلنا فقالوا لنا : ما أقصرَ الليلَ عندنا !
وذاك لأن النومَ يغشى عُيُونَهُمْ سريماً ولا يغشى لنا النومُ أعيننا
إذا مادنا الليلُ المضر بذى الهوى جَزَعْنَا وهم يستبشرون إذا دنا
فلو أنهم كانوا يُلاقون مثل ما نلاقى لكانوا فى المضاجع مثلنا
فوالله لقد أحسست بالبيت قد سار بى ، وذهب عني ما كان من الهلع ، وسألتُه
أن يغنى مرةً ثانيةً فغنى :

تَمَيَّزْنَا أَنَا قَلِيلٌ عَدِيدُنَا فقلت لها : إنَّ الكرامَ قليلُ
وما ضَرَرْنَا أَنَا قَلِيلٌ وَجَارُنَا عزيزٌ وجارُ الأَكْثَرِينَ ذَلِيلُ
وإنّا لقومٌ لا نرى القتلَ سُبَّةً إذا ما رأته عامرٌ وسَلُولُ
يقربُ حُبُّ الموتِ آجالَنَا لَنَا وتكرهُه آجالُهُم فَتَطُولُ

فداخلى من الطرب مالا مزيدَ عليه ، ثم عاجنى النومُ فلم استيقظ إلا
بعد المغرب .

فعاودنى فِكْرى فى نفاسة هذا الحِجَام وحسن أدبه وظرفه ، فقامت وغسلت
وجهى وأيقظته ، وأخذت خريطةً ^(١) كانت صُحبتى ، فيها دنانير لها قيمة ،
فرميت بها إليه ، وقلت له : أستودعك الله ، فإننى ماض من عندك ، وأسألك أن تنفق
ما فى هذه الخريطة فى بعض مُهمّاتك ، ولك عندى المزيدُ إن أمنتُ من خوفى .

فأعادها على منكرأ ، وقال : ياسيدى ! إن الصّعاليك منا لا قَدَرَ لهم عندكم ،
أأخذ على ما وهبَنيهِ الزّمان من قُربك وحلولك عندى ثمنًا ؟ والله لئن راجعتنى

(١) الخريطة : وعاء من جلد وغيره .

في ذلك لأقتلن نفسي ، فأعدت الخريطة إلى كُمِّي وقد أثقلني حملها .

ولما هممت بالخروج قال لي : ياسيدي ؛ إن هذا المكان أخفى لك من غيره ، وليس في مثوثتك على نعل ، فأقم عندي إلى أن يُفرِّج الله عنك . فرجعت وسألته أن ينفق من تلك الخريطة فلم يفعل . فأقمت عنده أياماً على تلك الحالة في الدَّ عيش ، ثم تَذَمَّتْ ^(١) من الإقامة عنده ، واحشمت من الثقل عليه ، فتركته - وقدمضي يُجَدِّد لنا حالاً - وقتُ قزَيتُ بَري ^(٢) النساء وخرجتُ ، فلما صرتُ في الطريق داخلني من الخوف أمرٌ شديد، وجئت لأعبر الجسرَ ، فإذا أنا بموضعٍ مرشوشٍ بماء ، فأبصرني جندي بمن كان يخذمني ، فعرفني وقال : حاجةُ المأمون !

ثم تعلق بي ؛ فدفعته هو وفرسه ، فرميتهما في ذلك الزلق، فصار عِبرة ، وتبادر الناس إليه ، فاجتهدتُ في المشي حتى قطعتُ الجسرَ ، ودخلتُ شارعاً فوجدتُ باب دار ، وامرأة واقفة في دَهلِيز ، فقلت : يا سيدة النساء ؛ احقني دمي ، فإني رجل خائف . فقالت : على الرّحب والسّعة ، وأطلعتني إلى غرفة مفروشة ، وقدمت لي طعاماً ، وقالت : ليهدأ روعُك ، فما عَلم بك مخلوق . وإذا الباب يدقُّ دقّاً عنيفاً ، فخرجت وفتحت الباب ، وإذا بصاحب الذي دفعته على الجسر ، وهو مشدوخ الرأس ، ودُمة على ثيابه وليس معه فرس ! فقالت : يا هذا ! ماذا ؟ فقال : ظفرتُ بالمُعَنِّي ^(٣) وانفلت عني . ثم أخبرها بما وقع له مني فأخرجت خِرْقاً ، وعَصَبَتَها بها ، وفرشت له فنام عليها ، ثم طلعت إلى وقالت : أظنك صاحب القصة ، فقلت : نعم !

فقالت : لا بأس عليك ! ثم جدت لي الكرامة ، وأقمت عندها ثلاثاً ، ثم قالت لي : إنني خائفةٌ عليك من هذا الرجل ، وأخشى أن ينمَّ بك ، فأنجُ بنفسك .

(١) تذم : خشى اللوم والذم . (٢) الزى : الهيئة . (٣) يقصد بالمعني إبراهيم بن المهدي لشهرته بالفتاء ، وكان يعبر بذلك .

فسألتها المهلة إلى الليل ففعلت ، فلما دخل الليل لبست زى النساء ، وخرجت من عندها ، فأتيت إلى بيت مولاة كانت لنا ، فلما رأتني بكّت وتوجّعت وحمدت الله على سلامتي ، وخرجت كأنها تريد السوق للاهتمام بالضيافة ، فظننت خيراً ، فما شعرت إلا بأحد رجال المأمون في خيله ورجله ، والمولاة معه حتى سلّمتني إليه ، فرأيت الموت عياناً ، وحلّت بالزّى الذي أنا فيه إلى المأمون .

جلس مجلساً عاماً ، وأدخلني إليه ، فلما مثلت بين يديه سلّمت عليه بالخلافة ، فقال : لا سلّم الله عليك ، ولا حيّاك ولا رعاك ! فقلت له : على رسلك يا أمير المؤمنين ! إن وليّ الثأر مُحكّم في القصاص ، والعفو أقرب للتقوى ، وقد جعلك الله فوق كلّ عفو ، كما جعل ذنبي فوق كلّ ذنب ؛ فإن تأخذ فبحقك ، وإن تعف فبفضلك ، ثم أنشدت :

ذنبي إليك عظيمٌ وأنت أعظم منه
فخذ بحقك أولاً فاصفح بملكك عنه
إن لم أكن في فعالي من الكرام فكُنْهُ

فرفع إلى رأسه فبدرته وقلت :

أتيتُ ذنباً عظيماً وأنت للعفو أهلُ
فإن عفوتَ فمَنْتُ وإن جزيتَ فعدلُ

فرّق المأمون واستزوّحت روائح الرحمة من شمائله ، ثم أقبل على ابنه العباس ، وأخيه أبي إسحاق ، وجميع مَنْ حضر من خاصته ؛ فقال : ماترون في أمره ؟ فكلُّهم أشار بقتلى ، إلا أنهم اختلفوا في القِتلة كيف تكون ؟ ثم قال المأمون لأحمد بن أبي خالد : ماتقول يا أحمد ؟ فقال : يا أمير المؤمنين ؛ إن تقتله وجدنا مثلك مَنْ قتل مثله ،

وإن عفوت عنه لم نجد مثلك من عفا عن مثله. فنكس المأمون رأسه وجعل ينكت في الأرض ، وأنشد متمثلاً :

قومي هم قتلوا أميم أخى فإذا رميتُ بصيبي سَهْمِي
فكشفت المُنْعَمَةَ عن رأسي ، وكَبُرْتُ تكبيرة عظيمة ، وقلت : عفا - والله -
عني أمير المؤمنين ! فقال المأمون : لا بأس عليك يا عم ! فقلت : ذنبي يا أمير المؤمنين
أعظم من أن أتَهَوَّه معه بعذر ، وعفوك أعظم من أن أنطقَ معه بشكر ، ولكنني
أقول :

إن الذي خاق الكارمَ حازها في ضُلبِ آدمٍ للإمام السابع
ملئتُ قلوب الناس منك مهابةً وتظلّ تكلوهم بقلبٍ خاشع
ما إن عصيتك والغواةُ تمدّني أسبابها إلا بِنيّةٍ طائع
فعفوتَ عمن لم يكن عن مثله عفوّ ولم يشفعْ إليك بشافع
ورحمتَ أطفالاً كأفراخ القطا وحنينَ والدَةٍ بلبٍّ جازع
فقال المأمون : لا تَثْرِيْبَ عليك اليوم ، قد عفوتُ عنك ، ورددتُ عليك
مالك وضياعك . فقلت :

رددتَ مالي ولم تبخل عليّ به وقبل ردّك مالي قد حققتُ دمي
فلو بذلتُ دمي - أبغى رضاك به - والمال ، حتى أسلّ النعل من قدمي
ما كان ذاك سوى عارية رجعتُ إليك ، لو لم تعرّها كنتُ لم تُلمِ -
فإن جحدتُك ما أوليتَ من كرمٍ إني إلى اللؤمِ أولى منك بالكرمِ
فقال المأمون : إن من الكلامِ لذرّاً ، وهذا منه ، وخلع عليّ وقال : يا عم ! إن
أبا إسحاق والعباسَ أشارا بقتلك ؛ فقلتُ : إنهما نصحاك يا أمير المؤمنين ! ولكن

أتيتَ بما أنتَ أهله ، ودفعت ما خِفتُ بما رجوتُ . فقال المأمون : أمتَّ حَقْدِي بحياة
عُذْرِكَ ، وقد عفوتُ عنك ولم أجرك مَرارة امتنان الشَّافعين . ثم سجد طويلاً ،
ورفع رأسه وقال : يا عمّ ؛ أتدري لم سجدت ؟ قلت : شكراً لله الذى أظفرك بعدوِّ
دولتك . فقال : ما أردتُ هذا ، ولكن شكراً لله الذى ألهمنى العفو عنك ، فحدثنى
الآن حديثك . فشرحت له ما كان من أمرى ، فأمر بإحضار امرأة الجندى وأدخلها
إلى القصر ، وقال : هذه امرأة عاقلة تصلح للمهمات ، وأحضر الحجام فقال له : لقد
ظهر من مروءتك ما يوجب المبالغة فى إكرامك . ثم خلع عليه ، وأجرى له ألفَ
دينار فى كل عام ، ولم يزل فى تلك النعمة إلى أن مات .

١٣٢ — مِنْ جُودِ أَبِي دُلْفَ *

لما مرض أبو دُلْفَ ^(١) بالعلّة التي مات بها أقام شهراً ملازماً الوِسَادَة ، فأفاق يوماً ، فقال لخادمه بِشْرَ : كم لي على هذه الحال ؟ قال : شهر . فلما سمع ذلك من بِشْرَ بكى كثيراً ، وقال : أيمرُ عليّ من عمرى هذه المدة لا أبرّ فيها أحداً من الناس ! يا بِشْرَ ! اخرج إلى الباب فإن قلبي يشهدُ أن بالباب قوماً لهم إلينا حوائج ؛ فلا تمنع أحداً من الدخول إلينا .

فخرج بِشْرَ ، فإذا عشرة من أولاد أبي طالب ، فأمرهم بالدخول ، فدخلوا ؛ فابتدر رجلٌ منهم ، وقال : أصلحك الله ! نحن قوم من بني أبي طالب من أهل بيت رسول الله ، وقد أحاطت بنا المصائب ، وأجحمت بنا النوائب ، فإن رأيت أن تجبر كسرنا ، وتغني فقرنا ، فمَجِّل !

فقال لخادمه : خذْ بيدي ، فأجِلِسْنِي على ذاك الفراش ، ففعل ، ثم قال : ليأخذْ كل واحدٍ منكم ورقةً ، وليكتب فيها بخطه : إنه قبض مني مائة ألف درهم . فتحَيَّرُوا عند قوله ، فلما كتبوا الرقاع وضعوها بين يديه ، فقال لخادمه : ائْتِنِي بِالْمَالِ ، فأحضره ، فأعطى كل واحدٍ منهم مائة ألف درهم .

فلما تسلموا المال قال رجل منهم : بالآباء نفديك ، وبالأمهات نقيك ! والله ما لنا مال ولا عقار ، وخطوطنا عندك ماذا تصنعُ بها ! فبكى ، وقال لهم : أنظنون أنها وثائقُ عليكم ؟ لا والله ، لا والله ! ثم قال لخادمه : يا بِشْرَ ، إذا أنامت فاجعل الرقاع في أكفاني ألْتَقِ بها محمداً صلى الله عليه وسلم يوم القيامة ؛ ثم قال له : أعط كلّا منهم ألف درهم لنفقة طريقه . انصرفوا بارك الله فيكم !

* المختار من نوادر الأخبار — مخطوط .

(١) هو القاسم بن عيسى ، أحد قواد المأمون ، ثم المعتصم من بعده ، كان كريماً سرياً جواداً عديداً مقدماً ذا وقائع مشهورة وصنائع مأثورة ، كما كانت له صنعة في الفناء ، توفي سنة ٢٢٥ .

١٣٣ — عبد الله بن طاهر^(١) والحِصْنِي*

قال محمد^(٢) بن الفضل الخراساني :

لما قال عبد الله بن طاهر قصيدته التي يفخر فيها بماثر أبيه وأهله ويفخر بقتلهم الخلع^(٣) ، عارضه محمد بن يزيد الأموي الحِصْنِي ، فأفرط في السب ، وتجاوز الحد في قُبْح الرد .

فلما ولي عبد الله مصر ورُدَّ إليه تدينز أمر الشام علم الحِصْنِي^(٤) أنه لا يُفْلِت منه إن هرب ، ولا ينجو من يده حيث حلَّ ، فنبت في موضعه ، وترك أمواله ودوابه ، وكلَّ ما كان يملكه في موضعه ، وفتح باب حصنه وجلس عليه ، ونحن نتوقع من عبد الله بن طاهر أن يوقع به .

فلما شارفنا بلده ، وكنا على أن نصبه ، دعاني عبيد الله في الليل ، فقال لي : بتْ عندي الليلة ، وليكن فرسك معداً عندك . فقعات .

فلما كان السحر أمر غلمانه وأصحابه ألا يرحلوا حتى تطلع الشمس ؛ وركب وركبتُ معه أنا وخمسة من خواص غلمانه .

فسار حتى صبح الحِصْنِي ؛ فرأى بابه مفتوحاً ، ورآه جالساً ، فقصده . وسلم عليه ونزل عنده ؛ وقال له : ما أجلسك هاهنا وحملك على أن فتحت بابك ، ولم تتحصن من هذا الجيش المقبل ، ولم تنتج عن عبد الله بن طاهر مع ما في نفسه عليك

* الأغاني : ١١ - ١٢ .

(١) عبد الله بن طاهر : من أشهر الولاة في العصر العباسي ، ولاء المأمون خراسان ، وكان سيداً نبيلاً على الهمة شهياً ، وتوفي سنة ٢٣٠ هـ . (٢) محمد بن الفضل الخراساني كان من وجوه قواد طاهر وابنه عبد الله وكان أديباً عاقلاً فاضلاً . (٣) الخلع : الأمين . (٤) كان من ولد مسلمة بن عبد الملك .

وما بلغه عنك؟ فقال : إنَّ ما قلتَ لم يذهب عني ولكني تأملتُ أمري ، وعلمتُ
أنِّي أخطأتُ خطيئةً حَمَلَنِي عَلَيْهَا نَزَقُ الشَّبابِ وَغِرَّةُ الْحِدَاثَةِ ، وَأَنِّي إِنِ هَرَبْتُ مِنْهُ
لَمْ أَفْتُهُ ؛ فَبَاعَدْتُ الْبَنَاتِ وَالْحَرَمَ ، وَاسْتَسَلْتُ بِنَفْسِي وَكُلِّ مَا أَمْلَكُ ؛ وَإِنِّي أَتَقَى
بِأَنَّ الرَّجُلَ إِذَا قَتَلَنِي ، وَأَخَذَ مَالِي شَفَى غِيظَهُ ، وَلَمْ يَتَجَاوَزْ ذَلِكَ إِلَى الْحَرَمِ ، وَلَا
يُوجِبُ جُرْمِي أَكْثَرَ مِمَّا بَذَلْتُهُ .

قال : فوالله ما اتَّقَاهُ عَبْدُ اللَّهِ إِلَّا بِدَمَوَعِهِ تَجْرِي عَلَى لَحْيَتِهِ . ثم قال له :
أَتَعْرِفُنِي ؟ قال : لا والله ! قال : أنا عبدُ اللَّهِ بنِ طاهر ، وقد آمَنَ اللَّهُ تَعَالَى رَوْعَتَكَ
وَحَقَّنَ دَمَكَ ؛ وَصَانَ حَرَمَكَ ، وَحَرَسَ نِعْمَتَكَ ، وَعَفَا عَنْ ذَنْبِكَ ، وَمَا تَعَجَّلْتُ
إِلَيْكَ وَحْدِي إِلَّا لِتَأْمَنِ هَجُومَ الْجَيْشِ ، وَلِتَلْثَلِثَ مُخَالِطَ عَفْوِي عَنْكَ رَوْعَةً ^(١) تَلْحَقُكَ ،
فَبَكَى الْحَصْنُ وَقَامَ قَبِيلُ رَأْسِهِ وَضَمَّهُ عَبْدُ اللَّهِ وَأَدْنَاهُ ؛ ثُمَّ قَالَ لَهُ : أَمَا الْآنَ فَلَا بَدَ
مِنْ عِتَابٍ : يَا أَخِي - جَعَلَنِي اللَّهُ فِدَاكَ - قُلْتُ شِعْرًا فِي قَوْمِي أَخْفَرَهُمْ لَمْ أَطْعَن فِيهِ
عَلِيَّ حَسِبِكَ ، وَلَا ادْعَيْتُ فَضْلًا عَلَيْكَ ، وَفَخَرْتُ بِقَتْلِ رَجُلٍ - وَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمِكَ -
فَهُمُ الْقَوْمُ الَّذِينَ تَأْرَكَ عِنْدَهُمْ ، فَكَانَ يَسْعُكَ السَّكُوتُ !

فقال : أيها الأمير ، قد عفوتَ فأجعل العفو الذي لا يخالطه تَثْرِيبٌ ^(٢) ،
وَلَا يَكْدُرُ صَفْوَهُ تَأْنِيبٌ . قال : قد فعلت ، فقم بنا ندخل إلى منزلك حتى نوجبَ
عليك حقًا بالضيافة . فقام مسروراً .

فأدخلنا . فَأَتَى بِطَعَامٍ كَانَ قَدْ أَعَدَّهُ ، فَأَكَلْنَا وَجَلَسْنَا نَشْرَبُ فِي مَسْتَشْرِفٍ لَهُ .
وَأَقْبَلَ الْجَيْشُ ؛ فَأَمَرَنِي عَبْدُ اللَّهِ أَنْ أَتَلَقَّاهُمْ فَأَرْحَلَهُمْ وَلَا يَنْزِلَ أَحَدٌ مِنْهُمْ
إِلَّا فِي الْمَنْزِلِ ، وَهُوَ عَلَى ثَلَاثَةِ فَرَاسِخَ ، ثُمَّ دَعَا بِدَوَاةٍ فَكَتَبَ لَهُ بِتَسْوِيفِهِ خَرَاجَهُ
ثَلَاثَ سَنِينَ ، وَقَالَ لَهُ : إِنْ نَشِطْتَ لَنَا فَالْحَقُّ بِنَا ، وَإِلَّا فَأَقِمَّ بِمَكَانِكَ . قال : فَأَنَا
أَنْجِزُ وَالْحَقُّ بِالْأَمِيرِ . ففعل فالحق بنا بمصر ؛ وَلَمْ يَزَلْ مَعَ عَبْدِ اللَّهِ لَا يَفَارِقُهُ حَتَّى
رَجَلَ إِلَى الْعِرَاقِ فَوَدَّعَهُ ، وَأَقَامَ بَيْلَدَهُ !

١٣٤ — حُسْنُ الْمَكَافَاةِ *

حكى الحسن^(١) بن سهل ، قال :

كنتُ يوماً عند يحيى بن خالد البرمكى ، وقد خَلا في مجلسه لإحْكام أمرٍ من أمور الرشيد ، فبينما نحن جلوسٌ إذ دخل عليه جماعةٌ من أصحاب الخوارج ، فقضاها لهم ؛ ثم توجَّهوا لشأنهم ، فكان آخرهم قياماً أحمدُ بن أبي خالد ، فنظر يحيى إليه ، والتفتَ إلى الفضل ابنه ؛ وقال : يا بني ؛ إن لأبيك مع أبي هذا الفتى حديثاً ، فإذا فرغتُ من شغلى هذا فذكِّرْنى أحدثك به .

فلما فرغ من شغله وطعم^(٢) قال له ابنه الفضل : أعزَّكَ اللهُ يا أباي ؛ أمرتني أن أذكرك حديث أبي خالد ، قال : نعم ، يا بني :

لما قدِم أبوك من العراق أيام المهدي كان فقيراً لا يملك شيئاً ، فاشتدَّ بى الأمر ، إلى أن قال لى مَنْ فى منزلى : إنا كتمنا حالنا ؛ وزاد ضررُنا ، ولنا اليوم ثلاثة أيام ما عندنا شئٌ نَقْتَاتُ به ! فبكيتُ يا بني لذلك بكاءً شديداً ، وبقيت وَلَهَانَ حيرانَ مُطْرِقاً مفكِّراً .

ثم تذكَّرتُ مِنْدِيلاً كان عندى ، فقلتُ لهم : ما جالُ المنديل ! فقالوا : هو باقى عندنا . فقلتُ : ادْفَعُوهُ لى ، فأخذتهُ ودفعتهُ إلى بعض أصحابى ، وقلتُ له : بَعِّه بما تيسَّر ، فباعه بسبعةِ عشر درهماً ، فدفعتهُ إلى أهلى ، وقلتُ : أنْفِقُوها إلى أن يرزق الله غيرَها !

* المستطرف : ١ - ٢٣٩ .

(١) الحسن بن سهل : هو وزير المأمون بعد أخيه الفضل ، كان عالى الهمة ، كثير العطاء للشمراء وغيرهم ، توفى سنة ٢٣٦ هـ . (٢) طعم : أكل .

ثم بكرت من الغد إلى باب أبي خالد، وهو يومئذ وزير المهدي، فإذا الناس وقوف على داره ينتظرون خروجه؛ فخرج عليهم راكباً، فلما رآني سلم علي، وقال: كيف حالك؟ فقلت: يا أبا خالد؛ ما حال رجل يبيع من منزله بالأمس مندبلاً بسبعة عشر درهماً فنظر إلى نظراً شديداً؛ وما أجابني.

فرجعت إلى أهلي كسير القلب، وأخبرتهم بما اتفق لي مع أبي خالد، فقالوا: بئس والله ما فعلت! توجهت إلى رجل كان يرهبك لأمر جليل؛ فكشفت له سرك وأطلعت على مكنون أمرك، فأزريت^(١) عنده بنفسك، وصغرت عنده منزلتك، بعد أن كنت عنده جليلاً، فما يراك بعد اليوم إلا بهذه العين! فقلت: قد قضى الأمر بما لا يمكن استدراكه.

فلما كان من الغد بكرت إلى باب الخليفة، فلما بلغت الباب استقباني رجل، فقال لي: قد ذكرت الساعة بيباب أمير المؤمنين؛ فلم ألتفت لقوله، فاستقباني آخر، فقال لي كمقالة الأول، ثم استقباني حاجب أبي خالد، فقال لي: أين تكون؟ قد أمرني أبو خالد بإجلاسك إلى أن يخرج من عند أمير المؤمنين.

فجلست حتى خرج. فلما رآني دعاني، وأمر لي بدابة، فركبت، وسرت معه إلى منزله، فلما نزل قال: عليّ بفلان وفلان الحنطائين^(٢). فأحضرا، فقال لهما: ألم تشتريا مني غلات السواد^(٣) بثمانية عشر ألف درهم؟ قالا: بلى، قال: ألم أشرط عليكم شركة رجل معكما؟ قالا: بلى. قال: هذا هو الرجل الذي اشترطت شريكته لكما، ثم قال لي: قم معهما.

فلما خرجنا، قال لي: أدخل معنا بعض المساجد حتى نكلمك في أمر يكون لك فيه الربح الهنيء؛ فدخلنا مسجداً، فقال لي: إنك تحتاج في هذا الأمر إلى

(١) أزرى به: حقره وهون من شأنه. (٢) الحنط: بائع الخطة، وهي البر.

(٣) السواد: ما حوالى الكوفة من القرى.

وكلاء وأمناء وأعوان ومؤون ، لا تقدر منها على شيء ، فهل لك أن تبيعنا شركتك
بمال نعتله لك ، فتنفع به ، ويسقط عنك التعب والنصب ؟ فقلت لهما : وم
تبدلان لي ؟ فقالا : مائة ألف درهم . فقلت : لا أفعل .

فما زالا يزيداني ، وأنا لا أرضى إلى أن قال لي : ثلثمائة ألف درهم ، ولا زيادة
نندنا على هذا . فقلت : حتى أشاور أبا خالد . قال : ذلك لك !

فرجعتُ إليه وأخبرته ، فدعا بهما ، وقال لهما : هل وافقتما على ما ذكر ؟
قالا : نعم . قال : اذهبا ، فانتداه المال الساعة ، ثم قال لي : اصلح أمرك ، وتهياً ،
فقد قلدتُك العمل .

فأصلحتُ شأني ، وقلدني ما وعدني به ؛ فما زلت زيادةً ، حتى صار أمري
إلى ما صار .

ثم قال لولده الفضل : يا بني ؛ فما تقول في ابن من فعل أبائك هذا الفعل ؟
وما جزاؤه ؟ قال : حقٌ لعمري وجب عليك له ، فقال : والله يا ولدي ما أجده
مكافأة ؛ غير أني أعزل نفسي وأوليّه .

١٣٥ — رَجَوْتُكَ دُونَ النَّاسِ *

قال أبو العيْناء^(١) :

حصلت لى ضيقة^(٢) شديدة ، فكتمتها عن أصدقائى ، فدخلت يوماً على يحيى^(٣) بن أكرم ؛ فقال : إن أمير المؤمنين المأمونَ جلس للمظالم ؛ فهل لك فى الحضور ؟ قلت : نعم ! فمضيتُ معه إلى دار أمير المؤمنين ؛ فلما دخلنا عليه أجلسه وأجلسنى ، ثم قال : يا أبا العيْناء ؛ ما الذى جاء بك فى هذه الساعة ؟ فأنشدته :

لقد رجوتك دون الناس كلهم والمرجاء حقوق كلهم
إن لم تكن لى أسباب أعيش بها فى العلاء لك أخلاق هى السبب

فقال : يا سلامة ؛ انظر أى شىء فى بيت مالنا دون مال المسلمين ؟ فقال : بقية من مال ! قال : فادفع إليه مائة ألف درهم ، وابعث له بمثلها فى كل شهر ! فلما كان بعد أحد عشر شهراً مات المأمون ؛ فبكى عليه أبو العيْناء حتى تفرّحت أجفانه ؛ فدخل عليه بعض أولاده ، فقال : يا أبتاه ! بعد ذهاب العين ماذا ينفع البكاء ؟ فأنشأ أبو العيْناء يقول :

شيثان لو بكت الدماء عليهما عيناى حتى يؤذنا بذهاب
لم يبلغا المعشار^(٤) من حقيهما فقد الشباب وفرقه الأحباب

* ثمرات الأوراق للحموى : ٢ - ٢٤٥ .

(١) هو محمد بن القاسم ، أديب فصيح من ظرفاء العالم ومن أسرع الناس جواباً نشأ وتوفى بالبصرة سنة ٢٨٣ هـ . (٢) الضيقة : الفقر وسوء الحال . (٣) يحيى بن أكرم : قاض رفيع القدر ، على الشهرة ، من نبلاء الفقهاء ، يتصل نسبه بأكرم بن صفي حكيم العرب ، ولاء المأمون قضاء البصرة . ثم ولاء قضاء بغداد ، ثم أضاف إليه تدبير مملكته ، فكان وزراء الدولة لا يقدمون ولا يؤخرون فى شىء إلا بعد عرضه عليه ، ثم عزله المعتصم فلزم بيته ورده التوكل إلى عمله . توفى بالربذة سنة ٢٤٢ هـ . (٤) معشار الشئ : عشرة .

١٣٦ — المأمون يَعْفُو عن الحسين بن الضحاك *

قال محمد بن أبي الأزهر :

كنتُ بين يدي المأمون واقفاً ، فأدْخَلَ عليه ابنُ البواب الحاجبُ رقعةً فيها
أبيات ، وقال : إن رأى أميرُ المؤمنين أن يأذنَ لي في إنشادِها ! فظنَّها له فقال :
هاتِ ، فأنشده :

أَجَرَنِي فَإِنِّي قَدْ ظَمْتُ إِلَى الْوَعْدِ مَتَى تُنْجِزِ الْوَعْدَ الْمَوْكَّدَ بِالْعَهْدِ
أُعِيدُكَ مِنْ خُلْفِ الْمُلُوكِ وَقَدْ بَدَأَ تَقَطَّعُ أَنْفَاسِي عَلَيْكَ مِنَ الْوَجْدِ
أَيُبْخَلُ فَرْدُ الْحُسَيْنِ عَنِّي بِفَائِلٍ قَلِيلٍ ، وَقَدْ أَفْرَدْتُهُ بِهَوَى فَرْدِ
إِلَى أَنْ بُلِّغَ إِلَى قَوْلِهِ :

رَأَى اللَّهُ عَبْدَ اللَّهِ خَيْرَ عِبَادِهِ فَلَمَّكَ ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالْعَبِيدِ
أَلَا إِنَّمَا الْمَأْمُونُ لِلنَّاسِ عِصْمَةٌ مُمَيَّزَةٌ بَيْنَ الضَّلَالَةِ وَالرُّشْدِ
فَقَالَ الْمَأْمُونُ : أَحْسَنْتَ يَا عَبْدَ اللَّهِ . فَقَالَ : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ؛ بَلْ أَحْسَنْتَ قَائِلُهَا !
قَالَ : وَمَنْ هُوَ ! قَالَ : عَبْدُكَ الْحُسَيْنُ بْنُ الضَّحَّاكِ ^(١) ! فَفَضِبَ ، ثُمَّ قَالَ : لَا حَيَّا
اللَّهُ مِنْ ذَكَرْتَ وَلَا بَيَّاهُ وَلَا قَرَّبَهُ ، وَلَا أَنْعَمَ بِهِ عَلَيْنَا ! أَلَيْسَ هُوَ الْقَائِلُ :
أَعِينِي جُودًا وَابْكِيَا لِي مُحَمَّدًا وَلَا تَذْخَرَا دَمْعًا عَلَيْهِ وَأَسْعِدَا
فَلَا تَمَّتِ الْأَشْيَاءُ بَعْدَ مُحَمَّدٍ وَلَا زَالَ شَمْلُ الْمَلِكِ فِيهِ مُبَدَّدَا

* الأغانى : ٧ - ١٦٥ ، الفرج بعد الشدة : ١ - ٦٢ .

(١) هو مولى باهلة ، ولد بالبصرة ونشأ فيها ونادم الخلفاء من بني العباس وكان خليعاً فاسداً ،
ولكنه كان حسن التصرف في النظم ، ولشعره قبول ورواق . مات سنة ٢٥١ هـ .

ولا فرح المؤمنُ بالملكِ بعده ولا زال في الدنيا طريداً مُشرّداً
هذا بذاك ، ولا شيء له عندنا ! فقال له ابنُ البوّاب . فأين فضلُ أمير المؤمنين
وسعةُ حلمه ، وعادته في العفو !

فأمره بإحضاره ، فلما حضر سلم فردّ عليه ردّاً جافياً ؛ ثم أقبل عليه ، فقال :
أخبرني عنك ؛ هل عرفتَ يومَ قُتِلَ أخى محمد - رحمه الله - هاشمياً قُتِلَتْ أو
هتكت ! قال : لا ، قال : فما معنى قولك :

وَسِرْبُ ظِلَاءٍ مِنْ ذُؤَابَةِ هَاشِمٍ هَتَفَنَ بِدَعْوَى خَيْرِ حَيٍّ وَمَيِّتٍ
أَرُدُّ يَدَا مَنِي إِذَا مَا ذَكَرْتُهُ عَلَى كَبِدٍ حَرَّى وَقَلْبٍ مُفْتَتٍ
فَلَا بَاتَ لَيْلُ الشَّامِتِينَ بِغِبْطَةٍ وَلَا بَلَفَتْ آمَالُهُمْ مَا تَمَنَّتِ
فقال : يا أمير المؤمنين ، لوعةٌ غلبتني ، وروعةٌ فاجأتني ، ونعمةٌ فقدتها بعد أن
غمرتني ، وإحسانٌ شكرته فأنطقني ، وسيدٌ فقدته فأقلقني ، فإن عاقبتَ فبحقك ،
وإن عفوتَ فبفضلك .

فدمعت عينا المؤمن : وقال : قد عفوتُ عنك ، وأمرتُ بردَ أرزاقك ، وإعطائك
ما فات منها ، وجعلتُ عقوبةَ ذنبك امتناعاً من استخدامك !

١٣٧ — وفاء كافور *

قال أبو الفتح المنطيق : كنا جلوساً عند كافور الإخشيدي^(١) وهو يومئذ صاحب مصر والشام ، وله من البسطة ونفاذ الأمر وعلو الهمة والقدر وشهرة الذِّكر ما يتجاوز الوصف والحصر ، فحضرتُ المائدة والطعام ، فلما أكلنا نام وانصرفنا .

فلما انتبه من نومه طلب جماعةً منا ، وقال : امضوا إلى عقبة النجارين ، واسألوا عن شيخٍ منجمٍ أعور كان يقعدُ هناك ، فإن كان حيًّا فأحضروه ، وإن كان قد توفّي فاسألوا عن أولاده واكشفوا أمره .

فضيناً هناك ، وسألنا عنه ، فوجدناه قد مات وترك بنتين : إحداهما متزوجة والأخرى عاتق^(٢) ، فمَدَّنا إلى كافور وأخبرناه بذلك . فسيرى الحال واشترى لكلٍّ واحدةٍ منهما داراً ، وأعطى كلَّ واحدةٍ منهما ثياباً وكسوةً وذهباً كثيراً ، وزوج العاتق وأجرى على كلٍّ واحدةٍ منهما رزقاً ؛ وأشهرَ أنهما من المتعلِّقين به ؛ لرعايةِ أمورهما .

فلما فعل ذلك وبالعَ فيه ضحك ، وقال : أنعمون سبب هذا ؟ قلنا : لانعم ! فقال : اعلما أني مررتُ يوماً بوالدِهما المنجم ، وأنا في ملك ابن عباس الكاتب بحالةٍ رثّةٍ ، فوقفتُ عليه فنظر إليَّ واستجلسني ، وقال : أنت تصيرُ إلى رجلٍ جليلٍ

* المقد المريد للملك السعيد : ٨٥ .

(١) كافور الإخشيدي ، كان عبداً اشتراه الإخشيد ملك مصر سنة ٣١٢ هـ فنسب إليه واعتقه . وما زالت همته تصعد به حتى ملك مصر سنة ٣٥٥ ، وتوفى بالقاهرة سنة ٣٥٧ هـ .
(٢) العاتق : الجارية التي لم تزوج .

القدر ، وتبلغُ معه مبلغاً كبيراً ، وتنالُ خيراً كثيراً ، وطلبَ مني شيئاً فأعطيتهُ
درهمين كانا معي ، ولم يكن معي غيرُهما ، فرمى بهما ، وقال : أبشرك بهذه البشارة
وتعطيني درهمين ! ثم قال : وأزيدُك ، أنت والله تملكُ هذا البلدَ وأكثرَ منه ،
فاذْكُرْنِي إِذَا مَاصَرْتَ إِلَى مَا وَعَدْتُكَ بِهِ وَلَا تَنْسَى . فبذلتُ له ذلك ، وقلت :
نعم ! فقال : عاهدني أنك تفي لي ، ولا يشغلك الملكُ عن افتقادي ؛ فعاهدتهُ ؛ ولم
يأخذ الدرهمين .

ثم إِنِّي شَغِلْتُ عَنْهُ بِمَا تَجَدَّدَ لِي مِنَ الْأُمُورِ وَالْأَحْوَالِ ، وَصَرْتُ إِلَى هَذِهِ
الْمَسْأَلَةِ ، وَنَسِيتُ ذَلِكَ ؛ فَلَمَّا أَكَلْنَا الْيَوْمَ وَنَمْتُ رَأْيَتُهُ فِي الْمَنَامِ قَدْ دَخَلَ عَلَيَّ وَقَالَ :
أَيْنَ الْوَفَاءِ بِعَهْدِكَ وَتِمَامِ وَعْدِكَ ؟ لَا تَقْدِرُ فَيُغْدَرُ بِكَ ! فَاسْتَيْقِظْتُ وَفَعَلْتُ
مَا رَأَيْتُمْ .

ثم اشتهر إحسانُهُ إِلَى بِنْتِي الْمُنَجِّمِ لَوْفَانِهِ لَوَالِدِهَا ، فَتَضَاعَفَ الدَّعَاءُ لَهُ
وَالثَّنَاءُ عَلَيْهِ !

١٣٨ — دَرَسٌ يُلْقَى عَلَى حَاسِدٍ *

قال المنصور بن أبي عامر يوماً لأبي يوسف الرَّمَادِي : كيف ترى حالَكَ معي ؟ فقال : فَوْقَ قَدْرِي ودُونَ قَدْرِكَ . فَأَطْرَقَ المنصورُ كَالْفَضْبَانِ ، فانسَلَّ الرَّمَادِي ، وخرج وقد نَدِمَ على ما بَدَرَ منه ، وجعل يقول : أخطأتُ ، لا والله ما يفلح مع الملوك مَنْ يعاملُهُم بالحقِّ ! ما كان ضرنِي لو قلتُ له : إني بلغت السماء ، وتمنطقت بالجوزاء ! وأنشد :

مَتَى يَأْتِ هَذَا الْمَوْتُ لَا يُلْفِ حَاجَةً لِنَفْسِي إِلَّا قَدْ قَضَيْتُ قَضَاءَهَا
ولما خرج كان في المجلس من يحسده على مكانه من المنصور ، فوجد فُرْصَةً فقال : وصل الله لمولانا الظَّفَر والسَّعْد ! إن هذا الصنفَ صِنْفُ زُور وهَذْيَان ، لا يشكرون نعمة ، ولا يرعون إِلَّا ^(١) ولا ذِمَّة ؛ كلابٌ مَن غَلَب ، وأصحاب من أخصب ، وأعداء مَن أجذب ؛ وحسبك منهم أن الله جلَّ جلاله يقول فيهم : ﴿ وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ . أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ . وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴾ . والابتعادُ منهم أولى من الاقتراب ؛ وقد قيل فيهم : ما ظنُّكَ بقوم الصدق يُسْتَحْسَنُ إِلَّا منهم !

فرفع المنصور رأسه - وكان مُحَامِي أهلِ الأدب والشعر - وقد اسودَّ وجهه ، وظهر فيه الغضبُ المفرط ؛ ثم قال : ما بالُ أقوام يُشيرون في شيء لم يُستَشَاروا فيه ؛ ويسبئون الأدبَ بالحكم فيما لا يدرون ، أيرضِي أم يُسَخِّط ! وأنت - أيها

* نفح الطيب : ٢ - ٢٢٦ .

(١) الإل : المهد .

للنبعث للشرّ دون أن يُبعث - قد علمنا غرضك في أهل الأدب والشعر عامة ،
وحسدك لهم ، لأنّ الناس كما قال القائل :

من رأى الناس له فضلاً عليهم حسدوه

وعرفنا غرضك في هذا الرجل خاصّة ، ولسنا - إن شاء الله - نبليغ أحداً
غرضه في أحد ؛ وإنّك ضربت في حديد بارد ، وأخطأت وجه الصواب ؛ فزدت
بذلك احتقاراً وصغاراً ، وإني ما أطرقتُ من كلام الرمادى إنكاراً عليه ؛ بل
رأيتُ كلاماً يجلُّ عن الأقدار الجليّة ، وتعجّبتُ من تهديّيه له بسرعة ؛ والله لو
حكمتُ في بيوت الأموال رأيتُ أنها لا ترجح ما تكلم به قدر ذرّة ، وإياكم أن
يعود أخذُ منكم إلى الكلام في شخصٍ قبل أن يؤخذَ معه فيه ؛ ولا تحكموا
علينا في أوليائنا ولو أبصرتم منا التغيّر عليهم ؛ فإننا لا تتغيّر عليهم ؛ بغضاً لهم ؛
وانحرافاً عنهم ، بل تأديباً وإنكاراً ؛ فإننا من نريد إبعاده لم نُظهر له التغيّر ، بل
ننبذه مرة واحدة ؛ والتغيّر إنما يكون لمن يُراد إسقاطه .

ولو كنتُ مائل السمع لكلّ أحد منكم في صاحبه لتفرقتُم أيدي سباً ،
وجُوبتُ أنا مُجانبّة الأجر ، وإني قد أطلعتكم على ما في ضميري ، فلا تعدلوا
عن مرّضاتي .

ثم أمر أن يُردّ الرمادى ، وقال له : أعدْ عليّ كلامك ، فارتاع . فقال : الأمرُ
على خلاف ما قدّرت ، الثوابُ أولى بكلامك من العقاب ، فسكن لتأنيسه ^(١) ،
وأعاد ما تسكلم به ، فقال المنصور : بلغنا أن النعمان بن المنذر خُشِمَ النابغة بالدُّرّ
لكلام استملحه منه ، وقد أمرنا لك بما لا يَقْصُرُ عن ذلك وبما هو أنوّه
وأحسن عائدة .

(١) التأنيس : خلاف الإيحاء .

وكتب له ببال وخِلَع وموضع يعيش منه ؛ ثم ردَّ رأسه إلى المتكلم في شأن الرمادى - وقد كاد يفوصُ في الأرض لشدة ما حلَّ به مما رأى وسمع - وقال : والعجبُ من قوم يقولون : الابتعادُ من الشعراء أولى من الاقتراب ! نعم ، ذلك لمن ليس له مفاخرٌ يريد تحليدها ، ولا أيادٍ يرغبُ في نشرها ؟ فأين الذين قيل فيهم :

على مُكثريهم رَزَقٌ من يعترِيهمُ وعند المقلين الساحةُ والبذلُ^(١)
وأين الذى قيل فيه :

إنما الدنيا أبو دَلْفٍ بين مبدآه^(٢) ومُختَصَره
فإذا ولَّى أبو دَلْفٍ ولَّت الدنيا على أثره^(٣)

أما كانَ في الجاهلية والإسلام أكرمُ ممن قيل فيه هذا القول ؟ بلى ! ولكنَّ صُحبةَ الشعراء والإحسانَ إليهم أحيَتْ غابر ذكْرهم ، وخصَّتْهم بمفاخر عصرهم ، وغيرهم لم تُخلد المدائحُ ما أثرهم ، فدثرَ ذكْرهم ، ودَرسَ فخرهم !

(١) البيت لزهير بن أبي سلمى في مدح آل هرم بن سنان . (٢) البدى : كل منتجع .
(٣) البيتان لعل بن جبلة في مدح أبي دلف .

١٣٩ — عفة الشريف الرضى *

حكى أبو حامد بن محمد الإسفرايينى الفقيه الشافعى ، قال :
كنت يوماً عند فخر الملك أبى غالب محمد بن خلف وزير بهاء الدولة وابنه
سلطان الدولة ، فدخل عليه الرضى أبو الحسن ^(١) فأعظمه وأجلّه ، ورفع من
منزلته ، وخطى ما كان بيده من القصص والرقاع ، وأقبل عليه يحادثه إلى أن
انصرف .

ثم دخل بعد ذلك المرتضى أبو القاسم ، فلم يُعظمه ذلك التعظيم ، ولا أكرمه
ذلك الإكرام ، وتشاغل عنه برقاع يقرأها وتوقعات يُوقع بها ، فجلس قليلاً ، وسأله
أمراً فقضاه ، ثم انصرف .

قال أبو حامد : فتقدّمت إليه وقلتُ له : أصلح الله الوزير ! هذا المرتضى هو
الفقيه المتكلم صاحبُ الفنون ، وهو الأمثل ^(٢) الأفضل منهما ، وإنما أبو الحسن
شاعرٌ . فقال لى : إذا انصرفَ الناسُ ، وخلا المجلسُ أجبتُكَ عن هذه المسألة . قال :
وكنتُ مجمّعا على الانصراف ، فجاءنى أمر لم يكن فى الحُسبان ، فدعت الضرورةُ
لملازمة المجلس إلى أن تقوَّضَ الناسُ واحداً فواحداً .

فلما لم يبقَ إلا غلمانُه وحُجَّابه دعا بالطعام ، فلما أكلنا وغسل يده وانصرفَ
عنه أكثرُ غلمانِه ، ولم يبقَ عنده غيرى ، قال لخادم له :

* ابن أبى الحديد : ١ - ١٣ .

(١) هو أبو الحسن محمد بن الطاهر ، كان أبوه قتيب الطالبيين ، وصارت إليه النقابة وأبوه حى ،
أجمع النقاد على أنه أشعر قريش ، وكان عالماً بعلوم القرآن واللغة والنحو ، وله فيها المؤلفات
الناجمة . توفى سنة ٤٠٦ هـ . (٢) فلان أمثل بنى فلان : أى أدناهم للخير .

هات الكتابين اللذين دفعتهما إليك منذ أيام ، وأمرتك أن تجعلهما في السَّفَط^(١) الفلاني . فأحضرهما فقال : هذا كتابُ الرضى ، اتصل بي أنه قد وُلِدَ له ولد ، فأنفذتُ إليه ألفَ دينار ، وقلت : هذه للقبالة - فقد جرت العادة أن يحْمِلَ الأصدقاء إلى أخلائهم ، وذوى مودتهم مثل هذا في مثل هذه الحال - فردّها ، وكتب إلى هذا الكتاب ، فأقرأه .

قال : فقرأته ، وهو اعتذار عن الردّ ، وفي جملته : إننا - أهل بيت - لا يَطْلَعُ على أحوالنا قابلةٌ غريبة ، وإنما عجائزنا يتولّين هذا الأمر من نساءنا ، ولسنّ ممن يأخذن أجره ، ولا يقبلن صِلّة .

قال : فهذا ، هذا . وأما المرتضى فإننا كنا قد وزّعنا وقسّطنا^(٢) على الأملاك تقسيطاً نصّرفه في حفر فوهة النهر المعروف بهر عيسى ، فأصاب ملكاً للشریف المرتضى عشرون درهماً ، وقد كتب إلى منذ أيام في هذا المعنى هذا الكتاب فأقرأه ؛ فقرأته ، وهو أكثر من مائة سطر يتضمن من الخشوع والخشوع والاستمالة والطلب والسؤال في إسقاط هذه الدراهم عن أملاكه المشار إليها ما يطول شرحه .

قال فخر الملك : فأيهما ترى أولى بالتعظيم والتبجيل ؟ هذا العالم المتكلم الفقيه الأوحد ، ونفسه هذه النفس ، أم ذلك الذى لم يُشهر إلا بالشعر خاصة ؛ ونفسه تلك النفس ؟ قلت : وفقّ الله الوزير ، فما زال موفقاً ، وما وضع الأمر إلا موضعه ، ولا أحله إلا في محله .

(١) السَّفَط : الجوالق ، أو كالفقة . (٢) قسط الشيء : فرقه .

١٤٠ - أمين*

قال أحد التجار :

قصدتُ الحجَّ في بعض الأعوام ، وكانت تجارتي عظيمةً ، وأموالي كثيرة ،
وكان في وسطى هميان^(١) ، فيه دنانير وجواهر قيمة ، وكان الهميان من
ديباج أسود .

فلما كنت ببعض الطريق نزلت لأقضى بعض شأني ، فأنحلتُ الهميان من
وسطى ، وسقط ولم أعلم بذلك إلا بعد أن سرتُ عن الموضع فراسخ ، ولكن ذلك
لم يكن يؤثر في قلبي لما كنت أحتويه من غنى ، واستخلفتُ ذلك المال عند الله
إذ كنت في طريقى إليه تعالى .

ولما قضيتُ حجَّتي^(٢) وعُدْتُ ، تتابعتِ الحنُّ علىّ حتى لم أملك شيئاً !
فهربتُ على وجهي من بلدي . ولما كان بعد سنين من فقرى أفضيتُ إلى مكان
وزوجى معي ، وما أملك في تلك الليلة إلا دانيقاً^(٣) ونصفاً ، وكانت الليلة مطيرة ،
فأويت في بعض القرى إلى خان خراب ، فجاء زوجى المخاض فتحيرتُ ، ثم ولدتُ
فقلت : يا هذا ؛ الساعة تخرج روحى ، فاتخذ لى شيئاً أتقوى به ، فخرجتُ أخبط
في الظلمة والمطر حتى جئتُ إلى بدّال^(٤) فوقفت عليه ، فكلمنى بعد جهد ،
فشرحتُ له حالى ، فرحمنى وأعطانى بتلك القطع حلبهً وزيتاً وأغلاهما ،

* الفرج بعد الشدة : ٢ - ١٤ .

(١) الهميان : المنطقة . (٢) الحجّة (بالكسر) المرة الواحدة ، وهى من الشواذ .

(٣) الدانيق : سدس الدرهم . (٤) البدال : بيع الأطلعة .

وأعارني إناؤه جعلتُ ذلك فيه ، وجئتُ أريدُ للموضع ، فلما مشيتُ بعيداً وقربتُ من الخان زلقتُ رجلى ، وانكسر الإناؤه وذهب جميع مافيه ؛ فوردَ على قلبي أمرٌ عظيمٌ ماورد على مثله قط ! فأقبلتُ أبكى وأصيح ؛ وإذا برجل قد أخرج رأسه من شبّاك في داره ، وقال : ويلك ! مالك تبكى ! ماتدعنا أن ننام !

فشرحتُ له القصة ، فقال : يا هذا ؛ البكاء كله بسبب دائقٍ ونصف ! قال : فداخلنى من النعم أعظم من النعم الأول ، فقلتُ : يا هذا ؛ والله ما عندى شيء لما ذهب منى ، ولكن بكائى رحمةً لزوجى ولنفسى ؛ فإنَّ امرأتى تموتُ الآن جوعاً ، والله لقد حججتُ فى سنة كذا وكذا وأنا أملىك من المال شيئاً كثيراً ، فذهب منى هيمان فيه دنائير وجواهر تساوى ثلاثة آلاف دينار ، فما فكرتُ فيه ، وأنت ترانى الساعة أبكى بسبب دائقٍ ونصف ، فاسأل الله السلامة ؛ ولا تُعايرنى فتُبلى بمثل بلوائى .

فقال لى : بالله يارجل ، ما كانت صفةُ هيمانك ، فأقبلتُ أبكى ، وقلت : ما ينفعنى ما خاطبتنى به أو ماتراه من جهدى ^(١) وقيامى فى المطر حتى تستهزئ بى أيضاً ! وما ينفعنى وينفعك من صفة هيمانى الذى ضاع منذ كذا وكذا !

ومشيتُ ؛ فإذا الرجل قد خرج وهو يصيح بى : خذ يا هذا ، فظننته يتصدق على ، فجئتُ وقلت له : أى شيء تريد ؟ فقال لى : صف هيمانك وقبض على ، فلم أجد للخلاص سبيلاً غير وصفه له ، فوصفته فقال لى : ادخل ، فدخلتُ ، فقال : أين امرأتك ؟ قلتُ : فى الخان ، فأنفذ غلمانَه فجاءوا بها ، وأدخلتُ إلى حُرَمه ^(٢) ، فأصلحوا شأنها وأطعموها كلَّ ما تحتاج إليه وجاءونى بحُبة وقيص

(١) الجهد : المشقة .

(٢) حرم الرجل : أهله .

وعمامة وسراويل ، وأدخلت الحمام سحرًا ، وطرح ذلك على ، وأصبحت في عيشة راضية . وقال : أقم عندي أيامًا ، فأقمت عشرة أيام ، كان يعطيني في كل يوم عشرة دنانير ، وأنا متحيرة في عظم برّه بعد شدة جفائه !

فلما كان بعد ذلك قال لي : في أي شيء تتصرف ؟ قلت : كنت تاجرًا ، قال : فلي غلات وأنا أعطيك رأس مال تتجر فيه وتشركني . فقلت : أفعل ، فأخرج لي مائتي دينار فقال : خذها واتجر فيها هاهنا ، قلت : هذا معاش قد أغناني به الله يجب أن ألزمه ، فلزمته .

فلما كان بعد شهر ربحت خبثته وأخذت حتى وأعطيته حقه ، فقال : اجلس ؛ فجلست ، فأخرج لي همياني بعينه وقال : أتعرف هذا ؟ فحين رأيته شهقت وأغني على ، فما أقفت إلا بعد ساعة ! ثم قلت له : يا هذا ؛ أملك أنت أم نبي ؟ فقال : أنا أحفظه منذ كذا وكذا سنة ، فلما سمعتك تلك الليلة تقول ماقلته ، وطالبتك بالعلامة فأعطيتها أردت أن أعطيك للوقت هميانك ، فخبثت أن يُفشي عليك ، فأعطيتك تلك الدنانير التي أوهمتك أنها هبة ، وإنما أعطيتكها من هميانك ؛ فخذ هميانك واجعلني في حل ! فشكرته ودعوت له .

وأخذت الهميان ورجعت إلى بلدي ، فبعت الجوهر وضمنت ثمنه إلى مامعي واتجرت ، فامضت إلا سنين حتى صرت صاحب عشرة آلاف دينار وصلحت حالي !

البَابُ الْخَامِسُ

في القصص التي تعدّ غرائزهم وخصالهم، فتكشف
ما طبعوا عليه من وفرة العقل، وحدّة الذكاء، وصدق
الفراسة وقوة النفس، وما أهلتهم له طبيعة بلادهم، وأسلوب
حياتهم من شريف السجايا، وممدوح الخصال.

١٤١ — غَنِمَ مَنْ نَجَّى مِنَ الْمَوْتِ *

كان عامر ^(١) بن الظَّرِبِ العَدَوَانِي يدفعُ بالنَّاسِ فِي الْحِجِّ ؛ فَرَأَاهُ مَلِكٌ مِنْ
مُلُوكِ غَسَّانَ ، فَقَالَ : لَا أَتْرُكُ هَذَا الْعَدَوَانِيَّ أَوْ أَذِلَّهُ !

فَلَمَّا رَجَعَ الْمَلِكُ إِلَى مَنْزِلِهِ أَرْسَلَ إِلَيْهِ : أَحِبَّ أَنْ تَزُورَنِي فَأَحْبُبُوكَ وَأَكْرَمَكَ
وَاتَّخِذْكَ خِلًا ؛ فَأَتَاهُ قَوْمُهُ ؛ فَقَالُوا لَهُ : تَفِدُّ وَيَقْدُ مَعَكَ قَوْمُكَ إِلَيْهِ ، فَيَصِيبُونَ فِي
جَنْبِكَ ، وَيُوجِّهُونَ ^(٢) بِجَاهِكَ !

فَخَرَجَ وَأَخْرَجَ مَعَهُ نَفَرًا مِنْ قَوْمِهِ ؛ فَلَمَّا قَدِمَ بِلَادَ الْمَلِكِ أَكْرَمَهُ وَأَكْرَمَ
قَوْمَهُ ، ثُمَّ انْكَشَفَ لَهُ عَنْ رَأْيِ الْمَلِكِ ؛ فَجَمَعَ أَصْحَابَهُ ، وَقَالَ : الرَّأْيُ نَائِمٌ ،
وَالْهُوَى يَقْظَانُ ، وَمَنْ أَجَلَ ذَلِكَ يَغْلِبُ الْهُوَى الرَّأْيُ ! عَجِلْتُ حِينَ عَجَلْتُمْ ، وَلَنْ
أَعُودَ بَعْدَهَا !

فَقَالَ قَوْمُهُ : لَقَدْ أَكْرَمَنَا الْمَلِكُ كَمَا تَرَى ! وَبَعْدَ هَذَا مَا هُوَ
خَيْرٌ مِنْهُ !

قَالَ : لَا تَعْجَلُوا ؛ فَإِنَّ لِكُلِّ عَامٍ طَعَامًا ، وَرَبٌّ أَكْلُهُ تَمْنَعُ أَكَلَاتُ ^(٣) ؛
فَكُنْتُمْ أَثَامًا .

* الأمثال : — ٢٧١ .

(١) حكيم خطيب رئيس ، من الجاهليين ، كان العرب لا تعدل بفهمه فهماً ، ولا يحكمه حكماً ،
وهو أول من قرعت له العصا ، وكان يقال له ذو الحلم . (٢) أوجهه : جمعه وجيهاً .

(٣) سارت مثلاً .

ثم أرسل إليه الملكُ ، فتحدث عنده ، ثم قال له : قد رأيتُ أن أجعلك الناظر
في أموري ، فقال له : إن لي كنزَ علمٍ لست أعلم إلا به ؛ تركته في الحَيِّ مدفوناً ، وإن
قومي أضلّاه بي ، فاكتب لي ببجاية الطريق ، فيرى قومي طمعاً تطيبُ به أنفسهم
فأستخرج كنزي ، وأرجع إليك وافراً .

فكتب له بما سأل ، وجاء إلى أصحابه ، فقال : ارتحلوا ؛ حتى إذا أدبروا
قالوا : لم يرَ كالיום وافدٌ أقلّ ولا أبعد من نوالٍ منك ! فقال : مهلاً ! فليس على
الرزق قوت ، وغنم من نجاة الموت !
فلما قدم على قومه أقام فلم يعد !

١٤٢ — وَافَقَ شَنْ طَبَقَةً*

كان شَنْ رجلاً من دُهَاهِ العرب وعقلائهم . وقال يوماً : والله لأطوفَنَّ حتى أجد امرأةً مثلي أتزوّجها . فبينما هو في بعض مسيره إذ واقفه رجلٌ في الطريق فسأله شَنْ : أين تريد ؟ فقال : موضع كذا - يريد القرية التي يقصدها شَنْ - فوافقه ، حتى إذا أخذَا في مسيرهما قال له شَنْ : أتحملني أم أحملك ؟ فقال له الرجل : يا جاهل ، أنا راكب وأنت راكب ، فكيف أحملك أو تحملي ؟ ! فسكت عنه شَنْ .

وسارا حتى إذا قَرُبَا من القرية إذا بزرع قد استحصَد^(١) ؛ فقال شَنْ : أترى هذا الزرع أكل أم لا ؟ فقال له الرجل : يا جاهل ؛ ترى نبتًا مُستحصَدًا فنقول : أكل أم لا ؟ فسكت عنه شَنْ .

حتى إذا دخلا القرية لقيتهما جنازة^(٢) ، فقال شَنْ : أترى صاحب هذا النعش حيًّا أم ميتًا ؟ فقال له الرجل : ما رأيتُ أجهلَ منك ! ترى جنازة تسأل عنها ، أميتٌ صاحبها أم حيٌّ ؟

فسكت شَنْ وأراد مفارقتَه ؛ فأبى الرجل أن يتركه حتى يصيرَ به إلى منزله ؛ ففضى معه : وكان للرجل بنتٌ يقال لها طَبَقَةٌ ؛ فلما دخل عليها أبوها سأله عن ضيفه ، فأخبرها . بمرافقته إياه ، وشكا إليها جهله ، وحدثها بحديثه . فقالت : يا أبت ، ما هذا بجاهل ! أما قوله : أتحملني أم أحملك ، فأراد أنحدثني

* نجم الأمثال : ٢ - ٢١١ .

(١) استحصَد : آن أن يحصد . (٢) الجنازة : الميت على السرير .

أم أحدٌك حتى تقطع طريقنا ! وأما قوله : أترى هذا الزرع أكَل أم لا ؟ فأراد : هل باعه أهله فأكلوا منه أم لا ؟ وأما قوله في الجنّازة ، فأراد : هل ترك عَقِباً يَحْيَا بهم ذكره أم لا !

فخرج الرجلُ فجلس إلى شَنّ ؛ فحدثه ساعة ، ثم قال : أُنحِبُّ أن أفسّر لك ما سألتني عنه ؟ قال : نعم . ففسّره . فقال شَنّ : ما هذا من كلامك ، فأخبرني مَنْ صاحبه ؟ قال : ابنةٌ لي .

فخطبها إليه ، فزوّجه إياها ، وحملها إلى أهله . فلما رأوها قالوا : وافق شَنّ طبقة^(١) .

(١) فذهبت مثلاً لكل اثنين متوافقين . هذا ، وقيل في أصل المثل : لانهما حيان اتفقا على أمر فقيل لهما ذلك ؛ لأن كل واحد منهما قيل ذلك له لما وافق شكله ونظيره . وقيل : شنّ حى من عبد القيس ، وطبق : حى من إباد ، وكانت شنّ لا يقام لها ، فواقعتها طبق فانتصفت منها . وقيل : شنّ قبيلة كانت تكثر الغارات ، فواقعهم طبق من الناس فأبادوهم .

١٤٣ - لن يَبْرَحَ الْعَبْدَانِ حَتَّى يُقْتَلَا*

صحب رجلٌ كثيرُ المالِ عَبْدَيْنِ في سفرٍ ، فلما توسَّطَا الطريقَ هَمَّا بِقَتْلِهِ ،
فلما صَحَّ ذلكَ عنده قال : أقسمَ عليكما - إذا كان لا بدَّ لكما من قتلٍ - أن
تمضيا إلى داري ، وتنشدا ابنتيَّ هذا البيت ! قالَا : وما هو ؟ قال :

من مبلغُ بنتيَّ أن أباهما لله درُّ كما وَدَرُ أَيْكَمَا^(١)
فقال أحدهما للآخر : ما نَرَى فيه بأساً !

فلما قَتَلَاهُ جاءا إلى داره ، وقالَا لابنته الكبرى : إنَّ أبابك قد لحقه ما يلحقُ
الناسَ ، وآلى علينا أن نخبرَكما بهذا البيت . فقالت الكبرى : ما أرى فيه شيئاً
تخبراني به ، ولكن اصبرا حتى أستدعيَ أختي الصغرى .

فاستدعتها فأنشدتها البيتَ ، فخرجت حاسرة^(٢) ، وقالت : هذان قتلا أبي
يامعشر العرب ، ما أتم فصحاء اقالوا : وما الدليل عليه ؟ قالت : المصراع الأول
يحتاج إلى ثان ، والثاني يحتاج إلى ما يُكَمِّله ، ولا يليق أحدهما بالآخر . قالوا : فما
ينبغي أن يكون ؟ قالت : ينبغي أن يكون :

مَنْ خَبَرُ بنتيَّ أنَّ أباهما أمسى قتيلاً بالفلاة مُجَنَّدَا^(٣)
لله درُّ كما وَدَرُ أَيْكَمَا لن يَبْرَحَ الْعَبْدَانِ حَتَّى يُقْتَلَا
فاستخبروها فوجدوا الأمرَ على ما ذكرت .

* بلوغ الأرب : ١ - ٣٢ .

(١) لله دره : أى عمله ، ولا در دره : لا زكا عمله (٢) حاسرة : أى كاشفة . يقال : حسرت
المرأة ذراعها وخنازها : أى كشفته (٣) مجندلا : مصروعاً على الجدة ، وهى الأرض . وليس
في كتب اللغة جنل ، وإنما بها جدل .

١٤٤ - التَّذِيرُ*

كان رجلٌ من بنى العَنْبَرِ أسيراً في بكر بن وائل ، وعرف أنهم عزموا على غزوِ قومه ، فسألهم رسولاً إلى قومه ، فقالوا : لا ارسل إلا بحضرتنا لثلاثِ تَنْذِيرهم ؛ وجئُ بعبد أسود ، فقال له : أتُعقل ؟ قال : نعم ، إني لعاقِل ! ما أراك عاقلاً .

ثمّ ملأُ كَفْيَه من الرمل فقال : كم هذا ؟ قال : لا أدري ، وإنه لكثير ، قال : أَيْمًا كثير ؟ النجومُ أم النيران ؟ قال : كلُّ كثير .

فقال : أبلغُ قومي التَّحِيَّةَ ، وقل لهم : ليكرموا فلانا - يعني أسيراً كان في أيديهم من بَكْر - فإنَّ قومه لي مكرمون ، وقل لهم : إنَّ العَرْفَجَ ^(١) قد أذْبَى ^(٢) ، وشكَّتِ النساءُ ، وأمرهم أن يُعروا ناقتي الحمراء ؛ فقد أطالوا ركوبها ، وأن يركبوا جملي الأصهب ^(٣) ، بآية ما أكلت معهم حَيْسًا ^(٤) ؛ واسألوا عن خبري أخى الحارث .

فلما أَدَّى العبدُ الرسالةَ إليهم قالوا : قد جُنَّ الأعور ! والله مانعُفُ له ناقةٌ حمراء ، ولا جملاً أصهب ! ثمّ سرَّحو العبد ، ودَّعوا الحارث فقصوا عليه القصة .

فقال : قد أنذركم ! أما قوله : قد أذْبَى العَرْفَج ، فيريد أن الرجال قد استلأموا ولبسوا السلاح . وقوله : وشكَّتِ النساء ؛ أى اتخذن الشَّكاءَ للسفر ^(٥) ، وقوله : الناقة الحمراء ، أى ارتحلوا عن الدَّهْناء وركبوا الصَّمَّان . وهو الجمل الأصهب . وقوله : بآية ما أكلت معكم حَيْسًا ، يريد أخلاطاً من الناس قد غزَوْكم ؛ لأن الحيس يجمع التمر والسمن والأقِطَ ؛ فامتثلوا ما قال ، وعرفوا الحنَّ كلامه

* نهاية الأرب : ٣ - ١٥٤ ، بلوغ الأرب ١ : ٣١ ، الأملى : ١ - ٨

(١) العرفج : نبتٌ (٢) أدبى العرفج : خرج منه مثل الدبى ، والدبى : أصفر الجراد والنمل .

(٣) الأصهب : بغير لبس بشديد البياض (٤) الحيس : تمر يخلط بسمن وأقِط فيعجن شديداً

(٥) الشكوة : وعاء من آدم يرد فيه الماء ويحبس فيه ، جمه شكوات وشكاء ، شكَّت النساء :

اتخذن الشكاء .

١٤٥ - حديث عن امرئ القيس *

قال عبد الملك بن عمير :

قَدِمَ عَلَيْنَا عُمرُ بْنُ هُبَيْرَةَ الْكُوفَةِ ، فَأَرْسَلَ إِلَى عَشْرَةِ أَنَا أَحَدُهُمْ مِنْ وَجْهِ الْكُوفَةِ فَسَمَرُوا عِنْدَهُ ، ثُمَّ قَالَ : لِيَحْذُنْنِي كُلُّ رَجُلٍ مِنْكُمْ أَحَدُوثَةً ، وَابْدَأْ أَنْتَ أَبَا عَمْرٍو ^(١) . فَقُلْتُ : أَصْلَحَ اللَّهُ الْأَمِيرُ ! أَحَدِيثَ الْحَقِّ أَمْ حَدِيثَ الْبَاطِلِ ؟ قَالَ : بَلْ حَدِيثَ الْحَقِّ .

قُلْتُ : إِنْ أَمْرًا ^(٢) الْقَيْسِ آلَى بِأَلْيَةٍ ^(٣) أَلَا يَتَزَوَّجُ امْرَأَةً حَتَّى يَسْأَلَهَا عَنْ ثَمَانِيَةِ وَأَرْبَعَةِ وَثْنَتَيْنِ ، فَيَجْعَلُ يَخْطُبُ النِّسَاءَ فَإِذَا سَأَلْنَهُ عَنْ هَذَا قُلْنَ : أَرْبَعَةَ عَشَرَ .

فَبَيْنَمَا هُوَ يَسِيرُ فِي جَوْفِ اللَّيْلِ إِذَا هُوَ بِرَجُلٍ يَحْمِلُ ابْنَةً لَهُ صَغِيرَةً ، كَأَنَّهَا الْبَدْرُ لَيْلَةَ تَمَامِهِ ، فَأَعْجَبَتْهُ ؛ فَقَالَ لَهَا : يَا جَارِيَّةُ ؛ مَا ثَمَانِيَةٌ وَأَرْبَعَةٌ وَاثْنَتَانِ ؟ فَقَالَتْ : أَمَّا ثَمَانِيَةٌ فَأَطْبَاءُ ^(٤) الْكَلْبَةِ ، وَأَمَّا أَرْبَعَةٌ فَأَخْلَافُ ^(٥) النَّاقَةِ ، وَأَمَّا اثْنَتَانِ فَتُدْيَا الْمَرْأَةِ .

فَخَطَبَهَا إِلَى أَبِيهَا ، فَزَوَّجَهُ إِيَّاهَا ، وَشَرَطَتْ عَلَيْهِ أَنْ تَسْأَلَهُ لَيْلَةً بِقَائِلِهَا عَنْ ثَلَاثِ خِصَالٍ ، فَيَجْعَلُ لَهَا ذَلِكَ ، وَأَنْ يَسُوقَ إِلَيْهَا مِائَةً مِنَ الْإِبِلِ وَعَشْرَةَ أَعْبُدَ وَعَشْرَ وَصَائِفَ وَثَلَاثَةَ أَفْرَاسٍ ، فَفَعَلَ ذَلِكَ .

* الْأَغَانِي : ٩ - ١٠١ ، نَهَايَةُ الْأَرْب : ٣ - ١٥٥ ، بُلُوغُ الْأَرْب : ١ : ٢٧ .

(١) كُنْيَةُ عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ عُمَيْرٍ (٢) أَمْرٌ الْقَيْسِ : هُوَ الْمَلِكُ الضَّلِيلُ أَبُو الْحَارِثِ حَنْدَجُ بْنُ حَجْرٍ الْكَنْدِيُّ ، شَاعِرُ الْيَمَانِيَةِ ، وَرَأْسُ شُعْرَاءِ الْجَاهِلِيَةِ ، وَقَائِدُهُمْ إِلَى التَّقْنِ فِي أَبْوَابِ الشَّعْرِ وَضُرُوبِهِ ، وَقَدْ نَشَأَ بِأَرْضِ نَجْدٍ ، وَسَلَكَ مَسْلَكَ الْمُتَرْفِينَ مِنْ أَبْنَاءِ الْمُلُوكِ يَلْهُو وَيَلْعَبُ وَيَعَاقِرُ الْخَمْرَ وَيَغَاظِلُ الْحَسَانَ ، وَأَنْفَقَ وَقْتَهُ فِي التَّشْيِيبِ بِالنِّسَاءِ وَالْخُرُوجِ فِي ذَلِكَ إِلَى جِدِّ الصَّرَاحَةِ فِي الْفَحْشِ ، فَقَتَلَهُ أَبُوهُ ، ثُمَّ طَرَدَهُ وَتَوَفَّى سَنَةَ ٨٠ ق. هـ . (٣) آلَى : أَقْسَمَ (٤) الْأَطْبَاءُ : حُلُمَاتُ الضَّرْعِ لَنَدَى خَفٍ وَظَلْفٍ وَحَافِرٍ وَسَمِيعٍ (٥) الْأَخْلَافُ : حُلُمَاتُ ضَرْعِ النَّاقَةِ .

ثم إنه بعث عبداً له إلى المرأة ، وأهدى إليها نَحْيَا^(١) من سمن ، ونَحْيَا من عسل ، وحلّة من عَصَب^(٢) ، فنزل العبدُ ببعض المياه فنشر الحلّة ولبسها ، فتعلقت بعُشْرَة^(٣) ، فانشقت ؛ وفتح النّحيين ، فطعمَ أهلُ الماءَ منهما فنقصا .

ثمّ قدّم على حَيّ المرأة وهم خُلُوف^(٤) ، فسألها عن أبيها وأما وأخيها ودفع إليها هديّتها . فقالت له : أعلمُ مولاك أن أبي ذهب يقربُ بعيداً ويبعدُ قريباً ، وأن أمّي ذهبت تشقُّ النفسَ نفسين ، وأن أخى يراعى الشمس ، وأن سماءكم انشقت ، وأن وعاءيكُم نَضَباً^(٥) .

فقدّم الغلام على مولاة فأخبره . فقال : أمّا قولها : إن أبى ذهب يقربُ بعيداً ويبعدُ قريباً ، فإنّ أباهما ذهب يحالف قوماً على قومه . وأما قولها : ذهبت أمّي تشقُّ النفسَ نفسين ، فإنّ أمها ذهبت تقبلُ^(٦) امرأةً نفّساء . وأما قولها : إن أخى يراعى الشمس ، فإنّ أخاها فى سَرَحٍ^(٧) له يرعاه فهو ينتظر وجوب^(٨) الشمس ليرُوحَ^(٩) به . وأما قولها : إن سماءكم انشقت ، فإنّ البرد الذى بعثتُ به انشق . وأما قولها : إن وعاءيكُم نَضَباً ، فإنّ النّحيين اللذين بعثتُ بهما نقصا ، فاصدقنى ! فقال : يامولاي ، إنى نزلتُ بماء من مياه العرب ، فسألونى عن نسبي ؛ فأخبرتهم أنّى ابنُ عمك ، ونشرتُ الحلّة فانشقت ؛ وفتحتُ النّحيين ، فأطعمتُ منهما أهل الماء . فقال : أوّلَى لك^(١٠) !

ثم ساق مائةً من الإبل وخرج نحوها ومعه الغلام ؛ فنزلا منزلاً ، فخرج الغلام يسقى الإبل فمَجَزَ ؛ فأعانه امرؤ القيس ؛ فرمى به الغلام فى البئر ؛ وخرج حتى أتى

(١) النحي : السقاء ، أو ما كان للسمن خاصة (٢) العصب : نوع من البرود (٣) العشرة :

واحدة العشر وهو من كبار الشجر ، وله صمغ حلو (٤) خلوف : غيب (٥) المراد نقصا .

(٦) يقال : تلبت القابلة المرأة إذا تلقت ولدها عند ولادته (٧) السرح : الإبل السائمة

(٨) وجوب الشمس : غروبها (٩) ليرجع .

(١٠) أوّلَى لك : كلمة يقصد بها التواعد والتهديد ، أى الشر أقرب إليك .

أهل المرأة بالإبل ، وأخبرهم أنه زوجها ، فقيل لها : قد جاء زوجك . فقالت : والله ما أدري أزوجى هو أم لا ! ولكن انحروا له جَزُوراً ^(١) وأطعموه من كَرِشِها وذَنبِها ، ففعلوا ، فأكل ما أطعموه ، فقالت : اسقوه لبناً حازراً ^(٢) ، فسقوه فشرب . فقالت : افرشوا له عند الفرث ^(٣) والدّم ، ففرشوا له فنام .

فلما أصبحت أرسلت إليه : إني أريد أن أسألك ، فقال : سلى عما شئت ، فسألته فلم يُعجبها جوابه ؛ فقالت : عليكم العبد فشدّوا أيديكم به ففعلوا .

قال : ومَرَّ قوم فاستخرجوا امرأ القيس من البئر ؛ فرجع إلى حَيِّه ، فاستاق مائةً من الإبل وأقبل إلى امرأته ، فقيل لها : قد جاء زوجك ! فقالت : والله ما أدري أهو زوجى أم لا ! ولكن انحروا له جَزُوراً فأطعموه من كَرِشِها وذَنبِها ، ففعلوا ؛ فلما أتوه بذلك قال : وأين الكبد والسَنَامُ والملْحَاءُ ^(٤) ! وأبى أن يأكل . فقالت اسقوه لبناً حازراً ، فأبى أن يشربه وقال : فأين الصريف ^(٥) والرَّيْثَةُ ^(٦) ؟ فقالت : افرشوا له عند الفرث والدّم ، فأبى أن ينام وقال : افرشوا لى فوق التَّلْعَةِ ^(٧) الحمراء واضربوا عليها خباءً .

ثم أرسلت إليه : هلمّ شريطتى عليك فى المسائل الثلاث ، فأرسل إليها أن سلى عما شئت . فسألته ؛ فأعجبها جوابه ؛ فقالت : هذا زوجى لعمرى ! فعليكم به ، واقتلوا العبد ؛ فقتلوه ، ودخل امرؤ القيس بالجارية .

فقال ابن هُبَيْرَةَ : حسبكم ! فلا خيرَ فى الحديث فى سائر الليلة بعد حديثك يا أبا عمرو ! ولئن تأتينا بأعجب منه ؛ فقمنا وانصرفنا ، وأمر لى بجائزة !

(١) الجزور : البعير يقيم على الذكر والأنثى (٢) وهو الحامض (٣) السرجين (٤) لحم فى الصلب من السكاهل إلى العجز فى البعير (٥) الصريف : الحليب الحار ساعة يحلب (٦) الرَيْثَةُ : اللبن الحليب يصب عليه اللبن الحامض فيروب من ساعته (٧) التلعة : أرض مرتفعة غليظة يتردد فيها السيل ، ثم يندفع إلى تلعة أسفل منها .

١٤٦ — صَحِيفَةُ الْمُتَلَمَّسِ *

وفد الْمُتَلَمَّسُ^(١) هو وابن أخته طَرْفَةُ بن العبد^(٢) على عمرو بن هِنْد^(٣)، فنزلا منه في خاصَّته، وكانا يركبان معه للصيد، فيركضان طولَ النهار، فيتعبان، وكان يشربُ فيقفان على بابهِ النهار كلَّه لا يصلان إليه؛ فضجر طرفة فقال فيه:

فليتَ لنا مكانَ الملكِ عمرو رَغُونًا^(٤) حَوْلَ قَبْنِنَا نخور

وكان طَرْفَةُ عدوًّا لابن عمه عبد عمرو — وكان كريمًا على عمرو بن هند — فهجاه طَرْفَةُ فقال:

ولا خيرَ فيه غيرَ أنَّ له غنى وأن له كَشْحًا إذا قام أَهْضًا^(٥)
تَظَلُّ نساءَ الحَيِّ يعكفن حوله يَقْلُنَ عَسِيبٌ من سرارةِ مَلْهُمَا^(٦)

فهمَّ عمرو بقتل طَرْفَةَ، وخاف من هجاء التلمس له؛ لأنهما كانا خليلين، فقال لهما: لعلَّكما قد اشتقَّتما لأهلكما، وسرَّ كما أن تنصرفا! فقالا: نعم! فكتب لهما بصحيفتين وختمهما، وقال لهما: اذهبا إلى عاملي بالبحرين، فقد أمرته أن يَصِلَكما بجواز!َا

* بلوغ الأرب: ٣ - ٣٧٤، مجمع الأمثال: ١ - ٣٦٤.

(١) التلمس: لقب غلب عليه، واسمه جرير، وهو خال طَرْفَةَ بن العبد، من شعراء الجاهلية المقلين وضعه، ابن سلام في الطبقة السابعة من شعراء الجاهلية. (٢) طَرْفَةُ: هو أبو عمرو، طَرْفَةُ بن العبد البكري، أحد فحول شعراء الجاهلية. مات أبوه وهو صغير. ورباه أعمامه، ومال إلى البطالة وقول الشعر، ومات ولم تزد سنة على ست وعشرين سنة. (٣) عمرو بن هند: آل إليه الملك بعد قتل أبيه، وقد ولي إمارة الحيرة من سنة ٥٦٣ - ٥٧٨ م. (٤) الرغوث: كل مرضعة. وتخور: تصيح. (٥) الكشع: الخصر، والأهضم: الدقيق. (٦) العسب: جريدة من النخل مستقيمة دقيقة يكشط خوصها، وسرارة الروضة: خير منابتها. وملهم: موضع كثير النخل، شبه كشمحه الأهضم بجريدة نخل من خيار نخل هذا المكان.

فذهبا فمرا في طريقهما بشيخ لم يرُفهما أمرُهُ ؛ فقال المتلمس : ما رأيت شيخاً كالיום
أحق من هذا ! فقال الشيخ : ما رأيت من حق ؟ وإن أحق مني من يحمل حنفة
بيده ، وهو لا يدرى !

فاستراب^(١) المتلمس بقوله ، وطلع عليهما غلام من أهل الحيرة ، فقال المتلمس :
أتقرأ يا غلام ؟ قال : نعم ! ففضّ الصحيفة ، وقرأها فإذا فيها :
« إذا أتاكَ كتابي مع المتلمس فاقطع يديه ورجليه واذهبه حياً » !

فقال لطرفة : ادفع إليه صحيفتك ، فإن فيها مثل هذا ! فقال : كلا ! لم يكن
ليجتري عليّ فقذف المتلمس بصحيفته في نهر الحيرة ، وقال :

وألقيتها بالثني من جنب كافر^(٢) كذلك أقنوا^(٣) كل قط مضلل
رضيت لها بالماء لما رأيتهما يحول بها التيار في كل جدول
ثم مضى المتلمس حتى لحق بملوك بني جفنة بالشام ؛ وذهب طرفة إلى عامل
البحرين ، فأعطاه صحيفته ، فقصده من أكله ؛ فنزف^(٤) حتى مات !

(١) استراب : شك :

(٢) كافر : نهر بالجزيرة . (٣) أقنوا : أجازى وأ. كافي ، والقط : الصك (لسان العرب

— مادة قنا .) (٤) نزف دمه : سال حتى أفرط . والأكل : عرق في اليد يفصد .

١٤٧ — إن العَصَا قُرِعت لَدَى الحِلْمِ *

لَقِيَ النعمانُ بنَ المنذرِ سعدَ بنَ مالك ، ومعه خيلٌ بعضُها يُقاد ، وبعضُها أُعْرَاءٌ مُهْمَلَةٌ ، فلما انتهى إلى النعمان سألَه عنها ، فقال سعدٌ : إني لم أَقْدُ هذه لِأَمْنِها ، ولم أُعَرِّ هذه لِأَضْيَعِها ^(١) .

فسألَه النعمان عن أرضه : هل أصابها غَيْثٌ يَحْمِدُ أثره ، ويروى شجره ؟ فقال سعد : أَمَّا المطرُ فغزيرٌ ، وأما الورقُ فشكيرٌ ^(٢) ، وأما النافذةُ فساهرةٌ ^(٣) ، وأما الحازرةُ ^(٤) فشَبْعِي نائمةٌ .

فقال النعمان — وحسده كلِّ ما رأى من ذَرَبٍ لسانه : وأيِّك إنك لمفوءةٌ ، فإن شئتَ أتيتُك بما تعيا عن جوابه . فقال : شئت ، إن لم يكن منك إفراطٌ .

فأمر النعمان وصيفاً فلطمه — وإنما أراد أن يتعدى في القول فيقتله — فقال : ما جوابُ هذه ؟ فقال سعد : سفيهٌ مأْمورٌ ^(٥) ؛ قال النعمان للوصيف : لَطْمُهُ أخرى . فلطمه ؛ وقال : ما جواب هذه ؟ قال : لوُنهيَ عن الأولى لم يَعدُ للأخرى .

فقال النعمان : الطمهُ أخرى ففعل . فقال : ما جواب هذه ؟ فقال : ربُّ يؤدبُ عبْدَه . فقال : الطمهُ أخرى ، ففعل . فقال : ما جواب هذه ؟ فقال : ملكتَ فأَسْجِجْ ^(٦) ؛ فقال النعمان : أصبتَ فاقعد ؛ فكث عندَه ما مكث .

ثم بدا للنعمان أن يبعثَ رائداً يرتادُ له الكَلأَ ؛ فبعثَ عمرو بنَ مالكَ أخا

* الأمثال : ١ - ٣٣ ، بلوغ الأرب ١ - ٣٣ .

(١) لأهْبِها (٢) شكير : صفيز لم يكبر (٣) النافذة : التي نفذت من الهزال

(٤) الحازرة : حزرة المال : خياره (٥) سارت أمثالا (٦) الإسجاج : حسن الغفو .

سعد بن مالك ، فأبطأ عليه فأغضبه ذلك . فأقسم لئن جاء حامداً للكلأ أو ذاماً ليقتلنه .

فلما قدم عمرو دخل على النعمان ؛ وعنده الناس وسعدٌ قاعدٌ لديه مع الناس ، وكان قد عرف ما أقسم به النعمان من يمينه ؛ فقال سعد : أتأذن لي فأكلمه ؟ قال : إن كلمته قطعت لسانك . قال : فأشير إليه ؟ قال : إن أشرت إليه قطعت يدك . قال : فلأومئ إليه ؟ قال : إذن أنزع حذقتيك . قال : فأقرع له العصا ؟ قال : أقرع .

فتناول عصا من بعض جلسائه فوضعها بين يديه ؛ وأخذ عصاه التي كانت معه وأخوه قائم ؛ فقرع بعصاه العصا الأخرى قرعة واحدة ، فنظر إليه أخوه ، ثم أوماً بالعصا نحوه ، فعرف أنه يقول له : مكانك ، ثم قرع العصا قرعةً واحدة ؛ ثم رفعها إلى السماء ، ثم مسح عصاه بالأخرى ؛ فعرف أنه يقول : قل له : لم أجد جدياً . ثم قرع العصا مراراً بطرف عصاه ثم رفعها شيئاً ؛ فعرف أنه يقول : ولا نباتاً . ثم قرع العصا قرعة ، وأقبل بها نحو النعمان ، فعرف أنه يقول : كله .

فأقبل عمرو بن مالك حتى وقف بين يدي النعمان . فقال له النعمان : هل سمعت خصباً ، أو ذممت جدياً ؟ فقال عمرو : لم أذم جدياً ، ولم أحمد بقلاً ، الأرض مُشكلة لا خصبها يُعرف ، ولا حديها يوصف ، رائدها واقف ، ومنكرها عارف ؛ وآمنها خائف .

فقال النعمان : أولى لك ! بذلك نجوت ، فنجأ !

١٤٨ — فِطْرَةٌ *

اجتمع المهاجرون والأنصار عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال أبو بكر : وعيشك يا رسول الله ما سجدتُ لصنم قط ، فغضب عمر بن الخطاب ، وقال : تقول : وعيشك يا رسول الله ما سجدتُ لصنم قط ، وقد كنت في الجاهلية كذا وكذا سنة ؟ فقال أبو بكر : ذلك أني لما ناهزتُ الحلم أخذني أبو قحافة ^(١) بيدي ، فانطلق بي إلى مخدع فيه الأصنام ، فقال لي : هذه آلهتك الشَّم العوالى ، فاسجدُ لها ، وخلاني وذهب .

فدنوتُ من الصنم ، وقلتُ له : إني جائع فأطعمني ، فلم يجبني . فقلت : إني عطشان فاسقني ، فلم يجبني . فقلتُ له : إني عارٍ فاكسني . فلم يجبني . فأخذتُ صخرة ، وقلت : إني مُلقٍ هذه الصخرة عليك ، فإن كنت إلهاً فامنع نفسك ، فلم يجبني . فألقيت عليه الصخرة ، فخرَّ لوجهه ، فأقبلَ والدي ، وقال : ما هذا يا بني ؟ فقلتُ : هو الذي ترى !

فانطلق بي إلى أُمِّي ؛ فأخبرها ؛ فقالت : دَعَه فهذا الذي ناجاني به الله ! فقلتُ : يا أُمّاه ، ما الذي ناجاك به الله ؟ فقالت : ليلة جاءني الخاض لم يكن عندي أحد ؛ فسمعتُ هاتفاً يهتف ، فأسمع الصوت ولا أرى الشخص ؛ وهو يقول : يا أُمّة الله ، أبشري بالولد العتيق ، اسمه في السماء صديق !

* أنباء نجباء الأنباء : ٤٢ .
(١) أبوه .

١٤٩ — حَدِّبْ عَلَى إِخْوَتِهِ *

لما ولد لسعيد بن العاص ^(١) عمرو ، وترعرع ^(٢) ، تفرّس فيه النجابة ، وكان يفضله على ولده ، فجمع بنيهِ - وكانوا يومئذ أكثر من خمسة عشر رجلاً - ولم يدعُ عمرا معهم ؛ وقال : يا بنيّ ، قد عرفتم خِبرَةَ الوالد بولده ، وإن أخاكم عمرا الذوهمة واعدة ^(٣) ، يسمو جدّه ؛ ويبعد صيته ، وتشدّ شكيمة ، وإني أمركم إن نزل بي من الموت مالا محيص عنه أن تُظَاهِرُوهُ وتوازيروهُ وتعزّزوهُ ، فإنكم إن فعلتم ذلك يتألف بكم الكرام ، ويخسأ ^(٤) عنكم اللثام ، ويلبسكم عِزًّا لا تنهجه ^(٥) الأيّام .

فقالوا جميعاً : إنك تُؤثره علينا ، وتحاييه دوننا . فقال : سأريكم ماستره البغي عنكم ؛ وصرفهم ثم أمهلهم ، حتى ظنّ أن قد ذهلوا عما كان .

وزاهق عمرو البلوغ ، واستدعاهم دونه ، فلما حضروا قال : يا بنيّ ؛ ألم تروا إلى أخيك عمرو ، فإنه لا يزال يُلجِفُ في مسألتي مالى ، فأحسِن عليه لصفره ، إلى أن ستثبت أن أمه باعته على ذلك ، فزجرتها فلم تكف ، وقد جاء يسألني الصنمصة ^(٦) كأن لا ولد لي غيره ، وقد عزمتُ على أن أقسم مالى فيكم دونه !

* أنباء نجباء الأبناء : ٩٩ .

(١) سعيد بن العاص : صحابي من الأمراء الولاة الفاتحين ، ولاء عثمان الكوفة وهو شاب ، وكان قويا فيه تجبر وشدة ، توفي سنة ٥٩ هـ . (٢) ترعرع : شب . (٣) رجبى خيرها ، ويقال شجرة واعدة : إذا ظهر لرائيها أن قد حان لئثارها . (٤) يخسأ : يبعد ويطرد . (٥) لا تخلفه . (٦) الصنمصة : يريد سيف عمرو بن معد يكرب الزبيدي الذي يضرب به المثل ، وكان فيما يقال قد صار إلى سعد بن العاص .

فقالوا كلهم : يا أبانا ، هذا عملك بإيثارك له علينا ، واختصاصك إياه دوننا .
فقال : يا بني ؛ والله ما آثرته دونكم بشيء من مالى قط ، وما كان ما قلته
لكم إلا اختلاقاً ، تساهلت فيه لما أملت من صلاح أمركم .

ثم قال : ادخلوا المخدع . فدخلوا ، ثم أرسل إلى عمرو فأحضره ، فلما حضر
قال : يا بني ؛ عليك حدبٌ مُشْفِقٌ لصغر سنك ، ونفاسة إخوتك على مكانك إني
منى ، وإني لا آمنُ بفتة الأجل ، ولى كنزٌ أدخرته لك دون إخوتك ، وهأنذا
مُطْلِعُكَ عليه ؛ فاكتم أمره .

فقال : يا أبت ؛ طال عمرك ، وعلا أمرك ، وإني لأرجو أن يطيلَ بك الإمتاع ،
فأما ما ذكرته من شأن الكنز ؛ فما يعجبني أن أقطعَ دون إخوتي أمراً ، وأزدرع
في صدرهم غمراً ^(١) .

فقال : انصرف يا بني ، فإدراكُ أبوك ! فوالله مالى من كنز ، ولكنى أردتُ
أن أبلُوَ رأيك فى إخوتك ؛ وبني أبيك .

فانطلق عمرو ، وخرج إخوته من المخدع ، فاعتذروا إلى أبيهم وأعطوه موثقاً
على اتِّباع مشورته !

(١) الغمر : الضغن والحقْد .

١٥٠ - نَافِرُنِي إِلَى فِتَاكَ فَانِهِ نَجِيبُ*

كان العباسُ بن عبد المطلب نديماً لأبي سفيان بن حرب في الجاهلية على شراب ، ومعاوية يسقيهما وهو إذ ذاك غلامٌ ، فلما أخذت الخمرُ منهما تغنى بشعر ابن كعب الخزاعي - وكان قد جاور بني سَهْم في سَنَةٍ شديدة ، وله بنات ، فبرِموا به ، وأظهروا له ذلك ، فخرج عنهم وتحوّل هو وبناته يحملن الأثاث على ظهورهن ؛ فقال :

يَأْيُهَا الرَّجُلُ المَحْوَلُ رَحْلَهُ	هَلَا نَزَلَتْ بِآلِ عَبْدِ مَنْفَا!
هَبْلَتِكَ أُمُّكَ ^(١) لَوْ نَزَلَتْ إِلَيْهِمْ	ضَمْنُوكَ مِنْ جُوعٍ وَمِنْ إِقْرَافٍ ^(٢)
الْأَخْذُونَ الْعَهْدَ مِنْ آفَاقِهَا ^(٣)	وَالظَّاعِنُونَ لِرَحْلَةِ الْإِيْلَافِ
وَالْمَلْحِقُونَ فَقِيرَهُمْ بِغَنِيِّهِمْ	حَتَّى يَعُودَ فَقِيرَهُمْ كَالْكَافِ
وَالرَّائِثُونَ وَلَيْسَ يُوْجَدُ رَأِثُ ^(٤)	وَالْقَائِلُونَ : هَلَمْ لِلْأَضْيَافِ
وَالضَّارِبُونَ الْجِيْشَ يَبْرُقُ بِيضُهُ ^(٥)	وَالْمَانِعُونَ الْبَيْضَ بِالْأَسْيَافِ ^(٦)
عَمْرُو الْعَلَا هَشَمُ الثَّرِيدِ لِقَوْمِهِ ^(٧)	وَرِجَالُ مَكَّةَ مَسْتَنُونَ عِجَافٍ ^(٨)

* أنباء نجيابة الأبناء . ٦٢ .

(١) الهبل : التلف والملاك ، والعرب تطلق هذه الكلمة ونظائرها ، ولا تريد بها شراً ، وقد تجرّبوها مجرى المدح عند استعظام الأمر ، أو تجرّبوها مجرى الخس على الفعل والقول
(٢) الإقراف هنا : تغيير اللحم ، وضوؤة الجسم (٣) أخذوا العهد من ملوك الشام ، والحبشة ، واليمن والعراق ، فتوجهت قريش لتجارتها في هذه الوجوه (٤) الرائثون : الجاعلون لدوى الفاقة ريشاً ، والريش والرياش : أصله اللباس ، ثم استعمل للغطية المطلقة (٥) الأبيض السيف وجمعه بيض (٦) بضعة كل شيء : حوزته (٧) كانت قريش قد أصابها سنة فنالت منهم فارتحل هاشم بن عبد مناف - واسمه عمرو - إلى الشام ، فأوقرعيها من الكعك وقدم بها مكة ، ونحر الإبل وطبخ لحومها ، ثم هشم ذلك الكعك فسمى هاشماً وغلب على اسمه .
(٨) مستنون : أصابهم السنة ، وهى الشدة والمجاعة .

وإذا مَعَدُّ حَصَلَتْ أُنْسَابُهَا فهُمْ لِعَمْرُكُ جَوْهَرُ الْأَصْدَافِ
 نَحَى أَبُو سَفْيَانَ لَمَّا سَمِعَ هَذَا الشَّعْرَ ، وَجَعَلَ يَعْدُدُ مَا ثَرَّ حَرْبِ بْنِ أُمَيَّةَ ؛
 وَمَا ثَرَّ نَفْسَهُ ، وَتَنَاقَلًا^(١) فِي الْمَفَاخِرَةِ إِلَى أَنْ قَالَ لَهُ الْعَبَّاسُ : نَافَرَنِي إِلَى فَتَاكَ
 هَذَا ، فَإِنَّهُ نَجِيبٌ - يَعْنِي مَعَاوِيَةَ . فَقَالَ أَبُو سَفْيَانَ : قَدْ فَعَلْتُ - هَذَا وَهَذَا تَسْمَعُ -
 فَاهْتَبَلْتُ^(٢) الْفُرْصَةَ ؛ وَأَنْشَأَتْ تَقُولُ مَخَاطِبَةً لَائِيهَا مَعَاوِيَةُ :

أَقْضِ - . فَدَتَكَ نَفْسِي - لَّالَ عِبْدِ شَمْسٍ
 فَهُمْ سَرَاةُ الْحُمْسِ^(٤) عَلَى قَدِيمِ الْحَرْسِ^(٥)
 فَقَطَعَ مَعَاوِيَةُ قَوْلَهَا ، وَقَالَ :

صَهْ يَا بَنَّةَ^(٦) الْأَكَارِمِ فَعَبْدُ شَمْسٍ^(٧) هَاشِمٍ
 هُمَا بَرِغَمِ الرَّاعِمِ كَانَا كَغَرْبِنِي^(٨) صَارِمٍ
 فَلَمَّا سَمِعَ الْعَبَّاسُ وَأَبُو سَفْيَانَ مَقَالَ مَعَاوِيَةَ ابْتِدَارَهُ أَيُّهُمَا يَتَنَاوَلُهُ قَبْلَ صَاحِبِهِ ،
 فَتَعَاوَرَاهُ ضَمًّا وَتَقَبِيلًا ، وَافْتَرَقَا رَاضِيَيْنِ .

(١) المناقلة في الكلام : أن يقول هذا مرة وهذا مرة فيتداول الكلام بينهما (٢) المداورة :
 المحاكمة (٣) اهتبلت الفرصة : انتهزتها فبادرت إليها (٤) السراة : جنح سرى ، وسراة
 القوم : خيارهم . والحس : قريش وخزاعة ، وكل من قارب مكة من قبائل العرب (٥) الحرس
 الدهر (٦) صه : أمر بالسكوت (٧) يريد أنهما كالشيء لهما واحد (٨) الغربان : الحدان ،
 والصارم : السيف القطع .

١٥١ — أنا أعلم بقریش من قریش *

لما قَدِمَ معاوية^(١) المدينة منصرفاً من مكة ، بعث إلى الحسن والحسين وعبدالله ابن جعفر ، وعبد الله بن مَعْمَر ، وعبد الله بن الزبير ، وعبد الله بن صفوان بن أمية بهدايا من كساء وطيب وصِلاتٍ من المال ؛ ثم قال لِرِسلِهِ : ليحفظ كلُّ رجلٍ منكم ما يرى ويسمعُ من الرَّدِّ .

فلما خرج الرسلُ من عنده ، قال لمن حَضَرَ : إن شئتم أنبأنا كم بما يكون من القوم ، قالوا : أخبرنا يا أمير المؤمنين . قال : أمّا الحسن فلعله ينيل نساءه شيئاً من الطيب ، ويُنهَبُ ما بَقِيَ من حَضْرَةِ ، ولا ينتظر غائباً .
وأما الحسين فيبدأ بأيتامٍ من قَتَلَ مع أبيه بصِفِّين ، فإن بقي شيءٌ نَحَرَ به الجُزُرَ ، وسقى به اللبن .

وأما عبدُ الله بنُ جعفر فيقول : يا بُدَيْح^(٢) ، اقضِ به ديني ؛ فإن بقي شيءٌ فأنفذ به عِدَاتِي^(٣) .

وأما عبدُ الله بن عمر فيبدأ بفقراء عَدِيّ بن كعب ، فإن بقي شيءٌ ادخره لنفسه ، ومان^(٤) به عياله .

وأما عبدُ الله بن الزبير ؛ فيأتيه رسولٌ وهو يسبح ، فلا يلتفتُ إليه ، ثم

* غيون الأخبار : ٣ - ٤٠ .

(١) أسلم معاوية عام الفتح ، وكتب للنبي صلى الله عليه وسلم وولي الشام لعمر وعثمان عشرين سنة وولي الخلافة سنة ٤١ هـ وتوفي سنة ٦٠ هـ (٢) بديح : اسم مولى كان لعبدالله ابن جعفر (٣) جمع عدة (٤) مانه : قام بكفايته :

يعاوده الرسولُ ، فيقول لبعض كُفّاته : خذوا من رسول معاوية ما بعث به ، وصله
اللهُ وجزاه خيراً ، لا يلتفتُ إليها ، وهي أعظمُ في عينه من أحد ، ثم ينصرف إلى
أهله ، فيعرضها على عينه ، ويقول : ارفعوا ؛ لعل أعودُ بها على ابن هند يوماً ما .
وأما عبدُ الله بن صفوان فيقول : قليلٌ من كثير ، وما كلُّ رجلٍ من قريش
وصلَ إليه كهذا ، ردّوا عليه ؛ فإن ردّ قبيلناها .
فرجع رسله من عندهم بنحو مما قاله معاوية . فقال معاوية : أنا ابنُ هند !
أعلمُ بقريش من قريش .

١٥٢ - أَوْقَدَ جِثْنِي سَالِماً*

لَمَّا أَسَنَّ معاوية^(١) اعتراه أَرْقٌ ؛ فَكَانَ إِذَا هَوَّمَ^(٢) أُبْقِظْتُهُ نَوَاقِيسَ الرُّومِ ،
فَلَمَّا أَصْبَحَ يَوْمًا ، وَدَخَلَ عَلَيْهِ النَّاسُ ، قَالَ : يَا مَعْشَرَ الْعَرَبِ ؛ هَلْ فِيكُمْ فَتًى يَفْعُلُ
مَا آمُرُهُ ، وَأَعْطِيهِ ثَلَاثَ دِيَّاتٍ أَعْجَلُهَا لَهُ ، وَدِيَّتَيْنِ إِذَا رَجَعَ ؟ فَقَامَ فَتًى مِنْ غَسَّانٍ
فَقَالَ : أَنَا يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ .

قَالَ : تَذْهَبُ بِكِتَابِي إِلَى مَلِكِ الرُّومِ ، فَإِذَا صَرْتَ عَلَى بَسَاطِهِ أَذْنْتُ ! قَالَ :
ثُمَّ مَاذَا ؟ قَالَ : فَقَطْ . فَقَالَ : لَقَدْ كَلَفْتَ صَغِيرًا وَأَتَيْتَ كَبِيرًا !
فَكَتَبَ لَهُ وَخَرَجَ ؛ فَلَمَّا صَارَ عَلَى بَسَاطٍ قَيَّصَرَ أَذْنٌ ؛ فَتَنَاجَزَتْ^(٣) الْبَطَارِقَةُ ،
وَاخْتَرَطُوا^(٤) سَيُوفَهُمْ ؛ فَسَبَقَ مَلِكُ الرُّومِ ، لَجْنَا عَلَيْهِ ، وَجَعَلَ بِسَالِمِهِمْ بِحَقِّ عَيْسَى
وَبِحَقِّهِ عَلَيْهِمْ أَنْ يَكْفُؤُوا .

ثُمَّ ذَهَبَ بِهِ حَتَّى صَعَدَ عَلَى سَرِيرِهِ ، ثُمَّ جَعَلَهُ بَيْنَ يَدَيْهِ ؛ ثُمَّ قَالَ : يَا مَعْشَرَ
الْبَطَارِقَةِ ؛ إِنْ مَعَاوِيَةَ رَجُلٌ قَدْ أَسَنَّ ، وَقَدْ أَرِقَ ، وَقَدْ آذَنَتْهُ النَّوَاقِيسُ ؛ فَأَرَادَ أَنْ
تَقْتَلَ هَذَا عَلَى الْأَذَانِ ، فَيَقْتُلَ مَنْ قَبْلَهُ مِنَّا بِيْلَادِهِ عَلَى النَّوَاقِيسِ ؛ وَاللَّهِ لَيَرْجِعَنَّ إِلَيْهِ
بِخِلَافٍ مَا ظَنَّ . فَكَسَاهُ وَحَمَلَهُ ؛ فَلَمَّا رَجَعَ إِلَى مَعَاوِيَةَ قَالَ : أَوْقَدَ جِثْنِي سَالِماً ؟
قَالَ : نَعَمْ .

* عيون الأخبار : ١ - ١٩٨ .

(١) أسن : كبرت سنه . (٢) التهويم : هز الرأس من النعاس . (٣) الناجزة : المقاتلة .

(٤) اخترط السيف : استله .

١٥٣ — الأحنف يفهم معاوية*

جلس معاوية يوماً ، وعنده وجوهُ الناس ، وفيهم الأحنف^(١) ؛ فدخل رجلٌ من أهل الشام ، فقام خطيباً ، فكان آخرَ كلامه أن لن علياً رضى الله عنه ، فأطرق الناس ، وتكلم الأحنف ، فقال : يا أمير المؤمنين ؛ إن هذا القائل لو علم أن رضاك في لعنِ المرسلين لعنهم ، فاتقِ الله ، ودعْ علياً ؛ فقد لقي الله ، وأُفرد في حُفْرَتِهِ ، وخلا بعمله ، وكان والله - ما علمنا - الطاهرَ في خُلُقِهِ ، الميمونَ النقيية ، العظيمِ المصيبة .

قال معاوية : يا أحنف ؛ لقد أغضبتَ العينَ على القذى ، وقلتَ بغير ما ترى ، وایم الله لتَصْعَدَنَّ النبر فلتَلْعَنَهُ طائفاً أو كارهاً !

فقال الأحنف : إن تُعَفِّني فهو خيرٌ ، وإن تجبرني على ذلك فوالله لا تجبرني به شفتای !

فقال معاوية : قم فاصعد ! قال : أما والله لأُصَفِّنكَ في القولِ والفعل .
قال معاوية ، وما أنت قائل إن أنصفتني ؟ قال : أصددُ فأحدُ الله وأثنى عليه ، وأصلى على نبيه ، ثم أقول : أيها الناس ؛ إن معاوية أمرني أن ألعنَ علياً ، ألا وإن علياً ومعاوية اختلفا واقتتلا ، وادَّعى كل واحد منهما أنه مَبْعِيٌّ عَليه وعلى فتنه ؟ فإذا دعوتُ فأمنوا رحمكم الله ، ثم أقول :

* نهاية الأرب ٧ : ٢٣٧ .

(١) الأحنف بن قيس : هو الضحاك بن قيس سيد تميم ، وأحد العظماء الدهماء الفصحاء الشجعان الناحين ؛ بضرب به المثل في الحلم ، ولد بالبصرة ، وتوفي سنة ٦٧ هـ .

اللهم العن أنت وملأكتك وأنبيائك ورسلك وجميع خلقك الباغيَ منهما على صاحبه والفتنةَ الباغيةَ على المبغىِّ عليها ، آمين يارب العالمين !
فقال معاوية : إذَنْ نَعْفِيكَ يَا أَبَا بَحْرٍ ^(١) !

١٥٤ - نُوطَى عَلَيْهِ يَأْمُرُ بْنُ التَّمَامِ *

كان لمعاوية ولد مضعوف ^(٢) اسمه عبد الله ، فبينما معاوية جالس مع أم عبد الله مرت بهما أم يزيد - وهي مَيْسُون بنت بَحْدَل الكلبية - فهزئت بها أم عبد الله ، فقال معاوية : أما والله إن ولدها خيرٌ من ولدك . فقالت : لا والله ، ولكنك تحبُّ ولدها وتحاييه ، فقال : سأريك ذلك عياناً . ثم أرسل إلى ابنها فجاء ، فقال له : يا عبد الله ، إني قاض لك كلَّ حاجة فاذا ذكر حوائجك كائنة ما كانت ، فقال : يا أمير المؤمنين ، اشتر لي حماراً ، فقال له : يا بني ، أنت حمار ، وأشترى لك حماراً ؟
ثم استحضر يزيد ، فلما حضر قال : يا بني ، إن أمير المؤمنين قد بسط لك أمله ، فاذا ذكر حاجتك إن كانت لك حاجة . فاستقبل القبلة ، ثم رفع رأسه ، وقال : الحمد لله على جميل رأى أمير المؤمنين فيّ ، ثم قال : يا أمير المؤمنين ، اجعل لي العهد ! فقال معاوية : نعم ونعام ^(٣) عين ، وليتَّك عهدي .

فسجد وحمد الله سبحانه ، فقال معاوية : هل غير هذا ؟ قال : نعم يا أمير المؤمنين ، تزيد كل رجل من أهل الشام عشرة دنانير في عطائه ، وتعلمهم أن ذلك بشفاعتي . قال : قد فعلت . فهل غير هذا ؟ قال : نعم يا أمير المؤمنين ، يفرِّض أمير المؤمنين

* أنباء نجباء الأبناء : ١٠٥ .

(١) كنية الأخف . (٢) المضعوف : ما أضعف من شيء . (٣) العرب تقول : نعم ، ونعام عين : أى أفضل ذلك كرامة لك .

لأولاد من قُتل معه بضيقين وغيرها : قال : قد فعلتُ . فهل غير هذا ؟ فحمد يزيد الله تعالى ، ثم قال : نعم ، ويجعل أمير المؤمنين غزوَ هذا العام إلى ، لأفتح أمرى بتجهيز الجيوش في سبيل الله تعالى . قال : قد فعلت .

فلما رأت أمُّ عبد الله أن يزيد قد حصل على الخلافة قالت : إن أمير المؤمنين أعلم وأهدى لولده ، فأوصه بي و بولدى يا أمير المؤمنين ، ثم قام يزيد يدعو لوالده وهو مُولٍ ، فتمثل - معاوية بقول القائل :

إذا مات لم تُفْلِحْ مزينة بعده فنُوطي^(١) عليه يأمُزِين النامِ

(١) ناط الشيء ينوطه : علقه .

١٥٥ - ذكاء ابن عباس *

بيننا ابن عباس^(١) في المسجد الحرام ، وعنده نافع بن الأزرق وناس من الخوارج يسألونه ، إذ أقبل عمر بن أبي ربيعة في ثوبين مصبوغين موزَّدين حتى دخل وجلس ، فأقبل عليه ابن عباس ، فقال : أنشدنا ، فأنشده :

أَمِنْ آل نَعْمٍ أَنْتَ غَادٍ فَمُبَكِّرُ غَدَاةٍ غَدِ أَمْ رَاحٍ فَهَجَرٌ^(٢)
حتى أتى على آخر القصيدة ، فأقبل عليه نافع بن الأزرق فقال : الله يا ابن عباس ! إنا نضرب إليك أكباد الإبل من أقاصي البلاد نسألك عن الحلال والحرام فتتناقل عنا ، ويأتيك غلامٌ مُتَرَفٌ من مُتَرَفِي قريش فينشدك :

رَأَيْتَ رَجُلًا أَمَّا إِذَا الشَّمْسُ عَارَضَتْ فَيَخْزَى وَأَمَّا بِالْعَشِيِّ فَيَخْسَرُ
فقال : ليس هكذا قال . قال : فكيف قال ؟ فقال قال :

رَأَيْتَ رَجُلًا أَمَّا إِذَا الشَّمْسُ عَارَضَتْ فَيَضْحَى وَأَمَّا بِالْعَشِيِّ فَيَخْصَرُ^(٣)
قال : ما أراك إلا وقد حفظت البيت ! قال : أجل ! وإن شئت أن أنشدك القصيدة أنشدتك إياها ، قال : فإني أشاء ، فأنشده القصيدة حتى أتى على آخرها وما سمعها قط إلا تلك المرة صفحاً^(٥) .

* الأغاني : ١ - ٧٧ .

(١) هو ثاني ولد العباس بن عبد المطلب ، توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم وسنه ثلاث عشرة سنة ، وكان عليه السلام يحبه ودعا له فقال : اللهم علمه التأويل ، فكان أعلم الناس بآيات القرآن وتأويلها والفقه في الدين على ما أُوتيه من لسان طلق ذلك ، توفي سنة ٦٨ هـ .
(٢) هجر : سار في الهجرة ، والهجرة : شدة الحر . (٣) يضحى : يظهر للشمس ، وعارضت : قابلت ، ويخصر : يبرد . (٤) كان ابن عباس يقول : ما سمعت شيئاً قط إلا رويته ، ولأنى لأسمع صوت النائحة فأسد أذنى كراهة أن أحفظ ما تقول . (٥) صفحا : مرورا .

١٥٦ — عمران بن حطان ينتقل في القبائل *

لما أطرد^(١) الحجاجُ عمران^(٢) بن حطان كان ينتقل في القبائل ، فكان إذا نزل في حيٍّ انتسبَ نسباً يقربُ منه .

ثم خرج حتى نزلَ عند رَوْح بن زِنْبَاع^(٣) الجذاميّ ، فانتسبَ له من الأزد ؛ وكان رَوْح يقرى الأضيافَ ، وكان مسامراً لعبد الملك بن مروان ، أثيراً^(٤) عنده ؛ وكان رَوْح لا يسمعُ شعراً نادراً ، ولا حديثاً غريباً عندَ عبد الملك ثم يسألُ عنه عمران بن حطان إلا عرفه وزاد فيه . فذكر ذلك لعبد الملك ، فقال : إن لي جاراً من الأزد ما أسمعُ من أمير المؤمنين خيراً ولا شعراً إلا عرفه وزاد فيه ! فقال : خبرني ببعض أخباره ؛ فخبّره وأنشده ؛ فقال : إن اللغةَ عدنانية ، وإنّي لأحسبه عمران بن حطان !

ثم تذاكروا ليلة قول^(٥) عمران بن حطان يمدح ابن ملجَم^(٦) :
ياضربة من تقي ما أراد بها إلا ليبلغ من ذى العرشِ رضوانا
إني لأذكره حيناً فأحسبه أو في البرية عند الله ميزانا

* رغبة الآمل : ٧ - ٨٤ ، الكامل : ٢ - ١٠٨

(١) أطرده أمر بطرده ، وإخراجه عن البلد . (٢) كان عمران بن حطان رجل علم وحديث أدرك صدرًا من الصحابة وروى عنهم ، ولما قام الخلاف بين أصحاب علي تزعّم فرقة من الخوارج اسمها التمدد ، وأصبح خطيبها وشاعرهما ، ومات سنة ٨٤ هـ بالكوفة . (٣) أمير فلسطين قاله عبد الملك بن مروان عنه : إنه جم طاعة أهل الشام ودهاء أهل العراق وفقه أهل الحجاز ، توفي سنة ٨٤ هـ . (٤) أثيراً : مكروماً عنده . (٥) قلبه الفقيه الطبري فقال :

ياضربة من شق ما أراد بها إلا ليهدم من ذى العرش بنيانا
إني لأذكره يوماً فألعنه ليهبها وألعن عمران بن حطانا

(٦) ابن ملجَم : قاتل علي بن أبي طالب .

فلم يدرِ عبد الملك لمن هو ! فرجع رَوْح إلى عمران فسأله عنه ! فقال : هذا
يقوله عمران بن حِطان يمدح به عبد الرحمن بن مُلْجَم قاتل علي بن أبي طالب .
فرجع رَوْح إلى عبد الملك ، فأخبره ، فقال له : عبد الملك : ضيفك عمران
ابن حِطان ! اذهب فبجئني به ؛ فرجع إليه ، فقال له إن أمير المؤمنين قد أحبَّ أن
يرَّاك . قال عمران : قد أردت أن أسألك ذلك ، فاستحييتُ منك فامضِ ، فإني
بالأثرِ ، فرجع رَوْح إلى عبد الملك فأخبره ، فقال عبدُ الملك : أما إنك سترجع فلا
تجده ؛ فرجع وقد ارتحل عمران ؛ وخلف رُقعة فيها :

يا رَوْح كم من أخى مثوى^(١) نزلتُ به قد ظنَّ ظنَّكَ من ظلمٍ وغسانٍ
حتى إذا رَحَقَتْه فارقتُ منزلهُ من بعدِ ما قيلَ عمرانُ بن حِطان !
قد كنتُ جاركَ حولاً ماتروُغنى فيه روائع^(٢) من إنسٍ ومن جان
حتى أردتَ بيَ العُظمى^(٣) فأدرَ كنَى ما أدركَ الناسَ من خوف ابن مروان
فاعذِرْ أخاك - ابنَ زُبَاج - فإن له في النائباتِ خطوباً^(٤) ذات ألوان
يوماً^(٥) يمانٍ إذا لاقيتُ ذا يمنٍ وإن لقيتُ معدياً فعدتاني
لو كنتُ مستغفراً يوماً لطاغية^(٦) كنتَ المقدمَ في سرى وإعلاني
لكن أبت^(٧) لي آياتٌ مُطهرةٌ عند الولاية في طه وعمران

(١) المثوى : منزل الضيافة ، وأخى : صاحب ، وظن ظك : رأى رأيك من أنى رجل هين .
ولجئ وغسان : من اليمن من كهلاء (٢) الروح : الخوف ، والواحدة رائعة
(٣) العظمى : لقاء عبد الملك ، إذ كان حربياً على الخوارج (٤) الخطوب : الأمور العظيمة
(٥) يقول : أنا يوما يمان على الرفع ، يريد أنه متنقل (٦) أى لنفس طاغية : أو يريد بالطاغية
المذكور وزاد التاء للتوكيد والمبالغة كراوية وعلامة ونسابة . والطاغية : الجبار (٧) أبت لي :
منعتني الاستغفار لك . وطه وعمران : سورتان في القرآن ، وكانت الخوارج يعتقدون أن غيرهم
على ضلال .

ثم ارتحل حتى نزل بزفر بن الحارث الكلبي أحد بني عمرو بن كلاب ،
فانتسب له أوزاعياً^(١) ، وكان عمران بطيل الصلاة ؟ وكان غلمان من بني عامر
يضحكون منه . فأتاه رجل يوماً ممن رآه عند رُوح بن زنباع ، فلم عليه ، فدعاه
زُفر ، فقال : من هذا ؟ قال : رجل من الأزدرأيتته ضيفاً لروح بن زنباع . فقال له
زُفر : يا هذا ، أزدياً مرة وأوزاعياً مرة ! إن كنت خائفاً أمتاك ، وإن كنت
فقيراً جبرناك .

فلما أمسى هرب ، وخلف في منزله رقعة فيها :

إِنَّ الَّتِي أَصْبَحْتُ بَعِيًا بِهَا زُفَرُ	أُعَيْتَ عِيَاءً ^(٢) عَلَى رُوحِ بْنِ زَنْبَاعٍ
مَا زَالَ يَسْأَلُنِي حَوْلًا لِأَخْبَرَهُ	وَالنَّاسُ مِنْ بَيْنِ مَخْدُوعٍ ^(٣) وَخُدَّاعٍ
حَتَّى إِذَا انْقَطَعَتْ ^(٤) عَنِّي وَسَائِلُهُ	كَفَّ السُّؤَالَ وَلَمْ يُوَلِّعْ بِإِهْلَاعٍ ^(٥)
فَاكْهَفْتُ كَمَا كَفَّ عَنِّي ، إِنِّي رَجُلٌ	إِمَّا صَمِيمٌ ^(٦) ، وَإِمَّا قَقْمَةُ الْقَاعِ
وَإِكَفَفْتُ لِسَانَكَ عَنْ نَوْمِي وَمَسْأَلَتِي	مَاذَا تَرِيدُ إِلَى شَيْخٍ لِأَوْزَاعٍ ^(٧) ؟
أَمَا الصَّلَاةُ فَإِنِّي غَيْرُ تَارِكِهَا	كُلَّ أَمْرٍ لِّلَّذِي يُعْنَى بِهِ سَاعٍ
أَكْرِمُ بَرَّوحَ بْنَ زَنْبَاعٍ وَأُسْرَتَهُ	قَوْمٌ دَعَا أَوْلِيَهُمْ ^(٨) لِلْعُلَا دَاعٍ
جَاوَرْتُهُمْ سَنَةً فِيمَا أُسْرْتُ بِهِ	عَرَضِي صَحِيحٌ وَنَوْمِي غَيْرُ تَهْجَاعٍ ^(٩)
فَاعْمَلْ ، فَإِنَّكَ مَنَعِي ^(١٠) بِوَاحِدَةٍ	حَسْبُ اللَّيْلِ بِهَذَا الشَّيْبِ مِنْ نَاعٍ

(١) أوزاعي : نسبة إلى أوزاع بطن من همدان (٢) يعياها : يعجز عنها . وأعيت عليه :
أعجزته ، والمراد معرفة ذاته . (٣) مخدوع : مصدق لما أقول ، وخداع : عتال .
(٤) انقطعت عني وسائله : الوسائل جمع وسيلة وهي الطريقة والسبب (٥) إيهلاعي : بافراعي
وترويعي (٦) الصميم : الخالص من كل شيء ، أي من خالص قومه . ويقال لمن لا أصل له :
هو ققمة بقاع ، وذلك لأن الققمة لا عروق لها ولا أغصان . والققمة : السكامة البيضاء ، والقاع :
أرض سهلة (٧) الأوزاع : الجماعات وبطن من همدان (٨) أوليهم : جمع أول أي آبائهم
أجداد . (٩) تهجاع : نوم خفيف (١٠) منعي بواحدة : مخبر بوقاكتك .

ثم ارتحل حتى أتى عُمان ؛ فوجدهم يُعْظَمُونَ أمرَ أبي بلال ويطهرونه ، فأظهر أمره فيهم ؛ فبلغ ذلك الحجاج ، فكتب إلى أهل عمان ، فارتحل عُمرانُ هارباً حتى أتى قوماً من الأزد فلم يزل فيهم حتى مات ، وفي نزوله بهم يقول :

نزلنا بحمد الله في خير منزلٍ	نُسِرُ بما فيه من الأنسِ ^(١) والخفرِ
نزلنا بقوم يجمعُ اللهُ شملهم	وليس لهم عودٌ سوى المجدِ يُعْتَصِرُ
من الأزدِ إن الأزدَ أكرمُ معشرٍ	يمانٍ طابوا إذا نُسِبَ البشرُ
فأصبحتُ فيهم آمناً لا كمعشرٍ	أتوني فقالوا: من ^(٢) ربيعة أم مضر؟
أم الحى قحطانٍ فتلكم سفاهةٌ	كما قال لى رَوْحٍ وصاحبه زفرُ
وما منهما ^(٣) إلا يسرٌ بنسبةٍ ^(٤)	تقربني منه وإن كان ذا نفرِ
فنحنُ ^(٥) بنو الإسلام والله واحدٌ	وأولَى عباد الله بالله من شكرِ!

(١) أصل الخفر شدة الحياء . يقال امرأة خفرة : إذا كانت مستترة لاستحيائها
(٢) يريد : أمن ربيعة أم من مضر ؟ (٣) واما منهما واحد، غذف لعم الخاطب (٤) النسبة : بالضم والكسر : النسب (٥) يقول : انقطعت الولاية إلا ولاية الإسلام لأن ولاية الإسلام قد قاربت بين الغرباء . والله يقول : «إنا المؤمنون إخوة» .

١٥٧ — دهاء عمارة بن تميم اللخمي*

كان الحجاج حسوداً لا تتمُّ له صنعةٌ حتى يفسدَها ، فوجَّه عمارة بن تميم اللخمي إلى عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث ؛ فظفر به ، وصنع به ما صنع ، ورجع إلى الحجاج بالفتح ، فلم ير منه ما أحب ، وكره مُنافرته ، وكان عاقلاً رفيقاً ، فجعل يترفق به ويداريه ، ويقول : أنت — أيها الأمير — أشرفُ العرب ، فمن شرفته شرف ، ومن وضعته اتضع ، ومن ينكرُ ذلك ، مع رفيك ويمينك ومشورتك ورأيك ؟ وما كان هذا كله إلا بصنع الله عز وجل وتديرك ، وليس أحدٌ أحقَّ بشكر صنيعك مني ، ومن ابنُ الأشعث ؟ وما خطره ؟

ثم عزم الحجاج على المضى إلى عبد الملك فأخرج عمارة معه ، فلم يزل يُلطفه بالحجاج في مسيره ، ويعظِّمه ، حتى قدموا على عبد الملك

فلما قامت الخطباء بين يديه ، وأثنت على الحجاج ، قام عمارة ، فقال : يا أمير المؤمنين ، سل الحجاج عن طاعتي ومُناصحتي وبلائي ! فقال الحجاج : يا أمير المؤمنين ، صنع وصنع ، ومن بأسه ونجدته وعقله ومكيدته كذا وكذا ، هو أئمنُ الناس نقيية ، وأعلمهم بتدبير وسياسة ، ولم يُبقي غايةً في الثناء عليه .

فقال عمارة : أَرْضِيتَ يا أمير المؤمنين ؟ قال : نعم ! فرضى الله عنك ، حتى قالها ثلاثاً ، في كلها يقول : قد رضيت !

فقال عمارة : فلا رضى الله عن الحجاج يا أمير المؤمنين ، ولا حفظه ولا عافاه ، فهو - والله - السيئ التدبير ، الذى قد أفسد عليك أهل العراق ، وألبَّ عليك الناس ، وما أوتيت إلا من قلة عقله ، وضعف رأيه ، وقلة بصره بالسياسة . ولك والله أمثالها ، إن لم تعرله .

فقال الحجاج : مه يا عمارة ! فقال : لأمه ولا كرامة يا أمير المؤمنين ! كل مملوك له حرٌّ إن سار تحت راية الحجاج أبداً ! فقال عبدُ الملك : ما عندنا أوسع لك !

فلما انصرف عمارة إلى منزله بعث إليه الحجاج وقال له : أنا أعلم أنه ماخرج هذا عنك إلا عن معتبة ^(١) ، ولك عندى العُتْبَى ^(٢) ، ولك ولك ! فأرسل إليه : ما كنت أظن أن عقلك على هذا ! أرجعُ إليك بعد الذى كان من طعنى وقولى عند أمير المؤمنين ! لا ، ولا كرامة لك .

(١) المعتبة : العتاب .

(٢) العتبى : الرضا .

١٥٨ — كيف رأيتمُ فرَاسِتي في الأعرابي *

قدم على الحجاج ابنُ عم له من البادية ، فنظر إليه يولِّي الناس ؛ فقال له :
أيها الأمير ؛ لم لا تُؤَلِّني بعضَ هذا الخضر ؟ فقال الحجاج : هؤلاء يكتبون ويحسبون
وأنت لا تحسبُ ولا تكتب !

فغضب الاعرابي ، وقال : بلى ، إني لأحسبُ منهم حسَباً^(١) ، وأكتبُ منهم
كتباً ! فقال الحجاج : فإن كان كما تزعمُ فاقسم ثلاثة دراهم بين أربعة أنفس ، فما
زال يقول : ثلاثة دراهم بين أربعة ؛ ثلاثة بين أربعة ، لكل واحد منهم درهم يبقى
الرابع بلا شيء ! كم هم أيُّها الأمير ؟ قال : هم أربعة ، قال : نعم ! أيها الأمير ، قد
وقفتُ على الحساب ، لكل واحد منهم درهم ، وأنا أعطى الرابعَ منهم درهماً من
عندي ! وضرب بيده إلى تَكْتِه^(٢) ، فاستخرج منها درهماً ، وقال : أيكم الرابع ؟
فو الله ما رأيته كالיום زوراً مثل حساب هؤلاء الخضرِ بين !

فضحك الحجاج ومن معه ، وذهب بهم الضحكُ كلَّ مذهب ، ثم قال
الحجاج : إن أهل أصبهان أخرؤا خراجهم ثلاث سنين ، كلما أتاهم والٍ أعجزوه ،
فلأرسينهم بهذا ، فأخلق به أن يُنْجَب !
فكتب له عَهْدَه على أصبهان !

فلما خرج استقبله أهل أصبهان واستبشروا به وأقبلوا عليه يقبلون يده ورجله
وقالوا : أعرابي بدوي ! ما يكون منه !

* المسعودي : ٢ - ١٦٠

(١) حساباً . (٢) التكة : رباط السراويل .

فلما أكترو عليه ، قال : أما يشغلكم ما أخرجني له الأمير ؟
فلما استقرّ في داره بأضبهان جمع أهلها ، فقال : مالكم تمصون ربكم وتفضبون
أميركم ، وتنفصون خراجكم ؟ فقال قائلهم : جورٌ من كان قبلك ، وظلم من
ظلم ! قال : فما الأمر الذي فيه صلاحكم ؟ فقالوا تؤخرنا بالخراج ثمانية أشهر ،
ونجمعه لك ! قال : لكم عشرة وتأتوني بعشرة ضمنا .

فأتوه بهم ، فلما توثق منهم أمهاتهم ؛ وكلما قرّب الوقت رآهم غير مكترئين
لما ندّبوا^(١) إليه من الأجل ! وطال به ذلك ، فجمع الضمنا ؛ وقال لهم : المال ! فقالوا :
أصابنا من الآفة ما نقض ذلك !

فلما رأى ذلك منهم آلى ألا يفطر - وكان في شهر رمضان - حتى يجمع ماله
أو يضرب أعناقهم !

ثم قدّم أحدهم وضرب عنقه ، وكتب عليه . فلان ابن فلان أدّى ما عليه !
وجعل رأسه في بدرة^(٢) ، وختم عليها ! ثم قدّم الثاني ففعل به مثل ذلك !

فلما رأى القوم الرهوس تجزّ ، وتجعل في الأكياس بدلا من البدر ، قالوا :
أيها الأمير ؛ توقف علينا حتى نحضر لك المال ؛ ففعل ، فأحضروه في أسرع وقت !
فبلغ ذلك الحجاج فقال . إنا معاشر آل محمد - يعني جدّه - ولدنا نجيب ،
فكيف رأيتم فراستي^(٣) في الأعرابي ؟ !

ولم يزل واليا عليها حتى مات الحجاج !

(١) ندب القوم إلى الأمر ندباً : دعاهم وحشهم . (٢) البدر : كيس يوضع فيه عشرة آلاف درهم . (٣) الفراسة : البصر بالشئ والعلم به .

١٩٥ — من بدائه الشعراء *

أتى سليمان بن عبد الملك ^(١) بأسارى ، وكان الفرزدق حاضراً ، فأمره سليمان بضرب واحدٍ منهم فاستعفاه فأبى ، وقد أُشير إلى سيفٍ غير صالح للضرب ليستعمله فقال الفرزدق : بل أضربُ بسيفِ أبى رَغْوَان ^(٢) سيفٍ مُجَاشِعٍ — يعنى نفسه — وكأنه قال : لا يَسْتَعْمِلُ ذلك السيفَ إلا ظالم أو ابنُ ظالم ، ثم ضرب بسيفه الأسير ، واتفق أن نبا السيف ، فضحك سليمان ومن حوله ؛ فقال الفرزدق :

أعجبُ الناسُ أن أضحكتُ سِدِّعَهُم خليفة الله يُسْتَسْقَى به المطرُ
لم ينبُ ^(٣) سيفي من رُغْبٍ ولا دَهْشٍ عن الأسير ، ولكن آخر القَدَرُ
ولن يقدمَ نفساً قبل ميّتها جمعُ اليدين ولا الصَّمْصامة ^(٤) الذِّكْرُ
ثم أغمد سيفه وهو يقول :

ما إن يُعَابَ سيدٌ إذا صَبَا ولا يُعَابَ صارمٌ إذا نبا
ولا يعاب شاعرٌ إذا كبا

ثم جلس يقول : كَأَنى بَابِنِ المَرَاغَةِ ^(٥) قد هجاني ، فقال :

بسيفِ أبى رَغْوَانِ سيفٍ مُجَاشِعٍ ضربت ولم تضرب بسيفِ ابنِ ظالم

* أدب الدنيا والدين : ٧ ، بلوغ الأرب : ١ - ٢٠ .

(١) بويع سليمان بن عبد الملك بالخلافة سنة ٩٦ هـ ، وكان فصيحاً لبقاً ، كما كان غيوراً شديداً الفيرة ، اتسمت الفتوح في أيامه وتوفى سنة ٩٩ هـ . (٢) رَغْوَان : لقب مجاشع بن دارم بن مالك بن حنظلة ، لقب به لفصاحته وجهارة صوته . ويقال : قالت امرأة سمعت : ما هذا إلا يرغوء ، فلعب رَغْوَان . (٣) لم ينب : لم يكل عن الضريبة . (٤) الصَّمْصامة : السيف لا يثني ، والدكر أبيض الحديد وأجوده وأشده . (٥) يريد جرير .

وقام وانصرف .

وحضر جرير ، فخبّر الخبر ، ولم يُنشد الشعر ، فأنشأ يقول :

بسيف أبي رغوان سيف مجاشع ضربت ولم تضرب بسيف ابن ظالم
فأعجب سليمان ما شاهد ! ثم قال جرير : يا أمير المؤمنين ، كأنى بابن القَيْنِ^(١)
قد أجابني فقال :

ولا تقتل الأسرى ، ولكن نفكّهم إذا أثقل الأعناق حملُ المغارم
ثم أخبر الفرزدق بالهَجْوِ دون ماعداه ، فقال مجيباً :

كذلك سيوفُ الهند تنبؤُ ظلماتها^(٢) وتقطعُ أحياناً منَاطَ السِّمائمِ
ولن تقتل الأسرى ولكن نفكّهم إذا أثقلَ الأعناق حملُ المغارم
وهل ضربةُ الروميِّ جاعلةٌ لكم أباً عن كليب أو أخاً مثل دارم
وشاع حديثُ الفرزدق بهذا حتى كان زمان المهدي^(٣) ، فأَتى بأسرى من
الروم ، وأمر بقتلهم - وكان عنده شيب^(٤) بن شيبة - فقال له : اضرب عنق هذا
العلج^(٥) ، فقال : يا أمير المؤمنين ، قد عَلِمْتُ ما ابتلى به الفرزدق فعُيِّرَ به قومه إلى
اليوم . فقال : إنما أردتُ نشريفك وقد أعفيتك . وكان شاعر حاضراً فقال :

جزعتَ من الروميِّ وهو مقيّدٌ فكيف ولولا قيّته وهو مُطلقُ
دعاك أميرُ المؤمنين لقتلَه فكاد شيبٌ عند ذلك يفرّق^(٦)
ففتح شيباً عن قراعِ كتيبةٍ وأذن شيباً من كلام يلفّقُ

(١) القَيْن : العبد والحداد ، وهو يريد الفرزدق (٢) الظاية : جمع ظبة ، وهي حد السيف .

(٣) انظر صفحة ٢٦٢ (٤) خطيب البصرة في زمانه ، كان في حاشية المهدي حينما كان ولياً

للمهد وبقي كذلك حتى ولي الخلافة فكان من سماره المقرين ، توفي سنة ١٧٠ هـ .

(٥) العلج : الواحد من كفار الججم (٦) يفرق : يخاف .

١٦٠ - قوة حجة *

كتب عمر بن عبد العزيز إلى عدى بن أرطاة^(١) : أن اجمع بين إياس^(٢) ابن معاوية والقاسم بن ربيعة الجوشنى ، فولّ القضاء أنفذهما .
فجمع بينهما ، فقال له إياس : أيها الرجل سل عنى وعن القاسم فقيهى البصرة : الحسن البصرى ، وابن سيرين .
وكان القاسم يأتى الحسن وابن سيرين ، وكان إياس لا يأتيهما ، فعلم القاسم أنه إن سألهما عنه أشارا به ؛ فقال : لا تسأل عنى ولا عنه ؛ فوالله الذى لا إله إلا هو ، إن إياس بن معاوية أفتقه منى وأعلم بالقضاء . فإن كنت كاذباً فما ينبغى أن تولينى ، وإن كنت صادقاً فينبغى لك أن تقبل قولى !
فقال له إياس : إنك جئتَ برجلٍ فأوقفتَه على شفير جهنم ، فنجى نفسه منها يمين كاذبة ، يستغفرُ اللهَ منها ، وينجو مما يخاف .
فقال له عدى : أما إذ فهمتها فأنت لها ، فاستقضاه .

* العقد الفريد : ١ - ١١ .

(١) عدى بن أرطاة : أمير من أهل دمشق كان من القلاء الشجعان ، ولاء عمر بن عبد العزيز البصرة ، وقتل سنة ١٠٢ هـ (٢) هو من مزينة ، ولاء عمر بن عبد العزيز قضاء البصرة وكان صادق الظن لطيفاً فى الأمور ، ومات سنة ١٢٢ هـ .

(٢٤ قصص - أول)

١٦١ — إياس فى مجلس القضاء*

استودع رجلٌ رجلاً آخرَ مالا؛ ثم طالبه به فجحدَه^(١)، فخاصمه إلى إياس ابن معاوية القاضى، وقال: دفعت إليه مالا فى مكانٍ كذا وكذا! قال فأى شيء كان فى ذلك الموضع؟ قال: شجرة.

قال: فانطلقْ إلى ذلك الموضع، وانظر إلى تلك الشجرة، فلعل الله يوضحُ لك هناك ما تبينُ به حقك! أو لعلك دفنتَ مالك عند الشجرة، فنسيتَ، فتذكر إذا رأيت الشجرة.

فضى وقال إياس للمطلوب منه: اجلس حتى يرجعَ صاحبك؛ فجلس وإياس يقضى وينظرُ إليه بين كل ساعة. ثم قال: ترى صاحبك بلغ موضع الشجرة؟ قال: لا! فقال: يا عدوَّ الله؛ أنت الخائن! قال أقِلْنى، أقالك الله! فأمر بحفظه حتى جاء خصمه، فقال له: خذ منه بحقك فقد أقرَّ.

* المحاسن والنسارى : ١ - ٤٣ .
(١) الجعود : الإنكار مع العلم .

١٦٢ — من ذكاء إياس *

استودع رجل أمين إياس مالا ، وخرج المودعُ إلى الحجاز ، فلما رجع طلبه فجعده ؛ فأتى إياسا فأخبره . فقال له إياس : أعلمته أنك أتيتني ؟ قال : لا . قال : أفنارعته عند غيري ؟ قال : لا . قال : فانصرف ، واكتم سرّك ، ثم عدّ إلى بعد يومين .

فمضى الرجل ودعا إياس أمينه ، فقال : قد حضر عندنا مالٌ كثير ، أريد أن أسأله إليك ، أفحصين منزلك ؛ قال نعم ، قال : فأعِدّ موصعا للمال ، وقوما يحملونه .

وعاد الرجل إلى إياس ، فقال : انطلق إلى صاحبك ، فإن أعطاك المال فذاك ، وإن جحد فقل له : إني أخبر القاضى بالقصة .

فأتى الرجل صاحبه ، فقال : تعطينى الوديعة أو أشكوك إلى القاضى ، وأخبره بالحال . فدفع إليه المال . فرجع الرجل ، وأخبر إياسا .

ثم جاء الأمين إلى إياس ليأخذ المال الموعود به ، فزجره ، وقال له : لا تقربنى بعد هذا يا خائن .

١٦٣ أدبني فتأدبت *

كان أبو سلمة حفص بن سليمان وسليمان بن كثير - وهما سيّدا دعاة الدولة العباسية - يفدان كلّ عام على إبراهيم بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس ، فيأتيانه بهذا يا أهل الدعوة ، وكُتبتهم ، ولم يكن أحد من آل إبراهيم يعرفهما ، ولا يعرف الأمر الذي يأتيان له ، فقدِمَا سنة من السنين فرأيا العباس وأبا جعفر ، فأعجباهما ، وهما إذ ذاك غُلامان ، فقال سليمان بن كثير لأبي سلمة : إني مسرّ إليك مهمّا من أمر الدين والدنيا ، فأخلف لي على كتمانها ، فحلف له أبو سلمة بأيمان رضىها منه . فقال له سليمان : إني أرى عند هذين الصبيين من أمارات الاستقلال بالخلافة ، مالا كفّاء له^(١) . فقال له أبو سلمة : ها والله أولى بالأمر من صاحبنا - يعنى إبراهيم الإمام - فقال سليمان : مامنعني من ذكر هذا إلا التسرُّ .

وبيناها يتفاوضان في هذا الأمر إذ مرّ أبو العباس وأبو جعفر وهما يضربان كُرّة ، فدعاها أبو سلمة فأتياه ، فقال لهما : إني أنشدت صاحبي هذا شعرًا أنا مُعجَبٌ به ، فلم يرضه ، وقد رضىنا بحكمكما فيه . فقالا : أنشده ، فأنشدها :

أَسْلَمُ إني يا بْنَ كل خليفة ويا فارس اهيجا ويا جيل الأرض^(٢)
شكرتك إن الشكرَ حَبْلٌ من التقى وما كل من أوليته نعمةً يَقْضِي^(٣)
وشَيْدَت^(٤) من ذكرى وما كان خاملاً ولكن بعض الذكر أنبه من بعض^(٥)
فقال أبو جعفر : مَنْ قال هذا ؟ فقال : قاله أبو نُخَيْلَة ، فعرض أبو جعفر

* أنباء نجباء الأبناء : ٩٥ .

(١) لا كفّاء له : لا مثل له يكافئه . (٢) أسلم : يريد أسلمة . (٣) حبل من التقى : سبب منه وعهد ، والعهد : الحبل . (٤) شيدت : رفعت . (٥) أنبه : أرفع .

على إصبعه ، ثم قال : أأَمِنَ هذا العبدُ أن تَدُولَ ^(١) لبني هاشم دولة فيُولِغُوا ^(٢) الكلابَ دمه ؟ فقال له أبو العباس : مَهْ ^(٣) يا أخى ، فإنه يقال : من ظَهَرَ غَضَبُهُ ضَعُفَ كَيْدُهُ .

ثم أقبل أبو العباس على أبي سلمة ، وقال له هذا شعرُ أخق في أحق ! كيف يقول لرجل هو في سلطان غيره ، وتابع له : يا جَبَلُ الأرض ؟ أليس جَبَلُ الأرض هو مُرْسِيها ، ولا يصلح أن يخاطبَ بهذا من هو تابع لغيره ، وأين تفخيمه وتعظيمه من نقص اسمه ، إذ يُناديه : « أمسلم » وهو مسلمة ؟

ثم إن العباس وتى ، فقال له أبو جعفر : هَلَمْ يا أخى نلعب ، فقال له أبو العباس . هل أولفت ^(٤) الكلابَ دم أبي نخيلة ؟ فقال : لا ، ولكنك أدبنتى فتأدبت ، وذهبا !

فقال أبو سلمة لسليمان بن كثير : بمثل هذا يُطلب الملك ، ويُذكر النار !

(١) الدولة : الانتقال من حال إلى حال . (٢) أولفت الكلب : إذا جعلت له شيئاً يولغ فيه . (٣) مه : اسم فعل ، معناه : اكفف . (٤) معناه : هل شفيت غيظك حتى نلعب .

١٦٤ - لا يَقْبَلُ عَلَى اصْطِنَاعِ الْمَعْرُوفِ مِكَافَأَةٌ *

لَمَّا حَجَّ الْمَنْصُورُ عَرَضَ عَلَيْهِ جَوْهَرٌ نَفِيسٌ لَهُ قِيَمَةٌ عَظِيمَةٌ لِلْبَيْعِ ، فَعَرَفَهُ ،
وَقَالَ : هَذَا كَانَ لِهَشَامِ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ سُرُوَانَ ، فَانْتَقَلَ إِلَى ابْنِهِ مُحَمَّدِ بْنِ هَشَامٍ ،
وَمَا بَقِيَ مِنْ بَنِي أُمَيَّةَ غَيْرُهُ ، وَلَا بُدَّ لِي مِنْهُ ، ثُمَّ التَفَتَ إِلَى حَاجِبِهِ الرِّبِيعِ ، وَقَالَ :
إِذَا صَلَّيْتُُ بِالنَّاسِ غَدًا فِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ، وَحَصَلَ النَّاسُ كُلُّهُمْ فَأَغْلِقِ الْأَبْوَابَ
كُلَّهَا ، وَكُلَّ بِهَا جَمَاعَةً مِنَ الثَّقَاتِ ، وَافْتَحِ بَابًا وَاحِدًا وَقِفْ عَلَيْهِ ، وَلَا تُخْرِجْ
أَحَدًا حَتَّى تَعْرِفَهُ ، فَإِذَا ظَفَرْتَ بِمُحَمَّدِ بْنِ هَشَامٍ فَأَتْنِي بِهِ .

فَلَمَّا كَانَ الْغَدُ فَعَلَ الرِّبِيعُ مَا أَمَرَهُ بِهِ الْمَنْصُورُ ، وَكَانَ مُحَمَّدُ بْنُ هَشَامٍ فِي الْمَسْجِدِ ،
فَعَرَفَ أَنَّهُ الْمَطْلُوبُ ، وَأَيَّقَنَ أَنَّهُ مَأْخُوذٌ مَقْتُولٌ ، فَتَحَيَّرَ وَارْتَابَ وَاضْطَرَبَ ، فَبَيْنَا هُوَ
عَلَى تِلْكَ الْحَالِ إِذْ أَقْبَلَ مُحَمَّدُ بْنُ زَيْدِ بْنِ عَلِيٍّ بْنِ الْحُسَيْنِ فَرَأَاهُ مُتَحَيِّرًا - وَكَانَ
لَا يَعْرِفُهُ - فَتَقَدَّمَ إِلَيْهِ وَقَالَ : يَا هَذَا ، مَا بَالُكَ ؟ فَقَالَ : لَا شَيْءَ . فَقَالَ : خَبِّرْنِي
وَلَكِ الْأَمَانُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ عَلَى نَفْسِكَ .

قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ هَشَامٍ : فَمَنْ أَنْتَ ؟ قَالَ : أَنَا مُحَمَّدُ بْنُ زَيْدِ بْنِ عَلِيٍّ بْنِ الْحُسَيْنِ !
فَزَادَ خَوْفُهُ ، وَطَارَ عَقْلُهُ ، وَتَحَقَّقَ الْمَوْتُ ، فَقَالَ لَهُ : لَا تَجْزِعْ فَلَسْتَ قَاتِلَ أَبِي
وَلَا جَدِّي ، وَلَيْسَ لِي عَلَيْكَ ثَأْرٌ ، وَأَنَا أَجْتَهِدُ فِي خِلَاصِكَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ! وَلَكِنْ
تَعَذِّرْنِي فِيمَا أَنَا صَانِعٌ بِكَ مِنْ مَكْرُوهِ وَقَبِيحٍ خَطَابٍ ! فَقَالَ لَهُ ، أَفْعَلْ مَا شِئْتَ .

فَطَرَحَ رِدَاءَهُ عَلَى وَجْهِهِ ، وَغَطَّى بِهِ رَأْسَهُ ، وَجَذَبَهُ وَسَجَّهَهُ ، إِلَى أَنْ قَرُبَ
مِنَ الرِّبِيعِ حَاجِبِ الْمَنْصُورِ ؛ وَهُوَ عَلَى الْبَابِ ، فَلَمَّا وَقَعَتْ عَيْنُ الرِّبِيعِ عَلَيْهِمَا لَطَمَهُ

محمد بن زيد لطمت على رأسه ، وجاء به إلى الربيع ، وقال : يا أبا الفضل ، إن هذا الخبيث جمال من أهل الكوفة أكراني جمالاً ، فلما دفعت له الكراء^(١) هرب مني ، وذهب فأكرى جماله لبعض أهل خراسان ، ولى عليه شهودٌ ، وأريد منك من يؤصله معي إلى القاضي ، ويمسك جماله عن الذهاب مع الخراسانيين . فرسم الربيع عليه اثنين وقال : لا تفارقه إلى القاضي - ومحمد قابضٌ على الرداء ، وقد استتر وجهه به - فخرجوا جميعاً من المسجد .

فلما بعدوا عن الربيع قال له محمد : اذهب إلى حال سيملك ؟ فقَبِلَ محمد بن هشام يده ورأسه وقال : الله أعلمُ حيث يجعلُ رسالته ، ثم أخرج له جواهر قيمتها عظيمة ، وقال : بالله - يا بنَ بنتِ رسول الله - شرَّفني بقبول هذا ، فقال له : اذهب بمتاعك ، فنحن أهل بيتٍ لا نقبلُ على اضطناع المعروف مكافأةً ، واحتز على نفسك من هذا الرجل ، إلى أن يخرجَ ، فإنه مجدٌّ في طلبك !

١٦٥ - حَذَرُ إِبْرَاهِيمَ بْنِ هَرْمَةَ*

وَجَهَ الْمَنْصُورُ رَسُولًا إِلَى ابْنِ هَرْمَةَ^(١) ، وَدَفَعَ إِلَيْهِ أَلْفَ دِينَارٍ وَخِلْعَةً ، وَوصَفَهُ لَهُ وَقَالَ : امْضِ إِلَيْهِ ، فَإِنَّكَ تَرَاهُ جَالِسًا فِي مَوْضِعٍ كَذَا مِنَ الْمَسْجِدِ ، فَانْتَسِبْ لَهُ إِلَى بَنِي أُمَيَّةٍ أَوْ مَوَالِيهِمْ ، وَسَلَّهُ أَنْ يُنْشِدَكَ قَصِيدَتَهُ الْحَائِيَّةَ الَّتِي يَقُولُ فِيهَا يَمْدَحُ عَبْدَ الْوَاحِدِ بْنِ سُلَيْمَانَ :

وَجَدْنَا غَالِبًا كَانَتْ جَنَاحًا وَكَانَ أَبُوكَ قَادِمَةَ الْجَنَاحِ
فَإِذَا أَنْشَدَهَا فَأَخْرَجَهُ مِنَ الْمَسْجِدِ وَاضْرِبْ عُنُقَهُ وَجَنِّ بِرَأْسِهِ ، وَإِنْ أَنْشَدَكَ قَصِيدَتَهُ اللَّامِيَّةَ الَّتِي يَمْدَحُنِي فِيهَا فَادْفَعْ إِلَيْهِ أَلْفَ الدِّينَارِ وَالْخِلْعَةَ ؛ وَمَا أَرَاهُ يُنْشِدُكَ غَيْرَهَا وَلَا يَعْتَرِفُ بِالْحَائِيَّةِ .

فَاتَاهُ الرَّسُولُ فَوَجَدَهُ كَمَا قَالَ الْمَنْصُورُ ، فَجَلَسَ إِلَيْهِ وَاسْتَنْشَدَهُ قَصِيدَتَهُ فِي عَبْدَ الْوَاحِدِ ؛ فَقَالَ : مَا قُلْتُ هَذِهِ الْقَصِيدَةَ قَطُّ وَلَا أَعْرِفُهَا ، وَإِنَّمَا تَحْكُمُهَا إِيَّايَ مِنْ يُكَادِنِي ، وَلَكِنْ إِنْ شِئْتَ أَنْشَدْتُكَ أَحْسَنَ مِنْهَا قَالَ : قَدْ شِئْتُ فِهَاتِ ، فَأَنْشَدَهُ :

* سَرَى ثَوْبَهُ عَنْكَ الصَّبَا الْمُتَخَايِلُ^(٢) *

حَتَّى أَنَّى عَلَى آخِرِهَا^(٣) ؛ ثُمَّ قَالَ لَهُ هَاتِ مَا أَمْرُكَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ بِدَفْعِهِ إِلَيَّ ؛

* الْأَغَانِي : ٦ - ١١٢ .

(١) هُوَ إِبْرَاهِيمُ بْنُ عَلِيٍّ بْنِ سُلَيْمَةَ بْنِ هَرْمَةَ - شَاعِرُ غَزَلٍ مِنْ سُكَّانِ الْمَدِينَةِ رَحَلَ إِلَى دِمَشْقَ وَمَدَحَ الْوَلِيدَ الْأُمَوِيَّ فَأَجَازَهُ . (٢) سَرَى عَنْهُ الثَّوْبُ : كَشَفَهُ . (٣) مِنْهَا :
لَهُ لِحْظَاتٌ عَنْ حِفَافٍ سَرِيرَةٍ إِذَا كَرَّهَا فِيهَا عِقَابٌ وَنَائِلٌ
فَأَمَّ الَّذِي أَمَّنْتَ أَمْنَةَ الرَّدَى وَأَمَّ الَّذِي خَوَّفْتَ بِالْكَشَلِ ثَاكِلٌ
وَحِفَافُ الشَّيْءِ : جَانِبُهُ .

فقال : أى شيء تقول يا هذا ؟ وأى شيء دَفَع إلى ؟ فقال : دَعُ ذاك عنك ، فوالله ما بعتك إلا أمير المؤمنين ومعك مالٌ وكسوة إلى ، وأمرتك أن تسألنى عن هذه القصيدة ، فإن أشدتك إياها ضربتُ عُنُقِي وحملتُ رأسى إليه ، وإن أشدتك هذه اللامية دفعتُ إلى ما حَمَلَك إياه ، فضحك الرسولُ ، ثم قال : صدقتَ لعمري ! ودَفَع إليه الألف الدينار والخلعة .

١٦٦ — المنصور ودَليله بالمدينة *

لما حجَّ أبو جعفر المنصور قال للربيع : ابغِ لى فتى من أهل المدينة أديباَ خليفًا ، عالمًا بقديم ديارها ، ورُسُوم آثارها ؛ فقد بَعَدَ عهدى بديار قوى ، وأريدُ الوقوفَ عليها .

فالتمس له الربيعُ فتى من أعلم الناس بالمدينة ، وأعرفهم بظريف الأخبار ، وشريف الأشعار ؛ فعجب المنصور منه ؛ وكان يسايره أحسنَ مُسايرة ، ويحاضِرُهُ أزينَ محاضرة ، ولا يَبْتَدِئُهُ بخطاب إلا على وجه الجواب ، فإذا سأله أتى بأوضح دَلالة ، وأفصح مَقالة .

فأعجب به المنصور غاية الإعجاب ، وقال للربيع : ادفع إليه عشرة آلاف درهم ، وكان الفتى مُمَلِّقًا ^(١) مضطَّرًا . فتشاغل الربيع عنه ، فاجتاز مع المنصور بدار عاتكة . فقال : يا أمير المؤمنين ؛ هذا بيت عاتكة بنت يزيد بن معاوية الذى يقول فيه الأحرص بن محمد :

* ذيل زهر الآداب : ٥٨ .

(١) الإملاق : الانتقار .

يَا بَيْتَ عَاتِكَةِ الَّذِي أَنْعَزَلُ^(١) حَذَرَ الْعِدَا وَبِهِ الْقَوَادُ مُوَكَّلُ
قال المنصور : ما هاج منه ما ليس هو طبعه ؛ من أن يُخْبِر بما لم يُسْتَخْبَر عنه
ويجب بما لم يُسأل عنه ؟ ثم أقبل يردّدُ آياتَ القصيدة في نفسه إلى أن
بلغ إلى :

وَأَرَاكَ تَفْعَلُ مَا تَقُولُ ، وَبَعْضُهُمْ مَذِقُ اللِّسَانِ يَقُولُ مَا لَا يَفْعَلُ^(٢)
فدعا بالربيع وقال له : هل دفعتَ للمدني^(٣) ما أَمَرْنَا بِهِ ؟ فقال : أخرتني
عِلَّةٌ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ . قال : أَضْعِفْهَا لَهُ وَعَجِّلْهَا .

(١) تعزل الشيء وتعزل عنه : تنحى (٢) رجل مذاق : كذوب (٣) النسبة إلى مدينة الرسول : مدني ، وإلى مدينة المنصور مديني .

١٦٧ — فطنة كاتب المنصور *

قال أبو جعفر المنصور للمهدى يوماً : قد عزمتُ على أن أوليك الأمرَ وأردّه إليك ، فقد كبرتُ وعجّزتُ عن مباشرة الأعمال والنظر فيها ، وأحببتُ الراحة والدّعة . فخرج المهدى إلى أبي عبيد الله ^(١) مستبشراً ، وعرفه ماعرضه عليه أبو جعفر ، فقال له أبو عبيد الله : اتق الله ولا تظهر لأمر المؤمنين قبُولاً لما ذا كرك به ، وإذا عاودك فقل له : لا والله ، لا أترعّضُ لهذا الأمر ما بقي الله أمير المؤمنين ؛ ولا أنهضُ له ، فإنه إنما سَبَرَكَ ^(٢) بما عَرَضَ عليك .

فلما دخل المهدى على أبي جعفر قال له : يا أبا عبد الله ، هل فكرتَ فيما قلته لك ، أو شاروتَ أحداً فيه ؟ فقال : ما بي من قوة على ذلك ، ويُبقَى الله أمير المؤمنين ، ويمتحننا بحياته . فقال له : سبحان الله ! من صدّك عنه ومن ناظرت فيه ؟ فقال له شاروتُ معاوية ^(٣) . قال : فأى شيء قال لك ؟ فمرّفته ما قال له ، فأطرق هُنيئة ثم قال : على معاوية .

فلما دخل عليه قال له : ما هذا الذى ناظركَ ^(٤) فيه ابن عبد الله ^(٥) ؟ وكيف رأيت ألا يُقبل ؟ قال : أأصدُفك وأنا آمن ؟ فقال له : هات : ولم لا تصدُقنى ؟

* الوزراء والكتاب : ١٢٨ .

(١) هو أبو عبيد معاوية بن عبيد الله بن يسار من أهل فلسطين . كان كاتب أبي جعفر في الإنفاق والتصرف في بيت المال وقد ضمه إلى المهدى حين أفضّه إلى الرى (٢) سبر الجرح : نظر ما غوره . (٣) هو أبو عبيد الله . (٤) المناظرة : أن تناظر أخاك في أمر إذا نظرتما فيه معاً كيف تأتياه . (٥) اسم المهدى محمد بن عبد الله .

فقال له : إنه والله ماعرضت عليه ماعرضته وأنت تريدُ أن تولّيه ، وإنما أردتُ أن تختبر عقله ، وما كنتُ لتطيب نفساً بتركِ ما أنت فيه .

فقال له : وكيف توهمت ذلك ؟ قال : لأنى سمعتك تقول : إني أستيقظ بالليل فأدعو بالكتب ، فأضعها بين يدي ، وأدعو بوصيف فأمره أن يَمْرَخَ^(١) ظهرى بالذهن ، فيفعل ذلك ، وأنا مقبلٌ على كتي وتديري ، والنظرِ في أمورى ؛ فعلتُ أنك لا تدعُ شيئاً يكون موقعه منك هذا الموقع وتؤثر به غيرك .

فقال : ما كنتُ أرى أن أحداً يتفقّد ماتفقّدته ، وقد أصبتَ الرأى وأحسنْتَ .
بارك الله عليك !

(١) يمرخ : يدهن .

١٦٨ — حيلة طريفة *

قال داود بن الرشيد : قلت للهَيْثَم بن عدي : بأى شيء استحقَّ سعيدُ بن عثمان أن ولّاه المهديُّ القضاء ، وأنزله منه تلك المنزلة الرفيعة ؟ قال : إنَّ خبره في اتصاله بالمهدي طريف ، فإنَّ أحببتَ شرحته لك ، قلت : والله قد أحببتَ ذلك ، قال :

اعلم أنه وافى الربيعَ الحاجبَ حينَ أفضت الخلافةُ إلى المهدي ، فقال : استأذن لي على أمير المؤمنين . فقال له الربيعُ : من أنت ؟ وما حاجتُك ؟ قال : أنا رجل قد رأيتُ لأمر المؤمنين رؤيا سالحة ، وقد أحببتُ أن تذكُرني له . فقال له الربيع : يا هذا ؛ إن القوم لا يصدِّقون ما يروونه لأنفسهم ، فكيف ما يراه لهم غيرهم ! فاحتلَّ بحيلة هي خير لك من هذه . فقال له : إن لم تخبره بمكاني سألت مَنْ يوصلني إليه ، فأخبرته أني سألتُكَ الإذن عليه فلم تفعل .

فدخل الربيع على المهدي ، فقال له : يا أمير المؤمنين ؛ إنكم قد أطمعتم الناس في أنفسكم ، فقد احتالوا لكم بكلِّ ضَرْب . قال له : هكذا صنَّع الملوك . فما ذاك ؟ قال : رجلٌ بالباب يزعم أنه قد رأى لأمر المؤمنين رؤيا حسنة ، وقد أحبَّ أن يقصَّها عليه . فقال له المهدي : ويحك ياربيع ! إني والله أرى الرؤيا لنفسى ، فلا تصح لي ، فكيف إذا ادَّعاهَا مَنْ لعلَّه قد افتملها . قال : والله قلتُ له مثل هذا فلم يقبل . قال : هات الرجل .

فأدخل إليه سعيد ، وكان له رؤية وجمال ومرتبة ظاهرة ، ولحجة عظيمة

ولسان . فقال له المهدي : هات ، بارك الله عليك ! ماذا رأيت ؟ قال : رأيتُ
يا أمير المؤمنين آتياً أنا في منامي فقال لي : أخبر أمير المؤمنين المهدي أنه يعيش
ثلاثين سنة في الخلافة ، وآية ذلك أنه يرى في ايلته هذه في منامه كأنه يُقلب
يواقيت ؛ ثم بعدها فيجدها ثلاثين ياقوتة ؛ كأنها قد وهبت له .

فقال المهدي : ما أحسن ما رأيت ! ونحن نمتحن رؤياك في ليلتنا المقبلة على
ما أخبرتنا به ، فإن كان الأمرُ على ما ذكرت أعطيناك ماتريد ، وإن كان الأمر
بخلاف ذلك لم نعاقبك ، لعلنا أن الرؤيا ربما صدقت ، وربما اختلفت .

قال له سعيد : يا أمير المؤمنين ؛ فإنا صانع الساعة إذا صرتُ إلى منزلي
وعيالي فأخبرتهم أني كنتُ عند أمير المؤمنين ، ثم رجعتُ صِفراً ^(١) ؟ قال له
المهدي : فكيف نعمل ؟ قال : يعجل لي أمير المؤمنين ما أحب ؛ وأحلف له أني
قد صدقت فأمر له بعشرة آلاف درهم ؛ وأمر أن يؤخذ منه كفيـل ليحضر من غد
ذلك اليوم . فقبض المال ، وقيل له : من يكفل ^(٢) بك ؛ فذّ عينيه إلى خادم فرآه
حسن الوجه والزّي . فقال : هذا يكفلُ بي . فقال له المهدي : أنكفلُ به ؟
فاحمرّ وخجل ، وقال : نعم . وكفل به وانصرف .

فلما كان في تلك الليلة رأى المهدي ما ذكره له سعيد حرقاً بحرف ، وأصبح
سعيد في البساب ، واستأذن فأذن له ، فلما وقعت عينُ المهدي عليه قال : أين
مصدق ما قلتُ لنا ؟ قال له سعيد : وما رأي أمير المؤمنين ؟ قال له المهدي : قد
والله رأيتُ ذلك . فقال له سعيد : الله أكبر ! فأنجز يا أمير المؤمنين ما وعدتني به .
قال له : حباً وكرامة . ثم أمر له بثلاثة آلاف دينار ، وعشرة نخوت ^(٣) ثياب ،
وثلاثة مراكب من أنفسٍ دوابه محلاة ، فأخذ ذلك وانصرف .

(١) الصفر : الخالي . (٢) الكفيل : الضامن .

(٣) النخوت : وعاء تصان فيه الثياب .

فلحق به الخادم الذى كان قد كفّل به ، وقال له : سألتك بالله ؛ هل كان لهذه الرؤيا التى ذكرتها من أصل ؟ فقال له سعيد : لا والله ! قال الخادم : كيف وقد رأى أمير المؤمنين ما ذكرته له ؟ قال : هذا مما لا يأبه به أمثالكم ، وذلك أنى لما ألقيتُ إليه هذا الكلام خطر بباله ، وحدث به نفسه ، وشغل به فكره ، فساعة نام خيّل له ما حل فى قلبه ، وما كان شغل به فكره فى المنام .

فبُهِت الخادم ، وتعجّب ، فقال له سعيد : قد صدقتك ، وجعلت صدق لك مكافأتك على كفالتك ؛ فاسترّ على . ففعل .

ثم طلبه المهديّ لمنادمته ، فنادمه ، وحطّى عنده ، وقلده القضاء على عسكره . فلم يزل كذلك حتى مات المهديّ !

١٤٤ - الأمين والمأمون بين يدى الرشيد*

قال محدث : إن الرشيد ناظر يحيى بن خالد ؛ أى ولديه بعهد إليه ، وعلم يحيى ابن خالد ميله إلى أمّ جعفر وإيثاره هواها ؛ فقال : أمير المؤمنين أعلم بولده ، وكان المأمون والأمين حاضرين ، فأغرى^(١) كل واحد منهما بالآخر ، فأسرع^(٢) الأمين وحلم المأمون ، ثم أمرهما بالمصارعة ، فوثب الأمين ، وثبت المأمون جالساً . فقال له الرشيد : مالك اليوم يا عبد الله ! أخفت ابن الهاشمية ؟ أما إنه لأيد^(٣) ، فقال المأمون : هو كما ذكر أمير المؤمنين ، ولكنى لم أخفه ، ولكن قبض يدي عنه ما قبض لسانى حين نال منى . فقال الرشيد : وما الذى قبض يدك ولسانك عنه ؟ قال : قول الأموى لبنيه متمثلاً^(٤) :

انفوا الضغائن ^(٥) بينكم وتواصلوا	عند الأبعد والحضور الشهيد
فصلاح ذات البين طول بقاءكم	ودماركم بتقطع وتفرّد
إن القداح إذ جُمعن ورامها	بالكسر ذو حنق وبطش أيد
عزت ولم تُكسر وإن هى بددت	فالوهن والتكسير للمبتدّد
فلمثل ريب الدهر ألف بينكم	بتعاطف وتراحم وتودّد
حتى تلين جلودكم وقلوبكم	لمسود منكم وغير مسود

* أنباء نجباء الأبناء : ١١٣

(١) أغرى بينهم : سلط أحدهم على الآخر . (٢) أسرع : أى أسمع قولاً مكروهاً .

(٣) أيد : شديد . والأيد : القوة . (٤) الأبيات أنشدها عبد الملك يوصى بها ولده .

(٥) الضغائن : الأحقاد .

فوق الرشيد رقة شديدة ، واغرورت عيناه بالدموع ، ثم تشدد وكفكفها^(١) وأقبل على الأمين ، وقال : يا محمد ؛ ما أنت صانع إن صرف الله إليك أمر هذه الأمة ؟ قال : أكون مهديها يا أمير المؤمنين . فقال الرشيد : إن تفعل فانت أهل لذلك .

ثم أقبل على المأمون وقال له : يا عبد الله ؛ ما أنت صانع إن صرف الله إليك أمر هذه الأمة ؟ فابتدرت دموع المأمون ، وفطن الرشيد لما أبكاه ، فلم يملك عينيه فأرسلهما ، وبكى يحيى ؛ فلما قضا من البكاء أرباً^(٢) بكى الأمين لبكائهم ، فأعاد الرشيد المسألة للمأمون . فقال : أغفني يا أمير المؤمنين من ذلك . فقال : عزمت عليك لتقولن . فقال : إن قدر الله ذلك أجعل الحزن شعاراً^(٣) ، والحزم ديناراً ، وسيرة أمير المؤمنين مشعراً لا تستحل حرمانه ، وكتاباً لا تبدل كلماته .

فأشار إليهما بالانصراف ، فذهبا ، ثم أقبل على يحيى بن خالد فأنشد بيت صخر بن عمرو بن الشريد السلمي أخى الخنساء ، وهو قوله :

أهمُّ بأمر الحزم لو أستطيعه
وقد حيل بين العير والنزوان^(٤)

فقال يحيى بن خالد : هيا الله لأمر المؤمنين من أمره رشداً .

(١) كفكفها : كفها . (٢) الأرب : الحاجة . (٣) الشعار : ما ولى الجسد من الثياب ، والدينار : ما فوق ذلك . (٤) العير : حمار الوحش . النزوان : الوثوب . والبيت مثل ، وأول من قاله صخر .

١٧٠ - قَمَرًا مَجْدٍ وَفَرَّ مَا خِلَافَةٌ*

قال الكِسْبَانِيُّ^(١) :

دخلتُ على الرشيد ، فلما قضيتُ حقَّ التسليم والدعاء ، وثبتتُ للقيام ، فقال :
اقعد ، فلم أزل عنده حتى خف عامةٌ من كان في مجلسه ، ولم يبق إلا خاصَّته ،
فقال لي : يا علي ؛ ألا تحبُّ أن ترى محمداً وعبد الله^(٢) ! قلت : ما أشوقني إليهما
يا أمير المؤمنين ، وأسرَّني بمعاينة نعمة الله على أمير المؤمنين فيهما .

فأمر بإحضارهما ، فلم ألبثُ أن أقبلَا كوكبي أُنُق ، يزنيهما هدوء ووقار ،
وقد غصَّ أبصارهما ، وقاربا خطوهما ، حتى وقفنا على باب المجلس ، فسلمنا على أبيهما
بالخلافة ؛ ثم قالَا : تتمَّ الله على أمير المؤمنين نعمه ، وشفعنا بشكره ، وجعل ما قلده
من هذا الأمر أحد عاقبة ، ولا كدَّ عليه ما صفا ، فقد صرت للمسلمين ثقة ؛
إليك يفزعون في أمورهم ، ويقصدون في حوائجهم .

فأمرهما بالدنو منه ؛ فصيرَّ محمداً عن يمينه وعبد الله عن يساره ، ثمَّ التفت
إليَّ فقال : يا علي ؛ ما زلتُ ساهراً مفكراً في معاني آياتٍ قد خفيتُ عليَّ ! قلت :
إن رأى أمير المؤمنين أن ينشدنيها ! فأنشدني :

قَدْ قُلْتُ قَوْلًا لِلْغَرَابِ إِذَا حَجَلَ عَلَيْكَ بِالْقُودِ الْمَسَانِفِ الْأَوَّلُ

* تَعْدَّ مَا شِئْتَ عَلَى غَيْرِ عَجَلٍ *

* السموودي : ٢ - ٢٧١ ، معجم الأدباء : ١٣ - ١٧٣ ، المحاسن والمساوي : ٤٤٠ .

(١) اسمه علي بن حمزة وأصله من فارس أشهر نخبة الكوفة وأحد القراء السبعة ، استقدمه الخلفاء العباسيون ليعلم أبناءهم ، وألف كثيراً من الكتب في النحو والقراءات والأدب والنوادر ، توفي سنة ١٨٩ هـ . (٢) محمد الأمين وعبد الله المأمون ابنا الرشيد .

فقلت : نعم يا أمير المؤمنين ؛ إن العير^(١) إذا فصلت من خير ، وعليها التمر ،
يقع الغراب على آخر العير فيطردها السواق ؛ يقول : تقدم إلى أوائل العير ؛
فكل على غير محل . والقود : الطوال الأعناق . والمسانيف : المتقدمة .
ثم أنشدني :

وإني وإن عشت من خشية الردى نهاق حمار إنني لجزوع^(٢)
قلت : نعم يا أمير المؤمنين ؛ كان الرجل من العرب إذا دخل خير أكب^(٣)
على أربع ، وعشر تعشير الحمار ؛ وهو أن ينهق عشر نهقات متتابعات ، يفعل ذلك
ليدفع عن نفسه حتى خير .

ثم أنشدني قول الآخر :
أجاعل أنت يبقورا مضرمة ذريعة لك بين الله والمطر^(٤)
قلت : نعم ، كانت العرب إذا أبطأ المطر شدت العشر^(٥) والسَّلَع ، وهما
ضربان من النبت في أذنان البقر وألهبوا فيه النار ، وشرّدا البقر تفاؤلا
بالبرق والمطر .

ثم أنشدني لرجل آخر .
وسرب ملاح قد رأيت وجوههم إناث أدانيه ، ذكور أوأخره
فقلت : إنه يعني الأضراس .

ثم أنشدني قول الآخر :
فإني إذ ن كالثور يضرب جنبه إذا لم يعف شرباً وعافت صواحيه
قلت : نعم ، كانت العرب إذا أوردت البقر ، فشربت الثيران وأبت البقر
ضربت الثيران حتى تشرب البقر ، وهو كما قال : « كالثور يضرب لما عافت البقر » .

(١) العير : الإبل التي تحمل الميرة . (٢) البيت لعروة بن الورد . (٣) اسم جمع لبقرة ،
وفي الإنسان : « مسلة » بدل مضرمة ، والبيت للورل الطائي (٤) شجر لم يقتدح الناس في أجوده .

نم أنشدنى :

يُمْنَحَدِرُ مِنْ رَأْسِ بَرْقَاءَ حَطَّةُ تَذَكُّرُ بَيْنَ مِنْ خَيْبِ مُزَايِلِ
قلت : نعم ، يعنى الدموع . والبرقاء : العين ؛ لأن فيها سواداً وبياضاً . وحطه :
أساله ، وحييب : محبوب ، ومزاييل : مفارق .

فوثب الرشيد فجذبني إلى صدره ، وقال : لله درّ أهل الأدب ! ثم دعا بجارية ،
فقال لها : احملى إلى منزل الكسائي خمسَ بَدَرٍ على أعناق خمسة أعبد يلزمون
خِدْمَتَهُ .

ثم قال لى : استنشدهما - يعنى ابنيه - فأنشده محمد الأمين :

وإِنِّ لَعَفُ الْفَقْرِ مُشْتَرِكُ الْغَنَى وَتَارِكُ شَكْلِ لَا يُؤَافِقُهُ شَكْلِي
وَشَكْلِي شَكْلٌ لَا يَقُومُ بِمِثْلِهِ مِنَ النَّاسِ إِلَّا كُلُّ ذِي نِيْقَةٍ مِثْلِي^(١)
وَلِي نِيْقَةٌ فِي الْمَجْدِ وَالْبَذْلِ لَمْ يَكُنْ تَأْنَقَهَا فِيمَا مَضَى أَحَدٌ قَبْلِي
وَأَجْمَلُ مَالِي دُونَ عِرْضِي جُنَّةٌ لِنَفْسِي وَأَسْتَفْنِي بِمَا كَانَ مِنْ فَضْلِي
وَأَنشَدْنِي عَبْدَ اللَّهِ الْمَأْمُونُ :

بَكَرْتَ تَلَوْمُكَ مَطْلَعِ الْفَجْرِ وَلَقَدْ تَلَوْمُ بَغِيرِ مَا تَدْرِي
مَا إِنْ مَلَكَتْ مُصِيبَةٌ نَزَلَتْ إِذْ لَا يُحْكَمُ طَائِعاً أَمْرِي^(٢)
مَلِكُ الْمُلُوكِ عَلَى مُقْتَدِرٍ يُعْطَى إِذَا مَاشَاءَ مَنْ يُسْرِي
فَلَرَبٌّ مُغْتَبِطٌ بِمَرْزُئَةٍ وَمُعْجَّعٌ بِنَوَائِبِ الدَّهْرِ
وَمُكَاشِحٌ لِي قَدْ مَدَدَتْ لَهُ نَحْرًا بِلَا ضَرَعٍ وَلَا غَمَرٍ^(٣)
حَتَّى يَقُولَ لِنَفْسِهِ لَهْفًا فِي أَى مَذْهَبٍ غَايَةٍ أَجْرِي

(١) النية اسم من تتوق في الأمر : تجود وتأنق فيه . (٢) حك الأمر : أحكمه .

(٣) الضرع : من ضرع : إذا ذل وخضع . والغمر : من لم يجرب الأمور ، وبالتحريك : المحقد .

وترى قناتى حين يغمزها غمز الثفاف بطيئة الكسر
ثم أمرنى أن أسألهما ، ففعلت ؛ فساألتهما عن شيء إلا أحسنًا الجواب فيه
والخروج منه ، فسرر بذلك الرشيد ، حتى تبينته فيه ، ثم قال . يا على ؛ كيف ترى
مذهبهما وجوابهما ؟ فقلت : يا أمير المؤمنين ؛ هما كما قال الشاعر :

أرى قرى مجدي وفرعى خلافة يزنيهما عرق كريم ويحتد
يسدان آفاق السماء بشيمة يؤيدها حزم وعصب مهتد
سليبي أمير المؤمنين وحائري مواريث ما بقي النبي محمد

يا أمير المؤمنين ، هما فرع زكا أصله ، وطاب مغرسه ، وتمكنت في الثرى
عروقه ، وعدبت مشاربه ، أبوهما ملك أغر ، نافذ الأمر ، واسع العلم ، عظيم الحلم ،
فهما يستضيئان بنوره ، وينطقان بلسانه ، ويتقلبان في سعادته ، فامتع الله أمير
المؤمنين بهما ، وآنس جميع الأمة ببقائه وبقائهما ! فما رأيت أحداً من أولاد الخلفاء
وأغصان هذه الشجرة المباركة أذرب^(١) منهما لسانا ، ولا أعذب كلاما ، ولا أحسن
ألفاظا ، ولا أشد اقتداراً على تأدية ما حفظا ورويا ؛ ودعوت لهما دعاء كثيراً ،
وأمن الرشيد على دعائى ، ثم ضمهما إليه ، وجميع يديه عليهما فلم يبسطها حتى رأيت
الدموع تنحدر على صدره ؛ رقة عليهما وإشفاقا . ثم أمرهما بالخروج .

فلما خرجا أقبل على ، فقال : كأنك بهما - وقد حُتم القضاء ، ونزلت مقادير
السماء ، وبلغ الكتاب أجله ، وانهى الأمر إلى وقته المحدود ، وحينه المسطور ، الذى
لا يدفعه دافع ، ولا يمنع منه مانع - قد نشئت أمرهما ، وافترقت كلمتهما ، وظهر
تعاديهما ، ثم لم يبرح ذلك بهما حتى تسفك الدماء ، وتكثر القتلى ، وتهتك
سُتور النساء ، ويتعنى كثير من الأحياء أنهم في عداد الموتى ! قلت : أياكون ذلك

(١) الذرب : الحديد اللسان .

يا أمير المؤمنين لأسر رأيت ، أولوذا ؛ أولشى تبين لك فى أصل مولدها ، أولأثر
وقع لأمر المؤمنين فى أسرها ؟ فقال : لا ؛ بل أثر صحيح ؛ حملته العلماء ، عن الأوصياء
عن الأنبياء !

١٧١ — قرآنا عني *

قال محمد بن عبد الرحمن الهاشمي ^(١) :

كانت أم جعفر بن يحيى تزور أمي ؛ وكانت لبيبة من النساء ، حازمة فصيحة
برزة ^(٢) يعجبني أن أجدها عند أمي فاستكثر من حديثها ؛ فقلت لها يوما :
يا أم جعفر ؛ إن بعض الناس يفضل جعفرا على الفضل ، وبعضهم يفضل الفضل
على جعفر ، فأخبريني . فقالت : مازلنا نعرف الفضل للفضل . فقلت : إن أكثر
الناس على خلاف هذا . فقالت : سأحدثك واقص أنت - وكان ذلك الذى
أردت منها .

قالت : كانا يوما يلعبان فى دارى ، فدخل أبوها فدعا بالغذاء وأحضرهما ،
فطعما معه ، ثم آنسهما بحديثه وقال لهما : أتلعبان بالشطرنج ؟ فقال جعفر - وكان
أجراهما : نعم ! قال ؛ فهل لعبت أخاك بها ! قال جعفر : لا . قال : فالعابها بين
يدى لأرى لمن الغلب ، فقال جعفر : نعم ! وكان الفضل أبصر منه بها ، فجىء
بالشطرنج ، فصفت بينهما ، وأقبل عليها جعفر ، وأعرض عنها الفضل .

فقال له أبوه : مالك لا تلعاب أخاك ؟ فقال : لا أحب ذلك . فقال جعفر : إنه

* أنباء نبياء الأبناء : ١٣٠

(١) هو محمد بن عبد الرحمن صاحب صلاة الكوفة . (٢) البرزة من النساء : التى تظهر
لناس ويجلس إليها القوم ، ومى مع ذلك عفيفة عاقلة .

يرى أنه أعلم بها مني فيألف من مُلاعبتي ؛ وأنا ألاعبهُ مُحاطرة ^(١) .

فقال الفضل : لا أفعل . فقال أبوه : لآعبه وأنا معك . فقال جعفر : رضيتُ ، وأبى الفضل واستغنى أباه فأعفاه .

ثم قالت لي : قد حدثتُك فاقض ، فقلت : قد قضيتُ بالفضل لجعفر على أخيه . فقالت : لو علمتُ أنك لا تحسن القضاء لما حكمتُك ، أفلا ترى أن جعفرًا قد سقط أربع سقطات تنزه الفضلُ عنهنَّ . فسقط حين اعترفَ على نفسه بأنه يلعب بالشطرنج ، وكان أبوه صاحبُ جدِّ . وسقط في التزام مُلاعبة أخيه ، وإظهار الشهوة لطلبه ، والتعرض لفضبه . وسقط في طلب المقامرة وإظهار الحرص على مال أخيه . والرابعة قاصمة الظهر حين قال أبوه لأخيه : لآعبه وأنا معك ، فقال أخوه : لا ، وقال هو : نعم ؛ فناسب ^(٢) صفًا فيه أبوه وأخوه .

فقلت : أحسنت والله ، وإنك لأقضى من الشَّعبي ^(٣) ! ثم قلتُ لها : عزمت عليك أخبريني ؛ هل خفيَ مثل هذا على جعفر وقد فطن له أخوه ؟ فقالت : لولا العزْمة ^(٤) لما أخبرتك ، إن أباهما لما خرج قلتُ للفضل خاليةً به : مامنك من إدخال السرور على أبيك بملاعبة أخيك ؟ فقال : أمران : أحدهما لو لآعبته لغلبته فأخجلته ، والثاني قول أبي : لآعبه وأنا معك ؛ فما يسرني أن يكون أبي معي على أخى . ثم خلوتُ بجعفر فقلتُ له : يسأل أبوك عن اللعب بالشطرنج فيصمتُ أخوك وتعتزفُ ، وأبوك صاحبُ جدِّ ! فقال : إني سمعتُ أبي يقول : نعم فهو البال المكدود ^(٥) ! وقد علم ما تلقاه من كدِّ التعلم والتأدب ، ولم آمن أن يكون بلغه أننا

(١) المخاطرة : المراهنة . (٢) ناسب الصف : وقف لإزاءه وعاداه . (٣) الشعبي : أحد رجال الحديث والقضاء . (٤) عزم عليه : أقسم ، وعزمت عليك : أقررتُ أمراً جداً ، وهي العزْمة . (٥) كده : أجهده وأتعبه .

نلعبُ بها وأن يُبادر فينكر ، فبادرتُ بالإقرار إشفاقاً على نفسى وعليه ؛ وقلت :
إن كان توبيخُ فديتِه من المواجهة به .

فقلت له : يا بُنى ؛ فلمَ تقول ألاعبه مخاطرة ؟ كأنك تقامر أخاك وتستكثر
ماله ! فقال : كلا ، ولكنه يستحسن الدواء التى وهبها لى أميرُ المؤمنين فعرضتها
عليه ؛ فأبى قبولها ، وطِيعتُ أن يلاعبنى فأخاطره عليها ، وهو يغلبنى فتطيبُ
نفسه بأخذها .

فقلت لها : يا أمّاه ؛ ما كانت هذه الدواء ؛ فقالت : إن جعفرأ دخل على أمير
المؤمنين فرأى بين يديه دواءً من العقيق الأحمر محلاةً بالياقوت الأزرق والأصفر ،
فراه ينظرُ إليها فوهبها له . فقلت : إياه .

فقالت : ثم قلت لجعفر : هبك اعتذرت بما سمعتُ ؛ فما عذرُك من الرضا
بمناسبة أهلك حين قال : لآعبه وأنا معك ؟ فقلت أنت : نعم ، وقال هو : لا . فقال :
عرفتُ أنه غالبى ، ولو فتر لعبه لتغالبتُ معه ، مع ما له من الشرف والسرور بتحيزِ
أبيه إليه .

قال محمد بن عبد الرحمن : فقلت : بخ بخ^(١) ! هذه والله السيادة ! ثم قلت
لها : يا أمّاه ، أكان منهما من بلغَ الحلم ؟ فقالت : يا بُنى ، أين يُذهبُ بك ؟
أخبرك عن صبيين يلعبان فتقول : أكان منهما من بلغَ الحلم ! لقد كنا نهى
الصبي إذا بلغ العشر وحضر من يُستحى منه أن يبتسم !

(٢) يقال : بخ بخ ، إعجاباً بالشئ وإظهاراً للسرور به .

١٧٢ — حيلة وال *

بلغ الرشيد أن موسى بن عيسى ^(١) - وكان أميراً على مصر من قبله - عازم على خلعه ، فقال : والله لأعزلنه بأخس من على بابي ! وقال ليحيى بن خالد ^(٢) : اطلب لى كاتباً عفيفاً يصلح لعمل مصر ، واكتم خبره ، فلا يشعر به موسى حتى يفجأه ، فقال : قد وجدته ، قال : من هو ؟ قال : عمر بن مهران ^(٣) .

فكتب له بخطه كتاباً إلى موسى بتسليم العمل إليه ، فسار وليس معه غير غلام أسود على بغل استأجره ؛ ومعه خُرُجٌ فيه قميص وطيلسان ^(٤) وخُفٌّ !

فلما وصل إلى مصر نزل خاناً ، فأقام فيه ثلاثة أيام يبحث عن أخبار البلد ، وعمن فيه من العمال ؛ وأخبر من كانوا بجواره في الخان أنه قد وُتِيَ مصر ؛ واستعمل منهم كاتباً وحاجباً وصاحبَ شرطة ، وقد آخَرِيت المال ؛ وأمر من تبعه ووُثِقَ به أن يدخلَ معه على موسى ، فإذا سمعوا حركة في دار الإمارة قبضوا على الديوان .

فلما أبرم أمره بكر إلى دار الإمارة ؛ فأذن موسى للناس إذناً عاماً ، فدخل في جملتهم ومن اتفق معهم ، وموسى جالس في دَسْتِه ^(٥) ، والقوادُ بين يديه ، وكلُّ من قُضِيَتْ حاجتهُ ينصرف . وعمرُ جالس ، والحاجبُ ساعة بعد ساعة يسأله عن حاجته ، وهو يتعافَلُ ، حتى خفَّ الناس ، فتقدَّم ، وأخرج كتاب الرشيد ودفعه

* غرر الحقائق : ٤٤ ، النجوم الزاهرة : ٢ - ٧٨ :

(١) هو موسى بن عيسى الأمير العباسي ، ولي إمرة مصر على الصلاة سنة ٢٧١ هـ ، ثم عزله الرشيد وولاه ثانية سنة ١٧٤ هـ وعزل سنة ١٧٦ هـ ، وكان عاقلاً جواداً ممدوحاً . (٢) يحيى ابن خالد : وزير هارون الرشيد . (٣) كان عمر فائداً للجيش كاتباً للخراج كما كان مديراً لأملاك الدولة . (٤) الطيلسان : نوع من الأكسية .

(٥) الدست : صدر البيت .

لموسى ؛ فقبله ووضع على رأسه ، ثم فتحه وقرأه فانتقع^(١) لونه ؛ وقال : السمع والطاعة .

ثم قال : أفرئ أبا حفص السلام ، وقل له : كُنْ بموضعك حتى نتخذ لك منزلاً ، ونأمر الجند يستقبلونك ! أنا عمر بن مهران ، وقد أمرني أمير المؤمنين أن أقيمك للناس وأنصف المظلوم منك ، وأنا فاعل ما أمرني به أمير المؤمنين ! فقال له موسى : أنت عمر بن مهران ! قال : نعم ! قال : لعن الله فرعون حيث قال : أليس لى ملك مصر ؟ واضطرب المجلس .

فقبض على الديوان ؛ ونزل موسى عن فرشه ، وقال : لا إله إلا الله ! هكذا تقوم الساعة ! ماظننت أن أحداً بلغ من الحيلة والحزم ما بلغت ؛ تسلمت منى العمل ، وأنت فى مجلسى !

ثم نهض عمر إلى الديوان ، ونظر فيه ، وأمر ونهى ، وعزل وولى .

(١) انتقع لونه : تغير .

١٧٣ — أعطني على قدرى *

دخل رجلٌ بدويٌّ عليه شعثُ السفر ، على داود ^(١) المهلبى - وكان إذا حضرَ الطعامُ يتقدَّمُ بصَرَفِ البوابين ، ولا يمنعُ من الوصولِ إلى طعامه - فلما فرغ من الطعام وثب قائماً وأوى إليه ، وقال : من أنت يا فتى ؟ قال : شاعرٌ قصَّدْتُكَ بأبياتٍ من الشعر . قال داود : مهلاً قليلاً ، ثم دعا بقوس فأوترها ^(٢) ، وأوى إليه ، وقال له : قل ، فإن أنت أحسنتَ خلعتُ وأجزلتُ ، وإن أخطأتَ رميتُك بهذا السهم يقع في أى موضعٍ يقع فيه ؛ فتبسم البدوي ، وقال :

أمنتُ بداودَ وجودَ يمينه	من أَلَدِثِ المَرُهوبِ والبُؤسِ والفقرِ
وأصبحتُ لا أخشى بداودَ نبوةً	ولا حَدَثَانًا إنْ شَدَدْتُ به أُرْزِي
له حَكْمُ لُقْمَانَ وصورةُ يوسف	ومُلْكُ سُلَيْمَانَ وَصَدْقُ أَبِي ذَرٍّ
فتى تهرُبُ الأموالُ من جودِ كَفِّه	كما يهرُبُ الشيطانُ من لَيْلَةِ القَدْرِ
فَقَوْسُكَ قوسُ الجودِ، والوترُ الندى	وسَهْمُكَ فيه الموتُ ، فاقتل به قَرَى

فضحك داود ورمى بسهمه مع القوس من يده ، وقال : يا فتى العرب ؛ بالله هل كان ذكرُ القوس في الأبيات ؟ فقال : لا والله ! ففرح بذلك ، وقال : يا فتى

* المختار من نوادر الأخبار - مخطوط .

(١) هو داود بن يزيد بن حاتم المهلبى أمير من الشجعان العقلاء ، كان والياً على إفريقية ، وبقى في إمارتها تسعة أشهر ، ثم ولاء الرشيد السند ، فانسقت له أمورهما ، واستمر بها إلى أن توفى سنة ٢٠٥ هـ . (٢) أوتر قوسه : جعل لها وترأ .

العرب ؛ بالله أيما أحب إليك : أعطيك على قدرِك أم على قدرِي ؟ قال : بل على قدرِي ! قال : كم على قدرِك ؟ قال : مائة ألف درهم ، فأمر له بها .
ثم قال : ما منعك أن تقولَ على قدرِي ؟ فقال : أيها الأمير ؛ أردتُ أن أقول ذلك ، فإذا الأرض لم تُساوِ قدرَ الأمير ، فطلبتُ على قدرِي ! فقال : لله درُّك ! والله إنَّ نثرَك لأحسنُ من نظمِك ! وأمر له بمائة ألف ثانية ، وأمره ألا ينقطعَ عنه .

١٧٤ — ظاهر بن الحسين والمأمون*

لما انقبض طاهر^(١) بن الحسين بخراسان عن المأمون ، وأخذ حِذْرَهُ أدَّبَ له المأمون وصيفاً^(٢) بأحسن الآداب ، وعلمه فنون العلم ، ثم أهداه إليه مع الطاف كثير من طرائف العراق ، وقد واطأه على أن يسمَّه ، وأعطاه سُمَّ ساعة ، ووعدمه على ذلك بأموال كثيرة .

فلما انتهى إلى خراسان ، وأوصل الهدية قَبِيلَ طاهر الهدية ، وأمر بإنزال الوصيف في دار ، وأجرى عليه ما يحتاج إليه من التوسعة ؛ وتركه أشهراً .

فلما برم الوصيف بمكانه كتب إليه :

ياسيدي ؛ إن كنتَ تقبلني فأقبلني ، وإلا فردّني إلى أمير المؤمنين !
فأرسل إليه ، وأمر بإدخاله ؛ فلما انتهى إلى باب المجلس الذي كان فيه أمره بالوقوف عند باب المجلس ، وقد جلس على لبْدٍ أبيض وقرع^(٣) رأسه ، وبين يديه مصحفٌ منشور ، وسيفٌ مسلول . فقال : لقد قبلنا مابعثَ به أمير المؤمنين غيرك ؛ فإننا لا نقبلك ، وقد صرفناك إلى أمير المؤمنين ، وليس عندي جوابٌ أكتبه إلا ما ترى من حالي ، فأبلغ أمير المؤمنين السلام ؛ وأعلمه بالحال التي رأيتني فيها .

* العقد الفريد : ١ - ٢٥٩ .

(١) كان طاهر بن الحسين أكبر من اشتهر في عهد المأمون بقيادة الجيوش وعن النقيبة وبعد الصيت ، وهو الذي قتل الأمين سنة ١٩٨ هـ ولادة المأمون خراسان ، وكان مستقلاً بها ، يؤدي الخراج عن عملها بها ، وتفسير عليه المأمون حينما بلغه أنه امتنع عن الدعاء له على المنبر ، وتوفي بمرور سنة ٢٠٧ هـ (٢) الوصيف : الخادم والخدمة . (٣) فرع راساً : ضربه بالمصا .

فلما قدم الوصيف على المأمون ، وكلمه بما كان من أمره ، ووصف له الحال التي
رآه فيها شاور وزراءه في ذلك ؛ وسألهم عن معناه فلم يعلمه واحد منهم ، فقال المأمون :
الكنى قد فهمت معناه : أما تقر يمه رأسه وجلوسه على اللبَدِ الأبيض فهو يخبرنا أنه
عبد ذليل . وأما المصحفُ المنشور فإنه يذكرنا باليهود التي له علينا ، وأما السيفُ
المسلول فإنه يقول : إن نكثت تلك اليهود فهذا يحكم بيني وبينك . أغلقوا عنا
بابَ ذكره ، ولا تهيجوه في شيء ؛ فلم يهجه المأمون حتى مات !

١٧٥ - هَمْتُ بِالْأَوْطَانِ وَجَدْتُهَا*

سمع طاهرُ بن الحسين عوف بن مُحَمَّ (١) الخزازي ينشد شعراً يقول فيه :
عَجِبْتُ لِحِرَاقَةِ ابْنِ الْحُسَيْنِ كَيْفَ تَعُومُ وَلَا تَفَرِّقُ
وَبَحْرَانِ : مِنْ تَحْتِهَا وَاحِدٌ وَآخَرُ مِنْ فَوْقِهَا مُطَبِّقُ
وَأَعْجَبُ مِنْ ذَلِكَ عَيْدَانِهَا وَقَدْ مَسَّهَا كَيْفَ لَا تُورِقُ !

فأدخله ، وأنشده إياها ؛ ثم اختصه بمناذمته ؛ واختاره لمسامرته ؛ وكان لا يخرج في سفرٍ إلا أخرجه معه ؛ وجعله زميله وأنيسه وعديله ، وكان عوف يستأذنه في الانصراف إلى أهله ووطنه ، فلا يأذن له ، ولا يسمح به ، فلما مات طاهرُ ظنَّ أنه قد تخلص ؛ وأنه سيرُكَّه يلحقُ بأهله ، ويرجع إلى وطنه ، فقرَّبه عبد الله بن طاهر من نفسه ؛ وأنزله منزله من أبيه - وكان عبد الله أديباً فاضلاً عالماً بأخبار الناس - فلما وقف على أدب عوف وفضله تمسَّك به ؛ وأفضلَ عليه حتى كثرَ ماله ، وحسُنَ حاله ، وتلطَّفَ بجهده أن يأذنَ له عبدُ الله في العودِ إلى وطنه ، فلم يكن إلى ذلك سبيل !

وحَقَّقه الشوقُ إلى أهله ، وأهمَّه أمرُهم ، فاتفق أن خرج عبد الله من بغداد يريد خراسان ، فصَيَّرَ عوفاً عديله (٢) ، يستمتع بمسامرته ، ويرتاحُ إلى محادثته ، إلى أن دنا من الرِّى (٣) ؛ فلما شارفها سمع صوتَ عَنَدَ لَيْبٍ يغرَّد بأحسنِ تغريد ،

* معجم الأدياء : ١٦ - ١٤٠ .

(١) أحد العلماء الأدياء الرواة الندباء الشعراء ، اختصه طاهر بمناذمته فبقي معه ثلاثين سنة لا يفارقه . وتوفي نحو سنة ٢٢٠ هـ .

(٢) عديله : يقال عادله في الحمل ، أى ركب معه . (٣) كانت مدينة عظيمة فتحها نعيم بن مقرن في خلافة عمر ، وهى الآن أطلال على مسافة خمسة كيلومترات من طهران

وَأَشْجَى صَوْتٌ ؛ فَأَعْجَبَ عَبْدُ اللَّهِ بِصَوْتِهِ ، وَالتَفَتَ إِلَى عَوْفِ بْنِ مُحَلَّمٍ ، فَقَالَ لَهُ :
يَا بْنَ مُحَلَّمٍ ؛ هَلْ سَمِعْتَ قَطُّ أَشْجَى مِنْ هَذَا الصَّوْتِ وَأَطْرَبَ مِنْهُ ؟ فَقَالَ : لَا وَاللَّهِ
أَيُّهَا الْأَمِيرُ ! وَإِنَّهُ لِحَسَنُ الصَّوْتِ شَجَى النَّغْمَةِ ، مُطْرِبُ التَّغْرِيدِ ، فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ :
قَاتَلَ اللَّهُ أَبَا كَبِيرٍ حَيْثُ يَقُولُ :

أَلَا يَا حَمَامَ الْأَيْكِ إِلْفُكَ حَاضِرٌ وَغُصْنُكَ مَيَّادُ فَقِيمٍ تَنُوحُ
أَفِقٌ لَا تَنْخُ مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ ! فَإِنِّي بَكَيْتُ زَمَانًا وَالْفَوَادُ صَحِيحُ
وَلَوْعًا^(١) فَشَطَّتْ غُرْبَةً دَارُ زَيْنَبٍ فَهَانَا أَبْكِي وَالْفَوَادُ قَرِيحُ

فَقَالَ عَوْفٌ : أَحْسَنَ وَاللَّهِ أَبُو كَبِيرٍ وَأَجَادَ . ثُمَّ قَالَ : أَصْلَحَ اللَّهُ الْأَمِيرُ ؛ إِنَّهُ
كَانَ فِي الْهَذَلَيْنِ مَائَةً وَثَلَاثُونَ شَاعِرًا ، مَا فِيهِمْ إِلَّا مُفْلِقٌ ، وَمَا كَانَ فِيهِمْ مِثْلُ
أَبِي كَبِيرٍ ؛ فَإِنَّهُ كَانَ يُبَدِّعُ فِي شَعْرِهِ ، وَيُفَسِّهُمُ آخِرَ قَوْلِهِ وَأَوَّلِهِ ، وَمَا شَيْءٌ أَبْلَغَ فِي
الشَّعْرِ مِنَ الْإِبْدَاعِ فِيهِ !

قَالَ عَبْدُ اللَّهِ : أَقْسَمْتُ عَلَيْكَ إِلَّا أَجَزْتَ شَعْرَ أَبِي كَبِيرٍ ! قَالَ عَوْفٌ : أَصْلَحَ
اللَّهُ الْأَمِيرَ ! قَدْ كَبِرْتَ سَنَى ، وَفَنَى ذَهْنِي ، وَأَنْكَرْتُ كُلَّ مَا كُنْتُ أَعْرِفُهُ !
قَالَ عَبْدُ اللَّهِ : سَأَلْتُكَ بِحَقِّ طَاهِرٍ إِلَّا فَعَلْتَ ! وَكَانَ لَا يُسْأَلُ بِحَقِّ طَاهِرٍ شَيْئًا إِلَّا ابْتَدَرَ
إِلَيْهِ . فَلَمَّا سَمِعَ عَوْفٌ ذَلِكَ أَنْشَأَ يَقُولُ .

أَفِي كُلِّ عَامٍ غُرْبَةً وَزُوجُ أَمَّا لِلنَّوَى مِنْ وَنِيَّةٍ^(٢) فَتُرِيحُ !
لَقَدْ طَلَّحَ^(٣) الْبَيْنَ الْمِشْتَ رَكَابِي فَهَلْ أُرِينَ الْبَيْنَ وَهُوَ طَلِيحُ
وَأَرَقَنِي بِالرَّيِّ نُوْحُ حَمَامَةٍ فَخُتُّ وَذَوَالْبَثِّ الْغَرِيبُ يَنُوحُ
عَلَى أَنَّهَا نَاحَتْ وَلَمْ تُذَرِ^(٤) دَمْعَةً وَنُخْتُ وَأَسْرَابُ الدَّمُوعِ سَفُوحُ

(١) . وَلَوْعًا : مُصَدَّرٌ وَلَمْ يَبْ : اسْتَخَفَّ شَوْقًا .

(٢) . الْوَنِيَّةُ : الْفَتْرَةُ . (٣) . طَلَّحَ : أَعْيَا . (٤) . لَمْ تُذَرِ : لَمْ تُرْسَلْ مِنْ عَيْنِهَا دَمْعَةٌ ،
وَأَسْرَابُ الدَّمُوعِ : جَوَاغَاتُهَا . سَفُوحُ : مُصَدَّرٌ سَفَحْتُ الدَّمَكَ كَنَعْتُ : صَبَبْتُهُ ، أَوْ سَفَحَ الدَّمَغُ : انْصَبَ

وَنَاحَتْ وَفَرَّخَاها بِحَيْثُ تَرَاهَا وَمِنْ دُونَ أَفْرَاحِي مَهَامِهِ فَيَحُ
أَلَا يَا حَامَ الْأَيْكَ إِلْفُكَ حَاضِرٌ وَغُضُنُكَ مَيَّادُ فَقِيمِ تَنُوحٍ أ
عَسَى جُودُ عَبْدِ اللَّهِ أَنْ يَعْكِسَ النُّوَى فَيُلْقِي عَصَا التَّطَوَّافِ وَهِيَ طَرِيحٌ ^(١)
فَإِنَّ الْغَنَى يُدْنِي الْفَقْرَ مِنْ صَدِيقِهِ وَعُدْمُ الْغِنَى بِالْمُقْتَرِينَ طَرُوحٌ ^(٢)
فَاسْتَعْبِرْ ^(٣) عَبْدَ اللَّهِ ، وَرَقَ لَهُ وَجَرَتْ دُمُوعُهُ ، وَقَالَ لَهُ : وَاللَّهِ إِنِّي لَضَنِينٌ
بِمَفَارِقَتِكَ ، شَحِيحٌ عَلَى الْفَائِتِ مِنْ مُحَاضَرَتِكَ ، وَلَكِنْ وَاللَّهِ لَا أَعَمَلْتُ مَعِيَ خُفَافًا وَلَا
حَافِرًا إِلَّا رَاجِعًا إِلَى أَهْلِكَ ، ثُمَّ أَمَرَ لَهُ بِثَلَاثِينَ أَلْفَ دِرْهَمٍ . فَقَالَ يَمْدَحُ عَبْدَ اللَّهِ وَأَبَاهُ :
يَا بْنَ الَّذِي دَانَ لَهُ الْمَشْرِقَانِ وَأَلْبَسَ الْأَمْنَ بِهِ الْمَغْرِبَانِ ^(٤)
إِنَّ الثَّمَانِينَ - وَبُلَّغَتْهَا - قَدْ أَخْوَجْتُ سَمْعِي إِلَى تَرْجُمَانِ
وَأَبْدَلْتَنِي بِالشُّطَاطِ الْخَنَاسِ وَكُنْتُ كَالصَّعْدَةِ تَحْتَ السَّنَانِ ^(٥)
وَعَوَّضْتَنِي مِنْ زَمَاعِ الْفَقَى وَهَمَّتْ هَمَّ الْجَبَانَ الْهِدَانِ ^(٦)
وَقَارَبْتُ مَنِي خَطَاً لَمْ تَكُنْ مُقَارَبَةً وَثَنْتَ مِنِّي عِنَانِي ^(٧)
وَلَمْ تَدْعُ فِيَّ لِمُسْتَمْتَعٍ إِلَّا لِسَانِي ، وَحَسْبِي لِسَانِي أ
أَدْعُو بِهِ اللَّهَ وَأَتْنِي بِهِ عَلَى الْأَمِيرِ الْمُصْعَبِيِّ الْهَجَانَ ^(٨)
وَهَمْتُ بِالْأَوْطَانِ وَجَدًّا بِهَا وَبِالْفَوَانِي ، أَيْنَ مَنِّي الْفَوَانِي ^(٩)
فَقَرَّبَانِي - بِأَبِي أُنْتَمَا - مِنْ وَطَنِي قَبْلَ اصْفَرَارِ الْبَنَانِ ^(١٠)
ثُمَّ وَدَّعَ عَبْدَ اللَّهِ ، وَسَارَ رَاجِعًا إِلَى أَهْلِهِ ؛ فَمَاتَ قَبْلَ أَنْ يَصِلَ إِلَيْهِمْ !

(١) التطواف : مصدر طاف : وإلقاء عصا التطواف : كناية عن الاستقرار وترك السفر ،
وطريح بمعنى مطروح . (٢) طروح : رام وقاذف ، صيغة مبالغة . والمقتيرين : المضيفين على
عياهم في النفقة . (٣) استعبر : جرت عبرته أي دمعته وحزن . (٤) أي يابن من حكم المشركين ،
وأحل الأمن في المغربين . (٥) الشطاط : الطول وحسن القوام أو اعتداله . والخناس : الانحناء ،
يريد تقوس الظهر . والصعدة : المستوية ، والسنان : حديدتها . (٦) الزماع : المضاء في الأمر ،
والزميع : الشجاع الذي يزمع بالأمر ، ثم لا يثنى عنه ، والهدان : الأحمق الثقيل . (٧) العنان :
سير اللجام . (٨) الهجان : الحسب . (٩) همتم بالأوطان : أحببتها وطلعت بها من الوجد والحزن ،
والفواني : جمع غانية ، وهي المرأة الجيلة الباعمة المستغنية بجمالها . (١٠) كناية عن الموت .
(٢٦ - قصص - أول)

١٧٦ - فِرَاسَة أعرابي *

قال أبو السَّمَرَاء :

خرجنا مع الأمير عبد الله بن طاهر متوجهين إلى مصر ، حتى إذا كنّا بين الرَّمْلَة ^(١) ودمشق إذا نحن بأعرابي قد اعترض ، فإذا شيخٌ فيه بقية ، على بعير له أوزق ^(٢) ، فسلم علينا فرددنا عليه السلام ، وكان معنا إسحاق بن إبراهيم الرافقي ، وإسحاق بن أبي ربيع ، ونحن نسايرُ الأمير ، وكنا يومئذ أفره ^(٣) من الأمير دَوَابَّ ، وأجود منه كَسًا ^(٤) .

فجعل الأعرابي ينظرُ في وجوهنا ، فقلت : يا شيخُ ؛ قد ألححتَ في النظر ! أعرفتَ شيئاً أم أنكرته ؟ قال : لا ، والله ما عرفتكم قبل يومى هذا ، ولا أنكرتكم لسوء أراه فيكم ؛ ولكنى رجلٌ حسنُ الفِرَاسَة في الناس ، جيّدُ المعرفة بهم ؛ فأشرتُ له إلى إسحاق بن أبي ربيع ، فقلت : ماتقول في هذا ؟ فقال :

أرى كاتباً داهي الكتابة بين عليه وتأديبُ العراق منيرُ
له حركاتٌ قد يشاهدنَ إنه عليمٌ بتقسيط الخراج بصير
ونظر إلى إسحاق بن إبراهيم الرافقي ، فقال :

ومُظهر نُسكٍ ماعليه ضميره يحبُّ الهدايا بالرجال مَكُور

* عصر المأمون : ١ - ٤١٣ .

- (١) الرملة : خمسة مواضع ، أشهرها بلد بالشام . (٢) الأوزق من الإبل : ما في لونه بياض إلى سواد ، هو من أطيب الإبل لحماً لا سيراً . (٣) دابة فارغة : نشيطة حادة قوية . (٤) جمر كسوة .

إخال به جبنًا ومُخَلًّا وشيمةً تُخبر عنه إنه لَوَزِيرٌ
ثم نظر إلى ؛ وأنشأ يقول :

وهذا نديمٌ للأُمير وموئسٌ يكونُ له بالقرب منه سرورُ
وأحسبه للشعرِ والعلمِ راويًا فبعض نديم مرةً وسميرُ
ثم نظر إلى الأمير ؛ وأنشأ يقول :

وهذا الأمير المرتجى سَيِّبٌ^(١) كفَّه فإِنْ له فيمن رأيتُ نظيرُ

عليه رداء من جمال وَهَيَّيْبَةٌ ووجهٌ بإدراك النجاح بشير

لقد عُصِمَ الإسلامُ منه بذائدٌ^(٢) به عاش معروفٌ ومات نكيرُ

ألا إنما عبد الإلهِ بن طاهر لنا والدٌ برٌّ بنا وأمير

فوقع ذلك من عبد الله أحسنَ موقع ، وأعجبه ما قال الشيخ ، فأمر له بخمسمائة
دينار ، وأمره أن يصحبه !

(٢) الذائد : الحامى :

(١) السبب : العطاء .

١٧٧ - ثابت الجنان*

قال أحمد بن داود :

ما رأيت رجلاً عُرِضَ على الموت ، ورأى النُّطْعَ مفروشاً والسيِّفَ مسلواً ، ولم يكثرْ لذلك ؛ ولا عَدَلَ به عما أراد إلا تميمَ بنَ جميل ؛ وقد كان خرج على المعتصم في أيام دولته ، وترع يده من الطاعة ؛ وانقطع إلى بعض النواحي ؛ وكان قد عظم أمره على المعتصم ؛ ولقد رأيته وقد جرى به مكتوفاً أسيراً ، وقد اجتمع الناس من الآفاق والنواحي ينظرون كيف يقتله المعتصم ، وكان المعتصم قد جلس له مجلساً ؛ وأمر الناس بالدخول .

ودخل تميم ، وحضر السيِّف وفرش النُّطْع ، وكان تميمٌ حميلَ الوجه تاماً الخَلْقَةُ عَذْبُ المنطق ، فرآه المعتصم غيرَ دَهِش ولا مُكْتَرِثٍ لما نزل به . فأراد أن يستنطقه ليعلم أين عقله في ذلك الوقت ؛ فقال له : يا تميم ؛ إن كان لك عذر فأت به ، فقال :

أما إذ أذن أمير المؤمنين ؛ فالحمد لله الذي جبر بك صدع^(١) الدين ، ولم يك شعث^(٢) المسلمين ، وأنا بك سبيل الحق ، وأخذ بك شهاب الباطل ؛ إن الذنوب يا أمير المؤمنين تُخْرِسُ الألسنة الفصيحة ، وتُعيي الأفتدة الصحيحة ، والله لقد كبر الذنب ، وعظمت الجريمة ، وانقطعت الحجَّة ، وساء الظن ، ولم يبق إلا عفوك أو انتقامك ، وأنت الى العفو أقرب ، وهو بك أشبه وأليق ، ثم أنشد :

* المختار من نوادر الأخبار - مخطوط ، نهاية الأرب : ٦ : ٦١ .
(١) الصدع : الشق . (٢) الشعث : انتشار الأمر .

أرى الموتَ بين السيفِ والنَّطْعِ كما مَنَّا
وأَكْبَرُ ظَنِّي أَنكَ اليَوْمَ قَاتِلِي
وأَيُّ امْرِئٍ يَأْتِي بِمَذْرٍ وَحُجَّةٍ
وما جَزَعِي مِنْ أَنَّ أَمُوتَ وَإِنِّي
ولَكِنْ خَلْفِي صَبِيَّةٌ قَدْ تَرَكْتُهُمْ
كَأَنِّي أَرَاهُمْ حِينَ أُنْعَى إِلَيْهِمْ
فَإِنْ عَشْتُ عَاشُوا سَالِمِينَ بِنِعْطَةٍ
أُذَوِّدُ الرَّدَى عَنْهُمْ، وَإِنْ مِتُّ مَوْتُوا^(٥)

قال : فبكي العتصم حتى ابتلت لحيته وقال : إن من البيان لسحراً ، ثم قال :
يَا تَيْمٍ ؛ كَادَ السِّيفُ أَنْ يَسْبِقَ الْعَفْوَ ، وقد وهبتك لله تعالى ولصبيتك ، وغفرت
لك الصبوة^(٦) ، ثم أمر بفك قيوده ؛ وعقد له الولاية على موضعه الذي كان خرج
منه ، ووصله بشيء كثير .

(١) أفلت : تخلص ونجا . (٢) أصلت السيف : استلته من غمده . (٣) مؤقت : مقدر :
(٤) خش وجهه : لطمه . (٥) موتوا : كثر فيهم الموت . (٦) الصبوة : الرثة .

١٧٨ — إسحاق الموصلي حَكَمَ بين أبيه وابن جامع*

أتى إسحاق أباه إبراهيم الموصلي يوماً مسلماً فقال أبوه : يا بني ، ما أعلم أحداً بلغ من برِّ ولده ما بلغته من برك ، وإني لأستقلُّ ذلك لك ، فهل من حاجة أصيرُ فيها إلى محبَّتِكَ ! فقال : قد كان - جعلتُ فداك - كلُّ ما ذكرتَ فأطال الله بقاءك ! ولكني أسألك واحدة : يموتُ هذا الشيخ غداً أو بعد غد ولم أسمعهُ ، فيقول الناس لي ماذا ؛ وأنا أحلُّ منك هذا الحل ! قال لي : ومن هو ؟ قلت : ابنُ جامع . قال : صدقت ، يا بني أسرجوا^(١) لنا .

فجئنا ابن جامع ، فدخل عليه أبي وأنا معه ؛ فقال : يا أبا القاسم ، قد جئتُك في حاجة فإن شئتَ فاشتئني ؛ وإن شئتَ فاقدِّفني ، غير أنه لا بدَّ لك من قضائها ، هذا عبدُك وابن أخيك إسحاق قال لي كذا وكذا ، فركبتَ معه أسألك أن تُسعِفهُ فيما سأل . فقال : نعم ، على شريطة . تُقيمان عندي أطعمكما مشوشةً^(٢) وقليةً^(٣) ، وأسقيكما وأغنيكما ، فإن جاءنا رسول الخليفة مضيئاً إليه وإلا أقمنا يومنا . فقال أبي : السمع والطاعة ! وأمر بالدواب فرُدَّت .

فجاءنا ابن جامع بالمشوشة والقلية فأكلنا وشربنا ، ثم اندفع ففتَّنا ، فنظرتُ إلى أبي يقلُّ في عيني ، ويمعظمُ ابنُ جامع حتى صار أبي في عيني كلاً شيئاً ! فلما

* الأغاني : ١ - ٩ .

(١) أسرجوا لنا : شدوا على الخيل سروجها لتركبها .

(٢) المشوشة : زيت يضرب مع بياض البيض فيصنم منه طعام دسم . (٣) القلية : مرقعة تتخذ من أكباد الجزر والحومها .

طربنا غايةَ الطَّربِ جاء رسولُ الخليفة ، فركبا وركبتُ معهما ؛ فلما كنا في بعض الطريق ، قال لى أبى : كيف رأيتَ ابنَ جامعِ يا بنى ؟ قلتُ له : أَوْ تُعَفِّينى - جعلتُ فداك ! قال : لستُ أعفِّيك فقل ، فقلتُ له : رأيتك - ولا شيءَ أكبرَ عندى منك - قد صَغُرْتُ فى عيني فى الغناء معه حتى صرتَ كلاً شياً .

ثم مضيا إلى الرشيد ، وانصرفتُ إلى منزلى - وذلك لأننى لم أكن بعد وصلت إلى الرشيد - فلما أصبحتُ أرسل إلى أبى فقال : يا بنى ؛ هذا الشتاء قد هجم عليك وأنت تحتاجُ فيه إلى معونة - وإذا مالٌ عظيمٌ بين يديه - فاصرف هذا المال فى حوائجك ، فقمْتُ فقبَلْتُ يده ورأسه ، وأمرتُ بحمل المال واتبعته ؛ فصَوَّتَ : يا إسحاق ؛ ارجع ؛ فقال لى : أتدرى لِمَ وهبتُ لك هذا المال ؟ قلتُ : نعم ؛ جعلتُ فداك ! قال : لِمَ ؟ قلتُ : لصِدْقِي فيك وفى ابن جامع ، قال : صدقت يا بنى ؛ امضِ راشداً !

١٧٩ — البُخْتَرِيُّ وأبو تمام*

حَدَّثَ الْبُخْتَرِيُّ ^(١) قَالَ . أَوَّلَ مَا رَأَيْتُ أَبَاتَمَامَ ^(٢) أَنِّي دَخَلْتُ عَلَى أَبِي
سَعِيدِ مُحَمَّدِ بْنِ يُونُسَ ، وَقَدْ مَدَحْتُهُ بِقَصِيدَةٍ فَسُرَّ بِهَا أَبُو سَعِيدٍ ، وَقَالَ : أَحْسَنْتَ
يَا فَتَى ، وَأَجَدْتَ !

وَكَانَ فِي مَجْلِسِهِ رَجُلٌ نَبِيلٌ رَفِيعُ الْمَجْلِسِ فَوْقَ مَنْ حَضَرَ عِنْدَهُ تَسْكَادُ تَمَسُّ^٣
رَكْبَتَهُ رَكْبَتَهُ فَأَقْبَلَ عَلَى^٤ ، ثُمَّ قَالَ : يَا فَتَى ؛ أَمَا تَسْتَحْيِي مِنِّي ! هَذَا شَعْرٌ لِي
تَلْتَحِلُهُ وَتَنْشُدُهُ بِحَضْرَتِي ! قَالَ لَهُ أَبُو سَعِيدٍ : أَحَقًّا تَقُولُ ؟ قَالَ : نَعَمْ ! وَإِنَّمَا أَخَذَهُ
مِنِّي فَسَبَقْتَنِي بِهِ إِلَيْكَ وَزَادَ فِيهِ . ثُمَّ انْدَفَعَ فَأَنْشَدَ أَكْثَرَ هَذِهِ الْقَصِيدَةِ حَتَّى شَكَّكْنِي
— عِلْمُ اللَّهِ — فِي نَفْسِي وَبَقِيَّتِي مُتَحَيِّرًا .

فَأَقْبَلَ عَلَى^٥ أَبُو سَعِيدٍ فَقَالَ : يَا فَتَى ؛ قَدْ كَانَ فِي قِرَابَتِكَ لَنَا وَودَّ نَالَكَ مَا يَنْفِيكَ
عَنْ هَذَا ! فَجَعَلْتُ أَحْلِفُ لَهُ بِكُلِّ مُخْرَجَةٍ مِنَ الْإِيمَانِ أَنَّ الشَّعْرَ لِي مَا سَبَقَنِي إِلَيْهِ
أَحَدٌ ، وَلَا سَمِعْتُهُ مِنْهُ وَلَا انْتَحَلْتُهُ . فَلَمْ يَنْفَعْ ذَلِكَ شَيْئًا .

وَأَطْرَقَ أَبُو سَعِيدٍ ، ثُمَّ دَنَانِي حَتَّى تَمَنَيْتُ أَنِّي سُخِّتُ فِي الْأَرْضِ ؛ فَقَمَتَ مُنْكَسِرَ
الْبَالِ أَجْرُ رَجُلٍ وَخَرَجَتْ .

فَمَا هُوَ إِلَّا أَنْ بَلَغْتَ الدَّارَ حَتَّى خَرَجَ الْغُلَامَانِ فَرَدُّونِي . فَأَقْبَلَ عَلَى^٦ الرَّجُلِ فَقَالَ :

* الْأَغَانِي : ١٨ — ١٦٩

(١) هُوَ الْوَلِيدُ بْنُ عِبَادَةَ الطَّائِي ، كَانَ شَاعِرًا مَطْبُوعًا ، قِيلَ : لِأَنَّهُ أَشْهَرُ مِنْ اسْتَحْقَ لِقَبِّ شَاعِرٍ بَعْدَ
أَبِي نُوَّاسٍ . مَاتَ سَنَةَ ٢٨٤ هـ . (٢) هُوَ حَبِيبُ بْنُ أَوْسٍ ، كَانَ يَمْدُ رَأْسَ الطَّبَقَةِ الثَّلَاثَةِ مِنْ شُعْرَاءِ
الْمُحَدِّثِينَ ، وَلَهُ الْحَسَنُ بْنُ وَهْبٍ بِرِيدُ الْمَوْصِلِ ، فَأَقَامَ بِهَا إِلَى أَنْ مَاتَ سَنَةَ ٢٣١ هـ .

الشعرُ لك يا بني ، والله ماقلته قط ، ولا سمعته إلا منك ؛ ولكنني ظننتُ أنك
تَهَاوَنْتَ في موضعي ؛ فأقدمتَ عَلَى الإنشاد بحضرتي ، من غير معرفة كانت بيننا ،
تريدُ بذلك مضاهاتي ومكاثرتي حتى عزّفتني الأمير نسبك وموضعك . ولوددت
ألا تلدَ أبداً طائيةً إلا مثلك .

وجعل أبو سعيد يضحك ، ودعاني أبو تمام وضمتني إليه وعانقني وأقبل يقرّظني .
ولزمته بعد ذلك وأخذت عنه ، واقتديتُ به .

١٨٠ — فِرَاسَة عَضْد الدُولَة *

قدم رجل إلى بغداد للحجّ ، وكان معه عِقْد يساوي ألفَ دينار ، فاجتهد في
بيعه ، فلم يَنْفُقْ ^(١) ؛ فجاء إلى عَطَّار موصوف بالخير ، فأودعه إياه ، ثم حجّ ، وعاده ،
فأتاه بهدية ، فقال له العطار : من أنت ؟ وما هذا ؟ فقال : أنا صاحب العِقْد
الذي أودعتك إياه ؛ فماكله حتى رَفَسَهُ رَفْسَةً رماه عن دُكَّانه ، وقال : تدّعي
علىّ مثل هذه الدعوى !

فاجتمع الناس ، وقالوا للحاج : ويلك ! هذا رجل خير ، وما وجدت من
تدّعي عليه إلا هذا ! فتحيّر الحاج وتردّد إليه ، فما زاده إلا شتماً وضرباً . فقيل له :
لو ذهبتَ إلى عضد الدولة ؛ فله في هذه الأشياء فِرَاسَة !

فكتب قصته ، ورفعها لعضد الدولة ، فصاح به فجاء ، فسأله عن حاله ،
فأخبره بالقصة ، فقال : اذهب إلى العطار بكّرة ، واقعد على دُكَّته ^(٢) ، فإن منعك

* الأذكياء : ٣١ .

(١) نفق ينفق (بضم الفاء) : إذا كثر مشروءه . (٢) الدكة : بناء يسطح أعلاه للقمود .

فاتعد على دكةٍ تقابله من بُكرةٍ إلى المغرب ولا تسكلمه ، وافعل هكذا ثلاثة أيام ،
فإني سأمرُّ عليك في اليوم الرابع ، وأقفُ وأسلم عليك ، فلا تقمُ لي ولا تزِدني على
ردِّ السلام ، وجوابِ ما أسألكَ عنه ، فإذا انصرفتُ فأعِدْ عليه ذكرَ العقد ، ثم
أعلمني ما يقولُ لك ، فإن أعطاكه نجى به إلى .

فجاء إلى دُكانِ العطار ليجلسَ فتمعه ، فجلس على دكةٍ تقابله ثلاثة أيام ،
فلما كان في اليوم الرابع اجتاز عضدُ الدولة في موكبه العظيم ؛ فلما رأى الخراسانيَّ
وقف وقال : سلامٌ عليكم ؛ فقال الخراساني - ولم يتحركْ : وعليكم السلام . فقال :
يا أخي ؛ تقدمُ فلا تأتي إلينا ولا تَقرضُ حوائجك علينا ! فقال : كما اتفق ، ولم
يشبهه الكلام ، وعَضدُ الدولة يسأله ، ويُجِبُ ^(١) وقد وقف ، ووقف العسكر كله ،
والعطار قد أغمى عليه من الخوف .

فلما انصرف التفت العطار إليه . فقال : ويحك ! متى أودعتني هذا العقد ؟
وفي أي شيء كان ملفوفاً ؟ فذكّرني لعلّ أذكره ؛ فقال : من صفته كذا وكذا ،
فقام وفتش ، ونفض جرةً عنده ، فوقع العقد ، فقال : قد نسيتُ ، ولو لم تذكّرني
الحال ما ذكرت ؛ فأخذ العقد ، ثم قال : وأي فائدة لي في أن أعلم عضدُ الدولة ؟
ثم قال في نفسه : لعله يريدُ أن يشتريه ! فذهب إليه فأعلمه ، فبعث به مع الحاجب
إلى دُكانِ العطار ، فعلق العقد في عنقِ العطار ، وصلبه بيباب الدُكان ، ونودي
إليه : هذا جزاء من استودع فجحد ^(٢) . فلما ذهب النهار أخذ الحاجب العقد ،
فسلمه إلى الحاج ، وقال : اذهب به !

(١) أحق السؤال : رددته . (٢) جحد : أنكر .

١٨١ — ملك لا تقتصم الطيور منه *

قصد المنصور بن عامر رجل جوهرى من تجّار المشرق من مدينة عدن ،
بجوهر كثير وأحجار نفيسة ، فأخذ المنصور من ذلك ما استحسّنه ؛ ودفع إلى التاجر
الجوهرى صُرّته - وكانت قطعة يمانية - فأخذ التاجر في انصرافه طريق الرملة
على شطّ النهر ، فلما توسّطها واليوم قانظ ؛ وعرقه منصب ، دعتة نفسه إلى التبرّد
في النهر ، فوضع ثيابه وتلك الصُرّة على الشطّ ، فمرت حدّأة فاخترقت الصُرّة ،
تحسبها لحماً ، وطارَتْ في الأفق ذاهبةً بها .

فقامت قيامة التاجر ؛ وعلم أنه لا يقدر أن يستدفع ذلك بحيلة ، فأسرّ الحزن
في نفسه ، ولحقه لأجل ذلك علة اضطرب فيها ، واستبان للمنصور ما بالرجل من
المهانة والكآبة ، وفقد ما كان عنده من النشاط وشدة العارضة ، فسأله المنصور
عن شأنه ، فأعلمه بقصته ، فقال له : هَلَّا أتيت إلينا حين وقوع الأمر فكنا
نستظهر على ذلك بالحيلة ! فهل هُديت إلى الناحية التي أخذ الطائرُ إليها ! قال :
مرّة شرقاً على سمت ^(١) هذا الجبل الذي يلي قصرِك - يعنى الرملة .

فدعا المنصور شرطيه الخاصّ به ، فقال : جئنى بمشيخة أهل الرملة الساعة ؛
فمضى وجاء بهم سريعاً . فأمرهم بالبحث عن غير حال الإقلال ^(٢) منهم سريعاً ،
وانتقل عن الإضافة دون تدريج ، فتناظروا في ذلك ، ثم قالوا : يا مولانا ؛ ما نعلم
إلا رجلاً من ضعفائنا كان يعملُ هو وأولاده بأيديهم ، ويتناولون السبق

* نفح الطيب : ١ - ١٩٢

(١) السمّت : الطريق . (٢) الإقلال : الفقر .

بأقدامهم ؛ عَجَزًا عن شراء دابة ، فابتاع اليوم دابةً واكتسى هو وولده كسوةً متوسطة .

فأمر بإحضاره من الغد ، وأمر التاجرَ بالعدو إلى الباب فحضر الرجلُ بين يدي المنصور فاستدناه ، والتاجرُ حاضر ؛ وقال له : سببُ ضاع منا وسقطَ إليك ، ما فعلتَ به ؟ قال : هاهو ذا يامولاي - وضرب بيده إلى حُجْزَةٍ ^(١) سراويله ، فأخرج الصرة بعينها - فصاح التاجر طرباً ، وكاد يطير فرحاً .

فقال له المنصور : صِفْ لى حديثها . فقال : بينا أنا أعمل تحت نخلة إذ سقطت أمانى فأخذتها ، وراقنى منظرها ، فقلت : إن الطائر اختلسها من قصرِكَ لقرُبِ الجوار ، فاجتزتُ بها ، ودعنتى فاقتنى إلى أخذ عشرة مثاقيل كانت معها مصرورة ، وقلت : أقلُّ ما يكون فى كرم مولاي أن يسمح لى بها .

فأعجب المنصور ما كان منه ، وقال للتاجر : خُذْ صُرَّتَكَ ، وانظرها ، واصدقنى عن عددها . ففعل ، وقال : وحقُّك يا مولاي ، ماضع منها شيء سوى الدنانير التى ذكرها وقد وهبتها له .

فقال له المنصور : نحنُ أولى بذلك منك ولا تُنغص عليك فرحك ، ثم أمر للتاجر بعشرة دنانير عوضاً عن دنانيره ، وللرجل بعشرة دنانير ثواباً له ، وقال : لو بدأنا بالاعتراف قبل البحت لأوسعناه جزاء !

فأخذ التاجر فى الثناء على المنصور ، وقد عاوده نشاطه . وقال : لأبشَّ فى الأقطار عِظَمَ ملكك ، ولأبينَّ أنك ثلك الطير ، فلا تعتصم منك ، ولا تؤذى جارك !

(١) الحجة من السراويل : موضع النكة .

فضحك المنصور ، وقال : اقصد في قولك يغفر الله لك ! فعجب الناس من تلطف المنصور في أمره وحيلته في تفرج كربه !

١٨٢ - صبي يهجو صبيا *

كان أبو بكر بن المنخل وأبو بكر الملاح متأخيين متصافيين ، وكان لهما ابنان صغيران قد برعا في الطلب ، وحازا قصب السبق في حلبة الأدب ؛ فتهاجى الابنان بأقذع الهجاء ، فركب ابن المنخل في سحر من الأسحار مع ابنه عبد الله ، فجعل يعتب عليه على هجاء الملاح ، ويقول له : قد قطعت ما بيني وبين صديق وصفي أبي بكر في إقذاعك بابنه !

فقال له ابنه : إنه بدائي والبادي أعظم ، وإنما يجب أن يلحى ^(١) من بالشر تقدم ؛ فعذره أبوه .

فبينما هما كذلك إذ أقبل على واد تنق فيه الضفادع ، فقال أبو بكر لابنه أجز :

تنق ضفادع الوادي

فقال ابنه :

بصوت غـــــــــير معتاد

فقال الشيخ :

كأن تقيق مقولهم

* نفع الطيب : ٢ - ٣٠١

(١) يلحى : يلام ويعنف .

فقال ابنه :

بنو الملاح في الوادي

فلما أحسَّتِ الضفادع بهما صممت ، فقال أبو بكر :

وَنَصُمْتُ مِثْلَ صَمْتِهِمْ

فقال ابنه :

إذا اجتمعوا على زاد

فقال الشيخ :

فلا غوث لِمَلْهُوفٍ

فقال الابن :

ولا غيثٌ لمرتاد !

١٨٣ - رسولان *

أقبل المستكني يوما على محمد بن محمد بن يحيى الكاتب ، فقال له : أنعرفُ خبر
الحجاج بن يوسف مع أهل الشام ؟ قال : لا يا أمير المؤمنين ! قال : ذكروا أنَّ
الحجاج كان قد اجتَبَى^(١) قوماً من أهل العراق وَجَدَ عندهم من الكِفَايَةِ ما لم
يَجِدْ عند مُحْتَضِيهِ من الشاميِّين ؛ فشَقَّ ذلك على الشاميِّين ، وتكلَّموا فيه .

فبلغ إليه كلامهم ؛ فركب في جماعة من الفريقين ، وأوغل بهم في الصحراء ،
فلاح لهم من يُعدُّ قِطار^(٢) إبِل ، فدعا برجلٍ من أهل الشام ، فقال له : امضِ فاعرف
ما هذه الأشباح ؟ واستقصِ خبرها . فلم يلبثْ أن جاء وأخبره أنها إبِل ، فقال :
أمحلاةٌ هي أم غيرُ محلاة ؟ قال : لا أدري ؛ ولكنِّي أعود وأنعرِّفُ ذلك !

وقد كان الحجاج أتبعه برجلٍ آخر من أهل العراق ، وأمره بمثل ما كان قد
أمر به الشاميُّ ، فلما رجع العراقيُّ ، أقبل عليه الحجاجُ - وأهلُ الشام يسمعون -
فقال : ما هي ؟ قال : إبِل ، قال وكم عددها ؟ قال : ثلاثون . قال : وما تحمل ؟
قال : زَيْتاً . قال : من أين صَدَرَتْ ؟ قال : مِنْ موضع كذا . قال : ومن رَبُّها ؟
قال : فلان .

فالتفتَ إلى أهل الشام فقال :

أَلَا مُ عَلَى عَمْرٍو ولومات أُونأى لَقَلَّ الذي يُغْنِي غَناءك يا عَمْرٍو

* السعودي : ٢ - ٥٤١ .

(١) اجتباه : اختاره (٢) القطار : أن تشد الإبل على حق ، واحدا حلف واحد .

فقال ابنُ يحيى : قد قال يا أميرَ المؤمنين بعضُ أهلِ الأدبِ في
هذا المعنى :

شرُّ الرّسولين من يحتاجُ مُرْسِلَهُ منه إلى العَوْدِ ، والأمرانِ سَيَّانِ
كذلك ما قال أهلُ العلمِ في مَثَلٍ : طريقُ كلِّ أخى جَهْلٍ طريقانِ
ثم قال المستكفي : ما أحسن ما وصفَ البحتريُّ الرّسولَ بالذكاء بقوله :
وكانَ الذَّكاءُ يَبْعَثُ منه في سَوَادِ الأمورِ شُعْلَةٌ نار

اتهى الباب الخامس ، وهو آخر الجزء الأول

(٢٣ قصص - أول)

١ - فهرس القصص

الباب الأول

في القصص التي تستبين بها مظاهر حياتهم، وأسباب مدينتهم ؛ بذكر أسواقهم
وأجلاّب تجارتهم ؛ والمساكن التي كانت تؤويهم ، وسائر ما كان على عهدهم من
دلائل الحضارة ووسائل المعاش :

رقم القصة	الصفحة	العنوان
١	٨	قوس حاجب بن زرارّة
٢	١٠	فتكة البرّاض
٣	١٢	حياة آل جفنة
٤	١٤	الأعشى والحلقّ
٥	١٦	احتكام الشعراء في عكاظ
٦	١٨	عند كسرى
٧	٢٠	عند النجاشي
٨	٢٢	رسول الله في سوق عكاظ
٩	٢٤	الكرّيم طروب
١٠	٢٦	الأعراب في جهدهم وضنك عيشهم
١١	٢٨	حفل غناء
١٢	٣٧	الغناء يحیی القلب
١٣	٣٩	ضربٌ من التمثيل

العنوان	الصفحة	رقم القصة
وفود ابن مسجح على عبد الملك بن مروان	٤٠	١٤
دعاية للوطن	٤٣	١٥
أى الأم أعقل ؟	٤٤	١٦
قران العلية	٤٧	١٧
في قصور بنى أمية	٥٢	١٨
في دار الفضل بن الربيع	٥٤	١٩
المعتصم في يوم العيد	٥٩	٢٠
رسل الروم عند الناصر	٦٢	٢١
ليلة بمالقة	٦٥	٢٢

الباب الثانى

في القصص التي تتضمن معتقداتهم وأخبار كُهانهم وكواهنهم، وتبسط ما كانوا يعرفون من حقائق التوحيد والبعث، والدار الآخرة، وما كانوا يتوسلون به من إقامة الأوثان، وتعهدها بألوان الزلفى والقرُبان :

العنوان	الصفحة	رقم القصة
قوم عاد يستسقون بمكة	٧٠	٢٣
زيد بن عمرو يتلمس الدين الصحيح	٧٢	٢٤
النعمان بن المنذر ينتصر	٧٣	٢٥
طريقة الكاهنة	٧٤	٢٦
عُفراء ومرثد بن عبد كلال	٧٨	٢٧

العنوان	الصفحة	رقم القصة
كاهنة بنى سعد	٨١	٢٨
كهانة سَطِيح	٨٤	٢٩
مضرع العُزَي	٨٧	٣٠
أمية بن أبي الصلت ورؤيا شق الصدر	٨٨	٣١
أم العوام !	٩٠	٣٢
عمارة بن الوليد والسواحر	٩٢	٣٣
في حفر زمزم	٩٥	٣٤
سيف بن ذى يزن والبشارة برسول الله	٩٨	٣٥
بشارة بحيرى	١٠٢	٣٦
في بعثة رسول الله	١٠٤	٣٧
تطير للنصور	١٠٧	٣٨
المنصور تنعى إليه نفسه	١٠٩	٣٩
رؤيا الرشيد	١١٠	٤٠
تطير الأمين	١١٣	٤١
ذنب لا يطمع صاحبه في غفرانه	١١٥	٤٢
طيرة ابن الرومى	١١٦	٤٣
تطير الرشيد بن المعتمد	١١٨	٤٤
رؤيا	١٢٠	٤٥

الباب الثالث

القصص التي تجلو علومهم ومعارفهم ، وتوضح منها ثقافتهم ، وما كان متداولاً بينهم من مسائل العقل والنقل ؛ التي هدتهم إليها فطرهم ، أو أنهتها إليهم تجاربهم :

رقم القصة	الصفحة	العنوان
٤٦	١٢٢	فراصة أبناء نزار
٤٧	١٢٥	ارعى واحذرى
٤٨	١٢٦	طب الحارث بن كلدة
٤٩	١٣١	حديث قس بن ساعدة مع ملك الروم
٥٠	١٣٧	أعرابي في سفر
٥١	١٣٨	في موت رسول الله
٥٢	١٤٠	عيافة ليهب
٥٣	١٤٢	أبو النشاش وليهب
٥٤	١٤٣	غراب يبشر بموت الحجاج
٥٥	١٤٤	صدق الزاجر
٥٦	١٤٦	علم المأمون وسعة معارفه
٥٧	١٤٨	وفود الفارابي على سيف الدولة

الباب الرابع

القصص التي يُرى بها ما كانوا يتغنّون به من المكارم والمفاخر ، وما كانوا يتذمّون به من المناقص والمعرّات ، سواء أكان ذلك يتعلّق بكلّ منهم في نفسه ، أم فيما يتصل بالأقربين من ذويه ، أم فيما يضم أهل قبيلته ، أم فيما يشمل الناس جميعاً :

رقم القصة	الصفحة	العنوان
٥٨	١٥٢	سبق السيف العذل
٥٩	١٥٥	إيثار ابن مامة الإيادي
٦٠	١٥٦	وفاء السمود
٦١	١٥٧	لا حرّ بوادي عوف
٦٢	١٥٩	مروءة حاتم
٦٣	١٦١	ماوية تتحدث عن كرم حاتم
٦٤	١٦٣	بين حاتم وماوية
٦٥	١٦٥	مروءة ووفاء
٦٦	١٦٩	مكرمة
٦٧	١٧٢	أجاره من الموت
٦٨	١٧٣	يزيد بن عبد المدان عند الحارث بن جفنة
٦٩	١٧٧	إغاثة
٧٠	١٨٠	ارحموا عزيزاً ذلّ
٧١	١٨٢	زعيم العجم وعمر بن الخطاب
٧٢	١٨٣	أبو سفيان عند هرقل

العنوان	الصفحة	رقم القصة
إسلام أبي ذرّ	١٨٧	٧٣
جود عثمان بن عفان	١٨٩	٧٤
ليبد والوليد بن عُقبة	١٩٠	٧٥
الخطيئة والزرقان بن بدر	١٩٢	٧٦
قدوم الخطيئة على عَتِيْبَة بن النّهار	١٩٩	٧٧
فقير عند سعيد بن العاص	٢٠١	٧٨
قصر سعيد بن العاص	٢٠٣	٧٩
معاوية وسعيد بن العاص	٢٠٥	٨٠
كرم معاوية	٢٠٧	٨١
معاوية يعفو	٢٠٩	٨٢
الوفى	٢١٢	٨٣
أسخى من البحر إذا زخر	٢١٤	٨٤
يمجد على مقدار نفسه	٢١٥	٨٥
من حَيْل الكرماء	٢١٧	٨٦
يد عند عبيد الله بن العباس	٢١٨	٨٧
لو بدأت بى !	٢١٩	٨٨
اختبار الأجواد	٢٢١	٨٩
إنّ هذا لأسخى منى	٢٢٣	٩٠
إنا نزل الضيف ولا نرحله !	٢٢٤	٩١
الأخطل محبوبس فى كنيسة	٢٢٥	٩٢
نحارة الفقيه وعبد الملك بن مروان	٢٢٦	٩٣
بين الخنجاج الثقفى ويزيد بن المهلب	٢٢٨	٩٤

رقم القصة	الصفحة	العنوان
٩٥	٢٣٠	زفر بن الحارث يجير خالد بن عتاب
٩٦	٢٣٢	احتكموا وأكثروا
٩٧	٢٣٤	أنت أخو الندى وحليفه !
٩٨	٢٣٦	ما كذب مذ شدّ عليه إزاره
٩٩	٢٣٧	أعطيك مالى إن شئتِ
١٠٠	٢٣٨	الشمعة والسراج
١٠١	٢٣٩	حديث عمر بن عبد العزيز مع ابنه عبد الملك حين احتُضِر
١٠٢	٢٤٠	عفة جرير وفجور الفرزدق
١٠٣	٢٤٢	خالد القسرى وزباد بن عبيد الله
١٠٤	٢٤٤	الفقر خصم للجوع
١٠٥	٢٤٥	يشتكى الفقر
١٠٦	٢٤٦	حدّثنى عن أغرب مامرّ بك
١٠٧	٢٤٨	المنصور وأهله
١٠٨	٢٥٠	هذا بغية أمير المؤمنين
١٠٩	٢٥٢	معن بن زائدة والأسود
١١٠	٢٥٤	عقيد المجد والجود
١١١	٢٥٥	مثلك يُصْطَنع
١١٢	٢٥٦	نعمة عدوك قلادة فى عنق
١١٣	٢٥٧	جود عبد الواحد بن سليمان
١١٤	٢٥٩	أبو حنيفة يرعى الجوار
١١٥	٢٦٠	يربى الله الصدقات

رقم القصة	الصفحة	العنوان
١١٦	٢٦٢	العرق دَسَّاس
١١٧	٢٦٤	إن بعد العُسرِ يُسرًا
١١٨	٢٦٩	لا أسأل سواك ولو سَفِفتُ التراب
١١٩	٢٧١	تيمه وكرم
١٢٠	٢٧٣	لكل جديد لذة
١٢١	٢٧٤	جود البرامكة
٦٢٢	٢٧٩	حسن العفو
١٢٣	٢٨٢	واعظ الرشيد
١٢٤	٢٨٦	أَمْوَى عند الرشيد
١٢٥	٢٩٠	يواسى بعضهم بعضًا
١٢٦	٢٩١	وفى للبرامكة
١٢٧	٢٩٦	أفضل الأصحاب
١٢٨	٢٩٧	ما وَلَدَتِ العربُ أكرمَ منك
١٢٩	٢٩٩	الأصمعي يطلب القرى
١٣٠	٣٠٠	لقد أمكنك الله من الوفاء
١٣١	٣٠٦	إبراهيم بن المهدي والمأمون
١٣٢	٣١٣	من جود أبي دُلَف
١٣٣	٣١٤	عبد الله بن طاهر والحِصْنى
١٣٤	٣١٦	حسن المكافأة
١٣٥	٣١٩	رجوتك دون الناس
١٣٦	٣٢٠	المأمون يعفو عن الحسين بن الضحاك
١٣٧	٣٢٢	وفاء كافور

رقم القصة	الصفحة	العنوان
١٣٨	٣٢٤	درس يُلقى على حاسد
١٣٩	٣٢٧	عفة الشريف الرضى
١٤٠	٣٢٩	أمين

الباب الخامس

القصص التي تعدد غرائزهم وخصالهم ، فتكشف ما طُبعوا عليه من وفرة العقل وحدة الذكاء ، وصدق الفراسة ، وقوة النفس ؛ وما أهلتهم له طبيعة بلادهم ، وأسلوب حياتهم من شريف السجايا ، ومدوح الخصال :

رقم القصة	الصفحة	العنوان
١٤١	٣٣٤	غم من نجا من الموت
١٤٢	٣٣٦	وافق شنّ طبقة
١٤٣	٢٣٨	لن يَبْرَحَ العبدان حتى يُقْتَلَا
١٤٤	٣٣٩	النذير
١٤٥	٣٤٠	حديث عن امرئ القيس
١٤٦	٣٤٣	صحيفة المتلمس
١٤٧	٣٤٥	إن العصا قرعت لذى الحلم
١٤٨	٣٤٧	فطرة
١٤٩	٣٤٨	حذب على إخوته
١٥٠	٣٥٠	نافرنى إلى فتاك فإنه نجيب
١٥١	٣٥٢	أنا أعلم بقريش من قريش

العنوان	الصفحة	رقم القصة
أو قد جئني سالماً	٣٥٤	١٥٢
الأحنف يفعم معاوية	٣٥٥	١٥٣
نوطى عليه يأمر بن التمام	٣٥٦	١٥٤
ذكاء ابن عباس	٣٥٨	١٥٥
عمران بن حطان يتنقل في القبائل	٣٥٩	١٥٦
دهاء عمارة بن تميم اللخمي	٣٦٣	١٥٧
كيف رأيتم فراستى في الأعرابي	٣٦٥	١٥٨
من بدائه الشعراء	٣٦٧	١٥٩
قوة حجة	٣٦٩	١٦٠
إياس في مجلس القضاء	٣٧٠	١٦١
من ذكاء إياس	٣٧١	١٦٢
أدبني فتأدبت	٣٧٢	١٦٣
لا يقبل على إصطناع المعروف مكافأة	٣٧٤	١٦٤
حذر إبراهيم بن هرمة	٣٧٦	١٦٤
النصور ودليله بالمدينة	٣٧٧	١٦٦
فطنة كاتب المنصور	٣٧٩	١٦٧
حيلة طريفة	٣٨١	١٦٧
الأمين والمأمون بين يدي الرشيد	٣٨٤	١٦٩
قرا مجد وفرعا خلافة	٣٨٦	١٧٠
قرتا عين	٣٩٠	١٧١
حيلة وال	٣٩٣	١٧٣
أعطني على قدرى	٣٩٥	١٧٣

العنوان	الصفحة	رقم القصة
طاهر بن الحسين والمأمون	٣٩٧	١٧٤
همت بالأوطان وجداً بها	٣٩٩	١٧٥
فراصة أعرابي	٤٠٢	١٧٦
ثابت الجنان	٤٠٤	١٧٧
إسحق الموصلي بين أبيه وابن جامع	٤٠٦	١٧٨
البحترى وأبو تمام	٤٠٨	١٧٩
فراصة عضد للدولة	٤٠٩	١٨٠
ملك لا تعتصم الطيور منه	٤١١	١٨١
صبي يهجو صبياً	٤١٣	١٨٢
رسولان	٤١٥	١٨٣

٢ — فهرس الأعلام

ابن كعب الخزاعي : ٣٥٥	(١)
ابن مُحَرِّز : ٢٨ ، ٣٠	آمنة بنت وهب : ١٠٠
ابن المقفع : ٤٤	إبراهيم (عليه السلام) : ٧٢ ، ٨٢
ابن اللبابة : ١١٨	إبراهيم بن سليمان : ٢٤٦ ، ٢٤٧
ابن هرمة (إبراهيم بن علي) : ٢٥٧ ، ٢٦٠	إبراهيم بن محمد الإمام : ٣٧٧
أبو إسحق بن المأمون : ٣١٥	إبراهيم بن المهدي : ٥٩ ، ٦٠ ، ٦١
أبو بكر الصديق : ١٣٩ ، ١٨٩ ، ٣٥٢	٦٢ ، ١١٣ ، ١١٤ ، ٣٠٦ ، ٣١٢
أبو بكر الإشبيلي : ١١٨	إبراهيم الموصلي : ٢٧٣ ، ٢٧٤ ، ٣١٢
أبو بكر الملاح : ٤١٣	٢٧٥ ، ٢٧٦ ، ٢٧٧ ، ٢٧٨ ، ٤١٢
أبو بكر بن النخل : ٤١٣	إبراهيم بن هرمة = ابن هرمة
أبو بلال مرداس بن أدية : ٣٦٢	ابن البواب (حاجب المأمون) :
أبو تمام : ٤٠٨ ، ٤٠٩	٣٢٠ ، ٣٢١
أبو حذيفة الطرسوسي : ١١٦	ابن جامع : ٤٠٦ ، ٤٠٧
أبو حنيفة : ٢٥٩	ابن الرومي : ١١٦ ، ١١٧ ، ١٢٠
أبو خالد (وزير المهدي) : ٣١٧	ابن سُرَيْج : ٢٨ ، ٣٠ ، ٣٩ ، ٤٠
أبو دواد الإيادي : ١٩٩	ابن سيرين : ٣٧٤
أبو دلف العجلي (القاسم بن عيسى) :	ابن عائشة : ٣١ ، ٣٩
٣١٣	

إسحاق بن إبراهيم الرافقي : ٤٠٢
 إسحاق بن إبراهيم الموصلي (الغنى) :
 ٥٤ ، ٥٦ ، ٥٧ ، ٥٨ ، ٥٩ ،
 ٦٠ ، ١٢٣ ، ١٣٨ ، ٢٦٤ ، ٢٦٧ ،
 ٤٠٦ ، ٤١٣
 إسحاق بن أبي ربيع : ٤٠٢
 أسد بن خُوَيْلِد : ٩٨
 إسماعيل (عليه السلام) : ٨٢ ، ٩٦
 إسماعيل بن أحمد التجيبي : ٦٥
 إسماعيل بن صبيح : ١٣٣
 الأسود العنسي : ١٧٢
 الأصمعي : ٢٩٧ ، ٢٩٨ ، ٢٩٩ ،
 أعشى قيس : ١٤ ، ١٥ ، ١٦ ، ١٧ ،
 ٣٤ ، ١٧٢
 أعشى همدان : ٤٤
 الأفعى الجرهمي : ١٢٣
 امرؤ القيس الكندي : ١٥٦ ، ٣٤٠ ،
 ٣٤١ ، ٣٤٢ ، ٣٤٧
 الأمين بن الرشيد : ١١٣ ، ٢٥١ ،
 ٣١٥ ، ٣٢٦ ، ٣٨٤ ، ٣٨٥ ،
 ٣٨٦ ، ٣٨٧ ، ٣٨٨ ، ٣٨٩ ،
 أم الحويرث (امرأة من خزاعة) :
 ١٤٠ ، ١٤١

أبو ذؤيب الهذلي : ١٣٨
 أبو ذر الغفاري : ١٨٧ ، ١٨٨
 أبو سفيان بن أمية : ١٨ ، ١٠٤ ،
 ١٠٥ ، ١٠٦ ، ١٨٣ ، ١٨٤ ، ٣٥٠ ، ٣٥١
 أبو طالب بن عبد المطلب : ٨١ ،
 ١٠٢ ، ١٠٣
 أبو عبيدة بن الجراح : ١٣٩
 أبو علي القالي : ٦٤
 أبو عمر يوسف الرّمّادي : ٣٢٤ ، ٣٢٥
 أبو العيناء (محمد بن القاسم) : ٣١٩
 أبو كبير الهذلي : ٤٠٠
 أبو النشاش (أحد لصوص بني تميم) :
 ١٤٢
 أبو نصر الفارابي : ١٤٨
 أحمد بن أبي خالد : ٢٩١ : ٢٩٥ ،
 ٣١٠ ، ٣١٦ ، ٣١٧
 أحمد بن أبي دواد : ١٤٦
 أحمد بن إسماعيل بن علي : ٢٤٨ ، ٢٤٩
 الأحنف بن قيس : ٣٥٥ ، ٣٥٦
 الأحوص بن محمد : ٣٧٧
 الأختل : ٢٢٥
 الأزد (قبيلة) : ٨٠ ، ٣٦١ ، ٣٦٢ ، ٣٦٧

بكر بن وائل (قبيلة) : ٨ ، ٣٣٩

بليلة (مغنية) : ٣٦

البلجاء (امرأة من الخوارج) : ٢١٤

بنو أبي طالب : ٣١٣

بنو الأصفر : ١٨٦

بنو أمية : ٤٣ ، ٥٢ ، ٥٣ ، ٢٤٦

بنو جفنة : ١٢ ، ٣٤٩

بنو زرارعة : ٨ ، ٩

بنو سهم : ٩٣

بنو شيبان : ١٥٧

بنو عبد المطلب : ٢٢ ، ٢٣

بنو عبد مناف : ١٦ ، ٢٢

بنو كعب بن ربيعة : ٢٢

بنو مخزوم : ٨١ ، ٨٢ ، ٩٣ ، ٩٦

بنو المغيرة : ٩٢ ، ٩٣

(ت)

تميم (قبيلة) : ١٦٠ ، ١٧٩

تميم بن جميل : ٤١٠ ، ٤١١

(ث)

ثقيف (قبيلة) : ٩٠

(ج)

جبريل بن جثيشوع : ١١٠ ، ١١٢

أم شذرة : ١٩٢ ، ١٩٣

أمية بن أبي الصلت : ٩٠ ، ٩١ ، ٩٣

أمية بن عبد شمس : ٩٨

أنف الناقة (قبيلة) : ١٩٣

أنمار بن نزار : ١٢٢ ، ١٢٣ ، ١٣٣ ، ١٢٤

أوس بن حارثة : ١٦٩ ، ١٧٠ ، ١٧١

إياس بن معاوية : ٣٦٩ ، ٣٧٠ ، ٣٧١

(ب)

بُجرة بن قيس القشيري : ٢٢ ، ٢٣

البحترى : ٤٠٨ ، ٤٠٩

بحيرى (الراهب) : ١٠٢ ، ١٠٣

بُدَيج : ١٥ ، ٢٥ ، ٣٥٢

البراجم (قبيلة) : ١٥٩

البرأض بن قيس : ١٠ ، ١١

البرامكة : ٤٨ ، ٤٩ ، ٥١ ، ٥٢ ، ٥٦

٢٧٤ ، ٢٩١

برد الفؤاد : ٣٣

برذعة الموسوس : ١١٧

برق الأفق : ٤١

بشر بن أبي خازم : ١٧٠ ، ١٧١

بشر المريسي : ١٤٦

بشر (خادم أبي دلف) : ٣١٣

بنيفض (قبيلة) : ١٩٣ ، ١٩٤ ، ١٩٥

حَبَابَةُ (الغنية) : ٣٥
 الحجاج بن يوسف الثقفي : ١٤٣ ،
 ١٤٨ ، ٢٢٨ ، ٢٢٩ ، ٢٣٠ ، ٢٣٣ ،
 ٣٦٦ ، ٣٦٨ ، ٣٦٩ ، ٣٧٠ ، ٣٧١ ،
 ٤١٥
 حرب بن أمية : ١٠
 حرب بن خالد : ٢٢٤
 حسان بن ثابت : ١٢ ، ١٦ ، ١٧ ،
 ١٤١ ، ١٩٦
 الحسن بن سهل : ٣١٦
 الحسن بن علي : ٢١٩ ، ٢٢٠ ، ٣٥٢
 الحسين بن بدر = الزبرقان بن بدر
 الحسين بن الضحاك : ٣٢٠ ، ٣٢٦
 الحسين بن علي : ٢٠٧ ، ٢٠٨ ، ٢١٤
 ٢١٩ ، ٢٢٠ ، ٣٥٢
 الحصين بن الحمام : ١٧٧
 الخطيئة : ١٧٢ ، ١٩٢ ، ١٩٣ ، ١٩٤ ،
 ١٩٥ ، ١٩٦ ، ١٩٧ ، ١٩٨ ،
 ١٩٩ ، ٢٠٠
 حفص بن سليمان : ٣٧٢ ، ٣٧٨
 الحكم بن عبد الرحمن الناصر : ٦٣ ، ٦٤
 حمدون بن إسماعيل النديم : ٥٩ ، ٦٠ ،
 ٦١ ، ٦٢

حيلة بن الأيهم : ١٢
 جذام (قبيلة) : ١٧٥
 الجرادتان (مغنيتان) : ٧٠ ، ٧١
 جرول بن أوس = الخطيئة
 جرير بن عطية : ٢٤٠ ، ٣٦٧ ، ٣٦٨
 جشم (قبيلة) : ١٧٨
 جعفر بن أبي طالب : ٢٠
 جعفر بن محمد الأنماطي : ١٤٦
 جعفر بن يحيى : ٤٧ ، ٥٥ ، ٥٨ ،
 ٢٦٤ ، ٢٦٥ ، ٢٦٦ ، ٢٦٧ ، ٢٦٨ ،
 ٢٧٣ ، ٢٧٧ ، ٢٨١ ، ٢٩٢ ،
 ٢٩٣ ، ٢٩٤ ، ٣٩٠ ، ٣٩١ ، ٣٩٢
 حيلة المغنية : ٢٨ - ٤٠
 (ح)
 حاتم الطائي : ١٦١ - ١٦٦ ، ١٨٠ ،
 حاجب بن زرارة : ٩٨
 الحارث بن جفنة : ١٧٥ ، ١٧٦
 الحارث بن خالد الخزومي : ٢٨
 الحارث بن ظالم : ١٧٧
 الحارث بن عبد المطلب : ٩٦
 الحارث بن عوف : ١٧٧
 الحارث بن كلالدة : ١٢٦ ، ١٢٧ ، ١٢٨ ،
 ١٢٩ ، ١٣٠

(ر)

رائقة المغنية : ١٢

راقع بن الليث : ١١١

الربيع بن يونس : ٢٥٥ ، ١٠٧ ،

٣٧٨ ، ٣٧٧ ، ٣٧٥ ، ٣٧٤

٣٨٧ ، ٣٨١

ربيعة بن نزار : ١٢٢ ، ١٢٣ ،

١٢٥

ربيعة (قبيلة) : ٢٥٧

رجاء بن حيوة : ٢٨٣

رحمة : ٣٤

الرشيد بن المعتمد : ١٢٠

رُستم (قائد الفرس) : ١٨٢

روح بن زنباع : ٣٥٩ ، ٣٦٠ ،

٣٦١

(ز)

الزبرقان بن بدر : ١٩٢ ، ١٩٣ ،

١٩٤ ، ١٩٥ ، ١٩٦ ، ١٩٩ ،

٢٠٠

الزبرقي القاضي : ٤٩

الزرقاء (المغنية) : ٣٦

زرياب : ٥٣

حنظلة بن أبي سفيان : ١٠٤

حنظلة (مضيف النعمان) : ١٦٥ ، ١٦٨

حنين المغنى : ٤٤

(خ)

خارجة بن يزيد : ١٢

خالد بن برمك : ١٤٥ ، ٤٤

خالد بن عتاب القسرى : ٢٤٢ ،

٢٤٤ ، ٢٤٦

خالد بن عتاب : ٢٣٠ ، ٢٤٣

خالد بن الوليد : ٢١ ، ٩٢

خزيم بن نوفل : ١٥٣ ، ١٥٤

خُلَيْدَة : ٣٦

خُثاعة بنت عوف بن مُحَلَّم : ١٥٧

الخنساء : ١٦ ، ١٧

(د)

داود بن سلم : ٢٢٤

داود بن يزيد المهلبى : ٣٩٥

دُبَيْة بن حَرَمَى الشيبانى : ٨٧

دحمان الأشقر : ٤٠

دريد بن الصمة : ١٧٣

الدَّلال : ٣٣

(ذ)

• ذؤاب بن أسماء : ١٦٣

٢٠٢، ٢٠٣، ٢٠٤، ٢٠٥،

٣٤٨، ٣٤٩

سعيد بن عثمان : ٣٨١، ٣٨٢،

٣٨٣

سعيد بن مسجع : ٢٨، ٣٠،

٤٢، ٤٣

سعيد بن النعمان بن ثواب العبدى :

١٥٢، ١٥٤

السفاح (الخليفة العباسى) : ٢٢٨،

٣٧٢، ٣٧٣

سفانة بنت حاتم : ١٦١، ١٨٠،

سفيان بن عيينة : ٢٨٢

سلامة (المغنية) : ٣٥

سليم الأسود (خادم المنصور) ٢٤٨

سليمان بن عبد الملك : ٢٢٨، ٢٢٩،

٢٣٢، ٢٣٣، ٢٣٦، ٢٣٧،

٣٤٢، ٣٤٣

سليمان بن كثير : ٣٧٢، ٣٧٣،

السموئل : ١٥٦، ١٥٧

سنان بن أبي حارثة : ١٧٧

سنان (وصيف طريفة الكاهنة) ٧٤

سَوَادَة بن الخطيئة : ١٩٢

(٢٨ - قصص أول)

زفر بن الحارث الكلابي : ٢٣٠،

٣٦١

زهير بن أبي سلمى : ١٩٩

زياد بن أبيه : ٢٠٩

زيادة بن عبيد الله : ٢٤٢، ٢٤٣،

زيد بن عمرو : ٧٢

(س)

ساعدة بن النعمان بن ثواب العبدى :

١٥٢، ١٥٣، ١٥٦

سالم بن عبد الله : ٢٧٤

سالم (مولى أبي حذيفة بن عتبة) :

١٣٩

سبأ : ٧٤، ٨٧

سطيح الكاهن : ٨٤، ٨٥، ٨٦

سعد (قبيلة) : ١٧٩

سعد بن عبادة : ١٣٨

سعد بن مالك : ٣٤٥

سعد بن النعمان بن ثواب العبدى : ١٨٨

سعدى (أم أوس بن حارثة) ١٧٠

١٧١

سعدة (مغنية) : ٣٦

سعيد بن المعاص : ١٩٩، ٢٠٠، ٢٠١،

سوار : ٢٦٠ ، ٢٦١

سيف الدولة بن حمدان : ١٤٩ ، ١٤٨

(ش)

شبيب بن شيبه : ٤٤ ، ٣٦٨

شُرْحَبِيل بن السَّمُط : ٢٠٥

الشريف الرضى : ٣٢٧ ، ٣٢٨

الشريف المرتضى : ٣٢٧ ، ٣٢٨

شريك بن عمرو : ١٦٦ ، ١٦٧

شَمَّاس بن لَأْي : ١٩٤ ، ١٩٥

الشَّمَّاسِيَّة (المغنية) : ٣٦

شمول (غلام صقلي) : ٦٦

شنّ (صاحب طبقة) : ٣٣٦ ، ٣٣٧

(ص)

صَخْر بن عمرو : ١٧

(ض)

ضَبَاعَة بنت عامر : ٢٣ -

ضَعَف (المغنية) : ١١٣

(ط)

طاهر بن الحسين : ٤١٢ ، ٤١٣

طبقة (صاحبة شنّ) : ٣٣٦ ، ٣٣٧

طرفه بن العبد : ٣٤٣ ، ٣٤٤

طريفة الكاهنة : ٧٤ ، ٧٥ ، ٧٦

طلحة بن عبيد الله : ٢٣٤ ، ٢٣٥

طويس (المغني) : ٣٣

طيّ (قبيلة) : ١٦٠ ، ١٨٠

(ع)

عائشة بنت جعفر البرمكي : ٤٩

عاتكة بنت يزيد بن معاوية :

٣٧٧ ، ٣٧٨

عاد (قبيلة) : ٧٠ ، ٧١

العاص بن وائل : ٩٢ ، ٩٣

عامر بن صعصعة (قبيلة) : ٢٢ ، ٢٣

عامر بن الطفيل : ٢٧ ، ١٧٢

عامر بن الظرب العدواني : ٣٣٤

عامر بن مالك : ١٧٤

العباس بن عبد المطلب : ١٠٤ ،

١٠٥ ، ١٠٦ ، ٢٨٤ ، ٣٥٠ ،

٣٥١

العباس بن المأمون : ٣١٥

العباس (صاحب شرطة المأمون) : ٣٠٣

عبد الرازيق بن همام : ٢٨٢

عبد الرحمن بن إبريق الأزدي : ١٤٠

عبد الرحمن بن الأشعث : ٣٦٣

عبد الرحمن بن حسان بن ثابت : ١٢٠

عبد الرحمن بن ملجم : ٣٥٩ ، ٣٦٠

١٠١، ١٠٠، ٩٩

عبد الملك بن صالح : ١٣١

عبد الملك بن عمر بن عبد العزيز : ٢٣٩

عبد الملك بن عمير : ٣٤٧، ٣٤٠

عبد الملك بن مروان : ٢٢٦، ٤٤، ٤٢

٣٦٥، ٣٥٩، ٢٣٧، ٢٣١، ٢٣٠

٣٦٤، ٣٦٣

عبد الواحد بن سليمان : ٢٥٨، ٢٥٧

عبيد بن الأبرص : ١٩٩، ١٢٧

عبيد الله بن زياد : ٢١٣، ٢١٢

عبيد الله بن العباس : ٢١٥، ٢١٤

٢١٨، ٢١٧، ٢١٦

عبس (قبيلة) : ١٥٧

عُتَيْبَةُ بن النُّهَاس : ٢٠٠، ١٩٩

عثمان بن حيان المرمي : ٢٣٣، ٢٣٢

عثمان بن عفان : ٩١، ٨٩

عثمان بن سليمان : ٢٦٢

عدى بن أُرطاة : ٣٧٤

عدى بن حاتم : ١٨٠، ١٦٣، ١٦١

١٨١

عدى بن زيد : ٧٣، ٤٥

عَرَابَةُ الأَوْسَى : ٢٢٢، ٢٢١

عبد الرحمن الناصر : ٦٣، ٦٢

عبد عمرو (ابن عم طرفة) : ٣٤٣

عبد قيس بن خُفَّاف البَرْجُمِي : ١٥٩

عبد الله بن أبي ربيعة : ٩٤

عبد الله بن جُدعان : ٩٨

عبد الله بن جعفر : ٣٢، ٢٥، ٢٤

٢٢٣، ٢٢١، ٢٢٠، ٢١٩

عبد الله بن حاتم : ١٦١

عبد الله بن حُذَافَةَ السَّمِي : ١٠٥

عبد الله بن الزبير : ٣٥٢، ٢٢١

عبد الله بن صفوان : ٣٥٣، ٣٥٢

عبد الله بن طاهر : ٣١٥، ٣١٤

٤٠١، ٣٩٩

عبد الله بن عباس : ٣٥٨

عبد الله بن عمر : ٣٥٢

عبد الله بن معاوية بن أبي سفيان :

٣٥٦

عبد الله بن هاشم بن عتبة : ٢٠٩

عبد المسيح بن عمرو : ٨٥، ٨٤

٨٦

عبد المطلب بن هاشم : ٨٢، ٨١

٩٨، ٩٧، ٩٦، ٩٥، ٨٣

٣٥٢، ١٩٨، ١٩٧، ١٩٦
 عمرو بن عبد العزيز : ٢٣٦، ٢٣٧ ،
 ٢٣٨ ، ٢٣٩ ، ٢٤٠ ، ٢٤١ ،
 ٢٨٤ ، ٣٦٩
 عمرو بن هبيرة : ٢٣٢، ٢٣٣ ، ٣٤٠
 عمرو بن أمية الضمري : ٢٠
 عمران بن حطان : ٣٥٩ ، ٣٦٠
 ٣٦٢، ٣٦١
 عمران بن مهران : ٣٩٣، ٣٩٤
 عمرو بن سعيد بن العاص : ٢٠٣ ،
 ٢٢٤ ، ٣٤٨، ٣٥٩
 عمرو بن شأس : ٣١
 عمرو بن العاص : ٢٠ ، ٢١ ، ٩٢ ،
 ١٩٧، ٢٠٩، ٢١٠، ٢١١
 عمرو بن عامر مزيقياء : ٧٤، ٧٥، ٧٦
 ٧٧ ، ٧٩ ، ٨٠
 عمرو بن قارب : ١٥٧
 عمرو بن مالك : ٣٤٥
 عمرو بن مسعدة : ٥١
 عمرو بن هند : ١٥٨، ٣٤٣
 عوف بن حلم : ١٥٧ ، ١٥٨
 عوف القوافي : ٢٣٤
 عيسى (عليه السلام) : ٧٣

عمرار بن عمرو بن شأس : ٣١
 المرَجى : ٢٨
 عروة بن عتبة بن جعفر (الرحال) :
 ١١، ١٠
 عزة (مغنية) : ١٢، ٢٥، ٣٥
 عطارد بن حاجب : ٩
 عفراء الكاهنة : ٧٨، ٧٩، ٨٠
 عقيل بن أبي طالب : ٢٠٧
 عقيلة (المغنية) : ٣٦
 علقمة بن علاثة : ١٧٢
 علويه : ٥٢، ٥٤، ٥٥، ٥٨
 علي بن إبراهيم : ١١٦
 علي بن أبي طالب : ١٨٠ ، ١٨٧ ،
 ٢٢٣ ، ٣٦٠
 علي بن محمد : ٤٧
 حمارة بن تميم اللخمي : ٣٦٣ ، ٣٦٤
 حمارة بن حمزة : ١٤٤، ١٤٥، ٢٧١ ،
 ٢٧٢
 حمارة الفقيه : ٢٢٦ ، ٢٢٧
 حمارة بن الوليد : ٩٢، ٩٣، ٩٤
 عمر بن أبي ربيعة : ٢٨ ، ٢٩ ، ٣٠ ،
 ٣٥ ، ٣٥٨
 عمر بن الخطاب : ٩٤ ، ١٣٩ ، ١٨٢ ،

أبو العيناء : ٣١٩

(غ)

الغريض : ٢٨ ، ٣١ ، ٣٩

غسان (قبيلة) : ٣٦٠

غفار (قبيلة) : ١٨٩ ، ١٩٠

غَيَّالان بن سلمة : ١٨

غَيَّالان بن خرشة : ٢٦ ، ٢١٢

(ف)

فاطمة (زوج عمر بن عبد العزيز) : ٢٣٧

الفرزدق : ٢٤٠ ، ٢٤١ ، ٣٦٧ ، ٣٦٨

الفضل بن الربيع : ٥٤ ، ٥٥ ، ٥٦

٥٨ ، ٦٠ ، ١٠٩ ، ٢٧٠ ، ٢٨٢

الفضل بن يحيى : ٥٠ ، ٥٤ ، ١٣١

١٣٦ ، ٢٦٩ ، ٢٧٠ ، ٢٧١ ، ٢٧٢

٢٧٣ ، ٢٧٦ ، ٢٨٠ ، ٢٩٣ ، ٢٩٥

٣١٦ ، ٣١٨ ، ٣٩٠ ، ٣٩١ ، ٣٩٢

الفضيل بن عياض : ٢٨٢ - ٢٨٥

(ق)

القاسم بن ربيعة : ٣٦٩

قراد بن أجدع : ١٦٧ ، ١٦٨

قرش (قبيلة) : ١٨ ، ٢٠ ، ٢٢

٢٣ ، ٨٢ ، ٩٢ ، ٩٦ ، ٩٧ ، ٩٨

١٠١ ، ١٠٣ ، ١٥٣ ، ١٨٥ ، ١٨٨

القرعبيون : ١٩٤

قس بن ساعدة : ١٣١ ، ١٣٤ ، ١٣٥

الققعاق بن حبيب : ٢٣٢

قيس بن سعد بن عبادة : ٢٢١ ، ٢٢٤

قيس بن عاصم المنقري : ١٧٧

قيس (قبيلة) : ٢٣٢

قيصر (ملك الروم) : ١٥٦

قَيْل بن عُنُق : ٧٠

(ك)

كافور الإخشيدى : ٣٢٢

كثير عزة : ١٤٠ ، ١٤١

الكسائي : ٣٨٦ - ٣٩٠

كسرى : ٩ ، ١٨ ، ١٩ ، ٨٤ ، ٨٦

١٢٦ ، ١٢٧ ، ١٣٠

كعب (صحابي) : ١٣٧

كعب بن مامة : ١٥٥

كندة (قبيلة) : ١٥٦

(ل)

لؤي بن غالب : ٢١٣

ليد بن ربيعة : ١٩٠ ، ١٩١

لخم (قبيلة) : ٣٦٠

لقمان بن عاد : ٧٠

لهب (قبيلة) : ١٤٠ ، ١٤٢

محمد بن عبد الرحمن الهاشمي : ٣٩٠

٣٩١ ، ٣٩٢ ، ٣٩٣

محمد بن عبد الله (الرسول ﷺ) :

٢٠ ، ٢١ ، ٢٢ ، ٢٣ ، ٨٤ ، ٨٧ ، ١٠٠

١٠٢ ، ١٠٣ ، ١٠٤ ، ١٣٨

١٣٩ ، ١٨٠ ، ١٨١ ، ١٨٩

٢٨٤ ، ٣٥٢

محمد بن عبد الله (مولى يحيى بن خالد) :

٢٩١ ، ٢٩٢ ، ٢٩٣ ، ٢٩٥

محمد بن الفضل الخراساني : ٣١٤

٣٧٩ ، ٣٨٠

محمد بن محمد بن يحيى : ٤١٥ ، ٤١٦

محمد بن هشام بن عبد الملك : ٣٧٤

٣٧٥

محمد بن يزيد الأموي الحصني : ٣١٤

٣١٥

مخارق المغني : ٥٤ ، ٢٧٣ ، ٢٧٤

٢٧٥ ، ٢٧٦ ، ٢٧٧ ، ٢٧٨

مذحج (قبيلة) : ١٧٨

مرثد بن عبد كلال : ٧٨ - ٨٠

مرداس بن حدير : ٢١٢ ، ٢١٣

مروان بن الحكم : ١٤٢

مروان بن زنباع : ١٥٧ ، ١٥٨

ليث بن مالك : ١٥٧

(م)

المأمون (الخليفة العباسي) : ٤٩ ، ٤٧

٥١ ، ٥٢ ، ٥٤ ، ٥٥ ، ١٣١

١٤٦ ، ١٤٧ ، ٢٤٩ ، ٢٩١

٢٩٢ ، ٢٩٧ ، ٣٠٠ ، ٣٠٧

٣١٠ ، ٣١١ ، ٣١٢ ، ٣١٧ ، ٣١٩

٣٢٠ ، ٣٢١ ، ٣٨٤ ، ٣٨٥ ، ٣٨٨

٣٨٩ ، ٣٩٠ ، ٣٩٧ ، ٣٩٨

مازن (قبيلة) : ٢٦٢

مالك بن أبي السمع (المغني) : ٣٢ ، ٣٩

مالك (ابن حاتم الطائي) : ١٦٤

ماوية (زوج حاتم الطائي) : ١٦١ ، ١٦٢

١٦٣ ، ١٦٤

مبارك التركي : ١٤٤

المتلس : ٣٤٣ ، ٣٤٤

المخلق . ١٤ ، ١٥ ، ١٦

محمد بن إبراهيم الإمام : ٢٦٩ ، ٢٧٠

محمد بن حميد الطوسي : ٢٩٦

محمد بن خلف (وزير بهاء الدولة) :

٣٢٧ ، ٣٢٨

محمد بن زيد بن علي : ٣٧٤ ، ٣٧٥

محمد بن عبد البر الكيسانى : ٢٦٠

مزاحم (مولى عمر بن عبد العزيز)
 ٢٣٩
 المستكنى بالله : ٤١٥، ٤١٦
 مسرور (خادم الرشيد) ١١٢
 مسلم بن عقبة المرى : ٢٠٦، ٢٠٥
 مسلم بن عقيل : ٢٠٧، ٢٠٨
 المسيب بن زهير : ١٤٥
 مضر (قبيلة) : ٨
 مضر بن نزار : ١٢٢، ١٢٣، ١٢٤
 معاوية بن أبي سفيان : ٢٤، ٢٥
 ٢٠٣، ٢٠٥، ٢٠٦، ٢٠٧، ٢٠٨ —
 ٢١١، ٢١٤، ٢١٥، ٢١٦، ٢١٧
 ٣٥٤، ٣٥٥، ٣٥٦، ٣٥٧
 معاوية بن بكر : ٢٧٢
 معاوية بن عبيد الله بن يسار : ٣٨٤، ٣٩٥
 معبد (المنفى) : ٣٠
 المعتصم (الخليفة العباسى) : ٥٩-٦٢،
 ٤١٠، ٤١١
 معن بن أوس : ٣٠
 معن بن زائدة : ٢٥٢، ٢٥٣، ٢٥٤
 ٢٥٥، ٢٥٦، ٢٥٧
 مكشوح (قيس بن عبد يغوث) المرادى :
 ١٧٣، ١٧٩

ملاعب الأسنة = عامر بن مالك
 مليكة بنت الخطيئة : ١٩٥
 المنذر بن سعيد : ٦٢، ٦٤
 المنذر بن المغيرة : ٤٨
 المنصور بن أبي عامر : ٧٠، ٣٢٤،
 ٣٢٥، ٤١١، ٤١٢، ٤١٣
 منصور بن زياد : ٢٧٩، ٢٨٠
 المنصور (الخليفة العباسى) : ١٠٧،
 ١٠٩، ١٤٤، ١٤٥، ٢٤٦،
 ٢٤٨، ٢٥٢، ٢٥٥، ٢٥٦،
 ٣٧٤، ٣٧٦، ٣٧٧، ٣٧٨
 المهدي (الخليفة العباسى) : ٢٦٠،
 ٢٦١، ٣١٦، ٣١٧، ٣٧٩، ٣٨١
 ٣٨٢، ٣٨٣
 موسى (عليه السلام) : ١٠٥
 موسى بن يحيى البرمكى : ٥٠
 (ن)
 النابغة الجعدي : ١١٣
 النابغة الذبياني : ١٦، ١٧، ٢٧٣
 نافع بن الأزرق : ٣٦٣
 نافع بن طنبورة (المنفى) : ٣٢
 نزار بن معد : ١٢٢
 النعمان بن ثواب العبدى : ١٥٢، ١٥٣

هود (عليه السلام) : ٧٠

(و)

الواقدي : ٣٠٦

الوليد بن عبد الملك : ٢٢٨ ، ٢٢٩ ،

٢٣٢ ، ٢٣٤ ، ٢٣٧ ، ٢٤٠ ، ٢٤٢

الوليد بن عقبة ١٩٠

(ى)

يحيى بن أكرم : ٣١٩

يحيى بن خالد البرمكى : ٤٧ ، ٤٩ ،

٥٠ ، ٥٧ ، ٥٨ ، ١٤٤ ، ١٤٥ ،

٢٧٣ ، ٢٧٥ ، ٢٨٠ ، ٢٨١ ، ٢٩١ ،

٢٩٢ ، ٢٩٣ ، ٣١٦ ، ٣١٧ ، ٣٣٢ ،

٣٨٤ ، ٣٨٥ ، ٣٩٣

يحيى (حاجب يزيد بن المهلب) : ٢٣٣

يزيد بن المهلب : ٢٢٨ ، ٢٢٩ ،

٢٣٢ ، ٢٣٣

يزيد بن عبد المدان : ١٧٣ ، ١٧٤ ،

١٧٥ ، ١٧٦ ، ١٧٨ ، ١٧٩

يزيد بن عمرو : ١٧٣

يزيد بن شجرة الزهرى : ٢٠٥

يزيد بن معاوية : ٣٥٦ ، ٣٥٧

يهود : ١٠٥ ، ١٠٦ ، ١٨٣ ، ١٨٤

النعمان بن المنذر : ١٠ ، ٧٣ ، ٨٤ ،

١٦٥ ، ١٦٦ ، ١٦٧ ، ١٦٩ ، ١٧٠ ،

١٧١ ، ١٧٤ ، ١٧٥ ، ٣٤٥ ، ٣٤٦

النمر بن قاسط (قبيلة) : ١٩٤

نومة الضحى (مغنية) ٣٣

(هـ)

هارون الرشيد : ١١٠ ، ١١١ ، ١١٢ ،

٢٦٤ ، ٢٦٨ ، ٢٦٩ ، ٢٧٠ ، ٢٧٤ ،

٢٧٩ ، ٢٨١ ، ٢٨٢ ، ٢٨٤ ، ٢٨٥ ،

٢٨٦ - ٢٨٩ ، ٣٢١ ، ٣٨٤ ، ٣٨٥ -

٣٨٩ ، ٣٩٠ ، ٣٩٣ - ٣٩٤ ، ٤٠٧

هاشم بن حرمة : ١٧٧

هاشم بن عقبة : ٢٠٩

هبة الله (مغنية) : ٣٤

هذيل (قبيلة) ٢٦٢

الهذيل بن زفر : ٢٣٢

هرقل : ١٨٣ ، ١٨٤ ، ١٨٥ ، ١٨٦

الهرمزاني : ١٨٢

هشام بن عبد الملك : ٢٤٢ ، ٢٥٦

هند (أم معاوية بن أبي سفيان) : ٣٥١

هند (زوج الزبرقان بن بدر) : ١٩٣

٣- فهرس الأما كن

(ح)	(أ)
الحبشة : ٩٨،٩٤	أحياد : ٢٩
الحجاز : ٢٨، ١٨٤	أصبهان : ٣٦٦، ٣٦٥
الحديبية : ١٨٥	(ب)
الحرّة : ٢٣٠	البحرين : ٣٤٤، ٣٤٣
حصص : ١٨٥	البصرة : ٢٦٤، ٢٦٢، ٢٠٩
الحيرة : ١٢، ٤٣، ٤٤، ٢٤٦، ٢٤٧	بصري : ٣١، ١٠٢، ١٨٤
خراسان : ٣٩٧	بطن نخلة : ٨٧
خير : ١١	بغداد : ٤٨، ١٠٧، ١٤٦، ٣٠٠،
خيف : ٢٩	٤٠٩، ٣٠٤، ٣٠٢
(د)	البقيع : ٢٠٣
دمشق : ٤١، ٤٨، ٥٢، ٥٣، ١٤٨،	(ت)
٢٠٩، ٢١٨، ٢٢٥، ٢٥٧، ٣٠٠،	تهامة : ١٠، ١٠٣
٣٠٣، ٣٠١	(ج)
الهناء : ٣٣٩	جاسم : ٣٢
دومة الجندل : ٣٣٩	الجدّان : ٣٤
(ذ)	جمع : ٤٨
ذو مرخ : ١٩٦	

(غ)	(ر)
غرناطة : ١١٨	الركة : ٢٤٩ ، ١١٢ ، ١١٠
غزة : ١٨٤ ، ١٨٣	الرملة : ٤٠٢
(ف)	الرى : ٤٠٠ ، ٣٠٦ ، ٢٧٠ ، ٢٤٣ ، ٢٣٠
الفرع : ٣٤	(ز)
(ق)	الزهراء : ٦٥ ، ٦٢
قرطبة : ٦٢	(س)
قرقرى : ١٩٢	ساوة : ٨٥ ، ٨٤
قصوان : ٨	(ش)
(ك)	الشام : ٨٥ ، ٨٢ ، ٧٢ ، ٥٢ ، ٤١ ، ٢٤
كافر (نهر) : ٣٤٤	١٨٦ ، ١٨٤ ، ١٠٢ ، ٩٦ ، ٩٠
كداء : ١٠٦	٢٤٢ ، ٢٣٠ ، ٢٢٥ ، ٢٠٥ ، ١٩١
(ل)	٣٤٩ ، ٣٢٧
لحج : ٢٩	(ص)
(م)	صفين : ٣٥٧ ، ٢١١ - ٢٠٩
مأرب : ٧٧	الصمان : ٣٣٩
مالقة : ٦٥	(ط)
محسر : ٣٨	الطائف : ١٩
المدينة : ٢٩ ، ١٩٩ ، ٢٠٣ ، ٢١٥ ، ٢١٦	طوس : ١١١
٢٥٧ ، ٢٤٠ ، ٢٣٧ ، ٢٣٢	(ع)
المربد : ٤٤	عدن : ٢٩
	العراق : ٢٤٢ ، ٢٣٢ ، ٢٠٩ ، ١٩٢ ، ١٨

نجران : ١٧٩، ١٢٢	مصر : ٤٠٢، ٣٢٢، ٣١٤، ٢٣٦
نهر عيسى : ٣٢٨	مكة : ٩٣، ٧٠، ٤٠، ٢٨ : ٢١، ١١
(ى)	١٩٣، ١٠٦
يثرب : ١٠١	الموصل : ١١٥
البيامة : ١٤	(ن)
العين : ١٠٤، ٢٩	نجد : ١٠

٤ — مراجع القصص

أخبار الأذكياء	: لابن الجوزي
أدب الدنيا والدين	: للماوردي
أسواق العرب	: لسعيد الأفغاني
الأصنام	: لابن الكلبي
الأغاني	: لأبي الفرج الأصفهاني
أمالى الزجاجي	
أمالى أبي علي القالي	
أنباء نجباء الأبناء	: لابن ظفر الصقلي
بدائع البدائع	: لعلي بن ظافر الأزدي
البداية والنهاية	: لابن كثير
بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب	: للألوسي
التجريد الصحيح لأحاديث الجامع الصحيح	: للزيدي
تاريخ الأمم والملوك	: لابن جرير الطبري
ثمار القلوب في المضاف والمنسوب	: للثعالبي
ثمرات الأوراق	: لابن حبة الحموي
الجمهرة	: لأبي زيد الخطابي
خزانة الأدب	: للبغدادى
ذيل زهر الآداب	: للعصري

زهر الآداب	: للحصري
السيرة النبوية	: لابن هشام
السيرة الحلبية	: لنور الدين بن برهام الحلبي
سيرة عمر بن عبد العزيز	: لابن عبد الحكم
شرح ديوان الحماسة	: للمرصفي
شرح المختار من شعر بشار	: للخالدين
شرح نهج البلاغة	: لابن أبي الحديد
عصر المأمون	: للدكتور فريد رفاعي
العقد الفريد	: لابن عبد ربه
العقد الفريد للملك السعيد	: لأبي سالم محمد بن أبي طلحة
عين الأدب والسياسة	: لأبي الحسن علي بن هذيل
عيون الأخبار	: لابن قتيبة
غرر الخصاص الواضحة	: لأبي إسحاق الطوطا
الفرج بعد الشدة	: للتونسي
الكامل في التاريخ	: لابن الأثير
الكامل في الأدب	: للمبرد
مجانى الأدب	: للأب لويس شيخو
مجمع الأمثال	: للميداني
الحاسن والأضداد	: للجاحظ
الحاسن والمساوي	: للبيهقي
محاضرات الأبرار	: لابن عربي
المختار من نواذر الأخبار (مخطوط)	: لمحمد بن أحمد الأنباري
مروج الذهب	: للمسعودي

المستطرف في كل فن مستظرف	: للأشبهى
المطالعة العربية	: للمسترو . رايت بالمتحف البريطاني
معجم الأدباء	: لياقوت
معجم البلدان	: لياقوت
معاهد التنصيص	: لبدر الدين العباسي
المنتقى من أخبار الأصفى	
مهذب الأغاني	: للشيخ الخضرى
النجوم الزاهرة	: لابن تفرى بردى
نقح الطيب	: للمقرى
نقائض جرير والفرزدق	: لأبى عبيدة
نهاية الأرب	: للنويرى
الوزراء والكتاب	: للجهمشيارى
وفيات الأعيان	: لابن خلكان

٥ — مراجع الضبط و الشرح والتحقيق والتراجم

أساس البلاغة	: للزمخشري
الأعلام	: للزركلي
تاريخ آداب اللغة العربية	: لجورجي زيدان
تاريخ الأمم الإسلامية	: للخضري
رغبة الآمل من كتاب الكامل	: للمرصني
شرح ديوان الحماسة	: للمرصني
صمط اللآلئ	: للبكري
طبقات الشعراء	: لابن سلام
الشعر والشعراء	: لابن قتيبة
الفاخر	: للضبي
فهرس خريطة الممالك الإسلامية	: لأمين واصف
القاموس المحيط	: للفيروز أبادي
لسان العرب	: لابن منظور
المعارف	: لابن قتيبة
معجم البلدان	: لياقوت الحموي
وفيات الأعيان	: لابن خلكان

٤ — مراجع القصص

أخبار الأذكياء	: لابن الجوزى
أدب الدنيا والدين	: للماوردي
أسواق العرب	: لسعيد الأفغانى
الأصنام	: لابن الكلبي
الأغاني	: لأبي الفرج الأصفهاني
أمالى الزجاجي	
أمالى أبي على القالى	
أنباء نجباء الأبناء	: لابن ظفر الصقلبي
بدائع البدائنه	: لعلى بن ظافر الأزدي
البداية والنهاية	: لابن كثير
بلوغ الأرب فى معرفة أحوال العرب	: للألوسى
التجريد الصحيح لأحاديث الجامع الصحيح	: للزبيدي
تاريخ الأمم والملوك	: لابن جرير الطبرى
ثمار القلوب فى المضاف والمنسوب	: للشعالبي
ثمرات الأوراق	: لابن حجة الحموى
الجمهرة	: لأبي زيد الخطاى
خزانة الأدب	: للبغدادى
ذيل زهر الآداب	: للحصرى

زهر الآداب	: للحصرى
السيرة النبوية	: لابن هشام
السيرة الحلبية	: لنور الدين بن برهام الحلبي
سيرة عمر بن عبدالعزيز	: لابن عبد الحكم
شرح ديوان الحماسة	: للرصفي
شرح المختار من شعر بشار	: للخالدين
شرح نهج البلاغة	: لابن أبي الحديد
عصر المأمون	: للدكتور فريد رفاعى
العقد الفريد	: لابن عبد ربه
العقد الفريد للملك السعيد	: لأبى سالم محمد بن أبى طلحة
عين الأدب والسياسة	: لأبى الحسن على بن هذيل
عيون الأخبار	: لابن قتيبة
غرر الخصائص الواضحة	: لأبى إسحاق الوطواط
الفرج بعد الشدة	: للتنوخى
الكامل فى التاريخ	: لابن الأثير
الكامل فى الأدب	: للمبرد
مجانى الأدب	: للأب لويس شيخو
مجمع الأمثال	: للميدانى
الحاسن والأضداد	: للجاحظ
الحاسن والمساوى	: للبيهقى
محاضرات الأبرار	: لابن عربى
المختار من نوادر الأخبار (مخطوط)	: لـ محمد بن أحمد الأنبارى
مروج الذهب	: للمسعودى

المستطرف في كل فن مستظرف	: للأبشيهي
المطالعة العربية	: للمسترو. رايت بالمتحف البريطاني
معجم الأدباء	: لياقوت
معجم البلدان	: لياقوت
معاهد التنصيص	: لبدر الدين العباسي
المنتقى من أخبار الأصمعي	: للشيخ الخضري
مذهب الأغاني	: لابن تغري بردي
النجوم الزاهرة	: المقري
نفح الطيب	: لأبي عبيدة
نقائض جرير والفرزدق	: للنويري
نهاية الأرب	: للجهمياري
الوزراء والكتاب	: لابن خلكان
وفيات الأعيان	

٥ - مراجع الضبط والشرح والتحقيق والتراجم

للزحشرى :	ساس البلاغة
للزركلى :	الأعلام
لجورجى زيدان :	تاريخ آداب اللغة العربية
للخضرى :	تاريخ الأمم الإسلامية
للمرصفى :	رغبة الآمل من كتاب الكامل
للمرصفى :	شرح ديوان الحماسة
للبكرى :	سمط الآلى
لابن سلام :	طبقات الشعراء
لابن قتيبة :	الشعر والشعراء
للضبي :	الفاخر
لأمين واصف :	فهرس خريطة الممالك الإسلامية
للفيروز أبادى :	القاموس المحيط
لابن منظور :	لسان العرب
لابن قتيبة :	المعارف
لياقوت الحموى :	معجم البلدان
لابن خلكان :	وفيات الأعيان